العدد 21 | نوفمبر يناير 2018

فكر 21

مجلة فكر الثقافية

fikr magazine

هجرة العقل العربي

دور المخترعين العرب في جعل أمريكا وأوروبا أكثر ابتكارًا

محمد بن سلمان في عيون الصحافة العالمية

الطيب صالح .. عبقري الرواية العربية

جيمس جويس: من يخاف يقظة فينيجين؟

موت المؤلف.. هل ثمة ضرورة؟

وهم "سبق الرؤية" أو ظاهرة الـ "ديجافو"

أديب العربية وشيخها أبو فهر محمود محمد شاكر

الكتابة بلغة الآخر

شاطئ جزيرة أرشيبيلاغو في تايلاند

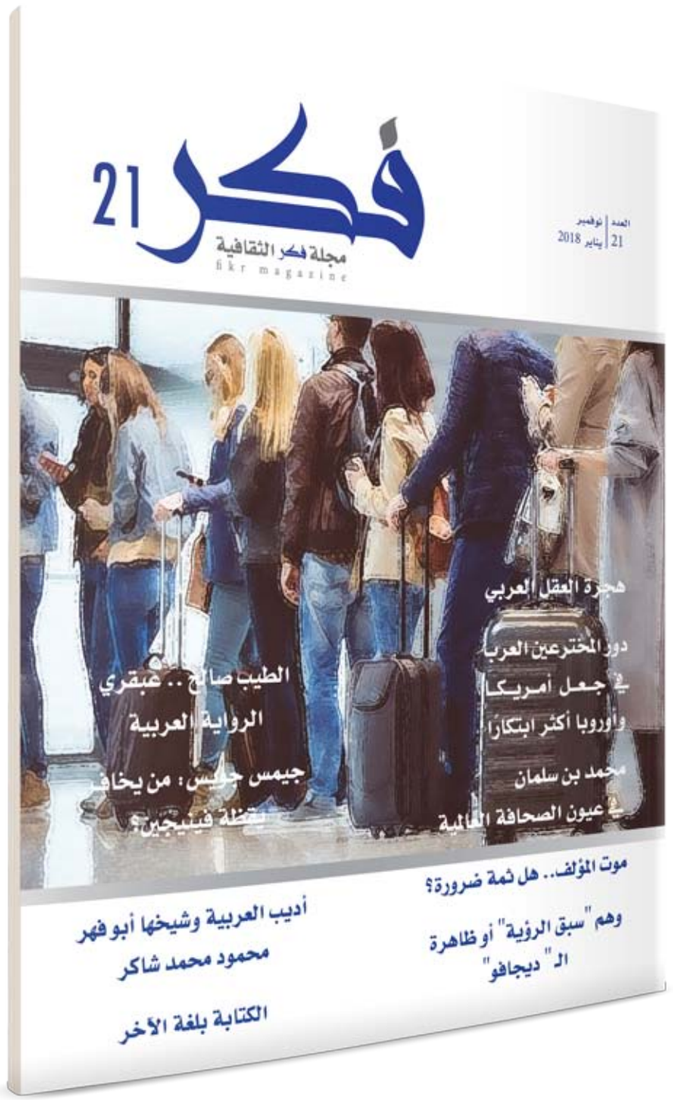

كن معنا لرسم صورة جميلة للثقافة العربية

افتتاحية

تُعد ظاهرة هجرة الكفاءات والعلماء من الدول العربية إلى الخارج أحد أهم العوامل المؤثرة على تطور الاقتصاد القومي، وعلى التركيب الهيكلي للسكان والقوى البشرية، وتكتسب هذه الظاهرة أهمية متزايدة في ظل تزايد أعداد المهاجرين خاصة من الكوادر العلمية المتخصصة. وتتمثل أهم الآثار السلبية في حرمان هذه الدول من الاستفادة من خبرات ومؤهلات هذه الكفاءات في مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

الكثير من أبناء هذه الشعوب قد أتيحت له فرص التعليم، فقد نبغ من بين هؤلاء الكثيرون، ممن كان يؤمل منهم أن يحققوا مكانات وإنجازات علمية ضخمة في أوطانهم، ولكن الذي حدث كان على العكس من ذلك، ففي ظل الإهمال المتواصل من قبل الأنظمة والحكومات لتلك العقول، والتركيز فقط على البعد الاقتصادي في مشروعاتها التنموية، لم يكن أمامها – أي تلك العقول – إلا قرار الهجرة نحو الشمال المتقدم، كي تجد لنفسها متنفسًا، تستطيع من خلاله تحقيق طموحاتها العلمية، وهو الأمر الذي عبرت عنه الكثير من الأعمال الأدبية، فـ"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، ما هي إلا رواية عن هجرة العقول العربية نحو الغرب، والتناقضات التي تتحملها في ظل صراعها بين حضارة متقدمة، وبناء ثقافي تقليدي ترسخ في الأذهان لسنوات طويلة.

وزادت الثورات العربية في حجم كارثة "استنزاف العقول" فقد أصبح العالم العربي مجموعة من بؤر التوتر، فتزايد عدد اللاجئين الذي أصبح يحصى بالملايين.

إن أثر هذه العوامل في دفع الأدمغة العربية إلى خارج الوطن العربي يختلف من بلد عربي إلى آخر. غير أن عوامل الطرد الاقتصادية وتلك المتعلقة بالأوضاع الأكاديمية والأبحاث التقنية هي التي تسهم بصورة كبيرة في تشكيل قوى دفع الأدمغة إلى خارج الوطن العربي، كما أن وجود شبكات ومجموعات للعلماء العرب في المهجر يسعون لاستقطاب طلاب الدكتوراه والدراسات العليا في العلوم الاجتماعية والتطبيقية في ظل الخلل الأكاديمي في الوطن العربي ويمكن القول إن الحضور أيضًا الفاعل للمفكرين والباحثين والكتاب والعلماء العرب في أوروبا والولايات المتحدة يشكل مهمًّا جزءًا عن استيعاب هذه في فهم طبيعة دوافع الهجرة، وفيه دلالة على أن المجتمع العربي لا يزال قاصرًا على استيعاب هذه الطاقات، والاستفادة من معارفها وخبراتها في تحقيق تقدمه.

ولا تتمثل الأسباب الكامنة في هجرة العقول العربية في الظروف الطاردة لها فقط ، فهذه العوامل أو الظروف لا تمثل إلا إحدى وجهي الحقيقة، أما الوجه الآخر، فيتمثل في العوامل الجاذبة لهذه العقول وتذليل كل العقبات الحياتية حتى يكون أكثر إنتاجًا وأكثر فاعلية.

رئيس التحرير

فكر
مجلة فكر الثقافية
fikr magazine

مجلة تفاعلية فصلية تُعنى بالثقافة والفكر والأدب

www.fikrmag.com

تأسست في تشرين الأول/أكتوبر 2012

العدد: 21- تشرين الثاني/نوفمبر
كانون الثاني/يناير 2018

رئيس التحرير
ناصر بن محمد الزمل
nzumal@fikrmag.com

مدير التحرير
محمد بن عبدالله الفريح
malfriah@obeikan.com.sa

الهيئة الاستشارية:
د. عبدالرحمن بن سليمان النملة
د. علي بن محمد العطيف
أ. إبراهيم بن عمر صعابي

التحرير:
حسن محمد النعمي
هند عبدالعزيز
سحر العلي

التدقيق اللغوي:
صبري سلامة سلامة شاهين
ssssh__1959@yahoo.com

للإعلان في مجلة فكر الثقافية مراسلة رئيس التحرير
info@fikrmag.com | nzumal@fikrmag.com

المملكة العربية السعودية – الرياض
ص . ب 260534 الرياض 11342

موقع مجلة فكر الثقافية
www.fikrmag.com

لمراسلة المجلة وللمشاركة:
info@fikrmag.com | fikrmag2@gmail.com

نسمح بالاقتباس من المجلة على شرط ذكر المصدر والعدد

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

تابعونا على:

@fikrmag
@fikrmag
fikrmagazine
@fikrmag

دبل كليك

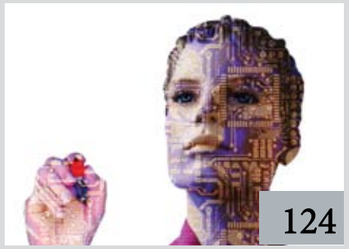

124

ثقافة شعوب

116

كتب

106

علوم وتكنولوجيا

124

قصة مكان

122

فنون

112

معالم وحضارات

114

يمكنكم التنقل بين الصفحات من خلال الضغط على اسم الكاتب في صفحة المحتويات، لتنتقل إلى الصفحة المطلوبة، وكذلك العودة مرة أخرى إلى صفحة المحتويات من خلال الضغط على المربع باللون الرمادي في أعلى الصفحة.

موضوع العدد

هجرة العقل العربي 8
دور المخترعين العرب في جعل أمريكا وأوروبا أكثر ابتكارًا 12

آفاق

محمد عبدالله الفريح — مدارس التواضع ما لن تتعلمه في الجامعة 22
ناصر بن محمد الزمل — الكتابة بلغة الآخر 24
أ.د. إبراهيم بن محمد الشتوي — طبائع المؤسسة (حياة في الإدارة) 1 26
المحرر الثقافي — لماذا الأذكياء أفضل حالاً مع عدد قليل من الأصدقاء؟ 29
د. علي بن محمد العطيف — محمد بن سلمان في عيون الصحافة العالمية 30
أ.د. قصي منصور التُركي — صفحات في التاريخ السياسي القديم:سياسة حكّام بلاد فارس تجاه الخليج العربي (550 ق.م – 652م) 34
أ.د. بدر الدين مصطفى — موت المؤلف.. هل ثمة ضرورة؟ 38
المحرر الثقافي — هل أنت الوحيد الذي يشعر بالوحدة؟ 41
د. سعيد بوخليط — حول الدولة: دروس بيير بورديو في كوليج دو فرانس 42
أ. د. رمضان الصباغ — الإبداع عند نيتشه وهيدجر: علاقة الفن والفنان 44
د. عبدالرحمن إكيدر — شبنهاور: العالم مثل مزحة سيئة 47
د. محمد مسلم الحسيني — وهم "سبق الرؤية" أو ظاهرة الـ " ديجافو" 48
زينة عبدالله تركاوي — بين العبقرية والجنون 50
محمد الدواس — الأدب .. طوق النجاة! 52
د. إدريس سلطان صالح — نحن والغرب.. ثراء التنوع الثقافي الصراع عبث والتعايش محتوم 54

الأدب العالمي

ياسمين الحضري اللّحياني — أسطرة اليومي رولان بارت 60
أحمد الزناتي محمد حسن — جيمس جويس: من يخاف يقظة فينيجن؟ 62

أوراق ثقافية

د. علي عفيفي علي غازي — الأفلاج في كتابات رحالة أوروبيين في شرقي الجزيرة العربية 68
أ.د. يعرب قحطان الدُّوري — المدهش عند المصريين القدماء 72
الزبير مهداد — الأحوال الاجتماعية في فجر الدولة السعودية في كتب الرحالة المغاربة 76
هشام إسماعيل عدرة — "اللغة العربية... واللاتينية الكلاسيكية" 80
صبري بن سلامة شاهين — أديب العربية وشيخها أبو فهر محمود محمد شاكر 82
د. سامي شهاب الجبوري — مصطلح الجنس الأدبي في المنظور العربي (الإشكالية والوظيفة) 86

فنون

المحرر الثقافي — عصر الصورة 108

ثقافة شعوب

المحرر الثقافي — الأزياء التقليدية الأكثر غرابة للشعوب حول العالم 112

بين السطور

د.أمير تاج السر — كتابة الحقائق 16
د. وليد فتيحي — سنن التمكين 18

وجوه

المحرر الثقافي — الطيب صالح .. عبقري الرواية العربية 56

بين قوسين

أ.د. مهند عبدالرزاق الفلوجي — الطهارة والقذارة بين الشرق والغرب – 3 64

نقد وقراءة

د. جبران بن سلمان سحّاري — قراءة تحليلية نقدية في ديوان نازك الملائكة 88
أ.د. نادية هناوي سعدون — القصة القصيرة وبروتوكولات السرد ما بعد الحداثوي .. معاينة في مجموعة سايكو بغداد لرغد السهيل 92
أثير التويجري — قراءة في رواية "الأخوة كارامازوف" 94

مراجعات

عمر عثمان جبق — أثر القرية: الكاتبة سوزان بينكر تقدم أدلة على فوائد التواصل المباشر 96
د. أشرف صالح محمد — قراءة في كتاب: "مدخل إلى فن القيادة" 98
المحرر الثقافي — قراءة في كتاب: "وجه الحرب اللانسائي" 101

معالم وحضارات

سما يوسف — براغ مدينة الجسور والأبراج 110

علوم وتكنولوجيا

أ.د. عبدالله بن محمد الشعلان — الإنسان والبيئة 120
منة الله عبدالمنعم — الجديد عن النوم 124
المحرر الثقافي — كيف كانت الحياة قبل اكتشاف "الصفر" 126

قصة مكان

المحرر الثقافي — كرملين موسكو يحكي عبق التاريخ وروعة الحاضر 114

كتب

المحرر الثقافي — 10 كتب تصف الشخصية الديكتاتورية في الأدب 102

حياتنا

المحرر الثقافي — هل يمكنك أن تحقق ثروة مثل "أغنى أغنياء العالم"؟ 106

دبل كليك

المحرر الثقافي — رسمٌ مستقبل الذكاء الاصطناعي 118

نصوص

بهجت صميدة — قرار 37
ناصر زين الدين — صورةٌ وجدار 71
سها شريّف — الحفيدة (قصة قصيرة) 91

هجرة العقل العربي

قالت العرب قديمًا على لسان الشاعر الجاهلي لبيد ابن الأعوص:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ
والماء فوق ظهورها محمول

هذا البيت الشعري يلخّص تمامًا واقعنا في العالم العربي فقد كانت ولا زالت الدول العربية بيئة ملائمة لتفريخ الكفاءات والعقول ولكن دون الاستفادة الفعلية منها. وهو ما يتلخص جليًا في ظاهرة "هجرة الأدمغة" أو ما يصطلح على تسميته بالإنجليزية "brain drain"، الذي يعني هجرة العلماء والكفاءات من الدول النامية إلى نظيراتها المتقدّمة.

وهو تعبير صحافي أطلق في الستينيات من هذا القرن على هجرة العلماء من بريطانيا وكندا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ويقصد به اليوم كل هجرة يقوم بها العلماء من بلد إلى آخر طلبًا لرواتب أعلى أو التماسًا لأحوال معيشية أو فكرية أفضل.

وقد ظهر هذا المصطلح بعد ما يسمى صدمة "سبوتنك" التي تمثلت في إرسال روسيا لأول قمر صناعي يسبح في الفضاء سنة **1957**، وعقبه صعود يوري غاغرين السوفييتي إلى الفضاء الخارجي سنة **1961**، فسارعت الولايات المتحدة الأمريكية لاستقطاب الكفاءات والأدمغة من كل أصقاع المعمورة لتمييل كفتها في الحرب الباردة.

بداية الهجرة:

تعد هجرة العقول والكفاءات العلمية والفنية من أقدم المسائل التي واجهتها البشرية، وقد أوجدت هذه الهجرات تفاعلاً ابداعيًّا بين الحضارات منذ القدم حيث انتقلت بعض اختراعات الصين إلى العرب، وبعد أن قام العرب بتحسينها انتقلت من خلال الفلاسفة والعلماء العرب إلى أوروبا وهكذا.

وتعد ظاهرة هجرة الكفاءات والعلماء من الدول العربية إلى الخارج أحد أهم العوامل المؤثرة على تطور الاقتصاد القومي، وعلى التركيب الهيكلي للسكان والقوى البشرية، وتكتسب هذه الظاهرة أهمية متزايدة في ظل تزايد أعداد المهاجرين خاصة من الكوادر العلمية المتخصصة. وتتمثل أهم الآثار السلبية في حرمان هذه الدول من الاستفادة من خبرات ومؤهلات هذه الكفاءات في مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وبدأت هجرة العقول العربية منذ القرن التاسع عشر خاصة من سوريا، ولبنان والجزائر نحو فرنسا ودول أمريكا اللاتينية. فيما اتجهت الهجرة من الجزائر إلى فرنسا، وليبيا إلى إيطاليا. وفي بداية القرن العشرين ازدادت هذه الهجرة، ولا سيما خلال الحرب العالميتين الأولى والثانية؛ وفي السنوات الخمس الأخيرة هاجر من الوطن العربي ما بـ 25 – 50 % من حجم الكفاءات العربية.

وطول السنوات الممتدة من منتصف القرن العشرين، وعقب حصول الكثير من البلدان النامية على استقلالها السياسي من الاستعمار العسكري الكلاسيكي القديم، وحلم التنمية يراود كافة هذه البلدان، على اعتبار أن التنمية هي القاطرة التي ستقودها نحو مزيد من الازدهار والتقدم، أسوة بما حدث في البلدان الصناعية، التي خرج أغلبها منهك القوى من الحرب العالمية الثانية.

وفي ظل السعي الدؤوب من قبل تلك البلدان – أي النامية – نحو تحقيق تنمية شاملة من أجل النهوض باقتصاداتها، كان لا بد من الاهتمام بالعنصر البشري في مشروعات التنمية المطروحة، لكن الذي حدث أن غالبية هذه البلدان، نظرت إلى التنمية على أنها مجرد نهوض بالمستويات المعيشية لمواطنيها فقط، وتناست تمامًا البعد الإنساني البشري المتمثل في القوى البشرية المتاحة بهذه البلدان.

ولما كان الكثير من أبناء هذه الشعوب قد أتيحت له فرص التعليم، فقد نبغ من بين هؤلاء الكثير، ممن كان يؤمل منهم أن يحققوا مكانات وإنجازات علمية ضخمة في أوطانهم، ولكن الذي حدث كان على العكس من ذلك، ففي ظل الإهمال المتواصل من قبل الأنظمة والحكومات لتلك العقول، والتركيز فقط على البعد الاقتصادي في مشروعاتها التنموية، لم يكن أمامها – أي تلك العقول – إلا قرار الهجرة نحو الشمال المتقدم، كي تجد لنفسها متنفسًا، تستطيع من خلاله تحقيق طموحاتها العلمية، وهو الأمر الذي عبرت عنه الكثير من الأعمال الأدبية، فـ"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، ما هي إلا رواية عن هجرة العقول العربية نحو الغرب، والتناقضات التي تتحملها في ظل صراعها بين حضارة متقدمة، وبناء ثقافي تقليدي ترسخ في الأذهان لسنوات طويلة.

نستند في هذا البحث إلى أرقام منظمة العمل العربية، فقد بينت دراساتها أن 95 % من الطلبة العرب لا يعودون إلى بلدانهم الأصلية؛ فتونس مثلاً حسب إحصائية كتابة الدولة للهجرة بعنوان سنة 2012: 57 ألف طالب بالخارج بنسبة عودة لا تتجاوز 10 %. ففي السنوات الخمسين الأخيرة هاجر من العالم العربي ما بين 25 – 50 % من حجم الكفاءات، وقد قدرت الخسائر المادية جراء هجرة العقول بـ 200 مليار دولار (11 مليار في عقد السبعينيات). أما الدول المستقطبة فهي أساسًا الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وبريطانيا، حيث تصطاد 75 % من الأدمغة العربية، فـ 34 % من أطباء الاختصاص في بريطانيا ينحدرون من أصول عربية.

وبينت المؤسسة العربية أن بأمريكا وأوروبا 450 ألف عربي من حملة الشهادات العليا، وتساهم مصر بـ 60 % من العلماء والمهندسين العرب في الولايات المتحدة الأمريكية تليها العراق ولبنان بنسبة 15 %. بينما كان نصيب كل من سوريا والأردن وفلسطين نحو 5 %.

وبمتابعة البحث في خضم الأرقام لتحديد حجم المشكلة نجد أن أحد مراكز البحوث الفرنسية قد استقطب 1600 إطار علمي من دول المغرب العربي فقط، منهم 700 مغربي، و500 جزائري، و450 تونسيًّا.

وفي دراسة أخرى حول هذا الجانب أعدها مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية أن ضعف الاهتمام بالعلم والبحث العلمي يعد أحد العوامل المركزية في الضعف الاستراتيجي العربي في مواجهة إسرائيل وأحد الأسباب الرئيسية وراء إخفاق مشاريع النهضة العربية ودعت إلى مضاعفة الإنفاق العربي على البحث العلمي إلى 11 ضعفًا عن المعدلات الحالية وتطوير السياسات المشجعة على تطوير البحث العلمي في كل قطاعات المجتمع. وتعاني مصر وغيرها من الدول العربية من آثار هذه الظاهرة حيث يقدر الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء المصريين المتميزين من العقول والكفاءات التي هاجرت للخارج بـ 824 ألفًا وفقًا لآخر إحصاء صدر في عام 2003 من بينهم نحو 2500 عالم.

وتذكر الدراسة أن مصر تعد الخاسر الأكبر من هجرة الكفاءات في الكم المطلق ففي أمريكا حوالي 318 ألف كفاءة مصرية، كندا 110 ألف، استراليا 70 ألف و35 ألف في بريطانيا، 36 ألف في فرنسا، 25 ألف بألمانيا، 14 ألف في سويسرا، 40 ألف في هولندا، 14 ألف في النمسا، 90 ألف في إيطاليا، 12 ألف بأسبانيا وفي اليونان 60 ألف وتحظى الولايات المتحدة بالنصيب الأكبر من الكفاءة والعقول العربية بنسبة 39% تليها كندا 13.3% ثم أسبانيا بنسبة 1.5% وتتضمن هذه الأرقام العديد من الفئات في مهن وتخصصات مختلفة وتتجلى الخطورة في أن عددًا من هؤلاء يعملون في أهم التخصصات الحرجة والاستراتيجية مثل الجراحات الدقيقة، الطب النووي والعلاج بالإشعاع والهندسة الإلكترونية والميكرو الكترونية، والهندسة النووية، علوم الليزر، تكنولوجيا الأنسجة والفيزياء النووية وعلوم الفضاء والميكروبيولوجيا والهندسة الوراثة مضيفًا أنه حتى في العلوم الإنسانية كاقتصاديات السوق والعلاقات الدولية، هناك علماء متخصصون.

وزادت الثورات العربية في حجم كارثة "استنزاف العقول" فقد أصبح العالم العربي مجموعة من بؤر التوتر، فتزايد عدد اللاجئين الذي أصبح يحصى بالملايين، حيث أظهر تقرير للجامعة العربية ارتفاع نسبة المتعلمين من بين المهاجرين من الدول العربية، وارتفاع نسبة تسرب الأدمغة والأشخاص المتخصصين بمجالات معينة، وأن الكثيرين من المهاجرين العرب هم أطباء يبحثون عن دولة يتم فيها تأمين مكان عمل لهم وللأسف فإن ما تعيشه المنطقة من هزّات وحروب لا يوحي بانفراج قريب، لتظل أدمغتنا رحّالة تبحث عن أحضان غربية ترتمي فيها. فالأوضاع في العالم العربي لا تحفّز إلا على البراغماتية.

وطبقًا لإحصاءات جامعة الدول العربية، ومنظمة العمل العربية، ومنظمة اليونسكو، وبعض المنظمات العربية والدولية المهتمة بهذه الظاهرة، وكما يأتي:

1 – يهاجر حوالي 100.000 مائة ألف من أرباب المهن وعلى رأسهم، العلماء والمهندسين والأطباء والخبراء كل عام من ثمانية أقطار عربية هي لبنان، سوريا، العراق، الأردن، مصر، تونس، المغرب والجزائر. كما إن 70% من العلماء الذين يسافرون للدول الرأسمالية للتخصص لا يعودون إلى بلدانهم.

2 – منذ عام 1977 وحتى الآن هاجر أكثر من 75.000 عالم عربي للولايات المتحدة الأمريكية.

ويشكل 3–50 % من الأطباء، و23% من المهندسين، و15% من العلماء من مجموع الكفاءات العربية يهاجرون إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا.

وقد منيت البلدان العربية بخسائر تقدر بحوالي 12 مليار دولار في السبعينيات جراء هجرة العقول العربية. فتتجه العقول العربية إلى الولايات المتحدة وأوروبا في المرتبة الأولى وتأتي كندا وأستراليا ونيوزيلاندا في المرتبة الثانية، فيتواجد 50% من الأطباء و20% من المهندسين و12% من العلماء في أوروبا والولايات المتحدة وكندا، و 55% من الطلاب العرب يدرسون في الخارج ولا يعودون أبدًا إلى بلادهم، وتعد مصر ولبنان والمغرب والعراق وسوريا وتونس من أكثر الدول العربية فقداً للكفاءات وتشكل 75% من نسبة العقول المهاجرة في العالم العربي.

ومع التطورات العالمية الحالية يتراجع حجم الموارد المادية المتاحة أمام المعرفة البشرية حيث فرضت علينا الحقبة الراهنة بعض المصطلحات، وأصبحت المعرفة ونتاج العقل البشري هما العنصرين الرئيسيين لإعطاء أي مجتمع فرصة دخول القرن الحالي بقوة.

وفي الوقت الذي يعد فيه البحث العلمي أحد أدوات ومفاتيح هذا القرن –عصر العولمة وثورة المعلومات – فإن أعدادًا كبيرة من المهنيين يهاجرون بعد حصولهم على

دراسات عليا في أوطانهم ومن ثم فأنهم يشكلون بصورة جزئية فائض نظام التعليم في بلدهم.

وبسبب وجود هوة بين أنظمة ومناهج التعليم والتدريب واحتياجات سوق العمل في المجتمع المحلي فقد أسفر عدم التوازن هذا عن ناتج زائد، فتعين على الأفراد أن يسعوا للعمل خارج بلادهم أو تدفعهم الظروف الحياتية إلى الهجرة. ومن أشكال هجرة الكفاءات وأهمها أولئك الذين سافروا إلى الخارج لطلب العلم فبقوا في المهجر.

إن هجرة العقول أضعفت المؤسسات العلمية والأكاديمية ومراكز البحث العلمي، وأصبحت الجامعات العربية تعاني خللاً في ندرة التخصصات العلمية، وتدهورًا في البحث العلمي، حيث معدل الإنفاق العربي على البحث العلمي لا يزيد على 0.002 بالمئة سنويًا من الدخل القومي، يقابله تخلف وعجز تنموي وإخفاق علمي وتكنولوجي ومشكلات معيشية، وضعف مستوى الأجور والرواتب التي يتقاضاها الباحثون والعلماء. ولهذا السبب أدارت أعمدة الفكر والثقافة في الوطن العربي ظهرها للدولة والمجتمع، إما عن طريق البحث عن «فضائل العزلة» أوعن طريق البحث عن «فضائل الغربة»، في ظل غياب الرموز الحضارية والفكرية عن عقل صانع للقرار السياسي.

وتكلف هجرة العقول العربية الوطن العربي ما يقارب 2 مليار دولار سنويًا. ويؤكد تقرير مركز دراسات الدول النامية بجامعة القاهرة أن الاستبداد السياسي ونظم التعليم الفاشلة وراء هجرة العقول، وأن عدد الكفاءات المصرية المهاجرة للخارج بلغ 824 ألفًا حتى عام 2003، ويكشف هذا الرقم الخطير المأساة التي تواجهها مصر والكارثة المحدقة بتطورها نتيجة هجرة عقولها المتميزة للخارج، حيث أن عددها الكبير يعمل في أهم التخصصات الحيوية والاستراتيجية.

أسباب هجرة العقول العربية:

إن جميع الدراسات التي تناولت موضوع هجرة العقول في الوطن العربي تجمع على أن هذه الهجرة هي نتيجة لتشابك جملة من الأسباب والعوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والشخصية وذلك جاء نتاج عدة أمور منها:

1. أن الدول النامية لا تميز في كثير من الأحيان بين المتميز وغيره حيث توجد الأنظمة الجامدة التي تعامل الجميع بنفس المقياس ولا تعطي للمتميز ما يشجعه على مزيد من البذل والعطاء ناهيك عن أن مجال العمل والبحث والتطوير محدود أمامه مما يجعله بين خيارين إما الاستكانة والقبول بالأمر الواقع، وهذا الأسلوب راح ضحيته ألف من العلماء المتميزين ويذهب ضحيته أعداد هائلة في وقتنا الحاضر، والخيار الثاني هو قبول العروض المغرية التي تقدمها المراكز العلمية في الغرب لكل متميز مبدع والتي تتمثل بالمال والجاه وكثيراً من المميزات التي لا يحلم بها في وطنه الأم.

2. من أهم أسباب الإحباط هو أن يكون الأقل كفاءة هو المسؤول عن تسيير دفة العمل والتخطيط في المراكز العلمية مثل الجامعات ومراكز الأبحاث وغيرها، فمثل هؤلاء تجد أن لديهم مركب نقص ويعرفون في داخل أنفسهم مستواهم لذلك يعدون كل متميز عدوًا لهم لأن وجوده يظهر نقصهم أمام الآخرين فليلجأون إلى كل وسائل الإحباط الممكنة للتخلص منه.

3. بعض من ملكة العقل المتميز يدفعه إلى الهجرة طموح علمي لا يحققه الموقع الذي يتواجد فيه حتى وإن احترم وقدم على غيره لذلك تجده يذهب إلى حيث يجد ضالته وهي إشباع روح البحث والتطوير أو المشاركة الفاعلة في الرأي والخبرة أو الحصول على الدعم المادي والمعنوي وإلى حيث يستجاب لطلباته مهما كلفت ما دامت سوف تؤدي إلى نتيجة تفيد المول وتحفظ حق العالم والمؤسسة العلمية.

4. بعض منهم يكون قد ذهب لتلقي العلم هناك كطالب وبعد تخرجه بتميز يجد فرص العمل متاحة أمامه بل يُخطب وده لكي يلتحق به فيقرر بعضهم أنه سوف يبقى هناك لمدة معينة ويعود إلى وطنه لكن في الغالب يطول به المقام خصوصًا إذا حافظ على تميزه مما يجعله يتدرج في سلم المجد العلمي فيصعب عليه التفريط بما حققه من إنجاز ناهيك عن عدم وجود ما يعول عليه في العودة إلى الوطن من الناحية العلمية والمادية.

5. بعض منهم يضع اللوم على الأوضاع السياسية أو الاقتصادية في بلده لذلك نجد أن أكثر العلماء المهاجرين ينتمون إلى دول غير مستقرة سياسيًا أو إلى دول فقيرة

جدًا ناهيك عن وجود نزعات عرقية أو طائفية أو مذهبية بالإضافة إلى أن بعضهم لا يتوافق أيديولوجيًا مع النظام القائم في بلده مما يدفعه إلى البحث عن مخرج وكل هذا طبيعي فالاستقرار السياسي والوضع الاقتصادي الجيد من أبرز مقومات التنمية بما في ذلك المحافظة على العقول المتميزة في مختلف التخصصات العلمية والأدبية وغيرها.

وعلى أية حال فإننا إذا تركنا الحديث عن الأسباب العامة التي أدت إلى الهجرة وأردنا أن نتحدث عن الواقع القائم اليوم نجد أن العالم العربي مازال في طور النمو وما زالت المحسوبية عنصرًا قاتلاً لكثير من الطموح ناهيك عن عدم الاستقرار السياسي والأمني في المنطقة وعدم إقدام الدول العربية على منهجية اقتصادية جماعية تجعل منها محورًا اقتصاديًا فاعلاً وبالتالي ينعكس على أوضاعها الاقتصادية ليس هذا فحسب بل إن أعداد المتعلمين الذين تدفع بهم الجامعات والمعاهد المتخصصة في ازدياد مستمر مع عدم توفر فرص العمل المناسب مما يجعل كثيرًا من المتميزين العرب عرضة لمغريات الهجرة إلى دول الغرب أو الشرق حيث تتوفر فرص العمل وإرضاء الطموح.

ومن الأسباب المستجدة التي تدفع إلى مزيد من الهجرة عدم القبول في الجامعات مما يدفع بالبعض إلى السفر للخارج للدراسة على حسابه الخاص وهناك ربما يحصل على مغريات للبقاء إن هو تميز. وربما استثني من ذلك دول الخليج بصورة عامة والمملكة العربية السعودية بصورة خاصة ذلك أن المملكة تتميز بالاستقرار السياسي والوضع الاقتصادي المتين بالإضافة إلى أن من يذهب إلى الغرب للدراسة والتعليم يذهب في الغالب على بعثات حكومية، ولذلك لا توجد هجرة للعقول السعودية وإن وجدت فهي لا تذكر لقلتها.

وفي الآونة الأخيرة قام العلماء العرب في الغرب بإنشاء شبكة للعلماء العرب في المهجر تسمى "شبكة العلماء والتكنولوجيين العرب في الخارج" والتي تعرف اختصاراً باسم الاستا (ALSTA) وقد انبثقت الشبكة نتيجة للمؤتمر الأول للعلماء والتكنولوجيين العرب في الخارج الذي عقد في عمان عام 1992 وهذه تهدف إلى التعريف والكشف عن مواقع الكفاءات في الدول الغربية ورصد اسهاماتها في مسيرة التقدم العلمي الحديث وذلك كخطوة أولى لإعداد دليل متكامل عنهم لكي توضع مثل تلك الحقائق في متناول أصحاب القرار السياسي والأكاديمي والصناعي والاقتصادي في العالم العربي ناهيك عن تعريف العامة والخاصة بوجود مثل تلك العقول واسهاماتها المتميزة.

وعلى العموم فإنه لا يمكن رصد جميع الكفاءات العربية بالمهجر ذلك أن تلك الكفاءات تتراوح ما بين الفني والاخصائي والتاجر إلى العلماء من حملة الشهادات العليا وغيرهم بالتالي فإن المتميزين من أساتذة الجامعات وحملة الدكتوراه يمكن التوصل إليهم لأنهم يشغلون مراكز مرموقة في كل من الجامعات ومراكز الأبحاث والوكالات المتخصصة والتطوير على المستوى العالمي. والإحصائيات الأولية تشير إلى وجود (284) أستاذًا جامعيًا في مجال العلوم الهندسية والتطبيقية و(179) أستاذًا في مجال العلوم الحياتية والزراعية و(152) أستاذًا في مجال الصحة و(225) أستاذًا في العلوم التطبيقية والرياضيات و(136) أستاذًا في مجال العلوم الإدارية وبالطبع فإن تلك الإحصائيات ربما لا تكون دقيقة بما فيه الكفاية إلا أن المعلومات المتوفرة تشير إلى أن نسبة العقول العربية المشاركة في التقدم العلمي والتربوي والتكنولوجي في الدول المتقدمة تصل إلى 2% من مجموع المتميزين فيها. وفي إحصائية حديثة وجد إن عدد المتخصصين المصريين من أساتذة الجامعات المهاجرين إلى الدول الغربية يربو على (650) متخصصًا وجميعهم في العلوم التطبيقية والتكنولوجية تقريبًا.

المصادر:

1 - موسوعة المورد، منير البعلبكي، 1991

2 - طارق العمراني، 8 سبتمبر 2016 .

3 - د. ياس خضير البياتي، صحيفة العرب، 07/12/2013، العدد: 9402، ص (8).

4 - حمد بن عبدالله اللحيدان، صحيفة الرياض.

5 - إبراهيم قويدر، فقدان المواهب لصالح بلدان أخرى "هجرة العقول العربية"، مجلة ليبيا اليوم الإلكترونية، عدد 23 يوليو 2007.

6 - المعهد الإنمائي للأمم المتحدة "تقرير التنمية البشرية، 7007م".

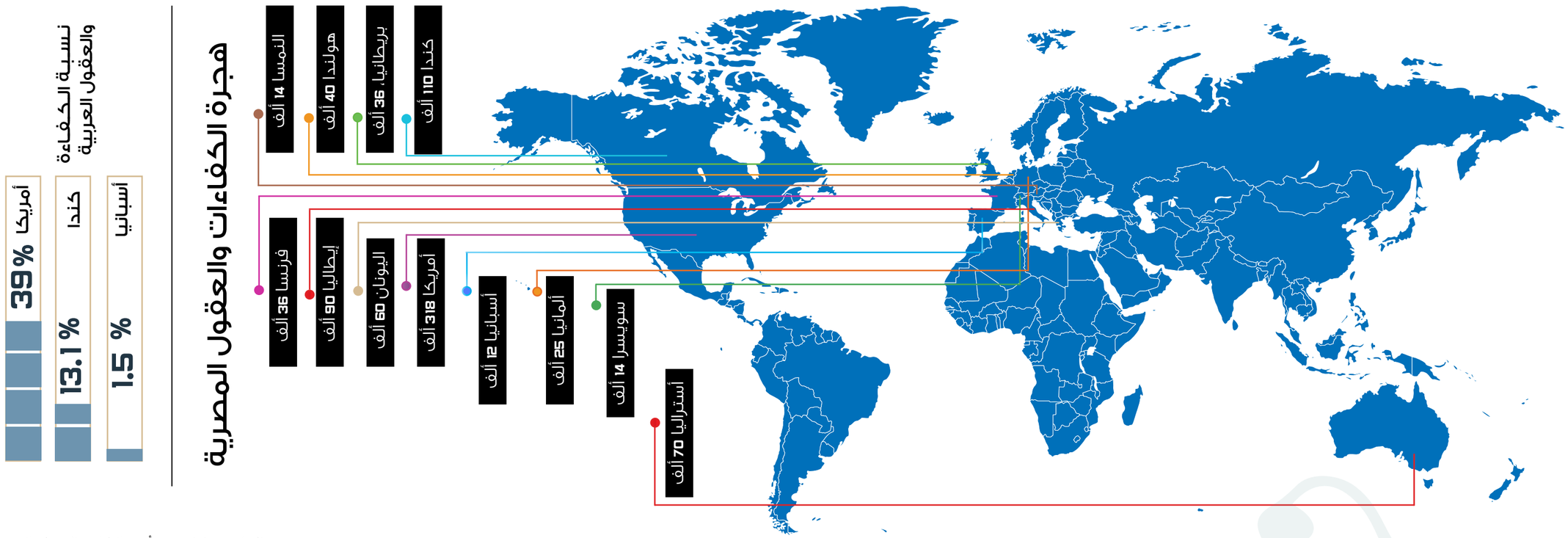

دور المخترعين العرب في جعل أمريكا وأوروبا أكثر ابتكارًا

تُعد أمريكا موطنًا للمخترعين العرب، خلال الخمس سنوات ما بين 2009 و2013 هناك حوالي 8786 براءة اختراع أمريكي في البيانات الموجودة منهم على الأقل مخترع عربي، من بين إجمالي طلبات براءات الاختراع فإن حوالي 3.4% بينهم على الأقل مخترع عربي، على الرغم من حقيقة أن المخترعين العرب يمثلون حوالي 0.3% من إجمالي التعداد السكاني.

في الوقت الذي يشترك العديد من المخترعين في براءات الاختراع، فإن المخترعين العرب غالبًا يشاركوا مع غير العرب ليصلوا لحوالي 2962 براءة اختراع بنسبة 1.2%، يمكن أن يسهم فيها المخترعون العرب.

في كاليفورنيا وحدها هناك 1134 براءة اختراع يُشارك فيها عددٌ كبيرٌ من المخترعين العرب يفوق أي دولة أخرى خارج أمريكا، وتعد موطنًا لحوالي ثلث براءات الاختراع من مخترعين عرب في أمريكا وحوالي 16% من براءات الاختراع للعرب مقارنة بالعالم أجمع.

تحتوى أوروبا على عدد أقل بكثير من المخترعين العرب، حيث كان هناك حوالي 1424 طلبًا لبراءات الاختراع لـ 28 دولة من الاتحاد الأوروبي بها اسم عربي، من بين الدول غير أمريكا والتي يوجد بها طلبات براءات اختراع جاء الترتيب كما يلي : فرنسا (513 طلبًا لبراءة اختراع)، كندا (361 طلبًا لبراءة اختراع)، ألمانيا (342 طلبًا لبراءة اختراع)، السعودية (307 طلبًا لبراءة اختراع)، اليابان (279 طلب لبراءة اختراع) والمملكة المتحدة (273).

لم تكن أمريكا فقط موطنًا للمخترعين العرب ولكن عدد براءات الاختراع للعرب زاد 62% خلال عشر سنوات من 1826 طلبًا لبراءة اختراع من 1999 وحتى 2003 إلى 2962 من 2009 وحتى 2013، هذه الزيادة كانت أعلى بـ 2.6 مرة من نسبة 40% من إجمالي براءات الاختراع الأمريكية لنفس المدة.

وأظهر المخترعون العرب تخصصًا في مجال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، ويرتفع معدل تمثيلهم في مجال التكنولوجيا الكهربائية، الاتصالات، الحسابات، الحوسبة، ومن المجالات الكبرى أيضًا العلوم الطبية والبيطرية.

ويُشارك المخترعون العرب بشكلٍ كبير في المشهد التقني الأمريكي في ولايات سيلكون فالي وبوسطن وغيرهما، رواد الأعمال التقنيين مثل عمر عوض الله أحد مؤسسي كلاويدرا، آية بدير مؤسسة ورئيسة ليتل بيتس، وغيرهما يعدوا أمثلة قليلة للمهاجرين العرب الذين لهم تاثير كبير في مجال الاختراعات الأمريكية، وتظهر البيانات أن مساهمات المخترعين العرب في الشركات التكنولوجية الأمريكية زادت بشكل كبير خلال الخمسة عشر عامًا الماضية.

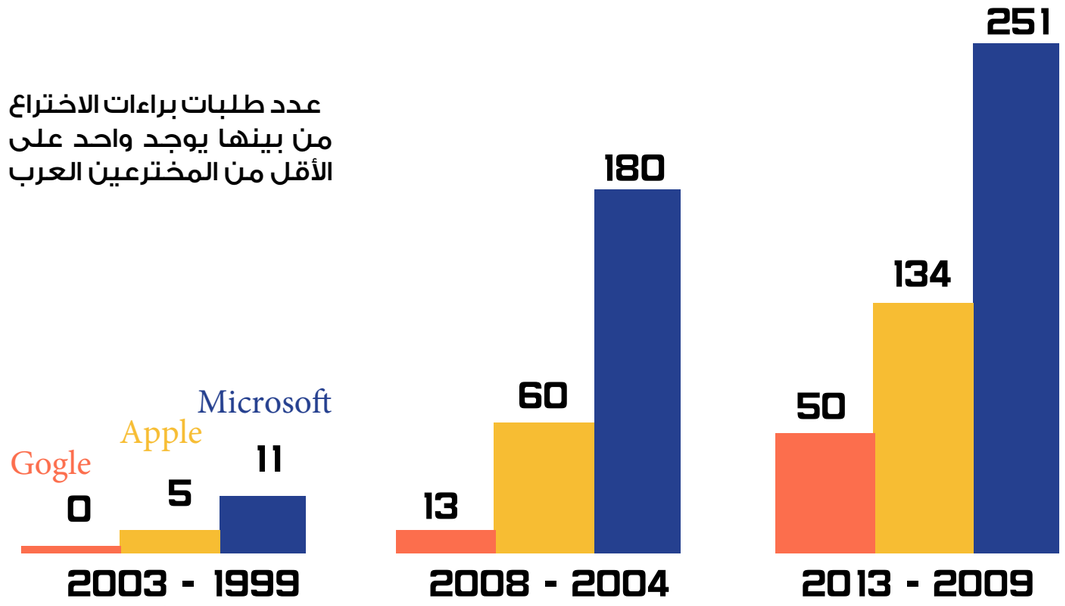

المخترعون العرب يساعدون شركات التكنولوجيا الأمريكية الابتكار

بحثنا أيضًا في بيانات عن هجرة المخترعين العرب الذين لم يولدوا في أمريكا إلى أمريكا، لا يستفاد العرب والمهاجرين من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بشكل عام من الفيزا ويستلموا أقل من 10% من إجمالي الفيزات الممنوحة إلى العاملين الماهرين ذوي الجنسيات الأجنبية، بينما هناك حوالي 108000 طالب من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا يدرسوا في أمريكا في 2016، فإن هناك أشخاصًا من هذه المناطق ليسوا بين المستفيدين من الدكتوراه في الجامعات الأمريكية، وهذا يوضح أن الجزء الأكبر من المخترعين العرب يستقروا في امريكا من خلال قنوات الهجرة الأخرى مثل التجمعات العائلية أو كلاجئين، وهذا يعد مرتبط بالنقاش الدائر حول المهاجرين لأمريكا في 2013 كان هناك حوالي 1.02 مليون مهاجر من الدول العربية يقيم في أمريكا وهو ما يمثل حوالي 2.5% من 41.3 مليون مهاجر. حوالي 43% من المهاجرين العرب الذين يصل عمرهم لـ 25 أو أكثر لديهم درجة بكالوريوس أو أعلى.

المهاجرون العرب ذوي المهارة، أكثر فئة من الجماعات المرقية عرضة للوصول بفيزا (تأشيرة الدخول) لغير الماهرين. إن قرارا ترامب حظر الدخول من سبع دول سيؤثر بشكل سلبي على العديد من الشركات الأمريكية والأجنبية خاصة الشركات التي تقوم بالتطوير والأبحاث. إدارة المشروعات الخاصة بالأبحاث والتطوير ستصبح أكثر صعوبة وأقل فاعلية بسبب تعقد تحرك الأفراد من الشركات الأجنبية والمواقع العالمية. وعلاوة على ذلك فإن طاقم المشروعات وكذلك التوظيف في الشركات يمكن أن يصبح أكثر حساسية بسبب الخطر المحتمل من رفض الدخول لأمريكا وهو ما يضع الراحة اللوجيستية قبل الكفاءة والفاعلية. وأخيرًا فإنَّ كلا من الشركات المحلية والعالمية سوف يكون لديهما حافز أكبر لنقل بعض أنشطة الأبحاث والتطوير خارج أمريكا من أجل تجنب المتاعب المرتبطة بالعبور من وإلى أمريكا.

لا يميل المهاجرين من الدول العربية فقط للوصول لتعليم أعلى من باقي العدد الكلي للسكان أو مقارنة بالجماعات المهاجرة الأخرى ولكن المهاجرين المتعلمين بشكل عام يفضوا إلى التدفق التجاري، على الرغم من استمرار إدارة ترامب في التشكيك في التجارة فإن الأبحاث تشير إلى أن المهاجرين الماهرين وخاصة الذين لهم دور في مجال التطوير يولدوا 10 أضعاف القيمة في التجارة التي يولدها المهاجرين العاديين. بدأ ترامب حملته تحت شعار "جعل أمريكا عظيمة مجددًا" ولكن الدلائل تشير إلى أن نظامه الخاصة بالفيزا سيجعل هذا الأمر صعبًا.

إنجازات العقول العربية

إن قائمة العلماء العرب المبدعين في العصر الحديث تطول لدرجة نعجز عن إحصائهم، فكل يوم يبزغ في سماء العلم عالم عربي جليل، وما سنذكره منهم هو جزء يسير، كي نؤكد أن العقل العربي لا يقل كفاءة عن نظيره الغربي، ولو أتيحت له الظروف ذاتها لتفوق وأبدع.

ولولعقول العربية دور بارز للعرب في نهضة أمريكا وأوروبا في العلوم والتقنية، وتركوا بصمة واضحة في مجال الاختراعات والاكتشافات والإنجازات العلمية.

أحمد زويل

عالم كيميائي مصري أمريكي حاصل على جائزة نوبل في الكيمياء لعام 1999، وجائزة الملك فيصل العالمية في العلوم عام 1990 ولد الدكتور أحمد زويل في 26 فبراير سنة 1946م في مدينة دمنهور بمصر. من أبرز إنجازات العالم المصري أحمد زويل هو اختراعه لكاميرا تعمل باستخدام الليزر لها القدرة على رصد حركة الجزيئات عند نشوئها، وله العديد من براءات الاختراع للعديد من الأجهزة العلمية. أصبح عضوًا في الأكاديمية الأمريكية للعلوم في سن الثلاثة والأربعين، علمًا أن هذه الأكاديمية لا تقبل أي عالمًا بل تقبل أذكى العلماء وشرط أن يتخطى عمرهم الخامسة والخمسين عامًا.

عصام حجي

عالم فضاء مصري، يعمل في معمل محركات الدفع الصاروخي بوكالة "ناسا" ضمن فريق القسم المختص بالتصوير بالرادار، والذي يشرف على العديد من المهام العلمية لاكتشاف كواكب المجموعة الشمسية.

شارل العشي

عالم الفضاء اللبناني الأصل، يشغل منصب مدير مختبر الدفع النفاث، المسؤول عن تطوير تقنيات الاندفاع في الفضاء الخارجي للمركبات الفضائية في "ناسا".

نور الدين مكيليشيش

يعد البروفيسور الجزائري نور الدين مكيليشيش أحد أكثر الباحثين شهرة بالولايات المتحدة الأمريكية، تقلد عضوية المجلس الاستشاري بوكالة "ناسا".

قام بتطوير أجهزة التقاط صور حول الكوكب الأحمر عن بعد، وقدم بذلك لوكالة الفضاء الأمريكية خدمة جليلة في مهمتها في استكشاف سطح المريخ.

فاروق الباز

عالم مصري أمريكي عمل مع وكالة ناسا للمساعدة

أحمد زويل | فاروق الباز | شارل العشي | مصطفى شاهين | غادة المطيري | إلياس خوري | شادية حبال | جورج حلو | مايكل دبغي | مصطفى السيد | مجدي يعقوب | مشاعل الشميمري | إلياس زرهوني | عمر باغي

في التخطيط للاستكشاف العلمي للقمر، كاختيار مواقع الهبوط لبعثات أبولو وتدريب رواد الفضاء. ولد في 1 يناير 1938.

يشغل الدكتور فاروق الباز منصب مدير مركز تطبيقات الاستشعار عن بعد في جامعة بوسطن في بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية.

مصطفى شاهين

التحق مبكرًا بناسا منذ بداياتها الأولى، وقدم الكثير من الإنجازات في مشروعات الفضاء حتى سُمي أحد الكويكبات باسمه.

حصل على الدكتوراه في الفيزياء من جامعة بيركلي بولاية كاليفورنيا الأمريكية وهو في سن 25، لينضم بعدها مباشرة إلى مختبر الدفع النفاث التابع لوكالة الفضاء الأمريكية (Chahine 4103) نسبة إليه.

كمال الودغيري

مهندس الاتصالات وعالم الفضاء المغربي الأصل، شارك كمال الودغيري في مهمة هبوط المركبة الفضائية سيريت وأبرتينيتي على سطح المريخ.

مايكل دبغي

مايكل إلياس دبغي، طبيب ومخترع ومعلّم ومرجع طبي أمريكي لبناني الأصل مشهور عالميًّا وأحد رواد جراحة القلب. كان دبغي الرئيس الفخري لكلية بايلور الطبية في هيوستن، الولايات المتحدة، ومدير مركز دبغي الميثودي لطب القلب وجراح القلب المسؤول الأول في مستشفى ميثوديست في مركز تكساس الطبي بهيوستن.

إلياس خوري

إلياس جيمس خوري، كيميائي أصل لبناني حائز على جائزة نوبل في الكيمياء سنة 1990.

غادة المطيري

غادة مطلق عبدالرحمن المطيري عالمة ومخترعة وسيدة أعمال سعودية، ولدت في 1 نوفمبر 1976 في بورتلاند، بولاية أوريغون، الولايات المتحدة لأبوين سعوديين. وهي أستاذ الكيمياء الصيدلية. وعضو هيئة التدريس في أقسام الهندسة الحيوية وهندسة النانو. والمدير العام لمركز التميز في طب النانو والهندسة في معهد هندسة الطب في جامعة كاليفورنيا، سان دييغو. ويتركز عملها على الطب النانوي، وتقنية النانو، والكيمياء والعلوم البوليمرية.

إلياس زرهوني

إلياس زرهوني جزائري عمل مديرًا لمعاهد الصحة الوطنية الأمريكية (2002 – 2008).

تدرج في مناصب عدّة اعتمادًا على قدراته العلمية، وخصوصًا في مجال البحوث، حتى اختير مديرًا عامًا للمعاهد الطبية الأمريكية. ترأس زرهوني، معاهد الصحة الوطنية الأمريكية التي تعد أعلى مرجع طبي في الولايات المتحدة، وتمثّل وكالة للبحوث الطبية التي ترعى 27 معهدًا ومركز بحث، وتُشغّل 27 ألف باحث وموظف بينهم 17 ألف متفرغ.

مصطفى السيد

عالم كيمياء مصري يعد أول مصري وعربي يحصل على قلادة العلوم الوطنية الأمريكية التي تعد أعلى وسام أمريكي في العلوم لإنجازاته في مجال النانو تكنولوجي وتطبيقه لهذه التكنولوجيا باستخدام مركبات الذهب الدقيقة في علاج مرض السرطان. وهو واحد من أفضل عشرة علماء في الكيمياء في العالم، وهو أستاذ الكيمياء بجامعة جورجيا الأمريكية للتكنولوجيا. صُنف في 2011 في المرتبة 17 ضمن تصنيف توموسن رويترز لـ"أفضل علماء الكيمياء في العقد الماضي". وهو معروف في علم المطيافية بـ"قاعدة السيد".

منيرنايفة

منير نايفة عالم ذرة فلسطيني ولد في ديسمبر 1945 بقرية شويكة في محافظة طولكرم، ويحمل الدكتوراه من جامعة ستانفورد الأمريكية في مجال الفيزياء الذرية وعلوم الليزر، ويشغل حاليًّا منصب بروفيسور الفيزياء في جامعة إلينوي في أوربانا وهو مؤسس شركة نانو ساي أدفانس تكنولوجي ورئيسها وحاصل على براءة اختراع في صنع جزيئات النانو سيليكون.

كما أنه يحمل عددًا من براءات الاختراع المشتركة مع علماء في المملكة العربية السعودية والأردن.

أسماء بوجيبار

أول امرأة عربية إفريقية تلتحق بـ"ناسا"، بوجيبار حاصلة على الماجستير في علوم البراكين، كما حصلت على دكتوراه حول موضوع "التوازن الكيميائي بين الغلاف والنواة في سياق تشكل عينة من الكواكب"، وهو التخصص الذي أهلها للالتحاق بـ"ناسا" وهي في سن السابعة والعشرين .

جورج حلو

في موقع التليسكوب سبينرز على شبكة الإنترنت، كتب جورج حلو، أحد أفراد طاقم المركبة، في تعريفه عن نفسه: "كما جميع علماء الفضاء، كنت منذ طفولتي مهوسًا بمراقبة السماء. فالنجوم ومجرة درب التبانة تبدو بغاية السحر من الجبال اللبنانية التي تتمتع بسماء مظلمة ونجوم مشعة. كانت الرياضيات والفيزياء مادتين ممتعتين بالنسبة إلي، وقد دفعتاني إلى دخول عالم الفيزياء الحديثة في الجامعة الأمريكية في بيروت، حيث تعرفت إلى عالم جديد يعد باكتشافات لا حدود لها. بعدها، سافرت إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراستي، وحصلت على دكتوراه في علم الفلك من جامعة كورنيل. اليوم، وبعد 28 عامًا، وصلت إلى مكان بارد يقع بعيدًا من الغلاف الجوي، تبدو منه المجرات بيضاء ومشعة، والضوء الخفيف الآتي من الفضاء الواسع بغاية السحر".

شارك حلو منذ الثمانينيات إلى اليوم، في جميع مشاريع ناسا ووكالة الفضاء الأوروبية، التي تعتمد على المراقبة عبر الأشعة تحت الحمراء، وقدم خلال مسيرته عددًا من الاكتشافات المهمة، منها تعيين "ألوان" المجرات، التي ساعدت في تفسير نشأة النجوم وتطور المجرات على مدى مليارات السنوات.

عمر باغي

عمر باغي عالم كيمياء أمريكي من أصل أردني ولد في عمان عام 1965. وهو وحاصل على مرتبة رقم 2 في قائمة أشهر وأفضل العلماء والمهندسين في العالم للفترة ما بين 1998 – 2008.

يعمل عمر ياغي حاليًّا رئيسًا لمركز المولیكليرات في مركز الأبحاث الشهير لورنس بيركلي وبروفيسور في قسم الكيمياء في جامعة كاليفورنيا بيركلي.

مايكل عطية

عالم رياضيات لبناني من مواليد 1929، متخصص في علم الهندسة وحاصل على اللقب "فارس" (سير) البريطاني، ويعد من أبرز علماء الرياضيات في العالم. حصل على جائزة فيلدز في الرياضيات سنة 1967، وهي موازية في أهميتها لجائزة نوبل التي لا تمنح في هذا الحقل.

جمع عطية بين رئاسة أعرق مؤسستين في بريطانيا هما الجمعية الملكية التي تأسست سنة 1731، وكلية ترينيتي في جامعة كامبريدج التي تعد أغنى الكليات في بريطانيا. وهو يعمل حاليًّا أستاذًا في جامعة أندنبره بأسكتلندا.

محمد النشائي

عالم فيزياء نظرية مصري من مواليد سنة 1943. استطاع تصحيح بعض الأخطاء والمفاهيم العلمية التي حوتها نظرية النسبية العامة لآينشتاين، وهو صاحب "نظرية المقطع الذهبي في فيزياء الكم" التي توصل إليها عام 1991.

كُرِّم من قبل مركز الفيزياء النظرية التابع لجامعة فرانكفورت الألمانية، ولديه مئة بحث مسجلة في الجمعية الأمريكية للرياضيات، وقد رشحه علماء حائزون على جائزة نوبل مرات عدة لنيل هذه الجائزة.

مها عاشور

أستاذة الفيزياء بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس. أسهمت في وضع خطة الأبحاث الأساسية في فيزياء الفضاء في إدارة الطيران والفضاء الأمريكية (ناسا)، ولها نحو عشرين بحثًا علميًّا في مجال الفيزياء. حصلت على جائزة "نساء العلم" الأمريكيات سنة 1990.

شادية حبال

عالمة فلك وفيزياء سورية الأصل أمريكية الجنسية، تشغل منصب أستاذة كرسي فيزياء الفضاء في جامعة ويلز ببريطانيا منذ عام 2000، وتتركز بحوثها على الرياح الشمسية وكسوف الشمس. لعبت دورًا رئيسيًّا في الإعداد لرحلة المسبار الشمسي لوكالة ناسا، وهو أول مركبة فضائية تدور فعليًّا داخل الهالة الشمسية، وتقدمت بحوالي ستين ورقة بحث لمجلات التحكيم العلمية.

مجدي يعقوب

بروفيسور مصري بريطاني وجراح قلب بارز من مواليد 1935. أصبح أخصائي جراحات القلب والرئتين في مستشفى هارفيلد من 1969 إلى 2001، ومديرًا لقسم الأبحاث العلمية والتعليم، وأستاذًا في المعهد القومي للقلب والرئة. تمكن فريق طبي بريطاني بقيادته من تطوير صمام للقلب باستخدام الخلايا الجذعية. حصل على لقب "فارس" سنة 1966، وعلى جائزة "فخر بريطانيا" سنة 2007.

أحمد سعيد الطيبي

طبيب فلسطيني مختص في مجال الطب الوراثي، اكتشف 35 متلازمًا جينيًّا ذا صلة عميقة بتهيئة الاستعداد الوراثي للأمراض ذات المنشأ الجيني، وسميت العديد من هذه المتلازمات الجينية باسمه. له مئتا ورقة علمية طبية، بالإضافة إلى كتاب يتحدث فيه عن الأمراض الجينية عند العرب، وهو ما شكل النواة الأولى لتأسيس "الجمعية الأمريكية الشرق أوسطية لأطباء الوراثة".

مشاعل الشميمري

أول فتاة سعودية تعمل في مجال تصميم الصواريخ النووية وتلتحق بوكالة ناسا الأمريكية لدراسات الفضاء، وتعمل على تطوير أبحاث خاصة في هذا المجال، وحصلت على شهادة البكالوريوس في هندسة الطيران من معهد فلوريدا التقني في ملبورن، كما حصلت أيضًا على شهادة البكالوريوس في الرياضيات التطبيقية من ذات المعهد.

ثم قدمت وكالة ناسا لها منحة لتحصل على درجة الماجستير في هندسة الطيران نظيرًا لتميزها.

لتصبح بذلك أول سعودية وخليجية تعمل في "ناسا"، وكانت ضمن مجموعة من العلماء الذين أشرفوا على صناعة صاروخ سلمي، وهو صاروخ هدفه رصد المعلومات الخاصة بالأحوال الجوية، وكانت مشاعل رئيسة هذه المجموعة. عملت مع شركة "ريفيان" للدفاع على تصميم 22 صاروخًا مختلف الأهداف والنشاط. ثم أنهت العمل مع الشركة لتبدأ بشركتها الخاصة وسجلت اسم الشركة Mishaal Aerospace في 2010.

إدغار الشويري

عالم الفضاء اللبناني البروفسور إدغار الشويري برع في الهندسة الفضائية والعلوم الفيزيائية له اختراعات نظرية وتطبيقية في اكتشافات المجرة والفضاء، وقد تم تنفيذ وتطبيق بعض اختراعاته فيما يخص محركات الدفع الفضائية في بعض المركبات الفضائية الأمريكية وقمر صناعي روسي.

تبوأ مناصب عديدة في الجامعات الأمريكية، وأقيم له محاضرات علمية في العديد من دول العالم منها: أمريكا، روسيا، اليابان، الصين، بولندا، والعديد من الدول الأوربية.

ويعمل الآن البروفسور إدغار الشويري مديرًا لمختبر الدفع بالبلازما التابع لوكالة ناسا الفضائية وهو أحد أهم المشاريع المستقبلية في مجال الفضاء على مستوى العالم، ويعول على ذلك المختبر في ابتكار وسائل دفع مبتكرة للصواريخ الفضائية تحقق نقلة نوعية في هذا المجال.

عدنان وحود

ولد لعائلة فقيرة في سوريا، حصل على شهادة الماجستير في دراسة الهندسة الميكانيكية-تخصص آلات النسيج في ألمانيا، ليُسجّل له في العام نفسه وهو بعد في الثلاثين من عمره أول اختراع على المستوى الأوروبي، وهو صمام تغذية الهواء في آلة النسيج.

بعد الدكتوراه، عمل رئيسًا لقسم الأبحاث والتطوير في شركة "دورنييه" في جنوب ألمانيا، وسجّل أكثر من 60 اختراع في اختصاصه ليُمنح وسام المخترعين لعام 2003.

صالح جواد الوكيل

عالم الكيمياء العراقي، رأس قسم الكيمياء الحيوية بكلية بايلور للطب في هيوستن في ولاية تكساس لمدة 30 عام، والتي تعد الملاذ الأخير للعلاج الطبي.

قاد الوكيل فريقًا عثر على الجين الذي يمنع تراكم الدهون في الجسم، وهو كشف وصفته مجلة "ساينس" واحد من أهم الاكتشافات العلمية لعام 2001، له من البحوث 200 بحث، وفتوحات علمية غيرت علم الإنزيمات التي تعد مفاتيح العمليات الحياتية في جسم الإنسان.

المصادر

1 - HARVARD BUSINESS REVIEW
2 - KNOWLEDGE
3 - Fikr Cultural Magazine Information Center.

كتابة الحقائق

"كتابة الأشخاص الحقيقيين - بكل ما فيهم من حسنات وعيوب- يحتاج إلى جرأة كبيرة في وطننا العربي، وإلى استعداد لكل التداعيات التي تحدث في ما بعد"

د. أمير تاج السر
كاتب وروائي سوداني

تحدث الكاتب الإسباني ألبرتو باثكث فيكيروا في روايته الأقرب إلى التحقيقات الصحفية منها إلى الرواية والصادرة منذ سنوات عدة عن الفساد العالمي، وغزو العراق الذي كان قضية ساخنة في تلك الأيام، وخفت سخونتها بالطبع بظهور مستجدات جديدة تحتاج لروايات أخرى.

وأشار بشكل سافر وباستهزاء كبير إلى ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي السابق، وقام بغرسه في أكثر صفحات الكتاب سخرية وفسادًا بغض النظر عن أن الرواية فيها بجانب الوقائع الأصلية وقائع متخيلة، وبجانب الشخوص الحقيقيين شخوص متخيلون، وليس صفحات للتقصي في جريدة يومية ينبغي ملؤها بالاتهامات وأدلتها.

وفي رواية "المئوي الذي قفز من النافذة واختفى" - التي كتبها السويدي يوناس يوناسون وأثارت ضجة في العالم، ووصفتها من قبل بـ"كتابة المرح"- هناك صفحات كثيرة من السخرية والقرص على الأذن، والاتهامات بالغباء والسطحية، والإجرام طالت شخصيات حقيقية لم تعش في التاريخ البعيد، وإنما كان بعضها موجودًا حتى عهد قريب.

كتابة بلا خوف

شخصيات مثل الرئيس السوفياتي ستالين، والرئيس خروتشوف، والأمريكي هاري ترومان، وشاه إيران، وملك السويد، والزعيم الصيني ماو تسي تونغ وكثيرين غيرهم من الرؤساء الذين حكموا في معظم أحوالهم بالحديد والنار، وغرسوا شعوبهم في ألوان وحيل من القهر اخترعوها.

وفي روايات أخرى – أمريكية وإنجليزية- توجد مثل هذه الصفحات التي تدين أشخاصًا موجودين وفاعلين بقلة اكتراث، وبلا أي خوف من أن تجر تلك الأعمال كتّابها إلى قضايا ودهاليز مظلمة لا ينبغي أن تدخلها الأقلام المبدعة.

الذي أردت قوله هو كيفية الكتابة عن أشخاص حقيقيين أثروا في المجتمعات سلبًا أو إيجابًا؟

كيف تشئ في عمل روائي أيادي عدة لنائب رئيس موجود ومعروف تختلس من هنا وتسرق من هناك، وتشعل الحروب لإنعاش تجارة السلاح، وتزرع الخوف لتعمل شركات الحماية في عمل هو رواية في الأصل كما ذكرت؟

كيف تُلبس رئيس دولة له هيبته سراويل متسخة وأربطة عنق تثير السخرية، وتجلسه في مكان شعبي، ويمر به العابرون ليحيوه باسمه مجردًا، ثم تجلسه على مكتبه، وتجعله يوقع على الدسائس ويغازل النساء، وهكذا؟

ثم كيف تجعل شخصًا مثل ستالين مثيرًا للسخرية في وجهه وتعبيراته وتصرفاته كلها كما نلاحظ في رواية "المئوي"؟

الرواية التاريخية المكتوبة عن التاريخ البعيد تناولت مثل تلك المواضيع، أي أنها تحدثت عن شخصيات سياسية في الأغلب أمكن تحوير حياتها السابقة إلى حد ما وحكيها بطريقة أخرى في النص الجديد مع الاحتفاظ بالوقائع التاريخية كما حدث في روايات تحدثت عن حكام سابقين أو مناضلين ضد الاستعمار كرواية واسيني "كتاب الأمير".

إنها روايات تعتمد على البحث المضني في سيرة من يود الكاتب أن ينبش سيرته ويعيد كتابتها، وأعتقد أنها تسبب كثيرًا من الصداع بسبب الخوف من الاعتداء على الوقائع التاريخية حين تعاد كتابتها، وهناك دائمًا متربصون يحيلون الكاتب لمحاكمات نظرية تنال منه كثيرًا حين يخطئ في شيء تاريخي.

وحتى لو كانت الشخصية التي أعيدت كتابتها سيئة، وقام الروائي بإصلاحها وإضافة حسنات لها فإن كتابته لا تبدو مقبولة وقد يلام عليها، لذلك نرى نوع هذه الكتابة قليلاً في كتابتنا العربية، والأعمال التي تنتج منه غالبًا باهتة، ولا يجد فيها الخيال مساحة حتى – ولو كانت صغيرة- كي يتحرك داخلها.

سير وابداع

الذي يحدث هو أن الناس يخترعون الوقائع التاريخية لفترات ما مع شخصيات قد لا تكون موجودة أصلاً، ويأتي الإيهام بأن هذا هو التاريخ الحقيقي، وفي نفس الوقت يتم تذوقه كرواية جميلة فيتفاعل القراء معها، مثل رواية "الزيني بركات" للأديب الراحل جمال الغيطاني، حيث زرع شخصية الزيني البصاص في زمن قديم، وتتبعنا وقائع ذلك الزمن عبرها، وكتب كثيرون عن الحكم العثماني في مصر وثورة يوليو، وكتبنا في السودان عن الثورة المهدية، ولكن لا تحريف في الوقائع الأصلية.

لذلك أتساءل عن نوع الكتابة التي ذكرتها في البداية، أي التي تمس أشخاصًا لم يولدوا أو يشتهروا قديمًا إنما قريبًا جدًا وبعضهم ما زالوا يعيشون؟

في الحقيقة لا أعرف إجابة محددة، ولم أسمع عن ضجة عدائية حدثت لأحد أولئك الكتاب، أو سجن تم رميه فيه، وأعرف أنه لا توجد خطوط حمراء في الغرب، بحيث أن المسيح عليه السلام نفسه تمت كتابته في روايات، وإنتاجه في أفلام، لكن رغم ذلك يبدو لي الأمر فيه شيء من الغرابة، ومن المحتمل جدًا أن هؤلاء الكتّاب يستندون إلى أدلة في ما كتبوه، إما جادين أو هازلين، وسيقومون بإخراجها إن سئلوا.

بالنسبة للعالم العربي إن ذكر الشخص مهانًا في رواية ولم يكن موجودًا في الدنيا ليدافع عن نفسه فإن هناك من سيتولى الدفاع عنه، لن يقول أحد شيئًا عن عبارات المقت، والمقالات التي تتحدث عن زعيم ظالم، لكن حين يكتب في عمل إبداعي فهو لا يذكر صراحة وإنما يشار إليه بإيحاءات، وتتم إعادة رسمه من جديد بحيث يبدو مموهًا.

كما توجد تلك السير التي تتحدث صراحة مثل سيرة الليبي إدريس المسماري عن سجنه في زمن معمر القذافي، وسير من سجنوا أيام عبدالناصر وصدام، وهذه تقرأ كسير وليس كأعمال إبداعية، ويوجد من يتعاطف مع السير ومن يفندها أيضًا، لكن في النهاية هي تختلف عن الإبداع الصرف.

أظن أن نوع الكتابة هذا، وأعني كتابة الأشخاص الحقيقيين – بكل ما فيهم من حسنات وعيوب- يحتاج إلى جرأة كبيرة في وطننا العربي، وإلى استعداد لكل التداعيات التي تحدث في ما بعد.

ألبرتو باثكث فيكيروا

"كيف تُلبس رئيس دولة له هيبته سراويل متسخة وأربطة عنق تثير السخرية، وتجلسه في مكان شعبي، ويمر به العابرون ليحيوه باسمه مجردا، ثم تجلسه على مكتبه، وتجعله يوقع على الدسائس ويغازل النساء، وهكذا؟"

"هناك كتب تتحدث بصراحة مثل سيرة الليبي إدريس المسماري عن سجنه في زمن معمر القذافي، وسير من سجنوا أيام عبد الناصر وصدام، وهذه تقرأ كسير وليس كأعمال إبداعية، لكنها في النهاية تختلف عن الإبداع الصرف"

سنن التمكين

د. وليد فتيحي

جدة

نزل المقاتل الضخم الجبار ساحة المعركة وتحدى أن ينازله أحد من جيش المؤمنين، فلم يجرؤ أحد إلا راعيًا شابًا في مقتبل عمره أخلص النية وتوجه إليه بكل ثقة وعزيمة إيمانية، وبسرعة وبخفة أخرج حجره من جرابه الجلدي، وأسكنه مقلاعه وطوقه في الهواء بضع مرات وسمى بالله وأحسن التصويب فأصاب عدوه وعدو الله في النقطة غير المغطاة من رأسه فأسقطه صريعًا.. وهكذا قتل داوود جالوت.

قصة تحمل رمزية هامة، وهي انتصار الخير والعدل وإن كان ضعيفًا على الشر والظلم وإن كان قويًّا، ولكن هل كان داوود عليه السلام عند دخوله المعركة الطرف الأضعف أم الأقوى عدة وعتادًا واستعدادًا..

كانت الحروب آنذاك تدار بثلاثة أنواع من المقاتلين، الأول سلاح الفرسان وهم رجال مسلحون يمتطون الأحصنة، والثاني جنود مشاة يحملون أسلحة ثقيلة ودروعًا وسيوفًا، وأما النوع الثالث فهم الرماة وهم ما يعادلون اليوم سلاح المدفعية، ويعد المقلاع في يد المتمرس الماهر سلاح من أفتك الأسلحة آنذاك وأدقها في إصابة الهدف، فهو يفتك من على بعد مائتي متر.

وفي المعارك تتوازن القوى بين الفرسان والمشاة والرماة، فالمشاة هدف سهل للرماة نظرًا لبطئهم لما يحملون من أسلحة ثقيلة، ولكن الفرسان هدف صعب للرماة لسرعة تحركهم، وهم الذين يحمون المشاة من الرماة.

وقد قام أخصائيون في السلاح بدراسة لقوة الحجر المنطلق من مقلاع بافتراض حجر يشبه الجسم الذي كان يستخدم آنذاك ومقلاع مشابه، فوجد أن الحجر سيصل إلى هدفه على بعد 35 مترًا بعد ثانية ونصف الثانية وبسرعة 122 كم/الساعة، وهذه سرعة كافية أن تخترق أي جمجمة لحظة ارتطامها به وتقتل وإن كان الهدف رأس عملاق مثل جالوت. أي بمعنى آخر أن نبي الله داوود كان يدرك نقاط ضعفه ومصدر قوته، وكذلك يدرك جيدًا قوة خصمه ونقطة ضعفه، وأخذ بأسباب التمكين التي أمر الله بها فلم ينزل المعركة تواكلاً بذريعة الإيمان وإنما نزل توكلاً بإيمان أن الأخذ بالأسباب هي عبادة واتباع لأمر خالق العباد.

لقد رفض نبي الله داوود أن يقترب من عدو الله جالوت ويقاتله بسلاحه الذي اختاره السيف والدرع، وإنما قتله بالسلاح الذي تمرس عليه داوود طوال حياته حتى أصبح ماهرًا محترفًا به، وبذلك كان داوود عليه السلام متفوقًا عسكريًّا ويمتلك تقنية متقدمة بمعايير ذلك الزمان جعلت جالوت بكل قوته وجبروته ضعيفًا عاجزًا وهدفًا سهلاً أمام نبي الله داوود عليه السلام.

إن هذا ما أراد أن يوضحه الكاتب المبدع مالكوم جلادويل (Malcolm T. Gladwell) في كتابه الأخير (David and Goliath: Underdogs, Misfits, and the Art of Battling Giants) (الضعفاء والمهمشين وفن مقاتلة العمالقة)، ويؤكد أن قراءتنا الخاطئة جعلتنا نغفل عن دروس هامة في هذه القصة العظيمة.

يتمحور الكتاب حول مفهوم نقطة القوة، وهي الخاصية التي يفترض أنها السبب الرئيسي الذي نبني عليه توقعاتنا، ويمكن أن تكون هذه النقطة السبب كذلك في الهزيمة.

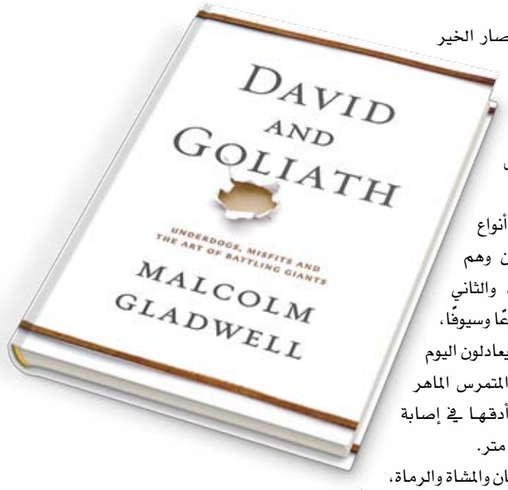

يتحدث الكاتب في كتابه عن الشجاعة والمبادرة ممن يتوقع منهم أنهم ضعفاء ومغلوبون على أمرهم، ولكنهم أثبتوا أنهم قادرون على صنع المعجزات ويسوق الأمثلة تلو الأمثلة ليثبت أن ما أثبته في كتبه السابقة أن الإنسان قادر على قلب الموازين متى آمن بنفسه وقضيته وأخذ بالأسباب وتعامل مع الأحداث من منطلق القدرة لا العجز.

ومتى قرر الإنسان العادي مواجهة عملاق أيًّا كان شكل هذا العملاق في حياته، فإنه قادر على التغلب عليه، كل شيء يصارع الإنسان في حياته مهما كان ضخمًا وصعبًا في نظر الآخرين، فإن الخالق وضع في الإنسان قدرة كامنة لكسر القواعد التي نعتقد أن الحياة تسير بها لا محالة، في حين أن نواميس الحياة ليست كذلك.

فالدخول في منافسة مع خصم أقوى بكثير، بحيث إن نسبة نجاحك المتوقعة تكون ضئيلة قد تكون الدافع الكبير للفوز وهزيمة خصمك، السر يكمن في تخطي نقطة ضعفك وتحويلها إلى قوة. وقد سرد الكاتب في كتابه قصصًا تظهر لنا كيف أن ما يمكن أن نراه إعاقة، يمكن أن تكون سببًا لنجاح عكس المتوقع. بل إن تحليل الحروب التي خاضتها البشرية خلال المائتي عام الماضية تبين أن الدول العملاقة، وهي الدول التي تتفوق بنسبة لا تقل عن عشر مرات على أعدائها سواء في القوة العسكرية أو عدد السكان، انتصرت فقط في 71% من تلك الحروب على الدول الضعيفة، بينما كان من البديهي والمفترض أن تنتصر أي دولة قوية على أي دولة ضعيفة.

يقول جلادويل «أنت لا تتمنى أن يولد طفلك ولديه صعوبات قراءة، ولكن يمكن أن تكون صعوبات القراءة هذه هي الدافع لعمل أشياء عظيمة». ويضرب مثلاً بمحامي يدعى (David Boies) ترافع ضد العملاقين مايكروسوفت (Microsoft) وآي بي إم (IBM) وانتصر عليهما، وسبب فوزه المستمر ضد خصومه أنه

مالكوم جلادويل

> ومتى قرر الإنسان العادي مواجهة عملاق أيًّا كان شكل هذا العملاق في حياته، فإنه قادر على التغلب عليه، كل شيء يصارع الإنسان في حياته مهما كان ضخمًا وصعبًا في نظر الآخرين، فإن الخالق وضع في الإنسان قدرة كامنة لكسر القواعد التي نعتقد أن الحياة تسير بها لا محالة

كان يعاني من صعوبة القراءة (Dyslexia)، فصعوبة القراءة لديه أدت إلى تطوير صفات تعويضية أخرى لديه مثل سرعة البديهة والحفظ، فأصبحا سلاحين جبارين أمام خصومه.

كل يوم يولد العديد من الأشخاص المعاقين أو المصابين بأمراض نفسية ولكن هناك مجموعة منهم يرفضون الاستسلام وينجحون عن طريق تحويل ضعفهم إلى قوة، والمبهر أن كثيرًا منهم استطاعوا التحول إلى عباقرة والقيام بما لا يقدر عليه الكثير من الأصحاء.

لقد أجمع المؤرخون أن أينشتاين ونيوتن كلاهما كانا يعانيان صفات توحدية.

وتوماس أديسون كان يعاني من صمم جزئي نتيجة الضربات التي كان يتلقاها وهو صغير، وطرد من المدرسة بسبب صممه ودرسته أمه في البيت، وكان يقول إن هذا الصمم الجزئي لهو نعمة لأن الضوضاء الخارجية لا تستطيع أن تشوش أفكاري، وكان يعمل 18 ساعة في اليوم، وقد اخترع في حياته 1093 اختراعًا بما فيها المصباح وآلة عرض الصوت ومسجل الصوت والهاتف.

بيتهوفن قضى 25 عامًا لا يسمع، واستطاع خلال هذه السنوات أن ينتج أفضل أعماله الموسيقية دون أن يسمعها.

هيلين كيلر الصمّاء البكماء العمياء التي تحدت كل هذا فتعلمت الكلام والخطابة والقراءة والكتابة بلغات عدة وحصلت على شهادة الدكتوراه وكتبت ثمانية عشر كتابًا.

وقصة جين دومينيك (Jean-Dominique Bauby) وهو صحفي وكاتب ورئيس تحرير فرنسي مشهور. أصيب 1995م بجلطة كبيرة في القلب فدخل في غيبوبة لمدة 20 يومًا استيقظ بعدها بمرض عصبي نادر (Locked-in Syndrome) فأصبح مشلولاً شللاً كاملاً، في حين أنه في كامل قواه العقلية ولا يستطيع أن يحرك إلا جفن عينه اليسرى، وبالرغم من ذلك استطاع تأليف كتاب (The Diving Bell and the Butterfly) عن طريق إعطاء إشارة بجفنه الأيسر عندما يقرأ الحرف الصحيح عليه وبذلك ألف الكتاب كله في عقله وكتبه حرفًا حرفًا على مدى عامين وتوفي بعد يومين من نشر كتابه.

جين دومينيك

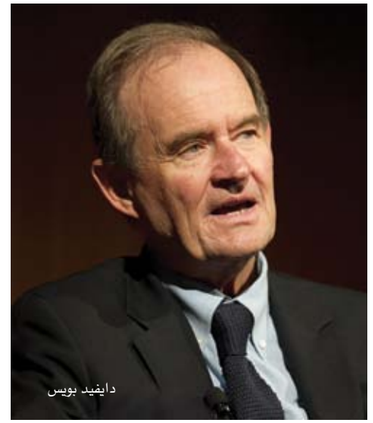
دايفيد بويس

وكذلك كرستي براون (Christy Brown) الذي أصيب بالشلل الدماغي (Cerebral Palsy) ولم يستطع التحرك لأعوام أو يتكلم، واعتبر متخلفًا عقليًا، ولكن والدته استمرت في التحدث معه وتعليمه، وفي يوم فجأة خطف طبشورة من أخته بقدمه اليسرى وبدأ يخط بها ويتواصل مع أهله ليصبح من أفضل الكتّاب والشعراء والرسامين في أيرلندا، ويموت وهو في التاسعة والأربعين من عمره عام 1981م.

مصطفى صادق الرافعي الذي توفي سنة 1937م كان قد أصيب في سمعه بعد إصابته بالتيفود وهو طفل، وفي الثلاثين من عمره كانت حاسة السمع قد تعطلت لديه تمامًا وأصيب بالصمم.. ولم تكن إعاقته مانعًا من أن يحقق شهرة أدبية واسعة.. حيث تصدى للكتابة والتأليف حتى صارت له مدرسة أدبية تعرف باسمه في الأدب العربي. ويعد الرافعي من الأدباء أصحاب الروح الإسلامية الخالصة الذين خدموا الإسلام بأدبهم وشعرهم، ولا يزال إلى اليوم قبلة للأدباء، ويعد كتابه (وحي القلم) علامة فارقة في الأدب العربي المعاصر.

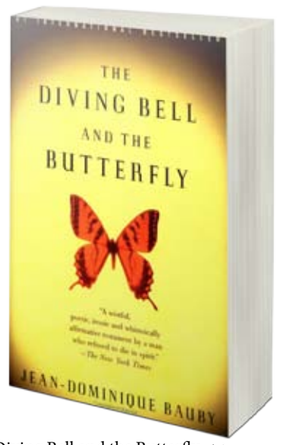

كتاب جين دومينيك The Diving Bell and the Butterfly

أبو العلاء المعري الذي ولد سنة 363 هـ، وتوفي سنة 449 هـ فقد بصره في الرابعة عشرة من عمره ليضيف إلى عزلته جدارًا جديدًا، بعد يتمه وفقده أباه في السادسة من عمره، وقد اعتزل الناس طويلاً، ولم يمنعه ذلك من الإبداع والتأليف، أطلق عليه (رهين المحبسين)، محبسه الاختياري في داره، ومحبسه الإجباري بضياع بصره. كان أعجوبة عصره وإلى الآن في البلاغة والبيان وعرف بأنه (حكيم الشعراء وشاعر الحكماء)، يقول "أنا أحمد اللّه على العمى كما يحمده غيري على البصر" .. ترك العديد من المؤلفات الأدبية ذات الطابع الفلسفي والفكري.

قرر صبي يبلغ من العمر عشر سنوات تعلم الجودو بالرغم من أنه فقد ذراعه اليسرى في حادث سيارة، وبدأ الصبي الدروس مع مدرب ياباني خبير. كان أداء الصبي حسنًا إلا أنه لم يستطع أن يفهم لماذا بعد ثلاثة أشهر من التدريب لم يعلمه المدرب سوى حركة واحدة فقط..

أخيرًا سأل الصبي المدرب لماذا لا أتعلم حركات أخرى، فأجابه هذه الحركة الوحيدة التي تحتاجها دائمًا وأبدًا. لم يفهم الصبي ولكن كان يؤمن بمدربه فاستمر في التدريب وبعد أشهر أشرك المدرب الصبي بالبطولة الأولى له مما أدهش الصبي فوزه بسهولة في أولى المباراتين، وكانت الثالثة أصعب ولكن انتصر فيها. أما المسابقة النهائية فكان المنافس أكبر وأقوى وأكثر خبرة منه وبدا أن الصبي سوف يخسر وكاد الحكم أن يوقف المباراة خوفًا على الصبي ولكن المدرب أصر على الاستمرار، وبعد فترة ارتكب الخصم خطأً واستغنى عن وضعه الدفاعي فاستخدم الصبي حركته الوحيدة وفاز بالبطولة.

وفي طريق العودة استجمع الصبي شجاعته وسأل مدربه: كيف فزت بالبطولة بحركة واحدة فقط وبيد واحدة فقط؟ أجابه المدرب لقد فزت لسببين، الأول لقد أتقنت واحدة من أصعب الحركات في رياضة الجودو على الإطلاق فامتلكت سلاحًا قويًا جبارًا. وأما السبب الثاني فإن الحركة الدفاعية المعروفة الوحيدة لتلك الحركة هو أن يقوم الخصم بالإمساك والسيطرة على ذراعك الأيسر.

حقًا ليس هناك مفهوم ثابت جامد محدد للقوة والضعف، بل إن القوة والضعف مفهومان نسبيان وقد يكون في الضعف سر القوة، وفي القوة نقطة الضعف. هكذا أرادها الخالق ليكشف لنا عن القوة الحقيقية التي لا ترى بالعين وتختبئ هناك في أعماق الإنسان في إرادته وعقله وروحه.

إنها قصة داوود وجالوت تتكرر لنا بشتى الصور والأشكال والألوان.. تتكرر عبر العصور والأزمان لتظهر لنا بديع خلق الرحمن للإنسان.

فكر

تتمتع مجلة فكر الثقافية بمحتوى راقٍ يحترم العقل العربي، بما يعود عليه بالمتعة والفائدة، ونسعى دائمًا أن تكون المجلة متجددة ومشوقة.

6 سنوات من العطاء المتواصل لإثراء المحتوى الثقافي والمعرفي.

مجلة فكر الثقافية صنعتها عقول وأقلام عربية منهم الروائي والأديب والباحث والمثقف وأستاذ الجامعة جميعهم يقدمون للقارئ مادة ثرية وغنية كُتبت بلغة راقية وبسيطة في الوقت نفسه.

21

نعتز بمساهمتكم بمقالاتكم ودراستكم الأدبية والثقافية الجادة.

@fikrmag @fikrmag @fikrmag fikrmagazine fikrmag2@gmail.com www.fikrmag.com

الشيخ أحمد محمد شاكر يرحمه الله

الشيخ عبدالرحمن المعلمي يرحمه الله

مدارس التواضع ما لن تتعلمه في الجامعة

محمد بن عبدالله الفريح

الرياض

@ malfriah

الشيخ عبدالرحمن المعلمي أثناء عمله في مكتبة الحرم المكي الشريف

عندما حقق الشيخ أحمد محمد شاكر يرحمه الله مسند الإمام أحمد، أرسل له الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني رسالة فيها عدد من الاستدراكات والملحوظات على مواضع عدة من تحقيقه للمسند، فلما رأى الشيخ أحمد شاكر هذه الاستدركات وحسنها وجودتها قرر طباعتها في الجزء الأخير من مسند الإمام أحمد.

وفي إحدى السنوات زار الشيخ أحمد شاكر بلاد الحرمين، فرغب في رؤية الشيخ المعلمي اليماني، فدخل مكتبة الحرم المكي واتجه صوب مدير المكتبة، وكان آنذاك يديرها الشيخ سليمان بن عبدالرحمن الصنيع يرحمه الله صاحب الإجازات العلمية الشهيرة، التي جاوزت الأربعين، وفي أثناء محادثته مع الشيخ سليمان الصنيع إذ جاء الشيخ المعلمي اليماني بالماء والشاي، ووضعهما أمام الشيخ أحمد شاكر والصنيع، وانصرف المعلمي للقراءة، ثم قال الشيخ أحمد شاكر (باللهجة المصرية): «عاوز أشوف الشيخ المعلمي اليماني». فقال له الشيخ الصنيع: الذي أحضر لك الشاي والماء هو المعلمي اليماني، وما هي إلا دقائق حتى أخذ الشيخ أحمد شاكر في البكاء.

هذه القصة أوردها الأستاذ ماجد بن عبدالعزيز الزيادي في تحقيقه لكتاب (عمارة القبور) للشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي رحمه الله، وكذلك ذكرها الأستاذ محمود الطناحي في كتابه (مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي) للشيخ عبدالرحمن المعلمي (ص: 205).

تراود الفكر عند قراءة مثل هذه المواقف النبيلة برغم بساطتها وعفويتها، القصة التي ملأت سمع الدنيا وبصرها، تلك هي حادثة الإسراء والمعراج، التي حدثت لخير البشر صلى الله عليه وسلم، حتى وصل به المقام لسدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى، فما منعه هذا المقام والمسير العظيم والمنزلة العالية الرفيعة، أن يعود في صبيحتها ليجالس الفقراء والمساكين، ويؤاكلهم، ويقضي حاجاتهم، تلك الحادثة التي لو حدثت لأحدنا لملأ الدنيا ضجيجًا وصخبًا بكثرة ترديدها، لكنه خلق التواضع ونعمة التباسط التي حرمها كثير من الناس.

روى الإمام أحمد وأبو داود، من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) صححه الألباني.

أتذكر في هذا المقام المقولة الشهيرة للشاعر والروائي روبندرونات طاغور:

(نقترب من العظمة بقدر ما نقترب من التواضع).

وكذلك المقولة الخالدة للفيسلوف كونفوشيوس:

(من يتكلم دون تواضع سيجد صعوبة في جعل كلماته مسموعة).

وصدق القائل:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ
على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يرفع نفسَه
إلى طبقات الجو وهو وضيعُ

زادنا الله وإياك تواضعًا ورفعةً، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة.

> قال الشيخ أحمد شاكر (باللهجة المصرية): «عاوز أشوف الشيخ المعلمي اليماني». فقال له الشيخ الصنيع: الذي أحضر لك الشاي والماء هو المعلمي اليماني، وما هي إلا دقائق حتى أخذ الشيخ أحمد شاكر في البكاء

الكتابة بلغة الآخر

ناصر بن محمد الزمل

رئيس التحرير

https://twitter.com/

https://www.facebook.com/nalzumal

حققت بعض الأعمال الأدبية شهرة واسعة بكتابتها بلغة الآخر، مما حقق الكاتب بدوره شهرة واسعة بغير لغته الأم. مما عُدّ هذا النوع من الكتابة تحديًا كبيرًا لهم.

ولعل من أبرز العوامل التي تساعد الكاتب على إتقانه للكتابة بلغة الآخر، الإصغاء إليها أكثر من التحدث بها، وقراءة أدبها بشكل مكثف كي يستقر في العقل الباطن.

وهناك عدد من الأسماء التي كتبت بلغة الآخر مثل جوزف كونراد البولندي الأصل الذي كتب باللغة الإنجليزية وفلاديمير نابوكوف الروسي الأصل الذي كتب باللغتين الروسية والإنجليزية والذي لم يبدأ في الكتابة باللغة الإنجليزية إلا في مرحلة متأخرة نسبيًا من حياته، حيث كتب تسع روايات باللغة الروسية وعندما هاجر إلى أمريكا كتب بالإنجليزية روايته الشهيرة "لوليتا". وهنالك أيضًا صمويل بيكيت، الكاتب الإيرلندي الذي فضل الكتابة باللغة الفرنسية بعد طول مراس في الكتابة بلغته الأم، الإنجليزية.

ومن أدباء المهجر هناك الأديب جبران خليل جبران الذي يُعد أيقونة في عالم الأدب العالمي شرقًا وغربًا والذي يحتل كشاعر المرتبة الثالثة في أعلى المبيعات بعد الشاعرين الإنجليزي وليم شكسبير والفيلسوف الكاتب الصيني لاوتزه من القرن السادس قبل الميلاد.

نشر جبران الذي هاجر مع عائلته إلى أمريكا عام 1895 وكان عمره 12 سنة، أول عمل له كتبه باللغة الإنجليزية عام 1819 وهو بعنوان "المجنون" والذي تضمن قصصًا قصيرة رمزية تتمحور حول إشكالية الذات مع نفسها وعلاقتها بالآخرين. وليحقق شهرته العالمية من خلال كتابه الفلسفي "النبي" الذي نشر عام 1923.

من الكتّاب المعاصرين الذين كتبوا بلغة الآخر نجد ميلان كونديرا الذي انتقل من الكتابة باللغة التشيكية إلى اللغة الفرنسية بعد رحيله إلى فرنسا واستقراره فيها. وهناك أيضًا الشاعر الروسي الأمريكي جوزف برودسكي الذي كتب الشعر باللغتين الروسية والإنجليزية. ومن الأسماء الأقرب لنا ولثقافتنا نذكر الشاعر والروائي سليم بركات الكردي الذي قال عنه محمود درويش أنه أفضل من كتب باللغة العربية خلال العشرين عامًا الماضية. وهنالك أيضًا أمين معلوف، الروائي اللبناني، الذي فضل أن يكتب الرواية باللغة الفرنسية رغم تمكنه التام من اللغة العربية، وآسيا جبّار، والروائي المغربي الطاهر بن جلون، حين يقول في تصريح صحفي: "إن الهجرة عند الإنسان المسلم لها معنى مقدّس، وقد يعود ذلك إلى هجرة الرسول محمد من مكة إلى المدينة بحثًا عن الأنصار بعد أن قاومه أهله رافضين دعوته".

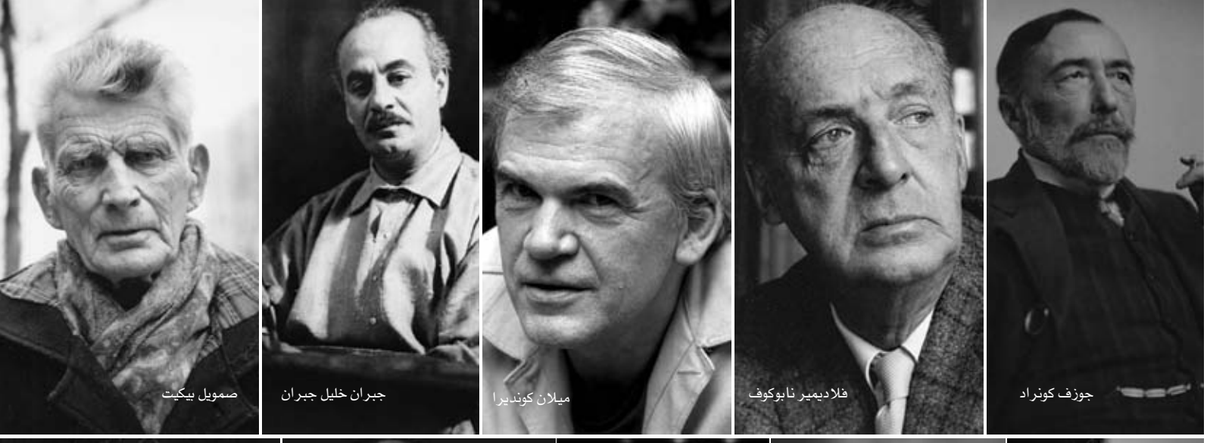

ويضيف: "يهتمّ الأدب بالجراح قبل أن يهتمّ بالسعادة، وأعتقد أن تاريخ الهجرة موضوع يفرض نفسه على كاتب مثلي، قادم من بلاد يعيش الكثيرون من أهلها في الهجرة، وبعد أن اختلطت بالبعض من المهاجرين في بداية هجرتي إلى فرنسا، وكان ذلك مطلع السبعينيات من القرن الماضي، أعطيتُ دروسًا في محو الأميّة لعمّال مغاربة".

ويقول جاك دريدا في كتابه "أحادية الآخر اللغوية": "أنا لا أملك إلا لغة واحدة، مع ذلك فهي ليست لغتي"، ويعلن أنه أحادي اللغة قائلاً: "أحاديتي هذه كانت وستبقى بيتي، هكذا أحسبها، وهكذا أسكنها وتسكنني، وهكذا ستبقى"، ويضيف: "إن الأحادية التي أتنفّسها هنا هي بمثابة العنصر الحاسم في حياتي".

ويعتقد الكوبي إدواردو ماني أنه منفيّ على الدوام، ففي البداية غادر بلاده بسبب نظام باتيستا، ثم عاد ليغادر ثانية بسبب نظام فيدال كاسترو.

يقول ماني: "في الخمسينيات من القرن الماضي، أتيحت لي فرصة لقاء صاموئيل بيكيت في باريس، وذات يوم قلت له إني قرّرت عدم العودة إلى كوبا بصفة نهائيّة، وكنت أفكر في الكتابة بلغة أخرى غير اللغة الأم، وكان إحساسي حينذاك بأنني إن فعلت ذلك، فإنني سأقترف ذنبًا لا يغتفر. وأذكر أن بيكت فكّر طويلا، ثم أجابني قائلاً: "أنا شرعت أكتب بالفرنسيّة ذلك أن لغة جيمس جويس باتت حملاً ثقيلاً يصعب عليّ حمله".

وتبقى الكتابة بلغة الآخر هي نتيجة حتمية لا إرادية لكثرة المبدعين الذين أخرجوا من ديارهم نفيًا أو طواعية أو هناك من أراد الكتابة بلغة الآخر لتغيير صورة بلاده في ذهنية القارئ الغربي كما حدث للسيدة سالمة بنت سعيد؛ المرأة التي كتبت مذكراتها باللغة الألمانية محكومة بظروف عدة أملت عليها الكتابة بلغة الآخر. اللافت إنها حرصت في مذكراتها على إيضاح عدد من المتناقضات والمفاهيم الشائعة عن الشرق مدة وجودها في ألمانيا.

لكن لو طرحنا سؤالاً ما هي مشاعر الكاتب وهو يكتب بلغة أخرى غير لغته الأم؟ هل كان يكتب من قلبه أم من عقله؟ حسب تعبير الروائية التركية أليف شافاك التي تكتب باللغة الإنجليزية حين قالت إنها "تكتب بقلبها عندما تكتب بالتركية، وبعقلها عندما تكتب بالإنجليزية".

من ضمن الأسباب والدوافع للكتابة بلغة الآخر تختلف بين كاتب وآخر، فمنهم من حمل الهمّ القوميّ والوطنيّ وسعى لخدمة قضيّة شعبه، ومنهم من اختار لغة الآخر لأنّها اللغة الوحيدة التي يتقنها ويستطيع التّعبير بها عن نفسه، ومنهم من أراد أن يجرب ويخوض تجربة الكتابة بلغة عالميّة تتخطّى بها الحدود، ومنهم من وجد فيها آفاقًا واسعة لحريّة التّعبير التي لم يجدها في وطنه، ومنهم من أراد فضح بلاده عند الآخر وبلغته ومنهم من تودد للغرب حتى يكون جميلاً بأعينهم. ومنهم من لديه طموحات وأفكار أخرى.

> من ضمن الأسباب والدوافع للكتابة بلغة الآخر تختلف بين كاتب وآخر، فمنهم من حمل الهمّ القوميّ والوطنيّ وسعى لخدمة قضيّة شعبه، ومنهم من اختار لغة الآخر لأنّها اللغة الوحيدة التي يتقنها ويستطيع التّعبير بها عن نفسه، ومنهم من أراد أن يجرب ويخوض تجربة الكتابة بلغة عالميّة تتخطّى بها الحدود، ومنهم من وجد فيها آفاقًا واسعة لحريّة التّعبير التي لم يجدها في وطنه، ومنهم من أراد فضح بلاده عند الآخر وبلغته ومنهم من تودد للغرب حتى يكون جميلاً بأعينهم. ومنهم من لديه طموحات وأفكار أخرى.

ولا يبالغ المفكر المغربي عبدالفتاح كليطو حين يقول "أن تترجم هو أن يعترف بك الجميع" وقد نضيف إلى مقولته جملة أخرى، أن تكتب بلغة عالمية هو أن تحوز اعترافًا من العالم.

طبائع المؤسسة (حياة في الإدارة)!

أ.د. إبراهيم بن محمد الشتوي

أستاذ الأدب والنقد – قسم الأدب

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

لولا أني لا أحب أن أغضب جمهور ومحبي الراحل غازي القصيبي – رحمه الله– لقلت إن هذه المادة المكتوبة بين دفتي كتاب اسمه «حياة في الإدارة» رواية تخييلية، يقوم فيها الخيال بدور كبير كأي رواية واقعية، إلا أنني سأتفادى هذا الغضب بألا أقول هذه الرؤية، وأعتبرها سيرة ذاتية تقول الحقيقة ولا غير.

بيد أن هذه الرؤية والشعور حيال النص المكتوب يعزّز رؤية «بارت» في كتابه «همهمة اللغة»، و«أمبرتو إيكو» في كتابه «الزمان والسرد»، حينما يقفان على التداخل بين التاريخي والتخييلي، ويعدان كل واحد منهما قريبًا من الآخر.

وهذه السيرة الإدارية التي تفضل الدكتور غازي القصيبي بتقديمها للقارئ، تكشف عددًا من جوانب دهاليز المؤسسة الإدارية على كل مستوياتها على الرغم من عنايتها بالأساس بتسليط الضوء على تجربة الكاتب، ورؤيته الإدارية بالدرجة الأولى.

ومع أنها تسلط الضوء على حقبة تاريخية سابقة، فإن السؤال عن سبب كتابة هذه السيرة بعد أن ذهبت تلك الأيام بحلوها ومرها، وبعد أن استطاع غازي/المؤلف أن يعيد اسمه إلى الأضواء مرة أخرى بعد أن ظنه «منافسوه» قد ذهب إلى غير رجعة، وهو ما يعد الرد الفعلي على تلك المواقف، ورد الاعتبار الحقيقي بعد الاعتبار الرسمي، مما يغني عن كتابة هذه السيرة وما جاء فيها من بيانات دفاع واضحة، أقول: إن السؤال لا يزال مطروحًا.

لكننا إذا استبعدنا مسألة الدفاع عن نفسه، وتجميلها بسرد موقفه الشخصي من كل حالة لاكتها ألسنة الإعلام، وقلبتها على كل وجه قد لا يكون منها وجهة نظره الخاصة، وهذه إحدى وظائف السيرة الذاتية –على كل– التي لا يستطيع أحد أن يبرئ السيرة الذاتية منها، وقد سارت بها الركبان، إذا استبعدنا ذلك بوصفه يريد أن يقدم الدروس والعظات، والتجربة لمن جاء بعده، كما امتلأت بها السيرة.

مع هذا، فإننا لا يمكن أن ننكر الجانب التجميلي والدفاعي الذي أشرت إليه من قبل بوصفه أحد وظائف السيرة الذاتية، ولأن السيرة الذاتية «حياة في الإدارة» قد تناولت في صفحات عدة موضوعات كانت تشغل المتحدثين عن الجانب الشخصي للراحل، وهذا يتجلّى مثلاً في حديثه عن «الشعبية» التي نالها منذ بدأ عمله في الجامعة.

والذي أريد أن أقف عنده أولاً – وما أظن الكاتب غافلاً عنه– هو أن الشعبية مسألة نسبية، فقد يظن الإنسان أن له شعبية، في حين أن شعبيته لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، الذين يمرون به غدوًا ورواحًا، وهو في الحقيقة لا يملك شيئًا من ذلك، وهو ما عبر عنه أحد النقاد الفرنسيين في وصف حركة الرواية الجديدة في فرنسا حين قال: «زوبعة في فنجان»، ولا يعني هذا أنني – والعياذ بالله– أطعن في «شعبية» أستاذنا الكبير، ولكني أقول: إنها مسألة نسبية، ولا يمكن للإنسان دفعها أو ثباتها بناء على شعوره الشخصي، فلله عباد يوهمون الإنسان بشعبيته، وإن كان في الحقيقة لا أحد يأبه به، والكاتب على كل ليس منهم.

أقول إن محاولة دفع الكاتب تهمة «الشعبية» وكأنها «الشعوبية» أمر يلفت الانتباه، وكأنه يراها سبة، من جهة، وهي ليست كذلك، بيد أنه يقدم جوابًا على سؤال عن سبب كتابة السيرة. على أنه من المهم القول: إنه لولا الشعبية التي يحظى بها منذ البدء لما تولى عمادة الكلية، وقد يكون دفاع الكاتب يتركز على كونه لم يسع إلى هذه «الشعبية»، وأنها لا تهمه.

قد تكون –الشعبية– كغيرها، تأتي حين يعمل الإنسان ما يستحقها، غير أن قول الكاتب في بعض المواقف: «فلتذهب الشعبية إلى الجحيم» يبين وعيه بها، وبمتطلباتها، وأنها كانت حاضرة في ذهنه، وذهن من حوله بوصفها موضوعًا للنقاش، هل يدفعني هذا إلى القول بأن في هذا الموقف ما يناقض ما قاله عن عدم سعيه إلى ذلك؟ لن أجيب على هذا السؤال لأنه –في الحقيقة– لا يهمني، خاصة وأن «الشعبية» لم تحكم الكاتب بناء على المقولة المشهورة: «الجمهور عاوز كدا»، وإنما كان متفقًا معها في الوقت الذي تكون متفقة مع منطلقاته، وهذا يعني أنها –الشعبية– بناء على أن تعريفها الحقيقي ليس الحب، ولكن تحقيق المعايير التي يتطلبها الشعب (عامة الناس)، وجعل مصالحهم الأساس الذي يبني عليه مواقفه الإدارية، والقرارات التي يتخذها.

ولعله يمكن القول: إنه بناءً على المقولة السابقة – الجمهور عاوز كدا– يتبيّن أن العلاقة معه ليست بتلك السهولة، فالجمهور الذي تبني على العلاقة به «الشعبية» لديه توقعات، ينبغي أن يحققها من يتعرض للجمهور. هذه التوقعات انبنت من خلال مرحلة طويلة من الخبرات

الاجتماعية، والمعرفية، بعضها قد يكون مغلوطاً بوصف هذا الشخص ابن بيئته، ويتأثر بها.

إذا كانت الشعبية هي كسب رضا الشعب من خلال تحقيق المعايير التي يتطلبها فإن هذه المعايير قد نشأت من تجارب، وخبرات سابقة، وتكونت من البيئة التي نشأ فيها «الشعب»، وهذا يعني أنها ليست بالضرورة موضوعية، وهو ما يدل على أن الشعبية ليست بالضرورة محمودة، أو أن تحصيلها لا يعني بالضرورة أن صاحبها على صواب؛ الأمر الذي يوصلنا إلى قضية العلاقة بالجمهور «الشعبية»، فالجمهور الذي يحيط بالقائد له متطلباته، وتوقعاته، وشروطه التي يفرضها على من يحبه، ويمنحه ثقته، فإذا لم يحققها الشخص (لنقل: النجم) فإن الجمهور قد يكون له موقف آخر، فإذا كان هذا الجمهور قد اعتاد على المحاباة، والاعتماد على معايير تتمثل بالقرابة، والجهة، والعناية بالمصالح الشخصية الفئوية الضيقة، فإن شعبيته ستكون قائمة على من يحقق هذه المعطيات، ويتوافق معها. ولأن هذه العلاقة قد تكون مغرية لبعض الناس، لا يريد أن يخسرها، فإنه يستجيب لما يضمنها له، ويتراجع عما يراه صوابًا، أو ما يؤمن به حفاظًا عليها. وهذا ما يعني أن «الشعبية» سلاح ذو حدين.

وقد كان الراحل واعيًا بهذه العلاقة الخطيرة، والحالة التي ينجذب فيها «النجم» للهالة التي توفرها «الشعبية»، فيستسلم لها، ويتحول من مركز التوجيه، واتخاذ القرار، لأن يكون صدى لهذه المجموعة، أو تلك، يستجيب لما يملونه عليه، ويحقق رغباتهم منه. وحين تكون هذه الجماهير «الشعبية» متكونة من العامة، وأنصاف المتعلمين، فإن الهرم القيادي ينقلب على رأسه، ويصبح غير قادر على اختيار الوجهة الصحيحة.

هذا الوعي لدى الراحل لا يتوافر لدى كثير ممن هم

> وما أظن الكاتب غافلاً عنه– هو أن الشعبية مسألة نسبية، فقد يظن الإنسان أن له شعبية، في حين أن شعبيته لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، الذين يمرون به غدوًا ورواحًا، وهو في الحقيقة لا يملك شيئاً من ذلك، وهو ما عبر عنه أحد النقاد الفرنسيين في وصف حركة الرواية الجديدة في فرنسا حين قال: «زوبعة في فنجان»

محط الأنظار؛ لذا نجد آراءهم تتقلب، ومواقفهم تختلف، لا بحسب ما يرونه، أو بحسب ما تبدو لهم الحقائق، وإنما بحسب ما يضمن لهم «الشعبية»، ويكفل بقاءهم في دائرة الأضواء، وهنا يتحول هو نفسه من قائد إلى عضو في مجموعة، ومن صانع للوعي إلى واحد من الغوغاء، يحظى بمنزلة أكبر من غيره.

ولأن الراحل أدرك هذا، ولم يستسلم «للشعبية»، أو يسقط في هالتها، فهي لم تكن عيبًا، ولا سببًا للطعن في أهليته، أو معنى يفسر من خلاله مواقفه، بدليل أنه لا يبالي بها حين يراها لا تتوافق مع المصلحة العامة التي اتخذها هدفًا له فيما يأخذ أو يذر. المصلحة العامة التي لا تأخذ بحسبانها الفئة الضيقة التي ينحدر منها، أو التي تضمن مصالحه، سواء كانت جهوية، أو طائفية، أو قبلية، أو فئوية.

وهنا نأتي إلى الفرق بين «الشعبية» و«الشعوبية» التي في أساسها تستمد قوتها من الشعوب التي تجد نفسها خارج النسيج الاجتماعي الرسمي؛ ما يشعرها بالغبن، وضياع الحقوق؛ وهو ما يجعلها بدوره تتعصب لمصالحها، دون النظر إلى ما يسوغ هذا التعصب، أو يبرر الحصول على المصلحة بوصفها حقًّا لها. وهنا تجد نفسها في مواجهة مع المؤسسة الاجتماعية؛ فتتحول إلى فئة لا تراعي القوانين، ولا تؤمن بها، كما لا تعتبرها (القوانين) ممثلة لها، ومن هنا فهي تسعى إلى أن تتجاوزها ما دامت بمعزل عن المحاسبة. وهنا تتحول «الشعوبية» إلى داء، وخلل ينخر في منظومة القيم الاجتماعية، ويهدد كيانها، وتصبح معضلة تحتاج إلى حل، وليست صورة من صور الوقوف ضد الظلم، أو التهميش، والإقصاء.

على أننا حين نتأمل هذه الرؤية «للشعبية» لا نجدها تختلف عن رؤية غازي القصيبي العامة في تصريف الأشياء، فالدكتور لا يولي اهتمامًا كبيرًا «للعدد»، و«الكثرة»، و«الحشد»، و«الجماهير»؛ إذ إن هذه القضايا أو المفردات لم ترد في حديثه كثيرًا، ولا تشكل «وصفة سحرية» ينبغي أن يتمكن منها لتكون طريقًا لتحقيق الأهداف، أو أنها وسيلة تحديد الصواب من الخطأ.

بل إننا نجد أنه يمكن أن يحسب من أنصار «النخبة» والمؤمنين بها على «الجماهير»، و«الخاصة» على «العامة». هذه النخبة تبدأ بالتكون - على رأيه - من الجامعة التي ينبغي أن تكون خاصة للمتميزين، وأصحاب المعدلات العالية، فتكون مكانًا تمنع الجماهير من دخوله، ويأخذ فيه الداخلون العناية الكاملة من التعليم، والتدريب، حتى إذا تخرجوا وجدوا أماكنهم في المؤسسة الإدارية جاهزة؛ ليساهموا في التنمية الشاملة للمملكة.

وهنا تتحول القيادة والعاملون في الدولة - كما يرى - ذات مواصفات عقلية معينة، تم اختيارها من الجامعة، وإمكانيات علمية ومهارية تم تعليمها وصقلها في الجامعة أيضًا، ولن يكون لمن لم يدخل في تلك المؤسسة «العصبية» الجامعة طريقًا إلى الدخول في المواقع المهمة في المؤسسة الإدارية.

هنا تصبح الفئة التي دخلت الجامعة منذ البدء نخبة مختارة من أصحاب المعدلات العالية، وتمر بمراحل صقل، وغربلة، على مدار سنوات الجامعة، فيتخرج منها صفوة الصفوة، هي النخبة الحقيقية العاملة في الدولة، وهي المعتمد عليها في تولي زمام الأمور القيادية بدرجاتها المختلفة، وعندها لا يصبح «للشعبية»، و«الجماهير» دور كبير في الإدارة، لأن النخبة تعلم مصلحتها، وتعلم الطريقة المثلى لتحقيق هذه المصلحة، وبناء على هذا فإن دور الجماهير، و«الشعبية» مقتصر على دعم النخبة، وتأييدها، والوقوف معها، وتسويق مشاريعها، والقضاء على العوائق التي تقابلها، وهو دور المساعد.

وهذه الرؤية رؤية تنموية جميلة جدًّا، لكنها رؤية حالمة، رومانسية تتفق مع طبيعة غازي الشاعر، تشبه مدينة أفلاطون الفاضلة، حيث لا مكان إلا للكُمَّل، لكنها ليست واقعية، ولا يمكن أن تتحقق، وهذا لعدة أسباب.

إن هذه المدينة الفاضلة التي يريد أن يجعلها أستاذنا الكبير المصنع الأول للنخبة (الجامعة)، ليست عصية على أيدي الفاسدين، فإذا كانت التجربة التي مر بها في الجامعة قد أعطته انطباعًا جميلاً عنها، فإن هناك حالات أخرى يقوم فيها المسؤولون بالجامعة بالاعتماد على عناصر تكونت بطريقة مريبة، فتجد فيهم من تورط بسرقة علمية، أو من تورط بالغش، والكذب، أو من خالف لوائح الجامعة وأعرافها في دراسته، وتكونه، فيجعلهم طريقًا لتقويم، وتسيير العناصر الأخرى التي تنطبق عليها المعايير «النخبوية» لأستاذنا الكبير، وهنا تصبح العناصر المفارقة للنخبوية، «التعلم»، ما دامت الإمكانيات المادية في القبول ممكنة.

ثم إن ربط التعليم بالتوظيف، بالرغم من أهميته في القضاء على البطالة، وفي تهيئة البنية التحتية للتنمية كما يرى الراحل، هو تركيز على الجانب النفعي التطبيقي للعلم، وعلى هذا ينبغي أن نغلق كثيرًا من أقسام العلوم الإنسانية التي لا تتصل بهذا الجانب التطبيقي.

كما أن حصر النخبة بمن تخرج من الجامعة أمر يخالف كثيرًا من الحالات، حيث نجد أصحاب المواهب، والمتميزين، ممن لم يكن لهم حظ الدراسة في الجامعة، ومع ذلك يكونون شعراء، ونقادًا، وكتابًا، وقياديين ناجحين، ساهموا في خدمة الثقافة، والمجتمع.

وهذا يدفعني للحديث عن مفهوم «النخبة»، فالكاتب لم يتحدث على وجه الحقيقة عنها، لكن حديثه عن طريقة تجهيز الكوادر يكشف أنه يحددها فيمن تخرج في الجامعة، وتمكن من أن يتولى موقعًا كبيرًا في المؤسسة الرسمية، ولا شك أن هؤلاء جزء من النخبة، ولكننا لا نستطيع -كما مر من قبل- أن نحصرها بهؤلاء، فالنخبة هم الذين يتوافرون على مستوى من التعليم الجيد سواء كان عن طريق المؤسسات التعليمية النظامية، أو الاجتهاد الشخصي، مع قدر جيد من الوعي بالقضايا والظروف المحيطة بهم، وهذا يفتح المجال للمشاركة أو الاستفادة من جميع المكونات الوطنية على اختلاف مكوناتها العلمية والفكرية، والمهارية.

> على أننا حين نتأمل هذه الرؤية «للشعبية» لا نجدها تختلف عن رؤية غازي القصيبي العامة في تصريف الأشياء، فالدكتور لا يولي اهتمامًا كبيرًا «للعدد»، و«الكثرة»، و«الحشد»، و«الجماهير»؛ إذ إن هذه القضايا أو المفردات لم ترد في حديثه كثيرًا، ولا تشكل «وصفة سحرية» ينبغي أن يتمكن منها لتكون طريقًا لتحقيق الأهداف، أو أنها وسيلة تحديد الصواب من الخطأ.

لماذا الأذكياء أفضل حالاً مع عدد قليل من الأصدقاء؟

الجحيم هم الآخرون، على الأقل بالنسبة لأولئك الأذكياء حقًّا.

لا أحد يستطيع إنكار تأثير التواصل الإنساني ووجود الأصدقاء والعائلة على سعادة الإنسان، خاصة مع المعاناة الواضحة لإنسان المدن الحديثة من الوحدة والاكتئاب، وهي حالات سميت جميعها أمراض العصر.

عرضت صحيفة واشنطن بوست البحث الذي أجراه الباحثان "ساتوشي كانازاوا، ونورمان لي" عن نمط الحياة المرتبط بالسعادة والوحدة، واستخدما ما أطلقا عليه نظرية: "سافانا للسعادة".

ومن أجل تفسير البحث استطلعا عينة تتضمن 15000 شخص، تتراوح أعمارهم بين الـ18 والـ28، يعيشون في مناطق ذات كثافة سكانية متنوعة، ويتواصلون مع من حولهم بمعدلات مختلفة. وبعد تحليل البحث لخص العلماء الاستنتاجات في نتائج عدة:

أولاً، الأشخاص الذين يعيشون في مناطق ذات كثافة سكانية مرتفعة أقل سعادة.

ثانيًا، كلما ازداد التواصل مع الأصدقاء والأشخاص الذين يشعر الشخص بالراحة معهم زادت السعادة.

عوالم الأذكياء الصغيرة: تكفي حاجتهم

لكن طالما أن لكل قاعدة شواذ، فإنه لوحظ وجود استثناء لكل ما سبق، وهو يخص الأشخاص الذين يتمتعون بمعدلات ذكاء عالية، وبقدرات عقلية متفردة.

تقول الدراسة إنه كلما ارتفع معدل الـ IQ لدى الشخص انخفض احتياجه للتواصل المستمر مع الآخرين، فالأذكياء يشعرون بعدم الرضا عن حياتهم إذا زاد معدل النشاط الاجتماعي بها، أو زاد معدل تواصلهم مع أصدقائهم، كما أنهم لا يشعرون بالارتياح وسط الجموع، فعندما يقضي الأذكياء وقتًا أكبر مع أصدقائهم يصبحون أقل سعادة.

أدمغة الأشخاص الأكثر ذكاءً تعمل بطريقة مختلفة حيال عملية التواصل، فهم يفضلون العيش في عوالم صغيرة. بالنسبة لهم التفاعل الاجتماعي يعد شرًّا لا بد منه وليس احتياجًا جوهريًّا في حياتهم. الحقيقة أنه كلما اضطر هؤلاء العباقرة إلى التواصل بشكل متزايد قلت سعادتهم.

السبب في هذا الأمر يفسر عن طريق نظرية تسمى "نظرية السافانا في السعادة"، حيث تقول: إن الإنسان ليس عبارة عن جينات فقط، لكنه أيضًا يحمل ذاكرة أسلافه الذين عاشوا منذ آلاف السنين، أي إن أسلوب حياة الصيادين القدماء ما زال يؤثر علينا بشكل عام وعلى إحساسنا بالسعادة بشكل خاص.

نحن نشعر بالسعادة في المواقف نفسها التي كان أسلافنا يشعرون بالسعادة فيها منذ آلاف السنين. المجتمع عند أسلافنا في السافانا الأفريقية لم يكن يتعدى 150 شخصًا، مما يعني بمعاييرنا نحن أنهم كانوا يعيشون في قرية صغيرة، كثافتها السكانية شخص واحد لكل كيلومتر مربع. على الرغم من ذلك، كان عليهم البقاء سويًّا للتغلب على ظروف بيئتهم القاسية والخطيرة.

نحن نعيش الآن في عصر التكنولوجيا، محاطين بأعداد هائلة من الآخرين، لكن معظم الناس ما زالوا يحملون داخلهم ذلك الإنسان القديم. كأن أجسادهم تحيا في عصر بينما تحيا عقولهم في عصر آخر. الأجساد تسكن المدن العملاقة التي كثافتها ألف نسمة لكل كيلو متر مربع، والعقول تسكن صحراء السافانا. تنطبق هذه النظرية على معظم البشر وليس جميعهم.

العباقرة يتغلبون على الماضي

يتمكن العباقرة – بخلاف متوسطي الذكاء – من التغلب على الفجوة التي بين ذاكرة الماضي وظروف الوقت الحاضر. بشكل عام هم أكثر قدرة على التكيف من غيرهم. كأن الطبيعة تحاول من خلالهم إيجاد طريقة لحل المشكلات التطورية الجديدة. لهذا يتمكن العباقرة من العيش على طريقتهم الخاصة دون الارتباط كثيرًا بجذورهم، إن قدراتهم العقلية المرتفعة تمنحهم قدرًا من الحرية يجعلهم غير مضطرين للاعتماد على وجود الآخرين معظم الوقت، مما يعني العمل على أهدافهم بشكل مستقل هؤلاء الأشخاص منسجمون مع أنفسهم.

المصدر: washingtonpost

محمد بن سلمان في عيون الصحافة العالمية

شغل ولي العهد الأمير محمد بن سلمان، صفحات وسائل الإعلام الأجنبية، بشكل مكثف على مدار السنوات الماضية، لا سيما بعد أن قاد دفة التحول عن الاعتماد على النفط كمصدر رئيسي للدخل القومي، والتفكير في صياغة نسق مغاير لاقتصاد المملكة، ضمن رؤية **2030** الشاملة.

وعلى مدار الشهور الستة الأولى من عام **2017**، احتل الأمير الشاب – كما تصفه الصحف الأجنبية – مساحات واسعة من صفحاتها بشكل رئيسي، لا سيما وأنه استطاع تحويل مسار دفة القيادة إلى نسق أراد الغرب رؤيته في المملكة منذ سنوات طويلة.

د. علي بن محمد العطيف

أستاذ الحديث والدراسات العليا بجامعة الملك خالد

تباينت أقوال وآراء الصحافة العالمية في بيان شخصية ولي العهد السعودي محمد بن سلمان – حفظه الله – من حيث شخصيته، وقراراته، وإنجازاته، وشفافيته، وروحه الشبابية الصحراوية الصادقة.

نيويورك تايمز:

وصفت صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية ولي العهد الأمير محمد بن سلمان بالشاب الطموح الذي أتى في وقت صعب جدًّا من حيث النزاعات الإقليمية في منطقة الشرق الأوسط، إلا أنه استطاع أن يقوض كثير من الملفات المزعجة القابعة في دول الجوار، كما تمكن الأمير الشاب من بناء علاقات قوية ومتينة مع القادة الأجانب في الفترة السابقة بمن فيهم الرئيس الأمريكي دونالد ترامب.

وأضافت النيويورك تايمز إن "الأمير محمد بن سلمان يعمل بجد منذ مدة طويلة على خطة إصلاح شاملة في البلاد، وبناء اقتصاد متنوع والحد من الاعتماد الكلي على النفط ومشتقاته".

وأوردت الصحيفة في هذا السياق تقريرًا أكدت فيه أن تعيين الأمير محمد بن سلمان وليًّا للعهد كان منتظرًا بالعودة إلى صعود أسهمه في المدة الأخيرة وتأثيره الكبير في السياسة الداخلية والخارجية للمملكة.

وتشير الصحيفة إلى أن الأمير الشاب تمكن في مدة وجيزة من المتوقع كأحد أبرز المسؤولين السعوديين بفضل حيويته ونشاطه ليصبح أكثر الشخصيات تأثيرًا في السعودية والمنطقة حيث كان الأمير محمد بن سلمان وراء إنشاء التحالف العسكري لإعادة الشرعية في اليمن وكذلك رسم خطة الإصلاح الاقتصادي في السعودية والتي تهدف لإنهاء اعتماد أكبر منتج للنفط في العالم على عائدات الذهب الأسود ناهيك بأنه برز كحليف مقرب من البيت الأبيض.

وأشارت الصحيفة إلى أن تعيين الأمير محمد ولياً للعهد

كان قرارًا منتظراً على إثر عمله الجاد والكبير وتأثيره القوي في السياسة والتحولات المهمة التي تشهدها المملكة.

واعتبرت نيويورك تايمز أن نجم ولي العهد كان قد سطع بسرعة ما إن تقلد منصب ولي ولي العهد عام 2015 ساعيًا إلى الحد من اعتماد المملكة على مداخيل النفط في اقتصادها، مشيرة إلى أنه عرف باجتهاده في عمله لمعالجة أدق التفاصيل. وأضافت الصحيفة أن كثيرين في المملكة، لا سيما من الشباب، يعتبرون أنه يمثل الأمل لبلادهم بفضل مشروعه الإصلاحي المتكامل الذي أطلقه العام الماضي.

وما جاء في المقال الذي نشر بعنوان " الأمير محمد بن سلمان هو أمير الأمراء":

"الدبلوماسيون الحاليون والسابقون ممن يمتلكون خبرة طويلة في المملكة العربية السعودية، يقولون إنهم بالكاد يعرفون الأمير محمد، كونه نادرًا ما قام بمقابلة صحافية، حتى مع وسائل الإعلام المؤيدة للنظام السعودي".

كما نقل كيركباتريك عن "أحد المقربين أن الأمير محمد يهوى التزلج على الماء والرياضات المائية الأخرى، التي يمارسها على البحر الأحمر أو خلال رحلاته الأخرى، وهو من محبي "آي فون" وغيره من منتجات أبل. كما يقول أحد المقربين إنه منذ طفولته يحب دولة اليابان، ولا تزال هذه البلاد هي المفضلة لديه.

وتابع: "دور الأمير محمد الأكثر علنية كان يتمثل بإدارة مؤسسة الأمير محمد بن سلمان الخيرية (مسك)، الملتزمة بتطوير الشباب السعودي على نطاق واسع، حيث عقدت المؤسسة مؤتمرات عدة، عن استخدامات تويتر ويوتيوب، وطرحت فكرة استخدام الرسوم المتحركة اليابانية "المانغا" لعرض الثقافة العربية عبرها".

وختم: "أشاد كثير من السعوديين الذين التقيناهم في شوارع الرياض أخيرًا بالأمير محمد، حيث يُنظر إلى الأمير الشاب على أنه ممثل لـ70% من سكان المملكة، وهي الفئة السعودية الذين تقل أعمارهم عن الـ30 عامًا".

ومما ذكرته الصحيفة أن "الأمير محمد بن سلمان صار مبعوثًا دبلوماسيًّا، يجتمع إلى قادة العالم من الرئيس الأمريكي (السابق) باراك أوباما إلى (الرئيس الروسي) فلاديمير بوتين. بعد اجتماعهما عام 2015، صرح الرئيس أوباما لقناة العربية التي تملكها المملكة العربية السعودية بأن الأمير "يتمتع بالحكمة رغم صغر سنه". أما بوتين، وبعد اجتماعه إلى الأمير فقال "إننا نقدر أفكارك وطروحاتك".

كما أفادت الصحيفة بأن "الأمير المعين حديثًا وليًّا للعهد أثبت بما لا شك فيه، أنه يتمتع بالجرأة. فقد حاك رؤية 2030، التي تشكل خطة للإصلاح والتنوع في المملكة العربية السعودية التي يعتمد اقتصادها على النفط بدرجة كبيرة".

واشنطن بوست:

اعتبرت صحيفة واشنطن بوست الأمريكية ولي العهد الأمير محمد بن سلمان "عراب مرحلة التغيير التي تمر فيها السعودية"، من خلال رؤيته الطويلة الأمد لإيجاد بيئة صحية في مجال السياسية والاقتصاد، وجعل السعودية بلد ذو مكانة اقتصادية بعيدًا عن المجال النفطي.

رؤية VISION 2030

المملكة العربية السعودية

KINGDOM OF SAUDI ARABIA

وأشارت واشنطن بوست للمقابلة التلفزيونية التي أجراها ولي العهد الأمير محمد بن سلمان والتي أتهم من خلالها نوايا إيران في زعزعة المنطقة، حيث قالت الصحيفة بأن الأمير محمد بن سلمان يعلم بنوايا إيران التخريبية ويسعى إلى تحويل الاضطرابات إلى طهران بدلاً عن الخليج العربي.

وفي سياق متصل نقلت صحيفة واشنطن بوست الأمريكية عن كريستيان كواتس أولريكسن، وهو باحث في معهد جيمس بيكر للسياسة العامة في جامعة رايس في سياتل تأكيده أن تعيين الأمير محمد بن سلمان وليًّا للعهد يكسر الصورة النمطية التي ترسخت لعقود بأن القيادة يجب أن تكون لكبار السن حيث أثبت الأمير الشاب منذ تعيينه نائبًا لولي العهد ووزيرًا للدفاع كفاءة وحكمة في إدارة الأمور والتخطيط للمستقبل.

ونشر الكاتب الأمريكي ديفيد أغناطيوس مقالاً في صحيفة "واشنطن بوست" كشف فيه عن تفاصيل الحوار الأول الذي دار بينه وبين الأمير محمد، حين كان وليًّا لوليّ العهد، علمًا أن اللقاء الذي استمر 90 دقيقة، شكل استثناءً، نظرًا إلى نُدرة المقابلات التي يجريها الأمير.

وذكر أغناطيوس في مقاله: أنه "بعد مرور عامين على حملته مُحفزًا للتغيير في المملكة النفطية المحافظة، يبدو أن وليّ العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان بدأ بالعمل بثقة، واضعًا نفوذه للدفع بجدول أعماله للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي".

وأضاف: "واضح أن الأمير محمد، قد رسم الاستراتيجية العسكرية والسياسة الخارجية والتخطيط الاقتصادي. كما كوّن فريقًا تقنيًّا أصغر سنًّا وأكثر شبابًا من المسؤولين السابقين في المملكة".

ومما قاله أغناطيوس: "القوة المحركة خلف محاولة إعادة تصوير شكل المملكة هو وليّ العهد البالغ من العمر 31 عامًا، إذ بسلوكه المفعم بالطاقة والحيوية، يناقض تمامًا التحفظ الصحراوي التقليدي الذي يتسم به معظم المسؤولين السعوديين، وعلى خلاف الكثير من الأمراء السعوديين فهو لم يتلق تعليمه في العالم الغربي، ما مكنه من الحفاظ على طاقته القتالية التي تعد سببًا لجاذبيته لدى الشريحة السعودية الشابة".

ويقول أغناطيوس: "ببساطة، إن ابن سلمان يطمح إلى نقل المملكة المغلقة الحذرة إلى دولة تشبه الجارة الإمارات العربية المتحدة، بناطحات سحابها واقتصادها الحر. ويعترف الأمير أن هذا التحول الاقتصادي لن يحدث من دون تخفيف التقاليد الدينية المتشددة".

في سياق المقابلة، نقل أغناطيوس عن الأمير قوله: "إن المملكة تعمل بثقة للدفع نحو إصلاحات اقتصادية واجتماعية وتنمية قطاع الترفيه، وأن الشرط الأساسي والجوهري للإصلاح هو رغبة الشعب في التغيير". وأضاف الأمير: "الأمر الأكثر إثارة للقلق هو إذا كان الشعب السعودي غير مقتنع. في حال كان الشعب السعودي مُقتنعًا، فالسماء هي الحد الأقصى للطموحات".

وعلى خلفية مؤتمر "مبادرة استثمار المستقبل" الذي عقد في الرياض، وعن مشروع "نيوم" تحدثت الصحيفة عن خطة المملكة لبناء مدينة حديثة مستقبلية للمبتكرين، تعتمد على مصادر بديلة للطاقة، وكيف يمكن للمشروع الجديد أن يُوجد عددًا من الوظائف لجيل الشباب.

وشرحت كيف أخذت المملكة تتطور وتتغير منذ رؤية 2030 التي هدفت إلى استحداث طرق بديلة للموارد والاقتصاد، وكيف لهذه الطرق أن تنعش اقتصاد المملكة.

وتناولت وعود ولي العهد بمكافحة التطرف والدفاع عن الإسلام المعتدل الذي من شأنه أن يساعد على النمو والتطور، وكيف ستعمل المملكة على هزيمة الأفكار المتطرفة وضمان أن يعيش الشباب السعوديون في وئام مع بقية العالم.

شبكة "بلومبرج" الأمريكية:

تطرقت شبكة "بلومبرج" الأمريكية، للأمير الشاب ووصفته بالشخصية الطموحة القادرة على تغيير العالم ونقل بلاده إلى صدارة الاقتصاد العالمي، برسم سياسات جديدة تحوّل المملكة من الاعتماد على النفط إلى مصادر عديدة وإصلاحات اقتصادية مهمة.

وتطرقت إلى تصريحات الأمير محمد بن سلمان بأن

السعودية عادت إلى الإسلام «المعتدل» وأنها تهدف إلى «القضاء على التطرف»، لتأتي متوافقة مع كل وعود الإصلاح وخطط بناء مدينة جديدة على ساحل البحر من شأنها أن توفر نمط حياة غير متوفر اليوم.

وتناولت تفاصيل مشروع «نيوم» وتشمل الخطة الطموحة للمدينة المقترحة، حيث خصص حوالي 10 آلاف ميل مربع لتنمية المنطقة الحضرية التي ستمتد إلى الأردن ومصر.

شبكة "سي إن بي سي" الأمريكية:

ووصفت شبكة "سي إن بي سي" الأمريكية، الأمير محمد بن سلمان، بأنه القادر على تغيير العالم؛ حيث إن خططه الاقتصادية ستسهم في تحقيق الحلم السعودي بتنويع مصادر الدخل بدلاً من الاعتماد على النفط وحده.

وأشارت إلى أن الأمير محمد بن سلمان، كانت إجاباته مدهشة وشفافة حول الخطة الاقتصادية التي تتضمّن تمكين المملكة من إنشاء أكبر صندوق استثمارات في العالم تفوق ميزانيته تريليونَي دولار.

وأضافت أن رؤية ولي العهد السعودي تمكّن بلاده من امتلاك كبريات الشركات العالمية، ووضع الاقتصاد السعودي في قمة الصدارة العالمية مشيرة إلى أنه يتضح من الحوار أن ولي العهد يتمتع بالكثير من اللباقة وسعة الأفق وناجح في إدارة الملفات المكلف بها رغم صعوبتها.

وأفادت بأن نجاح الأمير وشفافيته والأفكار الاقتصادية التي يقدمها تؤكّد أن العالم أمام نموذج جديد وغير معهود.

موقع فوربس:

أشاد موقع "فوربس"، بلقاء الأمير محمد بن سلمان، وطريقة التخطيط الجديدة للإصلاحات الاقتصادية التي يعتمد تنفيذها، مشيرة إلى أن خطط إنشاء صندوق للثروة السيادية بمبلغ هائل يبلغ تريليونَي دولار، وخصخصة جزء من شركة أرامكو العملاقة تؤكّد توجّه السعودية للاعتماد على مصادر عدة تكون مفيدة بشكل كبير في الاقتصاد الذي سيكون له مردود إيجابي على اقتصاد المواطنين السعوديين.

فاينانشيال تايمز:

أفادت "فاينانشيال تايمز"، أنه وفقًا للقاء يتضح أن ولي العهد قادرٌ على تحويل المملكة من الاعتماد على النفط والغاز إلى الاستثمار في مجالات عدة أهمها الطاقة والصناعة، والتعامل بشفافية ومنع الفساد، مشيرة إلى أن الصندوق السيادي سيسهم بشكل كبير في السيطرة على النفط وتقلباته.

وتطرقت إلى كيف ستكون «نيوم» أحد سبل تنويع الاقتصاد وإغراء للمستثمرين حول العالم.

وأسهبت في التحدث عن كيف ستبدأ المملكة في بناء مدينة جديدة يكون العاملون بها من الروبوتات، حيث ستكون مدينة المستقبل.

وكالة أسوشيتدبرس الأمريكية:

ذكرت الوكالة بعضًا من صفات هذا الأمير الشاب، وقال: إنه مغامر وطموح، وكان صعوده لأروقة السلطة في السعودية سريع بشكل مفاجئ، وتحدثت الوكالة عن الأمير الذي سيطر على سياسة الدفاع للمملكة في عمر الواحد والثلاثين، وإشرافه على الإصلاح الاقتصادي الهائل بدعم من والده، ورأت أن تعيينه وليًّا للعهد عزز مكانته كقوة رائدة في التحركات الكبرى التي قامت بها السعودية، وربما تحدد السياسة السعودية على مدار عقود قادمة، وهو يعتبر جريء ومغامر طموح.

صحيفة الإندبندنت:

لقبت صحيفة الإندبندنت البريطانية ولي العهد الأمير محمد بن سلمان بـ"المصلح الاقتصادي الجريء" والسياسي القوي الذي استطاع في مدة وجيزة بناء سياسة خارجية قوية للمملكة العربية السعودية، كما قالت الإندبندنت بأن الأمير محمد بن سلمان هو واجهة السعودية الحديثة.

ومن جهتها كشفت صحيفة الإندبندنت البريطانية أن تعيين الأمير محمد بن سلمان وليًّا للعهد يأتي في سياق سياسة التغيير التي تشهدها السعودية وفقًا لرؤية 2030 التي رسم الأمير الثلاثيني أبرز ملامحها والتي تقوم على إنهاء إدمان السعودية للنفط وخصخصة جزء من شركة أرامكو وفتح الباب أمام الترفيه في المملكة ورفع نسبة مشاركة المرأة في سوق العمل.

وقالت الصحيفة: إن سمو الأمير محمد بن سلمان، عرف عنه الحيوية والنشاط حتى بات أكثر شخصية تأثيرًا في المملكة وقد أنشأ التحالف العسكري الإسلامي لمكافحة الإرهاب والتحالف العسكري لإعادة الشرعية في اليمن وكذلك وقف ضد الهيمنة الإيرانية ومخططاتها الفوضوية في المنطقة مدافعًا بحزم عن أمن السعودية والخليج والمنطقة.

صحيفة "التايمز" البريطانية:

ذكرت صحيفة "التايمز" البريطانية أن الرؤية التي وضعها الأمير محمد بن سلمان في حال سارت كما هو مخطط لها، فإن صندوق الاستثمارات العامة السعودي سيصبح أكبر صندوق ثروة سيادية في العالم، وستتضاعف أصوله أكثر من 10 مرات بحلول عام 2030.

وتقول الصحيفة إن جزءًا من المبالغ سيذهب إلى الاستثمارات في خارج المملكة، ومن المرجح أن يتجه العديد من هذه الاستثمارات إلى شركات التكنولوجيا العالمية؛ بهدف الحصول على مردودات مالية جيدة، فضلاً عن بناء قدرات البلاد التكنولوجية.

ويشدّد تقرير "التايمز" على أن ولي العهد السعودي يأمل في أن يصبح الصندوق "القاطرة الرئيسة لاقتصاد كل العالم"، ولن تكون هناك أي حركة استثمارية أو تنموية في أي منطقة من العالم من دون أن يكون للصندوق صوت فيها.

ويوضح أن السعودية تعدّ من أكبر المستثمرين في شركة "أوبر" لخدمات النقل، بعد أن ضخت 3.5 مليار في هذه الشركة في عام 2015، وضمنت السعودية مقعدًا في مجلس إدارة إحدى أكبر شركات التكنولوجيا العالمية بتعيين ياسر الرميان عضوًا في مجلس إدارة الشركة.

ويشير التقرير، أيضًا، إلى أن السعودية تعهّدت العام الماضي بتقديم مبلغ 45 مليار دولار لـ"صندوق رؤية سوفت بنك"، وهو صندوق استثماري لمجموعة سوفت بنك اليابانية في مجال الاستثمارات التكنولوجية، وقد أطلق الأمير محمد بن سلمان وماسايوشي سون رئيس مجلس إدارة سوفت بنك، هذا الصندوق في العاصمة البريطانية لندن العام الماضي.

ويضيف: "بالنسبة لـ"سون"، الذي يعد أغنى رجل في اليابان، يمثل الصندوق جزءًا من خطة عامة "لتسريع ثورة المعلومات"، وقد تمكّن "سون" حتى الآن من جمع مبلغ 93 مليار دولار من الـ 100 مليار التي وضعها هدفًا للصندوق".

وتابع: "كما حصل صندوق الاستثمارات السعودي على نسبة 50% من أسهم شركة "أديتو"، واستثمر الصندوق 500 مليون دولار في شركة نون للتجارة الإلكترونية في الشرق الأوسط".

وبيّنت: "في عام 2015، اشترى الصندوق السعودي 38% من أسهم شركة "بوسكو" الكورية الجنوبية لصناعة الحديد، كما أطلق صندوقًا للاستثمار في مشاريع البنى التحتية والزراعة والرعاية الصحية في روسيا، بالاشتراك مع صندوق الاستثمارات المباشرة الروسي، فضلاً عن التعهد بمبلغ مليارَي دولار لصندوق استثماري في الشركات الفرنسية".

وتنقل الصحيفة عن مدير شؤون الخليج والعلاقات الحكومية في معهد الشرق الأوسط جيرالد فيرستين، قوله: "اعتدنا أن نسمّي ذلك دبلوماسية الدولار، لكن قد يمكننا الآن أن نسميها دبلوماسية الريال".

التليغراف البريطانية:

أشارت "التليغراف" البريطانية إلى تصريح ولي العهد حول عدم تخلي السعودية عن حصتها في سوق النفط ما لم تقم إيران والدول الأخرى المنتجة بذلك أيضًا، قائلة إن الأمير كان واضحًا في إجابته حول سياسة بلاده النفطية مع استمرار التحول التدريجي في تقليل الاعتماد على النفط.

وكتبت الصحيفة تقريرًا عن الأمير محمد، قالت فيه كاتبته شارلوت ليزللي إنها التقت الأمير بن سلمان ووصفته بأنه "ممتلئ بالطاقة وصاحب نظرة مستقبلية".

وشرحت كيف كان يوقف المترجم مرارًا ليصحّح بعض التعبيرات التي تعدّ أكثر ملاءمة للحوار، وأوضحت أنها عندما زارت المملكة لمست التطور الذي تشهده بصورة متسارعة.

وأطلقت على الأمير محمد بن سلمان لقب "المصلح الطموح" الذي يأمل في تحويل بوصلة الاقتصاد العالمية نحو بلاده من خلال رؤيته الطموحة 2030.

موقع ناشونال:

أعرب رئيس وزراء بريطانيا السابق توني بلير، عن إعجابه الشديد بظهور ولي العهد الأمير "محمد بن سلمان"، والذي وصفه بأنه الحدث الأكثر أهمية بالمنطقة في السنوات القليلة الماضية.

وأضاف "بلير" أن ذلك يعود إلى أن ولي العهد، لديه رؤية قوية وواضحة وحديثة للمملكة، وأيضًا لأن بإمكانه قيادة البلاد إلى المكان الذي ينبغي أن تكون فيه، كمركز نفوذ في المنطقة سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية.

وجاء ذلك خلال مقابلة أجراها رئيس الوزراء البريطاني السابق مع موقع the national الإماراتي الناطق بالإنجليزية.

صحيفة لوفيغارو الفرنسية:

أما صحيفة لوفيغارو الفرنسية فقد علقت على تعيين الأمير محمد بن سلمان وليًّا للعهد بأنها خطوة تؤكد "الثورة" السياسية والاقتصادية التي تشهدها المملكة في السنوات الأخيرة مضيفة بأن صعود الأمير محمد بن سلمان منطقي بما أن الأمير الشاب استطاع تغيير ملامح وصورة المملكة العربية السعودية التي أصبحت أكثر حزمًا فيما يتعلق بأمنها وأمن المنطقة وأكثر طموحًا لمنافسة اقتصادات كبرى الدول في القطاعات الغير نفطية.

كما أشارت الصحيفة الفرنسية إلى أن صعود الأمير محمد بن سلمان هي رسالة قوية مضمونة الوصول إلى إيران مفادها أن الأمير الحازم سيضرب بيد من حديد للجم سياسة التوسع الإيرانية في المنطقة خصوصًا في ظل تطابق المواقف السعودية والأمريكية التي تعتبر إيران تهديدًا لأمن واستقرار المنطقة لا يقل خطورة من تنظيم داعش الإرهابي.

ويست فرانس:

تطرقت ويست فرانس الفرنسية للإصلاح العام في المملكة، وركزت على الدور الإصلاحي للأمير محمد بن سلمان في الاقتصاد السعودي بإطلاقه مشاريع اقتصادية مختلفة.

فيما وصفت الصحافة الفرنسية عمومًا التغييرات الأخيرة بالخطوة الهامة التي تؤكد قوة المملكة واقتصادها، والعمل على تغيير ملامح وصورة السعودية التي تعد حازمة فيما يتعلق بأمنها وأمن المنطقة.

صحيفة "نيوز" الأسترالية:

صحيفة "نيوز" الأسترالية قالت في ذلك السياق، إن الأمير محمد بن سلمان بعمله الطويل مع والده العاهل السعودي الملك سلمان بن عبدالعزيز يملك خبرة قوية وواسعة، ويعد مهندس الرؤية السعودية الشهيرة 2030، مشيرة إلى أن 31 من أصل 34 عضوًا من أعضاء هيئة البيعة صوتوا لصالح التغييرات التي تمت بسلاسة وكل هدوء تؤكد مجددًا قوة المملكة في كل الظروف.

وكالة "رويترز" الإخبارية:

وقالت وكالة "رويترز" الإخبارية إن هذه الخطوة كانت مُتوقعة وسط الدوائر المُقرّبة، ولكنها جاءت بمثابة مفاجأة في وقت تشهد فيه المملكة تصاعدًا في التوترات مع قطر وإيران، وتخوض حربًا جوية في اليمن.

فوكس نيوز:

أما "فوكس نيوز" فذكرت أن انتقال ولاية العهد تمت بكل سلاسة وأناقة تؤكد النفوذ الكبير والتنظيم وقوة المملكة ودعم العائلة المالكة ووقوفهم متحدين في كل الأحوال، وهذه من المميزات التي تتمتع بها الأسرة الحاكمة السعودية ومن ركائزها الأساسية.

وأشارت إلى أن اختيار سمو الأمير محمد بن سلمان يأتي على إثر نجاحه وجهوده بجميع الملفات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

الصحف الباكستانية والهندية:

وأشادت الصحف الباكستانية والهندية كذلك بتعيين الأمير محمد بن سلمان وليًّا للعهد، مشيرة إلى أن مهندس الرؤية " 2030 " شخصية جادة وطموحة ويسعى لإنهاء إدمان السعوديين للنفط، وتنويع مصادر الدخل، وتمكين المرأة، ووضع حلول للبطالة وفتح مجالات اقتصادية أكبر وجذب الاستثمارات الخارجية مع العمل على الإصلاحات الاجتماعية.

معهد واشنطن:

أما معهد واشنطن فأشار إلى أن الأمير الشاب وقف ضد الحوثيين ومليشيات إيران الفوضوية في اليمن لإعادة الشرعية وعمل على استعادة جزيرتي تيران وصنافير في البحر الأحمر من مصر، كما أنه الشخصية الرئيسة في الإصلاحات التي تشهدها المملكة في كل المجالات.

وبالإضافة إلى الأدوار الكثيرة التي سبق ذكرها، فإن الأمير محمد بن سلمان هو الشخصية الرائدة في "الرؤية 2030"، وهي خطة المملكة لإصلاح اقتصادها ومجتمعها رغم ضخامة الحواجز الثقافية وانخفاض عائدات النفط.

وأشاد "معهد واشنطن" بسلسلة التغييرات الجديدة التي تشمل أمراء شبابًا في الثلاثينيات من أعمارهم.

صحفيو بلومبيرغ:

كما أعاد صحفيو بلومبيرغ نشر المقابلة التي أجرتها الوكالة مع الأمير عندما كان وليًّا لولي العهد في أبريل 2016. والتي أوضح فيها الأمير حينها رؤيته للمملكة ولسياستها في المنطقة.

وول ستريت:

من جانبها، وصفت وول ستريت جورنال الأمير محمد بن سلمان بمهندس التغيير وقائد السياسة الخارجية الجريئة.

وقالت الصحيفة: إن التغيير في تسلسل القيادة في السعودية له هدف واحد وهو إدخال البلاد إلى العصر الحديث، مشيرة إلى أنها خطوة تعنى أن البلاد ستصبح أكثر نشاطًا، واعتبرت الصحيفة تولى بن سلمان ولاية العهد رهان على أنه يستطيع إجراء تحول مالي واقتصادي جذري في المملكة التي تصارع للحفاظ على القوة السياسية والاقتصادية من خلال ثروتها النفطية.

موقع Business Insider:

استطرد في الحديث عن المدينة الضخمة والتي تنوي المملكة بناءها بهدف تنويع اقتصادها للتركيز بشكل أقل على النفط الخام، وكيف ستعمل المدينة عن طريق الطاقة المتجددة بنسبة 100% وستكون 33 ضعف حجم مدينة نيويورك.

وأشارت إلى المقطع الإعلاني عن «نيوم»، والتي سيتم تشغيلها بالطاقة المتجددة كليًّا، ووصفها بكونها «وجهة للمستقبل» و«فرصة لتصميم أفضل طريقة للحياة».

صفحات في التاريخ السياسي القديم: سياسة حكّام بلاد فارس تجاه الخليج العربي (550 ق.م – 652 م)

أ.د. قصي منصور التُركي

باحث وأكاديمي مختص في تاريخ وحضارة المشرق القديم

العراق

■ شيء عن اسم فارس والخليج العربي:

إن أقدم الإشارات الواردة حول اسم فارس أو القبائل الفارسية لا يتعدى القرن التاسع قبل الميلاد، فأول إشارة تاريخية مهمة وردت في كتابات الملك الآشوري "شيلم نصر الثالث" وتحديدًا في عام حكمه السادس عشر عام 843 والرابع والعشرين 835 قبل الميلاد، حيث يذكر لنا هذا الملك اسم قبيلتين مهمتين وهما قبيلة "أمادي" (Amadai) أو "مادا" (Màda)أي الماذيون، وقبيلة باسم "بارسوا" (Parsua) أو"بارسا" (Parsa) أي فارس، وقد تكررت الإشارات إلى هاتين القبيلتين لدى كتابات الملوك الآشوريين اللاحقين دون غيرهما، مما يعني أن أكبر القبائل الإيرانية الأصل وأشهرها، "الماذيون" و"الفرس". وقد أمكن تتبع اتجاه وانتقال هاتين القبيلتين الكبيرتين في بلاد إيران حتى استقرارهم في الموطن التاريخي الخاص بهم، فتبين أن الفرس اتخذوا من الجهة الجنوبية الغربية لإيران منطقة لاستقرارهم، بينما فضّل الماذيون الاستقرار شمالاً وراء الحاجز الجبلي بمحاذاة بلاد الرافدين غرب إيران، بيد أن الغلبة كانت على الدوام للقبائل الماذية، وفي المعتقد كان الفرس دون الماذيين مرتبة. إذ حكموا في موطنهم مستقلين مرة وتابعين للماذيين مرة أخرى وذلك في حدود القرن السابع قبل الميلاد، إلى أن فرض الملك الماذي "كياخسار" Cyaxares 633 – 584 سلطته الكاملة على الفرس، حتى ظهر بين الفرس قائد محنك اعتبر مؤسس الإمبراطورية الفارسية الأخمينية ويدعى "كورش" (Kurash) الأكبر(558 – 530 ق.م)، فبوصول هذا الملك أصبح للفرس شأن عظيم في التاريخ خاصة بعد أن تمكن من غزو بلاد بابل سنة 539 ق.م وفرض سيطرته على أجزاء كبيرة من الشرق الأدنى القديم.

نستنتج مما سبق أن الوجود الفارسي لم يتعدى من حيث الاستيطان والاستقرار المساحة الواقعة خلف الجبال المحاذية للساحل الشرقي للخليج، وذلك في حدود القرن التاسع قبل الميلاد، بينما كان تواجدهم بشكل رسمي في حدود القرن السادس قبل الميلاد. أما اسم إيران الذي تعرف به اليوم فلا يتعدى استعماله أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، فأول استخدام للاسم جاء بصيغة «أريانا» (Ariana) وذلك على لسان الجغرافي "اراتوسثينس" (Eratosthenes)من 276 إلى 194 قبل الميلاد. وبالمقابل نجد اسم الخليج العربي ككيان سياسي مستقل ووجود حضاري لممالك عظيمة (مملكة دلمون ومملكة مجّان) من الألف الرابع والثالث قبل الميلاد باعتبار المنطقة مجال مائي مرة، ومنطقة لأرض غير محددة مرة أخرى، حيث تشير الأدلة التاريخية إلى أرض عرفت بأرض البحر أو القطر البحري وأخذت ضمن التسلسل التاريخي لحضارات بلاد الرافدين المتعاقبة باسم سلالة مستقلة، هي "سلالة القطر البحري" وبالبابلية "مات تامتيم" (Mat Tamtim)، والتي لا يعرف على وجه الدقة امتدادها لكنها شملت في الغالب كلاً من منطقتي الخليج العربي وأهوار جنوب العراق. أما اسم الخليج فإنه يقترب من حيث المعنى واللفظ العربي أكثر مما يقال عن كونه خليجًا فارسيًّا، إذ إن جميع الأدلة اللغوية في الكتابات المسمارية من الألف الثالث والثاني قبل الميلاد، (ينظر كتاب الباحث والمعنون: عروبة الخليج، حقائق جغرافية ولغوية، دمشق، 2011) تشير إلى إن اسم الخليج يلتصق بالممالك الخليجية ولا ينتسب البته بأي ذكر للفرس أو غيرهم ممن حكموا الهضبة الإيرانية، فمن أولى الكتابات الآشورية نجد الخليج باسم "نار مارّاتو" (Nar marratu) أي بمعنى "النهر المر" (المالح)، والتطابق واضح في اللفظ والمعنى العربيين لأن اللغة الآشورية (Assyrian Language) لهجة رئيسية تنتمي إلى اللغة الجزرية (العربية الأم)، علمًا أن الآشوريين كانوا يطلقون كملة "نهر" على النهر والبحر معًا، وهنا جاءت بالمفهوم الحديث للخليج.

■ الدولة الفارسية الأخمينية (550 - 331 ق.م) وسياستها تجاه الخليج العربي

تُعد الدولة الأخمينية (Achaemenides) أول الدول ذات الكيان السياسي التي حكمت بلاد إيران، فهناك معلومات متناثرة عن فترة حكم وتأسيس الدولة، تؤكد أنه قد حدث اتحاد للقبائل الفارسية في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، تكون على إثره، قيام دولة تزعمها رجل يدعى (أخمينس) وبذلك تكون تسمية الأخمينين، نسبة إلى هذا الملك، الذي كان مقر حكمه في سهل بختياري.

أما أقدم الإشارات المسمارية عن الدولة الأخمينية تعود إلى الملك الأشوري (سنحاريب 681-669 ق.م) حيث ذكر بأنه واجه قوات من الجيش الأخميني بقيادة (أخمينس) التي صارت الدولة باسمه. ومن ملوك الدولة الأخمينية (كورش الثاني) (559-530 ق.م)، كانت له طموحات سياسية وعسكرية عالية، ساعدت الظروف الدولية المحيطة به، على تحقيق تلك الطموحات، خاصة ضعف الدولة البابلية من جهة وبلاد ميديا من جهة، فأعلن استقلاله عن الدولة الميدية وأسس الدولة الأخمينية بشكلها الحقيقي. فبدأ سياسة توسعية تهدف إلى السيطرة على الأقاليم البعيدة عن الدولة الأخمينية، واستطاع السيطرة على بلاد بابل ثم بلاد ميديا وأخيرًا مملكة ليديا في آسيا الصغرى سنة (547ق.م).

وعلى الرغم من عدم وجود إشارات كتابية عن رغبة كورش الثاني الأخميني في التوسع نحو ممالك الخليج العربي، إلا أن ذلك لا يمنع من القول إنه قد توجه بأنظاره نحو احتلاله للخليج العربي، وهذا ما أكدته بعض الإشارات التي تحتاج إلى التثبت والتدقيق. أما خليفته وابنه الأكبر "قمبيز الثاني" (530-522ق.م) فإن المصادر الكتابية تؤكد بأنه احتل ممالك الخليج العربي.

لقد كانت سياسة الأخمينيين مع سكان الخليج تتسم بأنها سلمية، واعتبرت مناطق الخليج ولاية تابعة لهم، حيث عين قمبيز حاكمًا يبدو من خلال اسمه إنه من سكان المنطقة ويدعى "دايان شار أوصر" ومن خلال الاسم يتضح لنا بأنه اسم جزري، فأصبح هذا الحاكم نائبًا للملك قمبيز على القطر البحري (الخليج العربي)، وكان من سياسة الدولة الأخمينية فتح المناطق والسيطرة عليها وترك نائب يحكم بدلاً عنهم يؤمن لهم دفع ضريبة سنوية.

أما مدة حكم الملك "دارا الأول" أو "داريوس" (522 – 486 ق.م)، والذي يعد من الملوك الأقوياء للدولة الأخمينية، إذ قضى على العديد من الثورات والتمردات التي حدثت في المدن والأقاليم التي احتلها ملوك الدولة الأخمينية من قبله، سواء في بلاد بابل أو القطر البحري أو عيلام أو أشور أو ميديا أو على القبائل الأسكيثية، ثم عمل على تقسيم

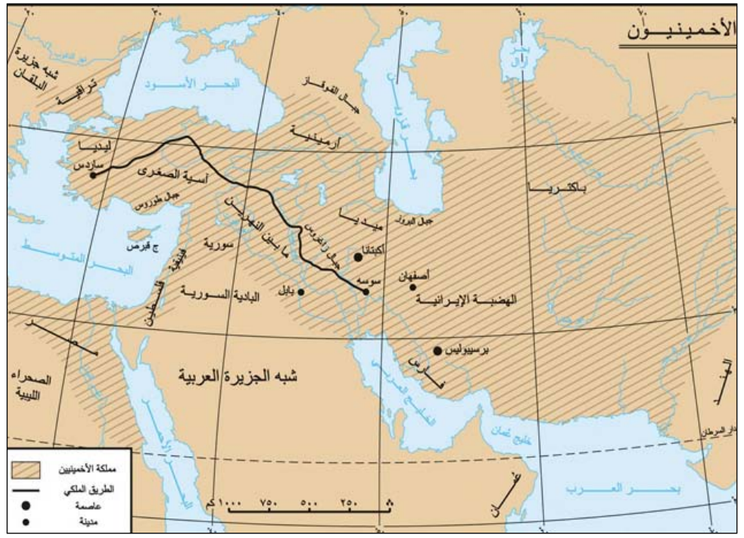

خارطة بلاد فارس خلال الفترة الاخمينية

> أما اسم الخليج فإنه يقترب من حيث المعنى واللفظ العربي أكثر مما يقال عن كونه خليجًا فارسيًّا إذ إن جميع الأدلة اللغوية في الكتابات المسمارية من الألف الثالث والثاني قبل الميلاد تشير إلى إن اسم الخليج يلتصق بالممالك الخليجية ولا ينتسب البته بأي ذكر للفرس أو غيرهم

الإمبراطورية الأخمينية الفارسية إلى عدة ولايات وسميت تلك الولايات باسم (ساتراب) وتعني مظلة الحكم، أي إنه لكل ولاية حاكمها الخاص ووالِيها الخاص، ومنحهم السلطة المطلقة لكنهم ملزمين بدفع الضريبة سنويًا، والهدف من هذا التقسيم هو التوثيق بين النظام الإقطاعي القديم وبين مركزية الحكم الذي فرضته السيادة الأخمينية على جميع المناطق والبلدان التي خضعت لسيطرتهم. ولم تكن مدن الخليج العربي بمعزل عن ذلك التقسيم الإداري فأصبحت ولاية تابعة للدولة الأخمينية وكانت تدفع لها ضريبة سنوية أثناء الحروب الفارسية اليونانية (490-478ق.م)، كما إن الملك داريوس أسكن أسرى من اليونانيين في مستوطنات على ساحل الخليج العربي.

أما في عهد الملك الأخميني أحشويرش (480ق.م)، فتذكر المصادر التاريخية إنه فرض سيطرته على مدن الخليج العربي ومنها تحديدًا مدينة (ماكا/ماكاي) الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بلاد العرب، كما يدعوها الجغرافي الشهير سترابو، والتي سمتها الكتابات المسمارية (مكّان) وهي عُمان في الجغرافية العربية. وعين أحشويرش حاكمًا على عُمان فأصبحت المدينة تابعة للعاصمة الأخمينية (برسيبوليس).

لقد خلّف الملك أحشويرش حكّام ضعفاء شهدت فترتهم تنافس على السلطة مما خلّف فوضى سياسية في الدولة الأخمينية الفارسية، ومن بين ذلك عمليات القتل التي قام بها الملك (أرتحششتا 465-424 ق.م) بقتل جميع أخوته. واستمرت الدولة الأخمينية بالضعف إلى أن تمكن الاسكندر المقدوني من هزيمة الفرس في معركة (كوكميلا 331 ق.م) والتي تعد من المعارك الفاصلة والمهمة بين الملك الأخميني (دارا الثالث) والملك الاسكندر المقدوني الذي تمكن من إنهاء حكم الدولة الأخمينة ودخلت بلاد إيران تحت سيطرة الحكم المقدوني، ثم وبوفاة الاسكندر أصبح السلوقيون الحكّام الجدد لبلاد فارس.

■ السلوقيون في بلاد فارس وسياستهم في الخليج العربي (323-247 ق.م):

يعود تاريخ تأسيس الدولة السلوقية إلى سنة (311 ق.م) عندما استولى أحد قادة الإسكندر "سلوقس" على مدينة بابل وسميت هذه الدولة باسمه. وتشكّلت مملكة كبيرة امتدت من تخوم الهند جنوبًا إلى حدود مصر غربًا ومن البحر الأسود شمالاً إلى سواحل الخليج العربي جنوبًا. كما ضمت أجزاء من أفغانستان وأرمينيا وتركمستان، ونظرًا لأتساع رقعة المملكة السلوقية وصعوبة إدارتها من مركز واحد انقسمت إلى قسمين هما: الأقاليم الشرقية بما فيها العراق وعاصمتها مدينة "سلوقية" على نهر دجلة، والأقاليم الغربية التي ضمت الشام وأجزاء من آسيا الصغرى وعاصمتها "أنطاكية" على نهر العاصي. وبذلك يكون الخليج العربي قد وقع تحت سلطة المملكة السلوقية الشرقية.

واشتهر العهد السلوقي في بلاد إيران والعراق والخليج العربي بإنشاء مراكز عمرانية وتعبيد الطرق البعيدة للمواصلات التجارية والسياسية، كان بعضها يربط عاصمة السلوقيين في العراق (سلوقية) ببلاد "البخت" النائية مارًا "بكرمنشاه" و"همدان". وفيما يخص الخليج العربي، فقد أسس السلوقيون ما لا يقل عن تسعة مدن في سواحل الخليج العربي من أجل إدامة العلاقات التجارية. وتذكر المصادر إنه في عهد الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث (223 - 187ق.م) قام بجولة على شواطئ الجزيرة العربية ومر بالجزر العربية المشهورة بصيد اللؤلؤ وتجارته (جزر عمان والبحرين). كما توجه نحو مدينة "الجهراء" وأعد أسطولاً سنة (205 ق.م) للسيطرة عليها كونها مدينة مشهورة بالذهب والفضة، فنضل سكان المدينة التفاوض مع الملك أنطيوخوس وأرسلوا هدايا من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، ومع ذلك هاجم المدينة وقام باحتلالها واصبحت تابعة للدولة السلوقية. وقد عثر على نقود يونانية في جزيرة (فيلكا) من بينها درهم ضربت في عهد الملك أنطيوخس يعود تاريخها إلى سنة (212ق.م).

وقد تكررت الإشارات حول سيطرة الحكم السلوقي على مدن الخليج العربي، والذي استمر إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، حتى مجيء الفرثيون فدخلت إيران ومدن الخليج العربي تحت سيطرة الفرثيين.

■ الفرثيون في بلاد ايران وسياستهم تجاه الخليج العربي (-247 ق.م- 226م):

الفرثيون هم أحدى القبائل الهندو- أوربية المتنقلة، عرفت تلك القبيلة باسم (فارني- بارني) وكانت تؤلف مجموعة من القبائل الأسكيثية الواسعة اسمها (داهي) كانت تلك القبائل تعيش في حياة بدوية في السهوب الممتدة بين بحر قزوين وبحر أورال واشتهرت تلك القبائل بالحرب والفروسية، وعرفت باسم الأشكانيين نسبة إلى جدهم "أشك بن أشكان" وورد في كتابات الأخمينيين إن الفرثين هم سكان إقليم (بارثافا).

خاض الملك الفرثي "أرشاق" الصراع مع السلوقيين حتى تمكن من تحقيق الانتصار عليهم وأعلن نفسه ملكًا، وأسس عاصمة سماها (أرشاق) كما سمي الفرثيين بالأرشاقيين.

وخلال حكم الفرثين حدثت الهجرة العربية الكبيرة لقبائل تنوخ التي استقرت في بادئ الأمر في البحرين، ولما تكاثرت القبائل في البحرين تحالفوا وتعاقدوا على التناصر والتساعد فصاروا يدًا واحدة بعد ضمهم بطون من قبائل عديدة وكان اجتماعهم أيام ملوك الطوائف وكان للفرثيين مراكز للنشاط التجاري والحضاري في مدن عدة من الخليج العربي.

■ الدولة الساسانية (226 - 652 م) وسياستها تجاه الخليج العربي:

تنتسب الدولة الساسانية إلى جدهم "ساسان" الذي كان كاهنًا بمعبد (أناهيتا) في مدينة (أصطخر) في إيران والتي كانت عاصمة الإقليم كان يحكمها ملوك محليون من الأسرة البازنجية، وكان ساسان قد عين أبنه "أردشير" (226-241 م) قائدًا عسكريًا على بلاد فارس، كما تولى على حكم الدولة الساسانية ملوك اقوياء مثل "شابور الأول" (241 - 272م) والملك "كسرى أنوشيروان" (531-579م). ودخلت بعد ذلك مرحلة من الضعف والفوضى تمثلت بمجيء ملوك ضعفاء وعمليات قتل للملوك وبروز دور القادة العسكريين في الصراع الساساني البيزنطي، وأخيرًا كثرت المعارك بينهم وبين المسلمين وأدت في النهاية إلى انتصار المسلمين في معركة "نهاوند" عام 652م التي سميت بفتح الفتوح.

أما بخصوص سياسة الدولة الساسانية مع مدن الخليج العربي، فقد تمثلت بالعداء وخضعت القبائل العربية الساكنة في شرق شبه الجزيرة العربية لحكم الدولة الساسانية بقوة السلاح، إذ عبر "أردشير الأول" مياه الخليج إلى الجزيرة العربية فغزا عمان واليمامة، ثم سار إلى البحرين فتمكن من السيطرة عليها بعد أن عجز ملكها من الصمود بوجه الجيش الساساني، وبهذا أصبح العرب في شرق الجزيرة العربية جزءًا من الدولة الساسانية، فانتقل عدد من سكان البحرين بعد ذلك إلى بلاد إيران واستقروا فيها مستغلين فترات الضعف التي مرت به الدولة الساسانية خاصة بعد وفاة الملك "هرمز الثاني" (302-309 م) وتولي ابنه "سابور" العرش وكان طفلاً، فعبرت الخليج أعداد كبيرة من سكان الخليج من البحرين وكاظمة ونزلوا أبوشهر وسواحل أردشير وبعض مناطق إقليم فارس، فغلبوا على أهلها، وسكنوا تلك المناطق لا يغزوهم أحد.

ومنذ بداية القرن الرابع الميلادي اضطربت العلاقة بين عرب شرق الجزيرة العربية والساسانين فقد استغلت القبائل العربية صغر سن الملك سابور الثاني (309-379م) فخرجت عن الدولة، وعبرت قبائل منها إلى الساحل الشرقي للخليج العربي واستوطنت مناطق واسعة من كرمان وفارس وغلبت على أهلها أيضًا، الا أن الوضع لم يستمر أذ تمكن "سابور الثاني" من إعادة السيطرة على القبائل في شرق الجزيرة العربية وقام بعمليات تعذيب بشعة تمثلت بخلع أيديهم من أكتافهم حتى لقب بـ "سابور ذو الأكتاف". رغبة منه في تخويف العرب والقبائل العربية التي كانت تقطن في كلا الشاطئين من الخليج العربي.

وعندما كبُر الملك "سابور" وبلغ سن السادسة عشر وقوي على حمل السلاح، بدأ بمحاربة القبائل العربية في الأقاليم الإيرانية التي استوطنوها فقتل وأسر أعدادًا كبيرة منهم، ثم عبر البحرين فغزا قبائل "عبد قيس" و"تميم" و"بكر بن وائل" و"تغلب"، ثم قام بإجلاء بعض قبائل تغلب إلى مدينة دارين والخط وقبائل عبد قيس إلى هجر، ومن كان من بكر بن وائل إلى كرمان، ومن كان من بني حنظلة إلى الرميلة والأحواز. وكان يهدف من سياسة الترحيل هذه تمزيق وحدة الصف العربي والقضاء على اللحمة الوطنية بين أبناء الخليج العربي، بيد أن ذلك كان حلم سابور ومن أعقبه من حكام بلاد فارس قديمًا وإيران حديثًا.

ونختم هذه الصفحات التاريخية عن سياسة حكام الأراضي الإيرانية في التاريخ القديم وأحلامهم في بسط سيطرتهم على ممالك ودول الخليج، بما دوّنه أحد الكتّاب الغربيين من المؤرخين والرحالة وهو المستشرق الدنماركي "كارستن نيبور" (Karsten Niebuhr)، والذي طاف "باليمن" و"الخليج العربي" وزار أطلال "فارس" و" آشور" عام 1763 للميلاد، فألف مؤلفًا يصف فيه بلاد العرب وسواحل الخليج العربي بالقول: "من المضحك أن يصوّر جغرافيون جزءًا من بلاد العرب كأنه خاضع لحكم ملوك الفرس، في حين أن هؤلاء الملوك لم يتمكنوا قط من أن يكونوا أسياد البحر في بلادهم الخاصة، لكنهم تحملوا صابرين على مضض أن يبقى هذا الساحل ملكًا للعرب".

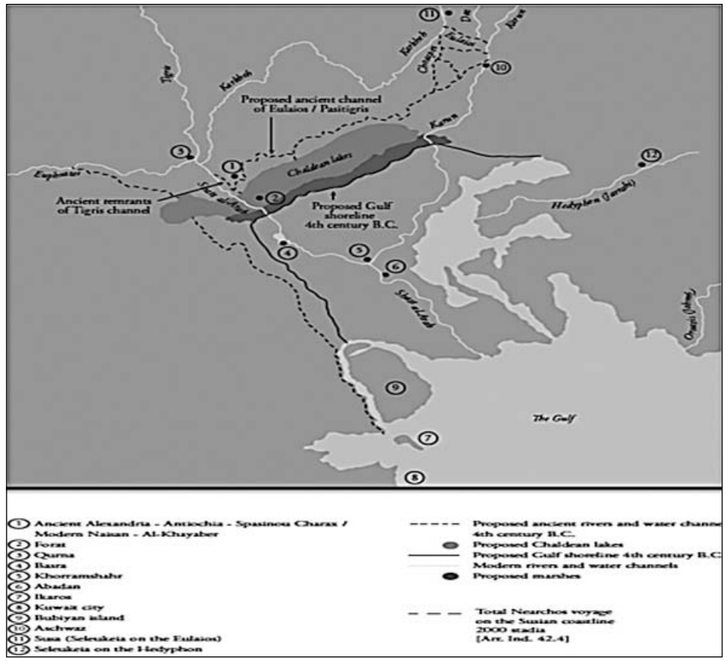

خارطة الخليج العربي بشاطئيه الشرقي والغربي والمناطق الجغرافية للدولة الفارسية

فرار

بهجت صميدة
مصر

أعودُ مع اللغةِ البِكْرِ حُرًا ..
أفكُّ قيودَ المساءْ،
وأفتح في قلبِ قلبي مزارًا
لكلِ الحروفِ التي هاجرتْ
من قواميسِها؛
علّها تبدأُ الآنَ رحلتَها من جديد،
تُفتّشُ في جنباتِ العروقِ
عن الوَرْدِ يُخرجُ كلَّ روائحِه؛
كي تزيلَ السدودَ
التي بين قلبي وبيني.
فما بيننا ألفُ ميلٍ وميلْ.
مَشَاها دَمي في هوى المستحيلْ.
أُجمِّعُ من زهراتِ الصباحِ الجنودَ،
وأُطلقُ كلَّ خيولِ الندى باتجاهِ الحروفِ
وأقرأ سورةَ (يس)،
كلُّ العروشِ تفرُّ،
ولا يتبقى سوى اللغةِ المستميتةِ
تلك التي بايعَتْها الدهورُ؛
لتُكتبَ بالقلبِ،
ترفضُ غزوَ الشياطينِ،
تبني على سطحِ رأسي منارًا،
يُؤذّنُ بالشعرِ فيهِ،
تُقامُ القصائدُ،
يُساقطُ النورُ فوقَ البيوتِ،
ويمسحُ كلَّ الزجاجِ،
تُحصّنُني اللغةُ المرميةُ
ضدَّ ترابِ القبورِ،
وتكتبُ عهدًا - على صفحةِ القلبِ -
كي أستعيدَ تهجّيَ كلِ حروفِ النهارِ
الذي صنعَ الحلمَ منذ التقينا،
وأطلقَ كلَ العصافيرِ نحو النجومِ ..
فيا لغةً تشربُ الدمعَ؛
كي تُنبتَ الوردَ ..
إنَّ بقلبي سطورًا
أفيضي عليها الحروفَ
التي لن تقرَّ بغيرِ امتزاجِ الدماءِ
التي في العروقِ
بكلِ الدماءِ التي في السماءْ

موت المؤلف.. هل ثمة ضرورة؟

أ.د. بدر الدين مصطفى

أستاذ مشارك بقسم الفلسفة- كلية الآداب
جامعة القاهرة

في العام 1967 نشر الناقد والمفكر الفرنسي رولان بارت (1915 – 1980) مقالته "موت المؤلف" La Mort De Lauteur ليقلب حال النظرية الأدبية المعاصرة رأسًا على عقب، وليضع بذلك أحد المصطلحات البارزة والمؤثرة في الجماليات والنقد الفني المعاصر. لقد قال بارت "إن النص من الآن فصاعدًا على كافة مستوياته وبجميع أدواته، منذ صناعته وحتى قراءته، يظهر بشكل يغيب فيه المؤلف غيابًا كاملاً". ويدعو بارت إلى أن نحذف من قاموسنا كلمة "مؤلف" لنحل محلها "الكاتب"Le Scripteur. والكاتب – وفقًا لبارت- ليس في داخله "عواطف" ولا "أمزجة" ولا "مشاعر" ولا "انطباعات". لا يوجد لديه إلا ذلك القاموس الضخم الذي يستمد منه كتابة "نشاطًا لفظيًا" لا يمكن أن ينفد أبدًا "فالحياة لا تعرف شيئًا سوى أن تحاكي الكتب وما الكتب ذاتها إلا مجرد أشياء مصنوعة من العلامات".

العمل الفني، وفقًا لبارت، مستقل تمامًا عن مبدعه. والمؤلف دوره ينتهي بكتابة النص، والعبء يقع بعد ذلك على القارئ في عملية القراءة، عبء اقتناص المعنى في تعدديته واختلافه، وهذا ما يجعل القارئ مشاركًا في عملية إنتاج النص. فدور القارئ لا يقل أهمية عن دور المؤلف، ولا يمكن فصل عملية القراءة عن الكتابة، إذ هما متلازمتان. والقارئ هو الذي يقرر معنى النص من خلال استرشاده بالعلامات التي يستخدمها المؤلف، لكنه لا يتقيد بها، ويمكنه أن ينتصر، من خلال النص، للمعنى الذي تستحضره العلامات في ذهنه، والذي يمكن أن يتغير من يوم لآخر ومن قارئ لآخر.

كان لمقولة بارت، التي باتت الآن معروفة بدرجة كبيرة في الثقافة العربية، تأثير كبير على الجماليات بوجه عام وعلى حركة النقد الأدبي على وجه التحديد، خاصة فيما اصطلح على تسميته بجماليات التلقي. ولعل أهم النتائج التي ترتبت على إعلان بارت موت المؤلف تمثلت في تحرير الفكر النقدي من سلطة الذات ومرجعيتها، وجعل العمل الفني هو المرجعية الوحيدة للناقد، هو المتحدث الأول والأخير.

من بين النتائج العديدة التي نتجت عن إعلان بارت موت المؤلف، والتي كان لها تأثير كبير على نظرية التلقي في نهايات القرن العشرين:

1 – لم يعد العمل الفني موضعًا لتسجيل الحدث أو مجالاً للتعبير أو انعكاسًا وجدانيًا. لقد أصبح التعبير الجمالي حالة من حالات التمثل الخالص للمتلقي. وهنا يمكن القول أن نظرية المحاكاة الكلاسيكية قد ذهبت بلا رجعة. إذ لم يعد الفن مرآة تعكس ما هو موجود في الحياة سلفًا، كما لم يعد الفن انعكاسًا لحياة الفنان وتجاربه. لقد غدا العمل الفني متحررًا من كل مرجعية سوى مرجعية ذاته. يموت المؤلف ويتحول التاريخ والموروث إلى نصوص متداخلة، ويتم الاحتفال بمولد القارئ.

رومان إنجاردن

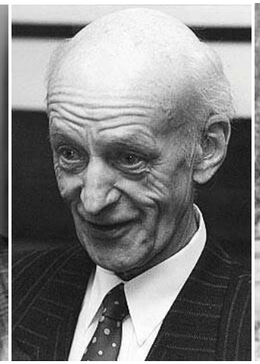

فولفجانج إيزر

هانز روبير ياوس

2 – تحرر العمل الفني من سيطرة التفسير الأحادي الذي كان مسيطرًا على الاتجاهات النقدية الكلاسيكية. فالعمل الفني ليس إطارًا أو شكلاً يملأه الفنان بمعنى ثابت وسرمدي، بل بنية دلالية افتراضية، محققة من طرف المتلقين المتعاقبين عليه. لقد صار العمل الفني ميدانًا للعلامات التي تتفجر إلى ما هو أبعد من المعاني الثابتة، إلى المعاني اللانهائية التي تتحرك منتشرة فوق العمل مخترقة كل الحواجز؛ وهذا ما كان يعنيه بارت بالانتشار Dissemination.

3 – ليس المعنى هو ذلك المعنى الجاهز المختبئ داخل العمل الفني، بل هو ذلك الذي ينشأ نتيجة للتفاعل بين العمل والمتلقي؛ أي بوصفه عملاً يمكن ممارسته واكتشافه من جديد، وليس موضوعًا يمكن تحديده والتقيد به. وبناء على ذلك، فإن قراءة العمل الفني لا تمثل إعادة وتكرارًا للقراءات السابقة، بل هي تحتضنها وتتجاوزها إلى قراءة إبداعية مغايرة وبديلة.

4 – لا تعيش الأعمال الفنية منعزلة عن بعضها البعض، بل لها عالمها الافتراضي الذي تتقاطع بداخله وتتداخل في علاقات منتجة. إن عالم الفن هو عالم التكرار والاختلاف، وميدانًا للعود الأبدي، عودة المختلف. فالحبكات التي يتحرك فيها الفن هي في النهاية محدودة، وكذا موضوعاته، لكن حركة التقاطعات التي تحدث بين الأعمال الفنية هي التي تنتج أعمالاً لا نهائية.

5 – لقد تم استثمار النتائج السابقة في صياغة نظرية أكثر تطورًا على يد أمبرطو إيكو في نظريته عن العلامات وتطبيقاته على فني الأدب والتصوير، ومن بعده مدرسة كونستانس Konstanz على يد رائديها هانز روبير ياوس H. Robert Jauss (1921– 1997) وفولفجانج إيزر W. Izer (1926– 2007)، اللذين قاما بالتقريب بين الفينومينولوجيا، وخاصة فينومينولوجيا رومان إنجاردن R. Ingarden (1893– 1970)، ونظرية القراءة، ليكون نتاج ذلك ما أطلقوا عليه جماليات التلقي. وقد فتحت جماليات التلقي أفقًا جديدة في الممارسة الفنية النقدية، بحيث حاولت أن تتخفف من مركزية النص وسلطته التي رسخها بارت، ومن بعده التفكيكيين، لتؤكد على أن عملية القراءة تسير في اتجاهين متبادلين من النص إلى القارئ، ومن القارئ إلى النص في إطار علاقة تفاعلية.

وعلى الرغم من تلك النتائج المهمة التي ترتبت على أطروحة بارت، فقد تعرضت أيضًا لانتقادات عديدة، فالبعض رأى أنها استبدلت سلطة المؤلف بسلطة النص، استبدال مركز بمركز آخر. وقد دفعه هذا الاحتفاء إلى نوع من التقديس الميتافيزيقي للنص "ليس وراء النص فاعل أو مسند إليه (كاتب) وليس أمام النص مفعول به (قارئ)؛ لا فاعل ولا مفعول به، النص يجعل المواقع النحوية غير ذات صلاحية...". والبعض الآخر رأى أن إعلان بارت به نوع من الافتعال غير المبرر، وأنه لا يمكن بحال تجاوز المؤلف، كما لا يمكن إلغاء السياق الثقافي والاجتماعي الذي يدور النص في فلكه. كما أن بارت في تحليلاته اللغوية كانت تسيطر عليه، في بعض الأحيان، نزعة صوفية واضحة تجاه النص، جعلت الكثير من تلك التحليلات يبدو غير مفهومًا، ومواقفه تبدو متناقضة في الكثير من الأحيان.

وعلى الرغم من أن تحليلات بارت بالفعل كان لها الأثر الأهم في أن تخطو الجماليات خطوات متقدمة في نهايات القرن العشرين، خاصة في مجال النقد الأدبي، إلا أن إعلان بارت موت المؤلف لم يكن مقنعًا بالدرجة الكافية، وأسقط النقد الأدبي فيما أطلق عليه بارت حتمية الشكل، والذي ترتب عليه الاهتمام المفرط بالعلامات والدوال المستخدمة، وما تبع ذلك من الإغراق في التجريد، وافتقاد الشاعرية في التحليل، وصعوبة اللغة المستخدمة. إن من مقتضيات تمام العملية الإبداعية أن تكون هناك صلة نفسية ومعرفية بين أطرافها: المؤلف، النص، القارئ وذلك يتيح "حرية للقارئ في إعادة بناء النص، وإذا انتفت المسافة النفسية افتقد القارئ القدرة على ممارسة خبرة الإبداع في تذوق العمل الفني، وأضحى العمل الفني نوعًا من التغييب للقارئ، بينما تتيح المسافة النفسية أن يكون حضور القارئ مساويًا لحضور المؤلف لكي يدير حوارًا معه"، فكيف يحدث ذلك إذا افترضنا موت أحد أطراف عملية الإبداع وهو المؤلف.

لقد ألغى إعلان بارت تأثير الذات الإنسانية الفاعلة،

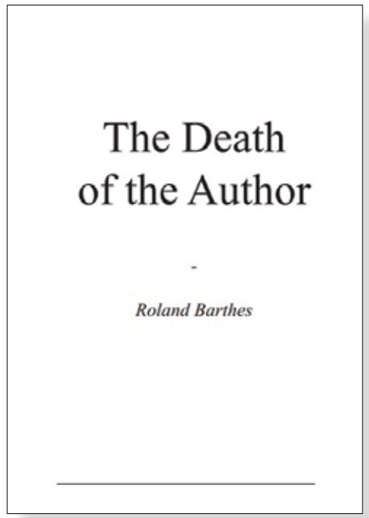

مقالة موت المؤلف نشرها بارت 1967

> وعلى الرغم من أن تحليلات بارت بالفعل كان لها الأثر الأهم في أن تخطو الجماليات خطوات متقدمة في نهايات القرن العشرين، خاصة في مجال النقد الأدبي، إلا أن إعلان بارت موت المؤلف لم يكن مقنعًا بالدرجة الكافية، وأسقط النقد الأدبي فيما أطلق عليه بارت حتمية الشكل، والذي ترتب عليه الاهتمام المفرط بالعلامات والدوال المستخدمة، وما تبع ذلك من الإغراق في التجريد، وافتقاد الشاعرية في التحليل، وصعوبة اللغة المستخدمة

والتي هي حصيلة التفاعل العام والشامل مع الوجود، وبذلك أصبح المنظور البنيوي للوجود لا علاقة له بكينونة الإنسان التاريخية والاجتماعية، بل بالعلاقات اللغوية الشكلية التي تعتمد المنهج الجمالي المجرد للأشياء التي تتشكل دلالاتها ذاتيًّا دون فعل الإنسان.

ورغم أن السيميوطيقا قد اعتمدت بصورة كبيرة على الإجراءات التي قدمها بارت إلا أن السميوطيقيون قد أدخلوا تعديلات جوهرية على رؤية بارت تسمح بتجاوز مقولته عن موت المؤلف، وكذا مقولته عن لذة النص:

فالعمل الفني، كما يذهب إلى ذلك موكارفسكي، لا يمكن مساواته بأي شكل من الأشكال بالحالة النفسية لمنشئة ولا حتى للظروف الاجتماعية التي ظهر فيها، العمل الفني مستقل عن ذلك بالفعل. غير أن الشيء الذي يمثل العمل الفني في عالم الواقع يظل قائمًا، وهو متاح لكل فرد كي يدركه بدون قيد أو شرط. فلابد أن تحيل العلامة إلى شيء ما، الفن علامة مستقلة خاصيتها الأساسية قدرتها على أن تستخدم وسيطًا بين أعضاء نفس الجماعة. وبالرغم من أن بعض العلامات لا تحيل إلى شيء معين إلا أنها يمكن قراءتها من خلال السياق الكلي الذي ظهرت فيه، أي الظواهر الإنسانية من فلسفة وسياسة ودين واقتصاد. وهذا هو السبب الذي يجعل الفن أكثر قدرة على تمييز عصر بعينه وتمثيله دون غيره من الظواهر الاجتماعية الأخرى، وهذا يفسر أيضًا السبب وراء اختلاط الفن طوال تاريخه بتاريخ الثقافة، والعكس صحيح أيضًا فقد نحى التاريخ العام إلى استعارة تقسيم تاريخ الفن في تحديد الحقب الزمنية. وبالإضافة إلى ذلك يذهب موكارفسكي إلى رفض النظريات الجمالية المبنية على الفرضية التي تقول إن غاية الفن هي اللذة. فالعمل الفني قد يولد لذة ما تكتسب موضوعية نسبية باعتبارها "دلالة إضافية" كامنة في العمل الفني، ولكن يكون من الخطأ إذا ما تم استخلاص نتيجة من ذلك مفادها أن هذه اللذة تكون جزء لازمًا وضروريًّا من عملية إدراك العمل الفني. فالفن ينزع في بعض مراحل تطوره إلى إثارة اللذة، غير أن هناك مراحل أخرى لا تكترث باللذة كلية بل تنحو إلى محوها وإثارة مشاعر مضادة لها.

وبعيدًا عن السيميوطيقا نجد بيير بورديو (1930 – 2002) Pierre Bourdieu يتخذ موقفًا ناقدًا من هذا الاتجاه، وهو بصدد تحليله لحقل الإنتاج الفني. فقد توصل بورديو في كتابه "قوانين الفن" إلى صيغة معتدلة لا تتجرف وراء التحليلات النفسية والاجتماعية، وفي الوقت ذاته ترفض القراءات الداخلية للأعمال الفنية التي تتجاوز الظروف التاريخية التي أنتجتها. فالعمل الفني ليس مجرد تعبير عن عبقرية الفنان، ولا هو مجرد انعكاس للظروف الاجتماعية والنفسية له، بل يتم إنتاجه من خلال الطابع الثقافي، الذي يعكس الأصل الاجتماعي والمسار الشخصي للفنان، وحقل- فضاء منظم من الاحتمالات- يحوي شتى المذاهب والأساليب المتنافسة كما تتحدد الاحتمالات ذاتها من قبل التطور التاريخي لذلك الحقل، فلا يوجد كاتب (أو فنان) يبتكر ببساطة أسلوبًا فنيًّا من عدم، بل هو يتخذ

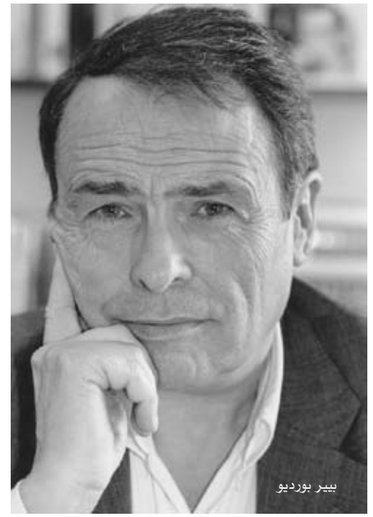
بيير بورديو

موقفه بناء على ما هو سائد من أنماط فنية وأساليب متبعة، فإما أن يختار تكرار ما هو موجود، أو أخذ نوع فني قائم ودفعه إلى أقصاه. لذا فإن كل تصريح فني يتضمن نوعًا من "اتخاذ موقف" فيما يتعلق بالأعمال القائمة والمواقف المائلة في الحقل الفني، وتنوع المواقف التي يستطيع أي فنان أن يتخذها في ضوء التاريخ السابق للحقل. وفي رأي بورديو، أن حقل الإنتاج الفني هو عالم من الثورة الدائمة والتمرد على الأساليب القائمة. وأن تفسير هذه الثورة يحتاج إلى فهم الحقل الثقافي بكافة مكوناته، خاصة أن هناك محددات تمارس تأثيرها على العمل الفني وعلى طرق استقباله لا دخل للفنان بها، ومنها الظروف الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية.

> "فالعمل الفني، كما يذهب إلى ذلك موكارفسكي، لا يمكن مساواته بأي شكل من الأشكال بالحالة النفسية لمنشئة ولا حتى للظروف الاجتماعية التي ظهر فيها، العمل الفني مستقل عن ذلك بالفعل. غير أن الشيء الذي يمثل العمل الفني في عالم الواقع يظل قائمًا، وهو متاح لكل فرد كي يدركه بدون قيد أو شرط."

من ناحية أخرى، ومن داخل البنيوية ذاتها نجد لوسيان جولدمان، رغم تأثره بأفكار بارت، كان مدركًا لخطورة الموقف الذي يقودهم إليه عزل المؤلف والسياق عن البنية اللغوية المكتفية بذاتها. وقد دعا جولدمان إلى ربط البنية النصية الداخلية بحركة التاريخ الاجتماعي والسياق الثقافي، ودمج بين أقانيم النص الثلاثة؛ الشكل والبنية والسياق، ورأى أن رؤية العالم تشكل مع البنية ذات الدلالة وحدة متكاملة، وذلك يفترض الانتقال من رؤية سكونية يفرضها ثبات البني اللغوية إلى رؤية دينامية شاملة ومتماسكة حتى نستطيع الإحاطة بالنص من جميع زواياه.

إن عزل الخطاب الأدبي عن السياق التاريخي والثقافي للنصوص أدى إلى قصور في النقد البنيوي، ولذلك نظر ميشال فوكو إلى الخطاب الأدبي بوصفه نشاطًا إنسانيًّا إبداعيًّا مركزيًّا، ولا يراه نصًّا عامًا يزخر بالدلالات بمعزل عن السياق التاريخي الذي يقتضي تغيرًا في الخطاب.

ومن منطلق مشابه يشير روبرت هولاب في كتابه نظرية التلقي، إلى أن كلاً من المعنى والبناء ينتجان من تفاعل القارئ مع النص، الذي يقارب العمل الفني بتوقعات دلالية مستمدة من المعارف التراكمية المشتركة والسياقات الثقافية والاجتماعية المتداخلة، أو ما يسمى "أفق التوقعات"، هذا الأفق بمثابة القواسم الدلالية المشتركة بين المؤلف والقارئ وهو الذي يحكم حركة المتناصات "إن التناص كالمؤلف تمامًا لا يكتسب وجوده إلا مع وعي المتلقي به، لنتصور مثلاً ما يحدث على مستوى الأفق الاستبدالي داخل النص من مفردات وصور ليست موجودة داخله، ولكنها بدائل كان من الممكن للمؤلف أن يستخدمها وهي في غيابها حاضرة في تحديدها للوحدات التي استخدمت بالفعل في السياق، وإذا لم يكن القارئ معدًا واعيًا بهذه البدائل على مستوى الاستبدال فلن يكون للنص داخل العمل قيمة ومعنى".

وقد اقترح البعض القيام بعملية إزاحة مؤقتة لسلطان المؤلف عن النص، ثم نعيده ضيفًا عليه "إن مفهوم الموت لا يعني الإزالة والإفناء، ولكنه يعني تمرحل القراءة موضوعيًّا من حال الاستقبال إلى التذوق، ثم إلى التفاعل وإنتاج النص وهذا يتحقق موضوعيًّا بغياب المؤلف، فإذا ما تم إنتاج النص بواسطة القارئ فإنه من الممكن حينئذ أن يعود المؤلف إلى النص ضيفًا عليه". وهذا المعنى نجده عند بارت في أعماله المتأخرة، يقول في مقالة له بعنوان من الأثر إلى النص "لا يعني هذا أن المؤلف لا يمكن أن يعاود الظهور مجددًا في النص، في نصه، لكنه لو عاد سيكون في صورة مدعو".

أخيرًا، إن منح القارئ هذه الأهمية لم يكن يتطلب بالضرورة "تهميش المؤلف" واعتباره "آلة ناسخة للكلمات"، فموت المؤلف هو في الأصل تهميش للإنسان، لوجوده وفاعليته. النص أنتج في غير زمان ومكان ومؤلف. تهميش للإنسان ضد الاحتفاء به في الاتجاه الحداثي "فعندما يتم عزل النسق يتم عزل التاريخ أيضًا، فتغدو الأبنية كلية لا زمنية، أو هي أجزاء اعتباطية من عملية تغيير غير تاريخية ومتحولة أبدًا".

هل أنت الوحيد الذي يشعر بالوحدة؟

الوحدة مثل الأوبئة الفتاكة قد تتسبب بقتلنا، وما يواجه أي مجتمع في العالم يمكن تعميمه على مجتمع آخر حتى لو كان يختلف عنه في الظروف والبيئة وشكل الحياة، لأنه ومع انصهار المجتمعات في بعضها صارت نقاط التشابه أوفر حظًا من نقاط الاختلاف.

حتى وأنت محاط بالجميع، يستمر صوت يهمس داخلك بأنك وحيد، وهذا ما أقره جورج مونبيوت في مقالة كتبها لصحيفة الجارديان، يتساءل فيها عن الاسم المفترض أن نطلقه على عصرنا، معتقدًا أنه ليس عصر المعلومات على الأرجح.

■ هل نعيش في العصر الحجري؟

شبه جورج عصرنا الآن بالعصر الحجري أو العصر الحديدي، إذ صار الحديث فيه عن التحف والقطع الأثرية أكثر من الحديث عن الإنسان والمجتمع.

التغير الاجتماعي ملحوظ، ويمكن اختصاره بعبارة واحدة "نحن في عصر الوحدة"!

■ هل الوحدة وباء؟

وصف العصر بهذه الكلمة ليس عصيًّا على الفهم، فالأبحاث درست الوحدة في إنجلترا خاصة، وكان انتشارها مأساويًا بين المسنين، ووباء شائعًا بين الشباب.

أجريت دراسة في عام 2014 ووجدت أن 700 ألف رجل وأكثر من مليون امرأة تتجاوز أعمارهم الـ 50 عامًا قد أفسدت الوحدة حياتهم.

■ هل تشبه الوحدة مرض الإيبولا؟

الوحدة تتغلب على الإيبولا عددًا في قتل الكثيرين، وقد تتسبب في الوفاة المبكرة.

إن لها الأثر نفسه الذي ينتج عن الاستمرار في تدخين 15 سيجارة يوميًّا، كما تزيد من احتمالات ظهور الأمراض العقلية وجنون العظمة والحوادث والقلق والانتحار، وارتفاع ضغط الدم أيضًا.

■ هل كان التغير سريعًا؟

حدث ذلك سريعًا، استقل الناس السيارات بدلاً من الحافلات، وبدلاً من السينما انتقلوا لمشاهدة اليوتيوب والمواقع المشابهة، إنها ليست الأسباب الوحيدة التي تفسر سرعة التغير في انهيار التواصل الاجتماعي، هناك أسباب أيديولوجية أخرى دعمت هذه العزلة طبعًا.

■ هل طال ذلك الأطفال أيضًا؟

تغيرت طموحات أطفال بريطانيا، لم تعد أقصى طموحاتهم أن يصبحوا سائقي قطارات، أو ممرضين، إذ ظهر في استطلاع نشرته صحيفة التلغراف أن 40% منهم يطمحون للثروة والشهرة ثم إن بريطانيا أقل شعوب أوروبا ميلاً لتكوين صداقات حميمة والتواصل مع الآخرين، لذا عرف عنها أنها عاصمة الوحدة في أوروبا.

■ هل انعزلت اللغة؟

لقد أصبحت كلمة "خاسر" تمثل إهانة قاسية، لغة البريطانيين تغيرت وهذا نتيجة تغير المجتمع نفسه.

الحديث اقتصر على محور الفرد، لم يعد هناك حديث جامع للناس، أصبح من النادر إكمال جملة كاملة دون إدخال مفردة "شخصي"، "إنها متعلقاتي الشخصية، أصدقائي الشخصيون، مفضلاتي الشخصية"، ومزيد من الكلمات التي تعبر عن لغة المنعزلين.

■ هل التلفاز علاج فعال للوحدة؟

40 % من كبار السن عدوا التلفاز محاولة ذاتية لعلاج الوحدة، بينما وجد الباحثون أن الذين يشاهدون التلفاز كثيرًا يشعرون بعدم الرضا مقارنة بالذين يشاهدونه بنسبة أقل، التلفاز يعرض خيارات كثيرة للمتعة، يعرف بها الناس سلفًا استهلاكية يحاولون الوصول إليها ويطمحون لمزيد منها دائمًا، وبذلك لا يستطيعون المحافظة على قدر عال من الرضا، ويحاولون القيام بشيء ما ينشئ لهم الحياة التي ضخمها لهم التلفاز؛ حياة الشهرة والثروة.

■ هل يبدو الثراء مرتبطًا بالرضا وعدم الوحدة؟

في استطلاع أجرته جامعة بوسطن لأشخاص يصل متوسط ثروتهم إلى 78 مليون دولار، اتضح أنهم يعانون من القلق واللا رضا والوحدة كذلك، ولا يشعرون بأمان مادي، أحدهم صرح قائلاً إنه سيشعر بالأمان بعد أن يمتلك مليار دولار في البنك.

■ أخيرًا، هل دمر جوهرنا الإنساني فعلاً؟

يقول جورج مونبيوت إننا استهلكنا كل شيء وتحولنا لفريسة لأنفسنا، لقد دمرنا جوهرنا الإنساني، وقدرتنا على الترابط والتواصل.

صحيح أن هناك محاولات لكبار السن في الجمعيات الخيرية لكنها ليست سوى مسكنات للوحدة.

علينا كسر هذا النظام الذي يدفعنا إلى قتال بعضنا، والعيش في ترابط من جديد.

المصدر: theguardian

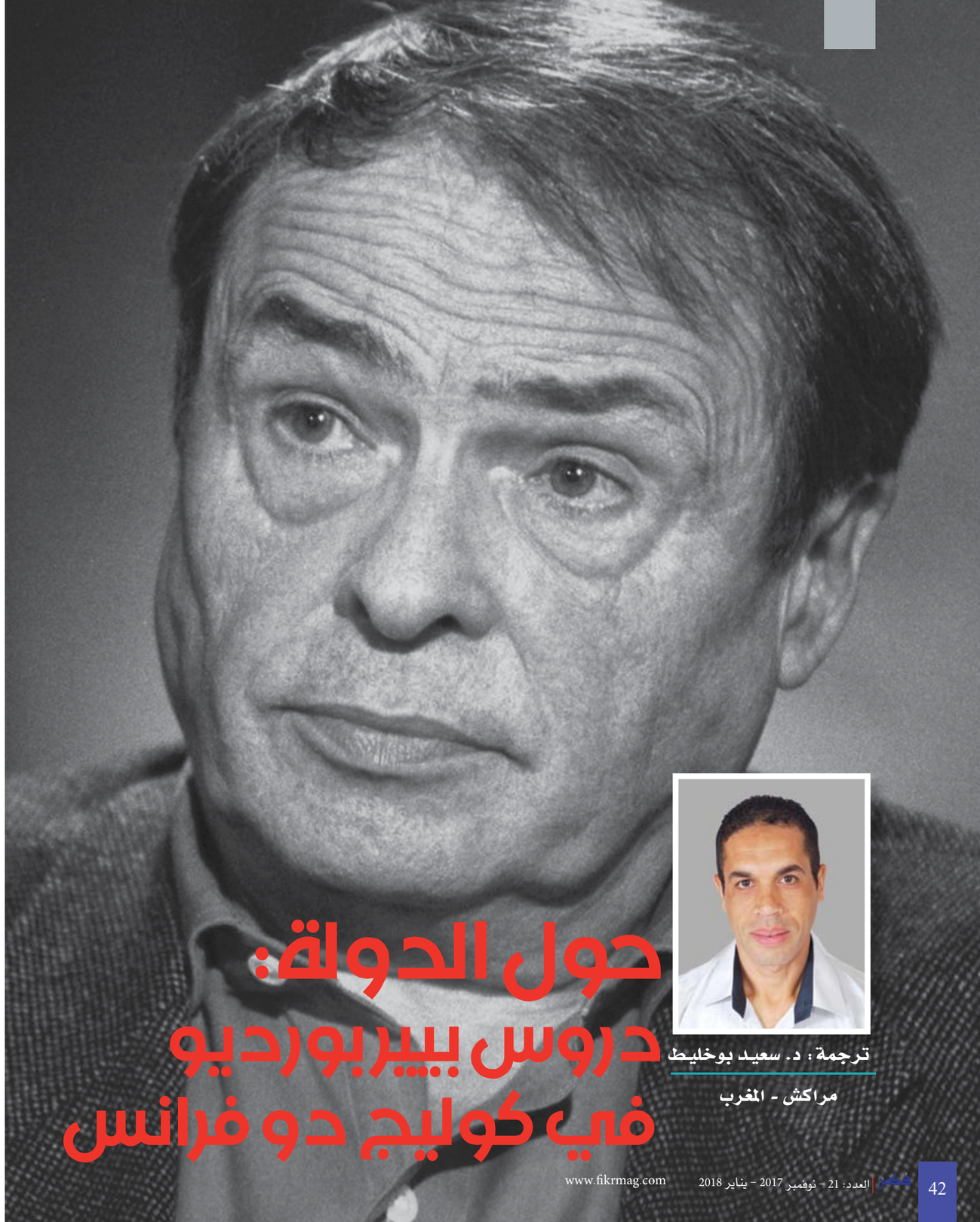

حول الدولة: دروس بيير بورديو في كوليج دو فرانس

ترجمة : د. سعيد بوخليط

مراكش - المغرب

تقديم الناشر:

إن إعداد نص الدروس التي ألقاها بيير بورديو في كوليج دو فرانس تفترض عددًا معينًا من الاختيارات المتعلقة بالنشر. تشمل هذه الدروس سلسلة نصوص مكتوبة، وشروح شفوية، وكذا تأملات مرتجلة تقريبًا، حول مسعى وكذا الشروط التي اهتدى بورديو في إطارها نحو تدريسها.

تمزج مرتكزات هذه الدروس بين ملاحظات موثقة بخط اليد، أو مستخلصة من محاضرات وكذا تأويلات على هامش مؤلفات ونسخ مصورة. ملاحظات بيير بورديو حول شروط تلقي آرائه، أمام جمهور غفير ومتعدد جدًّا ملأ المدرج الكبير لـ "كوليج دو فرانس"، تظهر بأن دروسه لا يمكن فقط اختزالها إلى النسخ المكتوبة التي تركها، في نطاق كون عرضها قد يأخذ صيغًا غير متوقعة، حسب تفاعلات إصغاء المستمع.

هناك حل يحظى بالجدارة الجلية للحياد وكذا الوفاء الشكلي للكاتب يتمثل في إصدار نسخة حرفية وخالصة لمجموع دروسه. لكن لا يكفي فقط إعادة إنتاج الشفهي كي يحافظ على سماته الشفوية، بل يعني جل العمل البيداغوجي المتبلور خلال كل درس. والدرس المنطوق ليس قطعًا بدرس النسخة 'الصادرة' مثلما تمكنا من فحص ذلك عبر بعض الدروس حيث تم الانكباب بشكل مستفيض على تسجيلها الجديد، وأحيانًا نقحت كليًّا كي تتحول إلى مقالات صدرت في مجلات علمية. هكذا، فالشكل المنتقى جليًّا للدروس هو أقرب إلى منطق الاكتشاف العلمي من عرض مكتوب، رتب على الوجه الأكمل، نتائج بحث.

بكل بداهة إذا لم يكن في وسع ناشري هذا العمل أخذ موقع المؤلف بعد رحيله ويؤلفوا بدلاً عنه الكتاب الذي كان بوسعه انجازه انطلاقًا من درسه، فبوسعهم السعي كي تتم على نحو أفضل مراعاة السمات المتعلقة بشفاهية العرض مما يفترض أن تكون موسومة ويُشعر بها، ثم على العكس من ذلك، ينبغي التقليل قدر ما يمكن من التأثيرات الخاصة بالتدوين. على الناشرين كذلك أخذهم بعين الاعتبار، ضرورة إعطاء هذا الإصدار كل القوة والضرورة للعمل الذي يقتفى أثره، شريطة عدم حلوله محل ما يريده المؤلف. كذلك هل توخى التدوين تجنب عقبتي الحرفية والأدبية. وإذا نصح بورديو على الدوام بالعودة إلى كتاباته قصد استيعاب ما يقوله[1]، فقد استثمر أيضًا المعطيات الشفوية وكذا حرية التعبير التي تسمح، أمام جمهور يعلم تعلق جانب كبير منه، بالتقاط التضمينات واستعادة ثانية للبرهان والاستدلال.

في فقرة من كتابه "بؤس العالم"، والمعنونة بـ "مجازفات الكتابة"، يعمل بورديو على تحليل الانتقال من الخطاب الشفوي إلى الكتابي، كـ: "ترجمة حقيقية بل وتأويل"[2]. والتذكير بأن: "الترقيم البسيط، موقع فاصلة" يمكنه: "التحكم في كل معنى جملة".

يجتهد نشر هذه النصوص للتوفيق بين ضرورتين متناقضتين لكن غير متعارضتين: الوفاء والمقروئية. إن "الاختلالات" غير القابلة للتجاوز، ملازمة لكل تدوين (وبشكل عام،مع كل تغير للسند)، يمثلان بدون شك هنا، مثلما الأمر مع الحوارات التي حللها بورديو "أساس وفاء حقيقي"، حسب تعبيره.

يحترم توثيق دروس كوليج دو فرانس التدابير التي تبناها بورديو حينما راجع بنفسه المحاضرات والحلقات الدراسية التي خولت هذا الإصدار: تصحيحات أسلوبية طفيفة، صقل لرواسب الخطاب الشفوي (استفهامات، تكرارات، إلخ). أُعيد النظر في بعض مظاهر الإبهام أو التراكيب غير الدقيقة. حينما تنصب الاستطرادات حول التيمة المطروحة للبحث، توضع بين عارضتين، وعندما تنطوي على قطيعة ضمن مجرى الاستدلال، توضع بين قوسين، ولما تكون طويلة جدًّا، قد تصبح موضوع بتر تام. التقطيع إلى أجزاء وفقرات، وكذا العناوين الفرعية، والترقيم، والإشارات التي تحدد المراجع والإحالات هي من إخراج الناشرين، وكذا المؤشر الموضوعاتي والمفهومي. أما المراجع البيبليوغرافية الموثقة أسفل الصفحة فتنسب إلى بيير بورديو، وتم إتمامها حينما تبدو غير كافية. ثم أضيف بعضها من أجل المساعدة على فهم الخطاب: شروحات، إحالات، إشارات ضمنية أو جلية لنصوص تستفيض في التأمل. بوسع القارئ الوصول إلى ملحق لائحة المقالات، والمؤلفات وكذا وثائق الاشتغال التي استند عليها بورديو خلال فترة دروسه، والتي وضبت ثانية انطلاقًا من إشاراته داخل العمل وكذا جذاذاته القرائية المتعددة.

أعد بورديو قسمًا من محتوى هذه الدروس وأصدرها بعد ذلك في صيغة مقالات أو فصول ضمن مؤلفات. هذا الأمر أثير الانتباه إليه خلال كل مناسبة. مجموع الدروس تلتها ملخصات وردت في الدليل السنوي لكوليج دو فرانس.

السنوات الثلاث للدروس التي انصبت على موضوع الدولة اختيرت من أجل البدء في طباعة دروس كوليج دو فرانس لأنه، كما سنرى من خلال "وضعية الدروس" عند نهاية الجزء الحالي[3]، يتعلق الأمر بقطعة ضرورية لكنها نادرًا ما تدرك كما هي بين طيات البناء السوسيولوجي عند بيير بورديو. الأجزاء اللاحقة تتمم الإصدار النهائي للدروس خلال السنوات المقبلة في صيغة مؤلفات تعالج إشكاليات مستقلة.

درس 18 يناير 1990

موضوع غير مفكر فيه – الدولة كفضاء محايد – التقليد الماركسي –تقويم وبناء الزمانية –أصناف الدول – أفعال الدولة – سوق البيت الفردي والدولة – لجنة 'ريمون بار' حول السكن.

1 - موضوع غير مفكر فيه:

يتعلق الأمر بدراسة عن الدولة، بالتالي يلزمنا أن نأخذ حذرنا أكثر من ذي قبل بخصوص ماهو متداول بالمعنى الذي قصده دوركايم، ضد الأفكار الجاهزة، وكذا السوسيولوجيا الساذجة. من أجل، تلخيص التحليلات التي أنجزتها على امتداد السنوات السابقة، لاسيما التحليل التاريخي للعلاقات بين السوسيولوجيا والدولة، أشير إلى أننا نجازف بتطبيق فكر للدولة على الدولة وألح على كون فكرنا، بل وبناءات الوعي نفسها التي نؤسس من خلالها العالم الاجتماعي وهذا الموضوع الخاص الذي هو الدولة، تتسم بحظوظ وافرة كي تكون نتاجًا للدولة. نتيجة انعكاس للمنهج، وكتأثير للمهنة، فكلما حاولت خلال كل مرة التطرق إلى موضوع جديد، يبدو لي كل ما قمت به مبررًا بشكل خاص، وأقول بقدر ما أتقدم في عملي حول الدولة، بقدر ما أقتنع بأنه إذا كانت هناك صعوبة خاصة للتفكير في هذا الموضوع، فلأنه تقريبًا– أزن كلماتي- غير مفكر فيه. إذا كان من السهل جدًّا قول أشياء حول هذا الأمر، فبالضبط لأننا ولجنا إذا صح القول من هذا الموضوع نفسه الذي علينا دراسته. لقد حاولت تحليل المجال العمومي، عالم الوظيفة العمومية باعتباره فضاء حيث الاعتراف الرسمي بقيم اللامبالاة، ثم في نطاق ما، ينتصر الفاعلون لهذه اللامبالاة[4].

هذان المفهومان – المجال العمومي واللامبالاة- هما مهمان جدًّا، لأني أعتقد بأنهما ينبغي استحضارهما قبل الوصول إلى فكر سديد – قدر الإمكان –فعلينا اقتحام سلسلة من الشاشات، والتمثلات، للدولة باعتبارها– مع الإقرار بأنها موجودة - مبدأ للإنتاج، وكذا التمثيل المشروع للعالم المجتمعي . إذا اقتضى الأمر مني إعطاء تعريف مؤقت لما نسميه بـ"الدولة"، أجيب بأن قطاع مجال السلطة، الذي يمكننا تسميته "بمجال إداري" أو "مجال الوظيفة العمومية" هذا المجال الذي يتجه إليه تفكيرنا بشكل خاص عندما نتكلم عن الدولة دون مزيد من التوضيح، يتحدد بامتلاك احتكار العنف المادي والشرعية الرمزية. لقد وضعت، منذ سنوات عديدة تقريبًا[5]، إلى جانب التعريف الشهير لماكس فيبر الذي عرف الدولة كـ :"احتكار للعنف المشروع"[3]، تصحيحًا بأن أضفت: "احتكار للعنف المادي والرمزي"، بل يمكننا القول:"احتكار للعنف الرمزي المشروع"، في نطاق كون احتكار العنف الرمزي يمثل شرط امتلاك ممارسة احتكار العنف المادي نفسه. بمعنى ثان، يبدو لي هذا التعريف مبررًا لتعريف ماكس فيبر. لكن يبقى كذلك مجردًا، خاصة إذا انتفى لديكم السياق الذي هيأته في إطاره. إنها تعريفات ظرفية كي أحاول على الأقل استثمار نوع من الاتفاق المؤقت بخصوص ما أتكلم عنه، لأنه من الصعب جدًّا مقاربة شيء ما دون تحديد على الأقل لما نحن بصدد الحديث عنه .إنها تعريفات مؤقتة موجهة لكي يتم إصلاحها وتقويمها.

هوامش:

1-Pierre Bourdieu ,prologue. ;Questions de sociologie ;paris ;minuit ;1984 ;p.7.

2-Pierre Bourdieu ; , comprendre ,in p.bourdieu ;(dir.)la misére du monde ;paris ; seuil ; ,points ; ;1998.P.1418- 1419 .

3-voir infra, p.594 -601.

4 – مفهوم اللامبالاة تم التطرق إليه خلال درس السنة الفارطة (1988 – 1989) واستعيد ثانية في مقالة: هل ممكن موقف لا مبال ؟ "في: مبررات عملية حول نظرية الفعل، باريس، سوي،1994، ص 147 – 173

5 – انظر كذلك بيير بورديو في : 'قيمة السوسيولوجيا'. باريس، مينوي،1987 ص 124 131.

6 – بيير بورديو: "حول السلطة الرمزية"، ماي – يونيو 1977، ص 405 – 411 . أيضا 'اللغة والسلطة الرمزية'، باريس، سوي، 2001، ص 201 – 211.

7 – ماكس فيبر: اقتصاد ومجتمع. ترجمة جوليان فروند، باريس، بلون 1971 ، ص –57 59. وطبعة ثانية "1995" pocket ص 96 – 100ثم

8 – "العالم والسياسي"، ترجمة جوليان فروند، باريس، ص 29 .

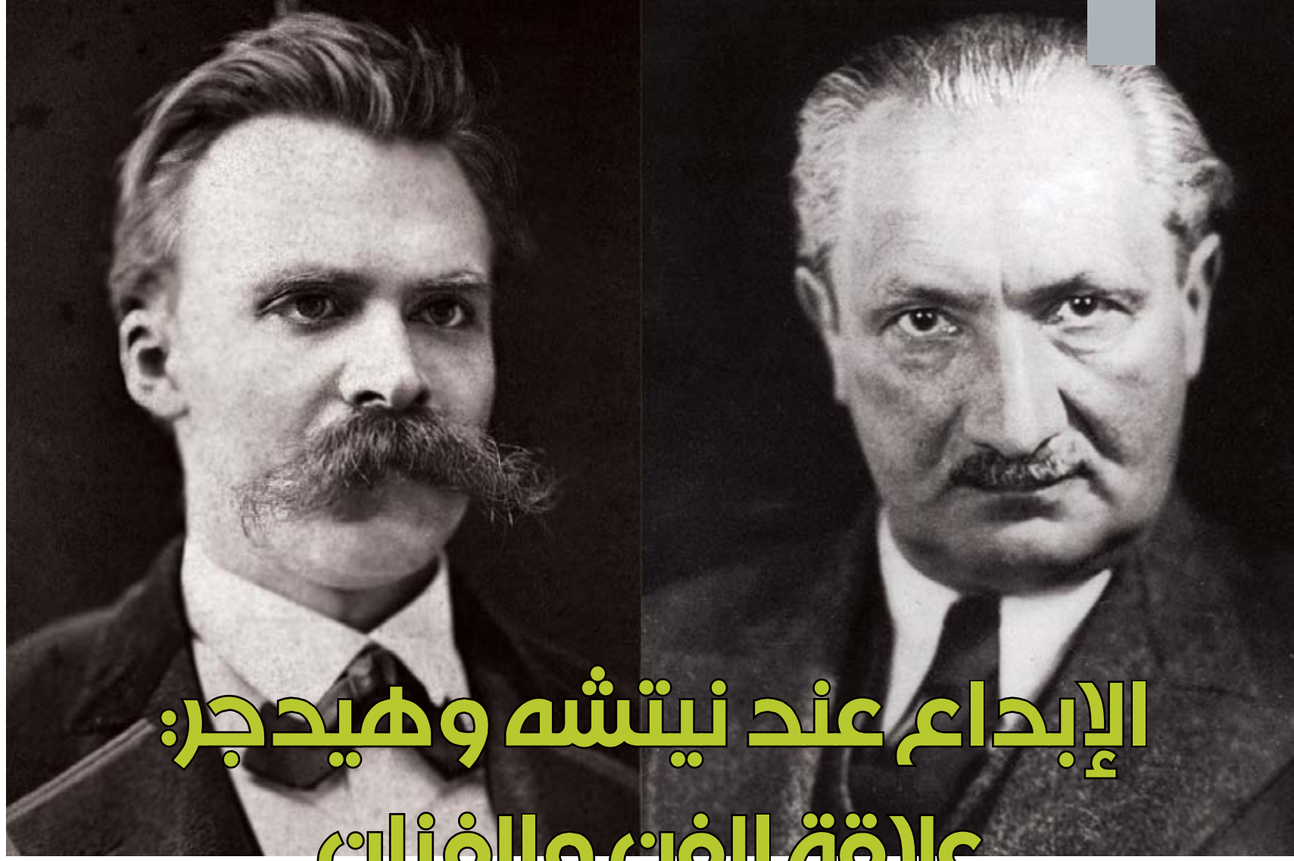

الإبداع عند نيتشه وهيدجر: علاقة الفن والفنان

جوستن هوفر

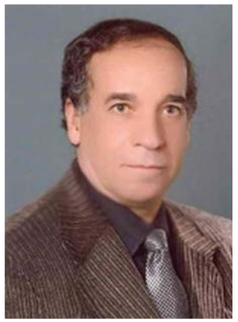

ترجمة : أ. د. رمضان الصباغ

كلية الآداب – جامعة سوهاج

لقد بدأت بحثي هذا الصيف مع وضع هدف بسيط في الاعتبار: فقد أردت أن أحدد الخطوط العريضة للطرق التي بها تكمل أفكار فريدريك نيتشه ومارتن هيدجر بعضها البعض فيما يتعلق بالفن. كنت قد اخذت بعض الدورات المسبقة عن كل فيلسوف، لذلك كان لي بعض الميل إلى اعتبار أن أعمالهم قد تكون متوافقة. ومع ذلك، واجهت على الفور صعوبة تقريبًا. اتضح أن هيدر، الذي عاش وفكر بعد نيتشه بجيلين أو ثلاثة أجيال، قد ألقى محاضرات حول موضوع فلسفة نيتشه عن الفن،ووضع نيتشه بحزم في تقليد طويل يتميز بسوء فهم الفن والعمل الفنى. وهذا يعني أن هيدجر نفسه لم يوافق معي –ولم ير أفكاره حول الفن على أنه متكاملة مع نيتشه. بالأحرى، رأى هيدجر أن عمله يعد تحسينًا أكثر للتقاليد الجمالية المضللة.

حسن الحظ بالنسبة لي، كان هيدجر ببساطة مخطئًا. على الأقل، هذه هي أطروحة. لم ير هيدجر تقاربه مع نيتشه بسبب تضليله بسوء تفسيره. ومع ذلك، أفكاره حول الفن تتوازن بشكل جيد مع تلك التي لنيتشه. ولدعم هذا الزعم، سأقدم اليوم ثلاث خطوات. أولاً، سوف أقوم بتقديم نقد هيدجر، الذي يشكل حقًا تحديًا للتقليد الكاملة التي بدأت مع أفلاطون ويمضى مسارها حتى نيتشه. وفي التالي، سوف أتطرق إلى وجهات نظر هيدجر حول الفن لنرى كيف يتغلب على التقليد ويجيب عن انتقاداته الخاصة لعلم الجمال. وأخيرًا سأنتقل إلى نيتشه لشرح كيف أعتقد أنه يتجنب نقد هيدجر وكيف أن أفكاره حول الفن في الواقع تتوافق بشكل مع هيدجر.

نقد هيدجر

وفقًا لهيدجر، بدأت معرفة الفن في العالم الغربي بانعطاف طويل مع تقديم للجماليات في أعمال أفلاطون وأرسطو. بينما في كثير من الأحيان كلمة "علم الجمال تؤخذ على أنها مرادفة لفلسفة الفن"، يستخدم هيدجر الكلمة بطريقة أكثر دقة. في علم الجمال: يفترض العمل الفني كموضوع للذات، وتعد علاقة الذات – الموضوع بالشعور حاسة بالنسبة للاعتبار الجمالي يصبح العمل موضوعًا من حيث المظهر الخارجي الذى يمكن الوصول إليه بالخبرة الحية.

وبعبارة أخرى، تتحقق الجماليات بشكل أساسي في الخبرة التي نحصل عليها من الفن؛ إنه هو دراسة لعلاقتنا مع الأعمال الفنية. في المقابل، تتحقق فلسفة الفن في الفن كفن خارج علاقة لذات –الموضوع.

خذ مثالاً نظرية ليو تولستوي الجمالية عن الفن. في كتابه ما الفن؟ "فيكتب:

يعد الفن نشاطًا إنسانيًا يتكون في هذا النشاط، وأن الإنسان بوعي، عن طريق إشارات خارجية معينة، وباليدين لمشاعر الآخرين الذين يعيشون معه وأن الناس الآخرين مصابون بهذه المشاعر ويجربونها أيضًا.

تعد هذه نظرية جمالية للفن لأنها تعرف الفن بمصطلحات المشاعر والخبرات التي وضعت وذكرت في العمل الفني. تشبه المناظر الجمالية للفن هذا النداء القوي، كما يتم توضيحه من خلال التقاليد الفلسفية. على الرغم من ذلك، يؤكد هيدجر ضد تولستوي وضد التقليد على أن المعرفة الأساسية للفن تأتي من البحث في الفن نفسه، وليس من البحث الجمالي. ولكن لكي نكون واضحين، فإن المؤشر هنا ليس أن تولستوي أخطأ التفكير في أن الفن ينطوي بطريقة ما على نقل الخبرات والمشاعر، وهذا واضح. بل بالأحرى، كان خطأ التحقيق الجمالي في طبيعة الفن هو الافتراض بأن الخبرة والمشاعر تعد عناصر أساسية للفن.

وبناء على ذلك، فإن انتقاد هيدجر لنيتشه هو أساسًا الادعاء بأنه تم إهمال الفحص الحقيقي للفن لصالح علم الجمال. وعلى وجه الخصوص، يدعي هيدجر أن نيتشه يرى (الفن) في مجمله الأساسي بمصطلحات الفنان"، وكان هذا التركيز على الفنان يؤدي نيتشه إلى تحليل الفن بمصطلحات خبرة الفنان، أي الجماليات. وبعبارة أخرى، يعتبر تأمل نيتشه في الفن بمثابة "علم الجمال" لأنه يدرس حالة إبداع وتمتع "الفنان"، وسوف أعود إلى هذه النقاط لجدال فصل هيدجر من نيتشه. والآن، سيكون من المفيد أن نرى كيف أن هيدجر نفسه يسعى إلى فلسفة الفن دون اللجوء إلى علم الجمال.

رؤية هيدجر للفن

يفتتح هيدجر مقالته،"أصل العمل الفني"، بالسؤال حول المصدر الأساسي الذي ينبثق منه العمل الفني. إذا سئل الكثير من الناس، ما أصل العمل الفني، يكون الرد أنه يأتي من الفنان. مما لا شك فيه، "كارافاجيو Caravaggio" على سبيل المثال لم يرسم "تحويل سانت بول فى الطريق إلى دمشق The Conversion of Saint Paul on the Road to Damascus "1" أما بالنسبة لهيدجر، فإن

لوحة الطريق إلى دمشق

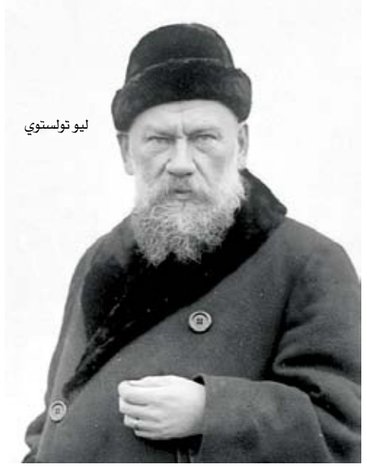

ليو تولستوي

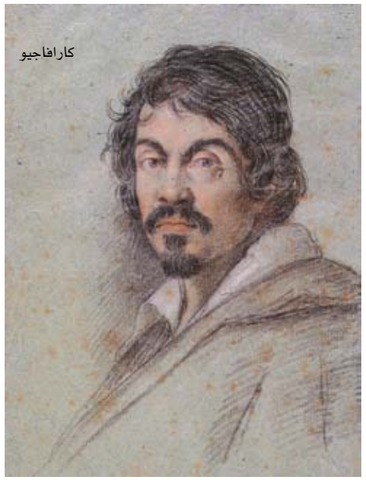

كارافاجيو

> بالتأكيد هناك شعور بأن العمل الفني يأتي من الفنان، من يديه أو من كلماته. وهذا يعني أن الفنان حرفيًا، يبدع العمل الفني، ويجلبه إلى حيز الوجود. ولكن هناك أيضًا الطريقة التي بها يجلب العمل الفني الفنان، كفنان، إلى الوجود. إذا كان لم يرسم أبدًا أو ينتج أي نوع آخر من الأعمال الفنية

الجواب معقد أكثر قليلاً. بالتأكيد هناك شعور بأن العمل الفني يأتي من الفنان، من يديه أو من كلماته. وهذا يعني أن الفنان حرفيًا، يبدع العمل الفني، ويجلبه إلى حيز الوجود. ولكن هناك أيضًا الطريقة التي بها يجلب العمل الفني الفنان، كفنان، إلى الوجود. إذا كان لم يرسم أبدًا أو ينتج أي نوع آخر من الأعمال الفنية، فمن ثم "كارافاجيو" لن يكون فنانًا. وعلاوة على ذلك، كارافاجيو ليس مجرد الفنان الذي يمضي بعد ذلك إلى الإبداع؛ بدلاً من ذلك كارافاججيو يبرز كفنان من خلال فعل الإبداع. وبعبارة أخرى، الفنان والأعمال الفنية تنبثق معًا، من وعلى أساس شيء آخر: يسمى بالفن.

يقوم هيدجر في هذه المرحلة بالانتقال الحاسم إلى التجسيد خارج المفهوم المجرد للفن ويتحول إلى العمل الفني مع شيء ما من الادعاء الغامض، بأن الفن يتكشف أساسًا في العمل الفني. ويصبح العمل الفني بالتالى محور تأملات هيدجر عن الفن. ويكتسب أهميته لأنه يكشف عن ما يعوه

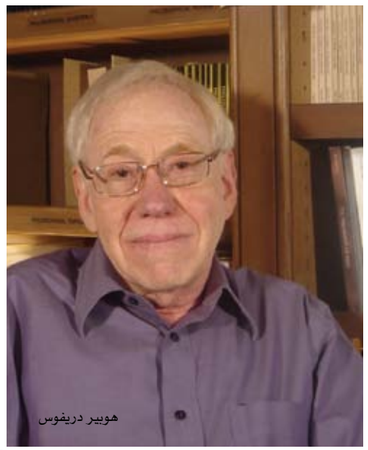

هوبير دريفوس

"هوبير دريفوس Hubert Dreyfus" "أسلوب الثقافة" ما هو أسلوب الثقافة" وكيف يظهر في العمل الفني؟. يخبرنا "دريفوس" بأن هذا الأسلوب يحدد كيف يظهر أي شيء كأي شيء وبعض الإجراءات تؤكد ما يستحق القيام به. وبعبارة أخرى، هذا هو التوجه الأساسي الذي لدينا تجاه العالم الذي تم استيعابه من المؤثرات المحيطة بنا: الأصدقاء، والأسرة، وثقافتنا بشكل عام. إلى جانب هذه الأشياء التى تشكل وسيلة أو أسلوبًا لرؤية الاشياء والتعامل معها.

نحن بحاجة إلى الحرص على عدم تقليص أسلوب الثقافة إلى مجموعة من المعتقدات أو النظريات التي لدينا عن الحياة. مجازيًّا نقول، أسلوب الثقافة أو الفرد أشبه بالموقف الذي يتخذه في أحد الحقول. من موقفنا أو الموقف في الحياة يمكننا أن ننظر إلى ونتفاعل مع عالمنا. ويعتبر الموقف شرطًا مسبقًا ضروريًّا للرؤية أو التفاعل مع أي شيء. يصف "جون سيرل John Searle الواقعية بقوة، أو أخذ العالم على أنه حقيقي، ومثل هذا الموقف عندماهو يكتب:

التزامي بالواقعية قد عرض من خلال أنني أعيش بالطريقة التى أعمل بها، فأنا أقود سيارتي، وأكتب مقالاتي، وأعطي محاضراتي، وأتزلج بالجبال، والآن بالإضافة إلى كل أنشطتي، ليس هناك علاوة على ذلك افتراض بأن العالم الحقيقي موجود. يتضح التزامي بوجود العالم الواقعي عندما أقوم بأي شيء رائع. ليس هذا هو القول بأن العالم المفترض حقيقي بل شرط مسبق للحصول على الفرض.

يتم تضمين الواقعية بالنسبة لـ"سيرل" في الموقف الذي يأخذه من العالم. وهو جزء من الأسلوب الذي يسمح له بالتفاعل مع العالم ككل، ولكنه لا يمكن اختزاله إلى الاعتقاد أو الفرضية.

هذا النوع من الشرط المسبق الذي يتجسد في أسلوب الثقافة. وهو مهمة العمل الفني للكشف عن أسلوبنا الثقافي. يقول هيدجر، عن المعبد اليوناني:

"هناك يقف المبنى، يحمل أرضه ضد العاصفة المستعرة فوقه وهكذا يجعل العاصفة نفسها تظهر فى عنفوانها. بريق وضوء ضعيف للحجر، على الرغم من أنه نفسه على ما يبدو متوهج فقط من قبل نعمة الشمس، الذى يأتي بداية من إشراق ضوء النهار، واتساع السماء، وظلام الليل (. .) المعبد، في انتصابه هناك، بداية يعطي للأشياء مظهرها وإلى الرجال توقعاتهم عن أنفسهم".

يأتى المعبد من الشمس، والعاصفة والسماء، مما يسمح لنا لفهمها بطريقة معينة. يمكن أن تجعل العاصفة مظهرها عنيفًا، داخل أجواء المعبد، ويمكن أن تلمع الشمس في نعمتها. أن نرى العاصفة العنيفة، يعد مع ذلك، أمرًا ثانويًّا للعمل الفني الأصيل،الذى يفتح الطريق لفهم الوجود.

وبالتالي فإن العمل الفني يعطينا وسيلة لرؤية العالم، ومن خلال التمديد، نحن نرى أنفسنا في العالم. هذا الكشف غير قابل للاختزال إلى مشاعر وخبرات، ولا يمكن اختزاله إلى معتقدات أو فرضيات حول العالم. بالنسبة لهيدجر، يعد الكشف الذي يحدث في الفن أكثر جوهرية من هذه الأشياء. ويفتح الفن وسيلة لفهم الوجود من خلال السماح لنا أولاً والكائنات الأخرى في الظهور. الفن هو إضاءة لنا وعالمنا الذي ينشأ من الوجود نفسه. لا ينتمي الفن إلى الموضوع، ولا إلى الذات إنه هو الذى يسمح لهما بالتألق. يعد الفن شرطًا مسبقًا لعلم الجمال، وشرطًا مسبقًا لخبرة الذات بالموضوع، وبالتالي فإنه لا يمكن اختزاله فى علم الجمال. هذا هو مفهوم هيدجر الأساسي للفن كما يتكشف في العمل الفني.

رؤية نيتشه للفن

أدعي أن نيتشه يتصور الفن في نفس السياق، على الرغم من وصوله في تصوره من خلال طريق مختلف. كما رأينا، يقدم هيدجر ما يمكن أن نسميه "أنطولوجيا الموضوع الموجه للفن". وهذا يعني، أن هيدجر ينظر إلى الكائن، وإلى العمل الفني، من أجل الكشف عن طبيعة الفن. فى المقابل، يقدم نيتشه ما يمكن أن نسميه أنطولوجيا الذات الموجهة للفن وتركيزه على الذات،على الفنان والمشاهد. هذان الموقفان يكملان بعضهما البعض في مساراتها المتوازية والاستنتاجات المشتركة.

لرؤية ما أحصل عليه، دعونا ننتقل بشكل كامل إلى أفكار نيتشه عن الفن. أولاً، على الرغم من نيتشه يستخدم لغة علم الجمال، فمن الواضح أنه يتجاهل علاقة الذات بالموضوع:

يعد التعارض الكامل بين الذاتى والموضوعى لا صلة له كلية بعلم الجمال، لأن الذات، والرغبة الفردية علاوة على غاياتها الأنانية الخاصة، يمكن تصورها فحسب معادية، وليس باعتبارها أصل الفن.

يتوقع هذا المقطع، المأخوذ من أول كتاب نيتشه، ومولد المأساة ألم بوضوح ادعاء هيدجر بأن علم الجمال كدراسة لخبرتنا بالفن لا ينفذ إلى الطبيعة الأساسية للفن. وعلى عكس هيدجر، يأخذ نيتشه الذات باعتبارها محور فلسفته الفنية. ومع أن دور الفنان قد تحدد بالخصم وبالتالي فإنه أو إنها لا يباشر كشف الفن، ولكنه ببساطة يلعب دورًا فى ذلك.

يوجد الأصل الحقيقي للفن في طبيعة الوجود. يتكون الوجود فى رؤية نيتشه، من الطاقات الفنية التي تدفع إلى الإبداع وتدمير كل شيء،من أصغر الحشرات إلى المستعرات العظمى الرهيبة. ونحن أيضًا مدينون بوجودنا لهذه القوى البدائية، التي تتجسد في الجاذبية، والتطور، والحياة نفسها. ولكن في حين أن كل شيء والجميع فعلاً يجسد الفن، والنبضات الإبداعية للوجود هي الأكثر وضوحًا في الفنان: لا تزال ظاهرة الفنان الأكثر شفافية. يتحول نيتشه لهذا السبب إلى الفنان، ناسخًا بشكل متطابق تحول هيدجر إلى العمل الفني.

يتم توجيه تأثيرات الحياة والوجود، من خلال الفنان، لجلب العمل الفني. كما يقول نيتشه بشكل مجازي، يتلاقى العبقري في فعل الإبداع الفني مع الفنان الأول للعالم. وهذا يسمح للفنان للحصول على لمحة عن العالم الذي يجد نفسه فيه، ويصبح مثل صورة غريبة من الخرافة التي يمكن أن تحول عيونه للإرادة وهويلمح نفسه، يتم التعبير هذا الرأي من قبل الفنان في فعل الإبداع، وبالتالي يقدم بعض التنوير داخل العالم. ذلك هو القول بأن الفنانين يقدمون وسيلة لرؤية الأشياء. وأنهم يسلطون الضوء على العالم من خلال إبداعاتهم،يتكلمون مع النور لكل شى مظلم. أو في امصطلحات دريفوس: يكشف الفنان، في فعل الإبداع، عن أسلوب ثقافته، وهو استنتاج يتماشى تمامًا مع آراء هيدجر حول الفن.

ملخص

أستطيع، بمتابعتى لهيدجر ونيتشه التى وضعتها، أن أستنتج أن وجهتى نظرهما حول الفن متوافقتين معًا بشكل جيد. وكلاهما ينظر إلى ما وراء تمييز الذات-الموضوع لجوهر الفن. ويرى كلاهما أن الفن ينشأ إلى حد ما بشكل غامض من الوجود، وربما كشيء ما جوهري للكينونة والكائنات. كما يتفق كلاهما على أن وظيفة الفن هي فتح الطريق لرؤية العالم وأنفسنا. ومع ذلك، إذا كان هذا هو الحال، وإذا كانت المسألة بسيطة كما قدمتها، ثم كيف يسيء هيدجر بشكل أساسى تفسير نيتشه؟ وهنا سوف أكون قادرًا فحسب على الإشارة إلى بعض الاحتمالات.

يتهم هيدجر نيتشه بالقيام بعلم الجمال وهو، إلى حد ما، الصائب. يشارك نيتشه في علم الجمال عند محاولته تمييز قيمة الفن للفرد، وبسبب انشغال نيتشه بالعدمية، والأخلاق والقيمة، كان هذا يشكل جزءًا كبيرًا من كتاباته عن الفن. ومع ذلك، لا يمضى هذا الجزء الصغير من كتاباته المهتمة بطبيعة الفن نفسه إلى أبعد من علم الجمال. وبالإضافة إلى ذلك، بقى هيدجر،في محاضرته الدراسية عن نيتشه، مشغولاً بالكامل تقريبًا بالمذكرات المنشورة بعد وفاة نيتشه بعنوان "إرادة القوة". يمكن أن يكون الاعتماد على الملاحظات غير المنشورة بهذه الطريقة حرفًا لوجهة نظر المرء عن أي مؤلف، ولكن يعد عمل نيتشه على وجه الخصوص من نوع مختلف لا ينبغي أن يؤخذ بمعزل عن بعضه البعض. كان أكثرالإغفال الصارخ فى تحليل هيدجر لعمل نيتشه الوحيد المكرس حصريًّا للفن،"مولد التراجيديا". وأخيرًا، تعد حالة الأمور بالكاد بسيطة كما قدمت. و لقد تركت، نظرًا لقيود مختلفة، أقل منطقتين إثارة للجدل بين هيدجر ونيتشه:

ميتافيزيقا الفن وعلاقة الفن بالحقيقة. وبطبيعة الحال، سوف تتلقى هذه المناطق علاجًا كاملاً في أطروحتي.

هامش

1 -"تحول في الطريق إلى دمشق The Conversion on the Way to Damascus (Conversione di San Paolo)" - هو تحفة لـ"كارافاجيو". رسمت في 1601 لمصلى سيراسي من كنيسة سانتا ماريا ديل بوبولو في روما. وقد رسمها "ميكل أنجيلو ميريجي أو أميريجي دا كارافاجيو" (29 سبتمبر 1571 - 18 يوليو 1610) كان رسامًا إيطاليًّا نشطًا في روما ونابولي ومالطا وصقلية بين 1592 (595ا) و 1610. وكانت لوحاته،التي تجمع بين المراقبة الواقعية للحالة البشرية، الجسدية والعاطفية، مع استخدام درامي للإضاءة.

شبنهاور: العالم مثل مزحة سيئة

ترجمة : د. عبدالرحمن إكيدر
المغرب

بالنسبة لشبنهاور Schopenhauer، فإن المرارة هي السائدة، هناك شيء غير مفهوم في علاقاته مع أمه جوهانا Johanna خاصة، هل هي المسؤولة عن موت هنري شبنهاور Henri Shopenhauer، والد آرثر Arthur عندما كان هذا الأخير مراهقًا؟ ففي عمر السادسة والعشرين، تشاجر آرثر مع والدته، ولم يجتمعا بعد ذلك. وقبل هذه القطيعة، كانت قد كتبت له في إحدى مراسلاتها: «أنت كائن مثالي». تحدث شبنهاور عن أمه السيئة التي سوف تقوم في نهاية المطاف بحرمان ابنها من الميراث ومن كل حقوقه الطبيعية.

يقول شبنهاور: يولد الضحك دائمًا من تناقض الوضع، فبالنسبة له فإن العالم هو مزحة سيئة وغير متناسقة. إن الإنسان كائن مكرس لسوء الحظ والمعاناة. وقد كتب: «تتأرجح الحياة مثل رقاص الساعة بين المعاناة والملل»، هذه هي أبرز أفكاره المتداولة. يعد شبنهاور أميرًا للفكاهة السوداء، كان يمكن أن يكون مشارًا إليه في "أنطولوجيا الضحك الأسود" لأندريه بريتون André Breton. لقد عاش شبنهاور كل حياته وحيدًا مع كلابه، من أجل الاسترخاء، ولعب الناي، لقد مات عازبًا. كما أنه في سنة 1818 عندما نشر "العالم كإرادة وفكرة" لم يكتب لهذا الكتاب النجاح، وفي سنة 1820 عيّن أستاذًا في جامعة برلين Berlin. ولأنه لا يتقاضى مرتبه من قبل الدولة، بل من قِبل الطلبة، ظلت قاعات محاضراته فارغة، مما دفعه إلى الاستقالة. في الوقت الذي كانت القاعة ممتلئة عن آخرها لمتابعة محاضرات هيجل Hegel في ذات الجامعة.

لم يكن غريبًا إذن، أن يُكنّ شبنهاور كراهية لهيجل، يعامله على أنه «كاتب سخافات» لـ«عقول خرفة»، و«هيجل له مُحيا بائع النبيذ» ... إلخ. إن شبنهاور مهووس بالقدح سواء بتألق كثير أو قليل. إن ضحكه هو ضحك المنتقم. يكتب مرة أخرى بخصوص هيجل: «هذا الفيلسوف المعيّن من طرف الدولة .... أدى إلى تبني عقيدة ثورية حيث يكون مصير الإنسان موجودًا بكامله في الدولة، تقريبًا مثل النحلة في الخلية». في المقابل، يعتقد شبنهاور أن الدولة تجعل من الرجال خرفانًا، يقول: «إن الدولة ليست إلا كمامة هدفها تحويل الإنسان بطريقة غير مؤذية من وحش لاحم إلى نوع يكون عاشبًا».

تعد "الإرادة" المفهوم الأساس عند هذا الفيلسوف، إنها إرادة عيش عمياء، إنها دفعة حيوية لا تقاوم، الإرادة هي المبدأ الذي يحكم العالم، وغالبًا ما نلحظ أن شبنهاور قد تأثر بالفكر الهندوسي، ولكنه أيضًا مقرب من التصوف والزهد. وبالنسبة للفيلسوف المزداد في دانزيغ Dantzig، فإن الخنوع وعدم الاكتراث وحدهما يمكنان من تحقيق الصفاء. إن «الهدوء الحقيقي» مرادف لـ«وقف مطلق للإرادة»، كما أن السعادة غير موجودة البتة.

غالبًا ما يكون شبنهاور مضحكًا، كما هو الحال عندما يكتب مثلاً : «ليست الحياة سوى نضال دائم من أجل الوجود، مع اليقين أن تكون الهزيمة في الأخير»، أو أيضًا: «اليوم سيء، وكل يوم سيكون أسوأ، حتى يحدث ما هو فضيع». وعن الضحك، قال جوبر Joubert مؤلف كتاب "علاج الضحك" الذي نشر سنة 1579: «إن الضحك يخدم طرد الأرواح الشريرة التي تسمم، إنه يجنب الوقوع في الحزن. إن المؤلف الكوميدي مثل فيلدينغ Fielding لم يتخل عن هذا الإسقاط: النقاد يأخذون أبواق الأطفال من أجل أبواق الشهرة».

وفي "فن أن تكون دائمًا على صواب" الذي كُتب حوالي 1830، يكشف الفيلسوف عن حيله: إغضاب الخصم، الهتاف بالنصر على الرغم من الهزيمة، استعمال الحجج السخيفة، الدفاع عن طريق العناية المفرطة والدقيقة بالتفاصيل، فذلك هو الدليل الحقيقي عن سوء النية، والتي يمكن أن تستخدم اليوم بدقة أقل في حياة المقاولة، واستهلاكها بتعقل. لقد صارت الفكاهة الغاضبة والصادقة متعبة على المدى الطويل. إن التشاؤم مضحك شريطة عدم الإفراط فيه.

أما بالنسبة لكراهية النساء عند شبنهاور، فهو أمر مشهور: «المرأة بحكم طبيعتها، مقدر عليها أن تطيع»، لم يتردد في كتابة ذلك في "مقال حول النساء"، أو أيضًا: «إن الذي يجعل النساء بشكل خاص قادرات على رعاية طفولتنا الأولى وتربيتها، أنهن بأنفسهن صبيانيات وعديمات الجدوى ومحدودات، يبقين كل حياتهن أطفالاً كبارًا، هو نوع وسيط بين الطفل والرجل».

لقد كان ميشيل ويلبيك Michel Houellebecq معجبًا جدًّا بـ" شبنهاور". كثيرًا ما اقتبس منه، لقد كتب في ذكرى هذا الفيلسوف الألماني مقالاً بعنوان: "العالم مثل سوق ممتاز ومثل سخرية". كاتب آخر، هو الإيرلندي صموئيل بيكيت Samuel Beckett، الذي اهتم بنصوص شبنهاور، يكتب: «عندما نكون في القرف إلى أقصى حدّ، لا يبق إلا أن نغني».

عنوان المقال :
Schopenhauer – Le Monde Comme Mauvaise Blague
مقتبس من :
Filippe Arnaud.Le Rire Des Philosophes. Arléa. Paris. Février 2017.pp 133- 137.

وهم "سبق الرؤية" أو ظاهرة الـ "ديجافو"

د. محمد مسلم الحسيني

أستاذ في علم الأمراض

مستشفى براكوبس الجامعي- بروكسل

مصطلح الـ" ديجافو Déjà vu " أستخدمه لأول مرة الفيلسوف الفرنسي" أميل بواراك" في كتابه الموسوم "مستقبل العلوم النفسية" ويعني هذا المصطلح باللغة الفرنسية "شوهد من قبل"، حيث يصف حالة شعور المرء وإدراكه وهو أمام حدث أو مكان أو شخص أو حوار أو موقف يشهده أو يشاهده لأول مرة لكنه يعتقد بأنه شاهد أو عايش ذلك من قبل. قد ترتاد هذه الحالة المرء مرة واحدة في حياته أو قد يتكرر حدوثها لعدة مرات، وتحصل على أقل تقدير لدى ثلثي البشر. تفسير ميكانيكية حصول هذه الظاهرة وأسباب حدوثها غير متفق عليه عند المفسرين والباحثين كونها ظاهرة خارقة وغريبة. كما هو الحال أمام الظواهر الخارقة التي تحصل عند الإنسان فإن باب التأويل والتفسير تبقى واسعة، فكلٌ يفسرها من منطق إيمانه واعتقاده واختصاصه، فمنهم من فسرها دينيًا وروحانيًا ومنهم من فسرها فلسفيًا واستنتاجيًا، كما إنها فسرت قطعًا علميًا على أساس طبي أو نفسي، غير أن الكثير من هذه التفاسير تبتعد عن عين الصواب والحقيقة. الأمثلة على كيفيّة حصول هذه الحالة أو الظاهرة كثيرة ومتنوعة حيث لابد من إعطاء نموذج عنها كي تتضح الرؤيا أمام من لم تحصل لديه هذه الحالة من قبل. على سبيل المثال وليس الحصر، حينما يكون المرء في مكان يزوره لأول مرة كأن يكون مكان نزهة أو مقهى أو مسرح أو حديقة حيوان أو ملعب كرة أو دار عبادة أو غير ذلك، فيشعر وكأنه يعرف هذا المكان بل قد زاره من قبل، والحقيقة هي ليست كذلك. ينطبق السيناريو هذا نفسه لدى من يشهد لأول مرة حدث أو موقف أو حالة أو نقاش أو استماع أو تعرف على شخص، فيشعر وكأنه شهد أو شاهد ذلك من قبل، حيث تمتزج عادة مشاعر العجب والدهشة مع هذا التصور.

المؤمنون بمعتقد تناسخ الأرواح أو الحياة في الدنيا بعد الموت أو ما يسمى بـ"الوجود الدوري Reincarnation" يعتبرون ظاهرة الديجافو برهان وتأكيد على صحة معتقدهم الذي يقول بأن الروح حينما تخرج من الجسد بعد الموت تلج في جسد آخر وقد تحمل معها بعض ذكريات الحياة السابقة. فحينما تتكرر المواقف بين الحياة السابقة وحياة الحاضر تستعيد الروح ذاكرتها فيشعر المرء بوهم "سبق الرؤية أو سبق المعرفة". فلسفة عودة الروح هي فلسفة قديمة حديثة تبنتها الأديان السومرية والمصرية واليونانية القديمة في السابق والأديان البوذية والهندية وغيرها في يومنا هذا. بغض النظر عن صحة أو بطلان هذا المعتقد فإن الروح العائدة إلى جسد جديد لا يمكن أن تصحب ذكريات وأحداث الماضي معها. الروح طاقة مجردة عن الذكريات حيث أن الذكريات خاصيّة من خصائص الدماغ لأنها مخزونة فيه وحينما تترك الروح الجسد تترك الدماغ معه وهو أشبه ما يكون بـ"الحاسوب"، فكيف تتذكر الروح أحداث الماضي وحاسوب الذكريات ليس معها !؟.

هناك تفسيرات روحانية ودينية أخرى لهذه الظاهرة منها ما ينسلخ عن حدود العقلانية والمنطق لا أريد الخوض في تفاصيلها، كما أن هناك آراء لباحثين وأطباء ومختصين تتباين الرؤى فيها قد لا يحمل أيٌ منها البرهان الدامغ على صحتها. فمن الأطباء النفسيين ما يجعل لهذه الظاهرة صلة وارتباط بأمراض نفسية معينة مثل مرض القلق النفسي واختلال الشخصية وكذلك مرض فصام الشخصيّة أو ما يسمّى بـ"السكيزوفرينيا Schizophrenia"، غير أنهم عجزوا عن إعطاء صلة بايولوجية واضحة على ذلك. كما أن بعض الباحثين يرى بأن خصائص الدماغ التشريحية واختلاف المواقع بين فصي الدماغ الأيمن والأيسر يجعل أمكانية تفاوت ورود المعلومات إلى الدماغ عملية ممكنة، وهم أيضًا يفتقرون للحجة المقنعة لذلك. ومن الباحثين أيضًا ما يرى بأن الأحلام أثناء النوم قد تكسب الدماغ معرفة كامنة تتبلور وتتبعث حينما تتشابه المشاهد بين الواقع وبين المعلومة المخزونة أثناء النوم. كما أن تشابه الصور والأحداث بين المعلومات المخزونة في الدماغ والمتأتية من خلال قراءة القصص أو مشاهدة الأفلام في السينما أو التلفاز قد تكون سبب في حصول ظاهرة الديجافو. كل هذه التفسيرات تفتقد إلى الحجة المقبولة التي تستطيع أن تقنع على أساس علمي مدعوم بالأدلة.

التفسير العلمي الذي يفسر ظاهرة الديجافو والذي أتبناه شخصيًا وأبحث في جوانبه والمدعوم بالأدلة المختبرية والمشاهدات أوجزه بما يلي: تحصل في دماغ الإنسان إفراغات لشحن كهربائية تتباين في مقدارها وشدتها من شخص لآخر على نحو طبيعي وبوجود محفز أو بدونه وإن كان ذلك بشكل مقنن أو محدود. هذه الإفراغات الكهربائية إن زادت عن مستواها الطبيعي المعلوم تصبح حالة غير طبيعية أو مرضية كما هو الحال عند مرضى الصرع أو في حالة استخدام نوع خاص من الأدوية المحفزة. قد يصاحب انبعاث الشحنات الكهربائية في الدماغ بعض الظواهر غير الطبيعية كالحركات اللاإرادية في أعضاء الجسم أو حالة إرباك مؤقت في الدماغ خصوصًا في مراكز الذاكرة قد يؤدي

> التفسير العلمي الذي يفسر ظاهرة الديجافو والذي أتبناه شخصيًا وأبحث في جوانبه والمدعوم بالأدلة المختبرية والمشاهدات أوجزه بما يلي: تحصل في دماغ الإنسان إفراغات لشحن كهربائية تتباين في مقدارها وشدتها من شخص لآخر على نحو طبيعي وبوجود محفز أو بدونه وإن كان ذلك بشكل مقنن أو محدود.

إلى النسيان المؤقت لحوادث قديمة أو حديثة. على أساس هذه الحقائق العلمية نستطيع تفسير ميكانيكية ظاهرة الديجافو وعلى ضوء المثال المطروح كما يلي: يسافر أحد السواح إلى مدينة باريس عاصمة فرنسا لأول مرة ويزور متحف اللوفر فيها وأثناء تجواله في المتحف يخالجه شعور غريب وأكيد بأنه قد شاهد هذا المتحف سابقًا ولكنه لا يعلم كيف ومتى؟.

تفسير ما حصل وحسب نظرية الشحنات الكهربائية سيكون حسب التسلسل الزمني التالي: يشاهد السائح قاعة فيها رسوم مهمة لفنانين كبار في متحف اللوفر تثير انتباهه واهتمامه وتمس مشاعره، يحصل تحفيز وانبعاث لشحنات كهربائية في الدماغ، يليه إرباك في الدماغ وعلى وجه التحديد في مركز الذاكرة القصيرة المؤقتة للأحداث القريبة، يخزن الدماغ ما قد شاهده السائح قبل عملية الانبعاث الكهربائي، يعود السائح لحالته الطبيعية بعد انتهاء انبعاث الشحن الكهربائية، يرى قاعة المتحف والرسوم مرة أخرى ويكون قد نسى ما شاهده من قبل بسبب الإرباك الحاصل في الذاكرة، يستحضر الدماغ المعلومة المخزونة منذ لحظات، وهكذا يشعر السائح بأنه يشاهد هذه القاعة مرة ثانية ولكنه لا يدري متى رآها من قبل! هذه العملية ورغم طول أحداثها تحصل في غضون ثوانٍ قليلة جدًا.

هذا التصور تدعمه الحقائق العلمية التالية:

أولاً: تتكرر حالة الديجافو عند الأشخاص الذين تنشط أدمغتهم بحركة الشحنات الكهربائية وتندر أو تنعدم عند الأشخاص الذين تشح أو تقل انبعاثات الشحن الكهربائية في أدمغتهم. كما أن هذه الظاهرة قد لا تحتاج إلى مؤثرات وحوافز لحدوثها عند من تنشط في دماغه انبعاثات الشحن الكهربائيّة أي ليس من الضروري حصول شد عاطفي وانفعال كمحفز لحدوث هذه الظاهرة.

ثانيًا: مرضى الصرع وخصوصًا صرع الفص الصدغي تنتابهم ظاهرة الديجافو بشكل متكرر يتناسب مع كثافة الشحن الكهربائية المنبعثة في أدمغتهم، وهذا دليل على عمق الصلة بين ظاهرة الديجافو وانبعاث الشحن الكهربائية في الدماغ.

ثالثًا: المرضى الذين يستخدمون بعض الأدوية المحفزة لنشاط الشحنات الكهربائية الدماغية تنتابهم هذه الظاهرة وقت استخدام هذه الأدوية وتزول بالتوقف عن تناول الأدوية المحفزة. من الأدوية التي تحفز ظهور ظاهرة الديجافو والتي تحفز بدورها انبعاث الشحنات الكهربائية في الدماغ هي دواء الـ" أمنتادين Amantadine " ودواء الـ" فينايل بروبانولامين Phenylpropanolamine "، وأخذ هذين الدوائين معًا يزيد من انبعاث الشحن الكهربائية في الدماغ ويزيد من حصول ظاهرة الديجافو.

رابعًا: نسبة حدوث ظاهرة الـ"ديجافو" تزداد في مرحلة العمر المحصورة بين 15 إلى 25 سنة وهي الفترة التي تكون فيها انبعاثات الشحن الكهربائية في الدماغ على أوجها لوجود المحفزات العاطفية والانفعالية التي تزداد ذروتها في هذه المرحلة من العمر.

خامسًا: بنفس هذا السياق وبنفس هذه الميكانيكيّة تفسر الظاهرة الأخرى والتي هي أقل انتشارًا والتي تسمّى بالـ"جامه فو Jamais vu" وهو مصطلح يعني باللغة الفرنسيّة "لم أرَ هذا من قبل" أي أن المرء يكون أمام موقف أو حالة أو مكان أو شخص معروف ومعلوم لديه غير أنه يشعر وكأنه يراه لأول مرة!. على سبيل المثال وليس الحصر، يتحدث شخص ما مع أبيه أو أخيه فتنتابه على حين غرّة لحظات من الشعور الغريب توحي له بأن الشخص الذي يتحدث إليه غريب عليه لا يعرفه ولم يره قط من قبل، حيث يستمر هذا الشعور للحظات قليلة جدًا لا تتجاوز الثواني ثم ينتهي. ميكانيكيّة حصول هذه الحالة، في نظري، مشابه تمامًا لميكانيكية حصول ظاهرة الديجافو أي حصول خلل وقتي وسريع في الذاكرة تحت تأثير الانبعاثات الكهربائية في الدماغ. الاختلاف بين الحالتين يكمن فقط في أن انبعاث الشحنات الكهربائية في الدماغ في الـ"جامه فو" تربك مركز الذاكرة بنوعيه الطويل والقصير بشكل مؤقت حيث ينسى الإنسان كل شيء يتعلق بالماضي البعيد والحاضر القريب أي أن انغلاق الذاكرة المؤقت يكون كليًا وهكذا ينسى المرء أباه وأخاه ولكن لحسن الحظ للحظات قصيرة جدًا لا تتعدى الثواني.

بوجود هذه الحقائق العلمية الواضحة وبوجود هذه الصلة الصريحة والمضطردة بين انبعاث شحنات الدماغ الكهربائيّة المؤثرة على مراكز الذاكرة وبين تكرار حصول هاتين الظاهرتين، قد نجد أنفسنا على مشارف عين الحقيقة في تفسير ميكانيكية حصول ظاهرة الـ"ديجافو" أو (رأيت هذا من قبل) وظاهرة الـ"جامه فو" أو (لم أرَ هذا من قبل). ربما يتحمل هذا التفسير الثقة في معرفة ميكانيكية هاتين الظاهرتين أكثر مما تتحمله التفاسير الأخرى وأن صدرت عن فطاحل فلاسفة علم النفس أمثال أميل بواراك وسيجموند فرويد!.

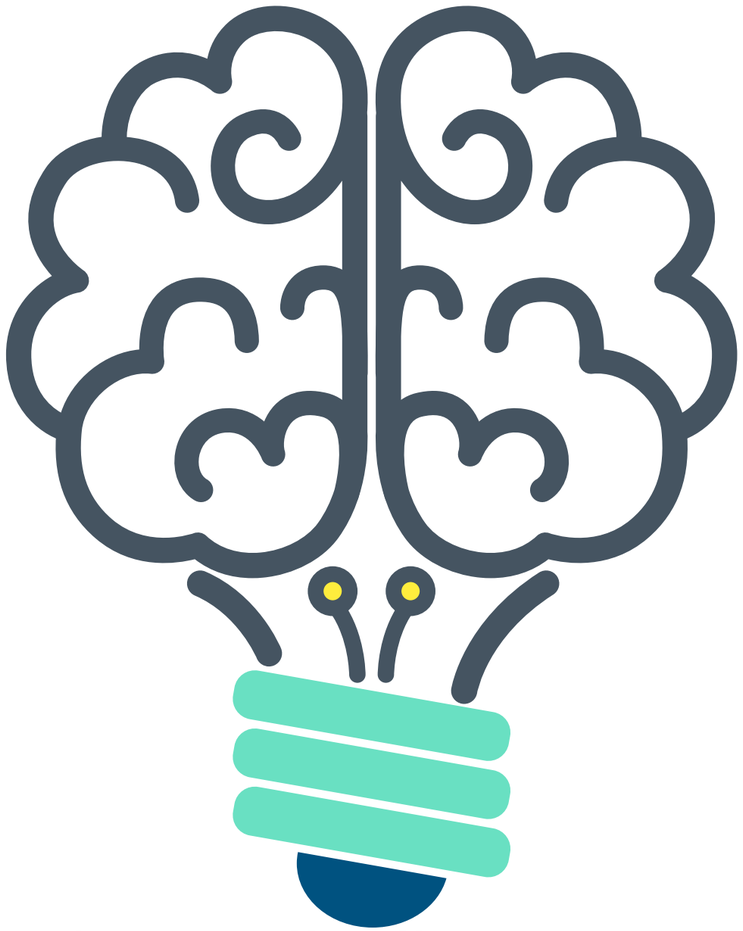

بين العبقرية والجنون

بقلم دين كيث سيمونتون✺

ترجمة: زينة عبدالله تركاوي

دمشق

عندما سُئل جون فوربس ناش ـ عالم الرياضيات الحائز على جائزة نوبل والمُصاب بالفصام وجنون العظمة ـ كيف استطاع تصديق فكرة أنَّ الكائنات الفضائية قد جذبته لإنقاذ العالم، أجاب ببساطة: "لأن أفكاري حول الكائنات الخارقة للطبيعة قد راودتني بنفس الطريقة التي راودتني بها أفكاري حول الرياضيات، لذا فقد أخذت الأمر على محمل الجد."

ليس جون ناش بالوحيد في التاريخ الذي يمكن أن يُدعى بالعبقري المجنون، فضحايا الانتحار كأمثال الرسامين فنست فان جوخ ومارك روثكو والروائيين فيرجينيا وولف وايرنست همنغواي والشاعرتين آن سيكستون وسيلفا بلاث خير مثال على ذلك. وحتى مع تجاهل وجود أولئك المبدعين الذين لم يقتلوا أنفسهم في نوبة اكتئاب شديدة، يبقى من السهل وضع قائمة بأسماء الأشخاص الذين يعانون من الأمراض النفسية الموثقة جيدًا كأمثال المؤلِّف الموسيقي روبرت شومان والشاعرة إيميلي ديكنسون وجون ناش. بينما يشكل العباقرة المبدعون الذين استسلموا لإدمان الكحول وأشكال الإدمان الأخرى بدورهم حشدًا غفيرًا أيضًا. دفعت هذه الأمثلة وأشباهها الكثيرين لافتراض وجود علاقة وثيقة بين الإبداع والأمراض النفسية. وفي الحقيقة، تعود فكرة امتلاك العباقرة المبدعين لِمَسّ من الجنون إلى عهد أفلاطون وأرسطو، ولكنَّ بعض علماء النفس المعاصرين يرون إنَّ الفكرة برمتها محض خدعة، لأنه يمكننا بعد هذا كله أن نجد عباقرة مبدعين لا تظهر عليهم أية علامات أو أعراض لأمراض نفسية.

ويشير معارضو فكرة جنون العبقرية إلى حقيقتين ثابتتين:

جون فوربس ناش

أولاهما هي أنَّ عدد العباقرة المبدعين في تاريخ الحضارة الإنسانية بأسرها كبير جدًّا؛ ولذا فحتى لو كان أولئك الأشخاص أقلَّ عرضة للأمراض النفسية من الشخص العادي فإنَّ عدد المرضى النفسيين بينهم لا يزال كبيرًا جدًّا. أما الحقيقة الثانية فهي أنَّ نزلاء المصحات العقلية الدائمين لا ينتجون في العادة أعمالاً إبداعية نادرة، وأقرب استثناء يمكن للمرء تصوره هو "ماركيز دي ساد" السيء السمعة، وحتى في حالته، فقد كتب أعظم أعماله ـ أو بالأحرى أكثرها سادية ـ أثناء احتجازه بوصفه مجرمًا لا أثناء إيوائه في المصحة بوصفه مختلاً عقليًّا.[1] إذًا، هل علينا تصديق أنَّ العبقرية المبدعة مرتبطة بالجنون أم لا؟ تقترح الأبحاث التجريبية الحديثة أنَّه يجدر بنا أن نصدق ذلك لأنَّها حددت بوضوح وجود علاقة ما بين الإبداع والجنون.

ولعل أكثر العمليات أهمية في إنتاج الأعمال البارزة عند العباقرة المبدعين هي عملية إزالة التثبيط المعرفي ـ أي الإهتمام بأشياء يجري تجاهلها أو غربلتها في الحالة الطبيعية بوساطة الانتباه لأنَّها تبدو غير ذات صلة.[2] فمثلاً، كان بمقدور ألكسندر فلمنغ عندما لاحظ أنَّ عفنًا أزرق كان يقتل المزرعة الجرثومية في طبق بتري أن يتلف الطبق في جهاز التعقيم (الأوتوكلاف) كما كان ليفعل أيُّ من زملائه، لكنه بدلاً من ذلك فاز بجائزة نوبل لاكتشافه البنسلين وهو مضاد للجراثيم مستخلص من عفن البنسليوم نوتاتوم Penicillium notatum. كذلك فإنّ الكثير من الناس يذهبون في نزهة على الأقدام إلى الغابات ويعودون وقد علقت بعض الأشواك في ملابسهم، لكن جورج دي ميسترال وحده قرر أن يتقصى أمرها أكثر تحت المجهر ليكتشف عندها مبدأ الفيلكرو Velcro.

ولا تقل إزالة التثبيط المعرفي فائدة في الفنون عنها في العلوم، فالمبدعون في مجال الفنون غالبًا ما يتحدثون عن الطريقة التي جاءتهم فيها فكرة مشروع إبداعي رائد إثر سماعهم عرضًا جانبًا من محادثة ما أو رؤيتهم حدثًا فريدًا لكن غير ذي أهمية خلال مشيتهم اليومية المعتادة. فمثلاً، يورد هنري جيمس في مقدمة روايته غنائم بوينتون (The Spoils of Poynton) أنَّ فكرة القصة أتته من إيماءة امرأة كانت تجلس بجواره أثناء عشاء ليلة عيد الميلاد.

لكن لإزالة التثبيط المعرفي جانب مظلم أيضًا؛ فهي مرتبطة طردًا بالأمراض النفسية. إذ يجد مرضى الفصام مثلاً أنفسهم تحت وابل من الهلوسات والأوهام التي لو أمكنهم تفاديها لكانوا أفضل حالاً. إذًا، لم لا تصبح المجموعتان مجموعة واحدة؟ ترى عالمة النفس شيلي كارسون من جامعة هارفرد أنّ العباقرة المبدعين يتمتعون بأصول الذكاء العام الخارق، ويقدم هذا النوع من الذكاء الضوابط المعرفية الضرورية ليتمكن المرء من تمييز الغث من السمين، وبه يتم فصل الأوهام الغريبة عن الاحتمالات الواقعية. ووفقًا لهذا المفهوم فإنَّ الذكاء العالي ضروري للعبقري المبدع فقط بقدر ارتباطه بإزالة التثبيط المعرفي. ويتمخض عن الذكاء الاستثنائي وحده أفكارٌ مفيدة لكنها ليست بالضرورة أصيلة وقد لا تبعث على الدهشة، فقد دخلت مارلين فوس سافانت كتاب غينيس للأرقام القياسية لامتلاكها أعلى معدل ذكاء مسجل في العالم، ومع ذلك فهي لم تستطع إيجاد علاج للسرطان أو أن تقدم للعالم أي جديد.

وتولي بعض مجالات الإبداع عنصر النفع usefulness أهمية أكبر بكثير مما توليه لعنصري الأصالة والدهشة. وفي مثل هذه الحالات، تصبح نقاط الضعف المشتركة بين العبقرية والجنون أقل أهمية. وعندها يمكن للأمراض النفسية، مثلاً، أن ترتبط عكسًا مع العبقرية في مجال العلوم الطبيعية،[3] لكن ثمة استثناء مثير للاهتمام هو حالة الثورات العلمية التي تسير في اتجاه معاكس للنماذج السائدة،[4] إذ تكون العلاقة عندها بقدر الإيجابية التي هي عليه عند الفنانين والكتاب.

أخيرًا، يمكن لأحداث أو ظروف معينة خلال مرحلة الطفولة واليفاعة والمراهقة المبكرة أن تعزز من قدرات الشخص الإبداعية دون التسبب في أعراض مرتبطة بالأمراض النفسية.[5] وتشتمل هذه الخبرات المتنوعة على التعرض لثقافات متعددة والثنائية اللغوية وأشكالاً متنوعة من محن النمو كفقد الوالدين والضائقة الاقتصادية والإنتماء إلى إحدى الأقليات. والعباقرة المبدعون الذين يكبرون في مثل هذه البيئات هم في الواقع أقل عرضة لإظهار أعراض الأمراض النفسية![6] لكن العديد من العباقرة يسيرون على خط متوسط بين ما هو طبيعي وما هو غير ذلك، ويكون سيل الدوافع والأفكار التي يعقلونها بمثابة نبع من العبقرية. يقول ناش بعد مدة طويلة من سيطرة التفكير التوهمي إنَّ عودته إلى مرحلة أكثر عقلانية "لم تكن مسألة مفرحة تمامًا." ولتفسير قوله هذا أعطى جوابًا بسيطًا آخر: "إنّ عقلانية التفكير تفرض قيودًا على مفهوم الشخص حول علاقته بالكون".

الهوامش:

✺ دين كيث سيمونتون هو أستاذ بارز في قسم علم النفس في جامعة كاليفورنيا، دافيس.

1.Carson. S.H. Cognitive disinhibition. creativity. and psychopathology. In Simonton. D.K. (Ed.). The Wiley Handbook of Genius Wiley-Blackwell. Oxford. United Kingdom (2014).

2.Eysenck. H. J. Genius: The Natural History of Creativity Cambridge University Press (1995).

3. Simonton. D.K. The mad (creative) genius: What do we know after a century of historiometric research? In Kaufman. J.C. (Ed.). Creativity and Mental Illness Cambridge University Press (2014).

4.Ko. Y.. & Kim. J. Scientific geniuses' psychopathology as a moderator in the relation between creative contribution types and eminence. Creativity Research Journal 20. 251- 261 (2008).

5.Damian. R.I.. & Simonton. D.K. Diversifying experiences in the development of genius and their impact on creative cognition. In Simonton. D.K. (Ed.). The Wiley Handbook of Genius Wiley-Blackwell. Oxford. United Kingdom (2014).

6.Damian. R.I.. & Simonton. D.K. Psychopathology. adversity. and creativity: Diversifying experiences in the development of eminent African-Americans. Journal of Personality and Social Psychology (2014). Retrieved from doi. org/10.1037/pspi0000011

عنوان المقال الأصل:

http://nautil.us/issue/46/balance/if-you-think-youre-a-genius-youre-crazy-rp

نُشر هذا المقال لأول مرة في مجلة "العبقرية" في تشرين الأول (أكتوبر) 2014

الأدب.. طوق النجاة!

محمد الدواس

القصيم - رياض الخبراء

@abndawas

سنموت على أي حال، لكني أعتقد إن حالنا سيكون أفضل بكثير لو متنا بعد قراءة الكتب التي نريد، فالموت مع المعرفة خير من الموت مع الجهل.

دائمًا كان الأدب صديقًا للإنسان، وتسليتُه على هامش الحياة، وفي الأوقات التي كان لا بد فيها من الصمت كانت القصص تحكي. لم تكن القراءة في يوم لفئة معينة من الناس، وتأثير الكتب والأدب يتجاوز بكثير محيط القُراء، ليصل أحيانًا لأولئك الذين لا يجيدون سرّ فك الأحرف وتركيبها، ففي ذاكرتنا مازالت حكايات الجدات تأسرنا، و"كان ياما كان" هي المفتاح التي تمتلكه الجدات للأحلام، ونجد أن ما يميز رواية "المسخ" لكافكا أنه يكتب كما تحكي الجدات. "ما إن أفاق غريغور سامسا ذات صباح من أحلامه المزعجة حتى وجد نفسه وقد تحول إلى حشرة ضخمة".

أعتقد أن أغلب الأدباء الكبار الذين كان لهم تأثير كبير في مجتمعاتهم يحاولون أن يكونوا في أعمالهم مُلمين بكل شيء يخص تلك المجتمعات التي يعيشون بها، فتراهم حينًا رجال سياسة، وفي الصفحة الأخرى مصلحين اجتماعيين، وأحيانًا محللين اقتصاديين يتحدثون عن البطالة والفقر، وتجدهم بأسلوب غير مباشر يطرحون طرق معالجة الأخطاء على لسان الشخصيات التي يبتكرونها.

كان الأديب أيقونة من أيقونات الإصلاح الاجتماعي، لذلك نرى إن من أعظم الشخصيات في أغلب الدول العالمية هم الأدباء، فلا أحد يختلف أن شكسبير أحد أهم مفاخر إنجلترا، وبعد تلك السنوات الطويلة مازالت مسرحياته تقام في كل مكان، ومازال هناك، في أحد أجزاء هذا العالم، هاملت خفي يدعي الجنون ليقول ما يريد دون خوف. وحين تزور باريس فستذكرك برواية ديكنز "قصة مدينتين" وستبحث عن بقايا سجن الباستيل الذي مازالت فرنسا تحتفل بذكرى اقتحامه باعتباره اليوم الوطني لفرنسا، وحين تسير في شارع فيكتور هوجو ستتخيل كل الوجوه هي جان فالجان وكل طفلة هي كوزيت.

هكذا يحتفي الغرب بأدباءهم، يجعلون المدن ذاكرة للأدباء. وقد لا يخفى علينا نحن القُراء تلك التماثيل التي صنعت للأدباء حول العالم، وتلك الميادين العامة التي سُميت بأسمائهم عرفانًا لهم.

وفي الآونة الأخيرة نجد أن بعض الدول تُصدر نقود تكريمية عليها صور أدباءها مثلما فعلت كولومبيا حين أصدرت ورقة نقدية عليها صورة غابرييل ماركيز غارسيا.

لو كانوا يملكون مثل أبو العلاء المعري أو الجاحظ ماذا سيصنعون؟

الأديب والمترجم الكبير سامي الدروبي كان مفتونًا

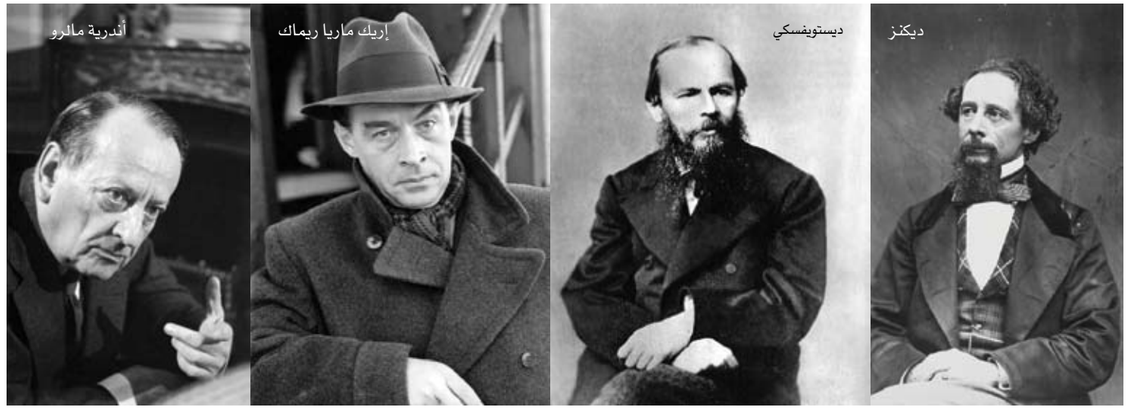

بديستويفسكي، وكان له فضل كبير بترجمة أعماله للعربية، فالمترجم مؤلف بشكل أو بآخر، فحين زار روسيا بصحبة زوجته التي تتحدث عن تلك الفترة وتقول: "أنه توقف عند أحد الجسور وبدأ مفتونًا وهو يتحدث عن الأحداث التي كتبها ديستويفسكي عن هذا الجسر في أحد أعماله".

ذاكرتنا نحن القُراء تختلف عن أي ذاكرة، فالطرق تذكرنا بحكاية، والجسور تذكرنا بالحروب، فنعيش تلك القصص التي كتبت وكأننا جزء منها ونحن بعيدين جدًّا، في زمن مختلف. فللكلمات سحرها، تخفي الزمن، وتتقلك بسلاسة بين العصور، وأنت جالس في مكانك محدقًا للسقف ببلاهة متسائلاً كيف يعيد التاريخ نفسه ونحن نقرأه؟

نحن الغارقين في الواقع غالبًا لا نعلم ماذا يحدث في هذه اللحظة الزمنية، فلسنا مثل الأدباء الذين يجيدون فصل أنفسهم عن الواقع لكتابته من بعيد، فالأديب طوق النجاة، فتلك اللحظات خفية، وكواليس العالم مجهولة لكنهم يظهرونها بين كلماتهم وفي أعمالهم آملين أن نعرف ماذا يحدث.

دائمًا كان الأدب رفيقًا للحضارة، وفي لحظات الفشل كان يقف سدًّا منيعًا ضد السوء محاولاً نحت طريق آخر للنجاح، فـ "الكلمة الحرة ضمان".

من الأدباء الذين كان لأدبهم تأثير سياسي كبير الأديب الروسي ديستويفسكي فحين كتب روايته (ذكريات من منزل الأموات) التي قيل بعد صدورها أن: "ديستويفسكي دانتي جديد هبط إلى الجحيم، وهذا الجحيم موجود في الواقع لا في خيال الكاتب". كان يتحدث في روايته عن فترة سجنه الكئيبة في أحد السجون الروسية، وكان لكتابه تأثير سياسي مفصلي، ففي عام 1863م أصدر الإمبراطور الروسي قانون يلغي العقوبات الرهيبة في السجون الروسية بعد نشر الفصول التي تصف العقوبات الرهيبة على السجناء.

لك أن تتخيل حين يخاف الكاتب من الكتابة ماذا سنخسر؟

من صالحنا كمجتمعات، وبالتأكيد من صالحنا كقراء أن يكون هناك مساحة واسعة للحديث، وحتى في مخالفة الرأي، فالحرمان من قول الآراء المخالفة هي أكبر نقمة على الدول قبل أن تكون نقمة على القائل، فالشعوب التي تخاف لن تصنع حضارة، ومن المؤسف أن العقول المبتكرة تهاجر لعدم وجود مساحة كافية من التعبير والعمل الإنتاجي المبتكر.

حين عاد الشاب الألماني إريك ماريا ريماك من الحرب العالمية الأولى أصبح شخصًا آخر بعد الفظائع التي عاشها، عاد إلى مدينته ليمارس مهنة التدريس وكانت أول محاضرة له بعنوان: "كيف نعيش في مجتمع لا نسمع فيه صفارات الإنذار؟" حتى وجه له إنذار بأن يترك الحديث بالحرب. بعدها قرر ريماك أن يكتب رواية ضد الحرب فكتب روايته الشهيرة (كل شيء هادئ في الميدان الغربي) ويقول ريماك عن أحداثها أنها لم تكن من الخيال بل واقعية. وتعد من أولى الروايات التي تقف ضد الحرب أيًا كانت مبرراتها، وكان هذا العمل هو محور تغير حياته، فالكتابة في بعض الأوطان نقمة، فبعد نشرها أتهم ريماك بمعاداة ألمانيا، ونشرت بعض الصحف مقالاً لغوبلز يصف الكتاب بالقذارة وأن مؤلفه غير ألماني، ويشكك بمشاركة ريماك بالحرب، وبعد مهاجمة دار السينما التي تعرض الفيلم المقتبس من الرواية بالقنابل، وبعد صعود اللغة السيئة ضد ريماك يقرر أن يهاجر إلى سويسرا، ويقال أنه من أول الأدباء الألمان المنفيين، وبعد صعود هتلر للحكم صدر قرار بمنع الرواية وحرق جميع النسخ الموجودة منها، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فلقد صدر قرار بسحب الجنسية من الكاتب الذي باع وطنه للأجانب!

هكذا يحدث وقت الجهل، تكون الحرب هي الصواب، ولغة الكراهية سمة من سمات المجتمع، وكل رأي مخالف خيانة للوطن، وهذا نذير شؤم لمن يقرؤون التاريخ والواقع. فدائمًا الاجتماع على ما يجمعنا كمصير واحد أفضل من بحث سبل الخلاف وتأجيجها، والحوار أفضل مئة مرة من إشعال فتيل الحرب.

إذا قرأنا في سير الأدباء سنجد عبر التاريخ إن الكثير منهم سجن سياسيًّا، ومنهم من قتل، وهناك من عذب ونفي، وهناك من حُكِم محكمات غير عادلة، وكذلك سنجد من كرهه مجتمعه ونبذه. فماذا سيكون الأديب غير لعنة تقول الحقيقة لتشقى!

الأعمال الأدبية هي من طرق فهم المجتمعات، فاستيعابها أجدى من محاربتها، فالمجازفة أقل بكثير حين نستوعب الرأي المخالف ونفهم وجهة نظرة، يقول كارل ماركس أنه حين كتب كتابه الشهير (رأس المال) الذي يُعد من أفضل ثلاثة كتب غيرت مجرى البشرية مع (تفسير الأحلام) لفرويد و(النظرية النسبية) لآينشتاين: "لقد تطلعت إلى الشعراء والروائيين أكثر مما تطلعت إلى الفلاسفة والمحللين الاقتصاديين باحثًا لديهم عن تبصرات في دوافع البشر ومصالحهم المادية".

وهذا ليس غريبًا على ماركس فهو يرى نفسه شاعرًا وأديبًا قبل كل شيء.

بائع الكتب المتجول، الأديب الفرنسي أندرية مالرو كان ضد فرنسا في استعمارها لفيتنام وللجزائر، وهذه المواقف لم تجعل الحكومة الفرنسية تجبره على اتخاذ نفس مواقفها أو تنفيه أو تسجنه أو تقود حملات منظمة لتشويه صورته والتشكيك بوطنيته، بل كان من عظمائها، حتى أنه في فترة من الفترات تقلد إحدى الوزارات. كانت فرنسا في تلك الفترة تعرف أن الصديق ليس من يؤيدك في كل شيء، بل من يخبرك حين تخطئ أن تتوقف.

ففي أسوء لحظات التاريخ، وقبل وقوع أي أزمة بشرية يظهر أشباه غوبلز ومكارثي، أفراد ومؤسسات مهمتها تخوين وتجريم الرأي المخالف وصنع أعداء وهميين، فالمكارثية رفضها الغرب بعد تجربة، وغوبلز في كتب التاريخ ليس إلا عار، أما أندرية مالرو فدفن في مقبرة عظماء فرنسا.

أغلب الأدباء العظماء عبر التاريخ كانوا طموحين، فهم يأملون دائمًا في الوصول للمجتمع المثالي، فتجد أنهم يكتبون في أعمالهم شرور المجتمعات من "حقد، حسد، طغيان، فساد" محاولين رسم صورة حقيقية لواقعنا، آملين أن نفهم هذه الشرور التي أصبحت جزء من حياتنا اليومية .. لنتجاوزها، وفي كل مرة نفهم الدرس لكننا لا نجيد تطبيقه، مما يجعلني أعتقد أحيانًا إن عجلة التاريخ معطلة ، لذلك لا نستطيع تجاوز هذه الحقبة السيئة فما أن نصل للجزء الجميل حتى يبدأ الشريط يعيد نفس القصة.

نحن والغرب.. ثراء التنوع الثقافي الصراع عبث والتعايش محتوم

د. إدريس سلطان صالح

أستاذ مشارك بجامعة المنيا - مصر

"يقولون أن الإسلام وحضارة الغرب نقيضان لا يمكن أن يجتمعا، لكن يبقى أنهما قد جاء كل منهما ليبقى، ولابد من تعايشهما إلى الأبد على الكرة الأرضية، ولا يمكن نفي أحدهما، فالتعايش محتوم عليهما، أما الصراع فعبث، لأنه لن ينتهي ولن ينهي وجود أي منهما."

كلمات قليلة لخص بها الجغرافي جمال حمدان رؤية ثاقبة لمعنى التنوع الثقافي، ودعم قيم التفاعل المشترك بيننا وبين الغرب، ذلك التفاعل القائم على مبدأ التعايش المشترك بين المجتمعات والثقافات المتباينة، ونبذ الصراع الذي لن ينتهي، لأنه لن يحقق استقرارًا أو سلامًا أو تنمية، سواء هنا أو هناك.

التنوع الثقافي والاهتمام به:

تُعبر الثقافة عن نمط الحياة الذي يميز المجتمعات عن بعضها البعض، نظرًا لاختلاف الطرق التي يسلكها أفراد كل مجتمع في حياتهم، سواء أفكارهم أو معتقداتهم، أو علاقاتهم ببعضهم البعض، أو طرق استخدامهم لبيئاتهم ومواردهم. ولذلك تتنوع الثقافة من مجتمع إلى أخر، مما جعل ذلك التنوع سمة بشرية أساسية لا يمكن التغافل عنها.

ولذلك نال موضوع التنوع الثقافي اهتمامًا عالميًا كبيرًا، وخاصة مع التطور المعرفي والتكنولوجي الذي جعل العالم قرية صغيرة متشابكة المصير، تتعاون مجتمعاته مع بعضها البعض، ويعتمد كل مجتمع منها على إنجازات الآخرين في تحقيق تطوره وتقدمه.

وقد انعكس ذلك الاهتمام في الإعلانات الصادرة عن المنظمات المهتمة بالثقافة والتربية والعلوم، مثل إعلان منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة حول التنوع الثقافي عام 2002م، وإعلان المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الإسلامي عام 2004م، وانعكس كذلك في عقد كثير من المؤتمرات والمبادرات التى تعمل على نشر المفاهيم والقيم الثقافية المرتبطة بثقافات الآخرين وتقدير واحترام تنوعها، مثل: المؤتمر العربي الأوروبي للحوار بين الثقافات، والذى عقدته الإيسيسكو بعنوان: مرتكزات التعرف على الآخر من أجل العيش معًا عام 2002م، ومؤتمر "تعزيز الحوار بين الثقافات والحضارات"، الذي عقدته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالمغرب عام 2005م، ومؤتمر "حوار الحضارات والتنوّع الثقافي" الذي عقدته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة عام 2009م في تونس، ومبادرة الاتحاد الجغرافي الدولي بالتعاون مع الاتحادات الدولية للعلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والفلسفة، بعنوان: 2016 السنة الدولية للفهم العالمي، التي تهدف إلى تحقيق فهم متبادل لمشكلات العالم، ودعم دور الثقافات المحلية في تحقيق ذلك الفهم المتبادل.

وقد أكدت كل تلك الجهود على أهمية التنوع الثقافي وضرورة احترامه وتقديره، وذلك باعتبار التنوع الثقافي تراثًا مشتركًا للإنسانية، ولا يخص ثقافة بعينها، وأنه عاملًا من عوامل التنمية، ومصدرًا أساسيًا للإبداع البشري في العالم.

نحن والغرب.. رؤى متباينة:

رغم أهمية التنوع الثقافي، والاهتمام العالمي بضرورة الاحترام والتقدير المتبادل لثقافات الآخرين، إلا أنه تنتاب كثير من المثقفين في عالمنا العربي والإسلامي والمهتمين بالتنوع الثقافي، والعلاقات بيننا وبين الغرب مخاوف متنوعة بشأن طبيعة تلك العلاقة، وخاصة نظرة الغرب لنا كعرب وكمسلمين، ويدور في أذهانهم تساؤلات حول حقيقة كراهية الغرب لنا، ومصداقيته فيما يطرحه من مبادرات عن التنوع الثقافي، والاحترام والاعتماد المتبادل بين ثقافات العالم.

حيث نقرأ لبعض الكُتّاب والمثقفين مقالات وتحليلات تتناول العلاقة بين الثقافة العربية والإسلامية والثقافة الغربية، ولكن قد لا يمكن الحكم من خلالها على النظرة الحقيقية الشاملة لكل جوانب العلاقة بينهما؛ لأنها قد تكون نابعة من خبرة البعض الشخصية، أو قراءاتهم عن الغرب، أو إقامتهم لبعض الوقت في مجتمعات غربية، أو علاقات صداقة مع بعض مثقفي الغرب.

ولتنوع تحليلات الكُتّاب والمثقفين، فقد احتار المواطن البسيط في العالم العربي والإسلامي، نظرًا لتناقض تلك التحليلات، فتارة يؤكد بعض الكُتّاب نظرية المؤامرة الغربية، التي تتمحور حول كراهية الغرب لكل ما هو عربي وكل ما هو إسلامي، بل وصل الحد ببعض الكُتّاب إلى تناول مصطلحات صراع الحضارات، وحروب الأجيال المتعاقبة، كحرب الجيل الرابع أو حرب الجيل الخامس... إلخ. وذلك في تفسير كل الأحداث والمشكلات والقضايا التي مر بها العالم العربي والإسلامي في الماضي، ويمر بها في الوقت الحاضر. وتارة يتناول بعضهم الآخر العلاقات الحميمية بين الدول العربية والإسلامية وبين الغرب، سواء بين الحكومات، أو نجاح كثير من أبناء العرب والمسلمين في الغرب في مجالات الحياة المتنوعة، كالطب والهندسة والبرمجيات والسياسة والاقتصاد ...إلخ.

ويغيب عن أذهاننا بُعد آخر للعلاقة بيننا وبين الغرب، وهو ماذا يعتقد الغرب بشأن صورته في العالم العربي والإسلامي؟ فما يعتقده الغرب عن الصورة التي نراه بها قد يكون له تأثير وتشكيل لصورتنا نحن العرب والمسلمون في العالم الغربي.

فالمتأمل لواقع المجتمعات العربية والإسلامية يجد شيوع أفكار سلبية وهدامة لدى العامة عن الغرب وثقافته، وقد تكون كتابات بعض المتطرفين أو ما تبثه بعض وسائل الإعلام له دور في تشكيل ثقافة العامة عن الغرب وثقافته، من خلال التركيز على الأنماط السلوكية السلبية من وجهة نظر ثقافتنا العربية والإسلامية، أو طرحها لتوجهات سياسية سلبية ضد الغرب أو بعض دوله، مستجيبة لقرارات ورؤى الحكومات المرتبطة بمصالحها السياسية، أو رغبات ومشاعر جماعات بعينها لها أهداف ومصالح خاصة بها.

> العالم الآن قرية صغيرة، بفضل التكنولوجيا المتطورة يومًا بعد يوم، مما جعلنا لا نستطيع الانعزال عن الآخر، بل فرض علينا ضرورة فهم الواقع العالمي الجديد، الذي يتطلب منا الانفتاح على كل ثقافات الآخر

والحقيقة أن المجتمعات الغربية شأنها شأن مجتمعاتنا العربية والإسلامية، تمج بأنماط ثقافية متنوعة، بعضها إيجابي كانت له إسهاماته في تطور الحضارة الإنسانية في العالم، والتي نعتبر نحن العرب والمسلمون جزءًا من صانعيها، وبعضها سلبي، وقد تكون السلبية من وجهة نظرنا؛ لعدم اتساقها مع ثقافتنا العربية والإسلامية، بينما ينظرون هم إليها في الغرب في إطار ثقافتهم، ويرون أنها لا تحمل أي مظاهر للسلبية التي نراها نحن.

وخير دليل على وجود الإيجابيات ما تشهده مجتمعاتنا العربية والإسلامية من مظاهر تطور للثقافة الغربية، مثل استفادتنا من ثوراتهم الصناعية، وتطورهم المعرفي والتكنولوجي، الذي لم نستطع نحن الانعزال عنه أو تجاهله، بل أننا نسعى جاهدين للحاق بركب هذا التطور، واستغلاله في تطوير أنماط حياتنا وطرق معيشتنا.

والحقيقة أن مظاهر كثيرة من رؤيتنا للغرب تصل إليهم، وجعلتهم يشكلون صورة سلبية عن رؤيتنا لهم، إذ يعتقد الغرب أن بعض العرب والمسلمين يعتبرونهم أعداء، والبعض الآخر يرى فيهم الإنحلال الأخلاقي والفكري لإباحتهم المحرمات أو تناولهم لقضايا معينة من منظور مختلف عن منظورنا. ولعل ما يعزز ذلك هو تصرفات بعض العرب والمسلمين معهم، أو ما تطلقه الجماعات المتطرفة من تصريحات وأفعال تعبر عن كراهية الغرب، ووجوب قتلهم من وجهة نظر تلك الجماعات، فضلًا عما تفعله بعض الحكومات والأجهزة الأمنية تجاه عمليات تأمين السائحين الغربيين، والتي تجعلهم يشعرون بالخطر أثناء زيارتهم للعالم العربي.

ولذلك إذا كنا نحن العرب والمسلمين لدينا تصور عن وجود صورة سلبية لنا في العالم الغربي، وتعمد تشويه لكل ما هو عربي وإسلامي وفق نظرية المؤامرة، كذلك الغرب له رؤية لصورته في العالم العربي والإسلامي، ويعتقد أنها صورة غير دقيقة، وبها مغالطات كثيرة، مما يعني أن صورة كل منا لدى الآخر صورة سلبية، وكل منا يعتقد بظلم وتشويه الآخر له، مما يحتم علينا وعليهم بذل جهود حقيقية لنشر ثقافة إيجابية تبرز الصورة الإيجابية لثقافات العالم، ودورها في تحقيق التقدم الإنساني.

التفاعل المشترك والتعايش المحتوم:

العالم الآن قرية صغيرة، بفضل التكنولوجيا المتطورة يومًا بعد يوم، مما جعلنا لا نستطيع الانعزال عن الآخر، بل فرض علينا ضرورة فهم الواقع العالمي الجديد، الذي يتطلب منا الانفتاح على كل ثقافات الآخر، انفتاح واع يراعي طبيعتنا وثقافتنا وشخصيتنا العربية والإسلامية المتميزة، انفتاح ناقد يميز الإيجابي من السلبي، بحيث ندرك نحن ويدرك الغرب أن لكل منا ثقافة مميزة، لها من الإيجابيات ما يمكن أن يستفيد منه الآخر، وتساهم في تطور الحضارة الإنسانية العالمية، تلك الحضارة التي لم تتشكل بفضل ثقافة بعينها، بل بتظافر كل الثقافات الممثلة لكل المجتمعات عبر العصور الماضية.

فإذا كان الواقع الحالي يشهد تطورًا للغرب، وأننا نلهث وراء هذا التطور للاستفادة من انجازاته المعرفية والتكنولوجية، والبناء عليها لتطوير مجتمعاتنا، فإن التاريخ يشهد لفترات قوتنا وتطورنا، والتي سعى الغرب للاستفادة منها، وهذا ما يوضح الاعتماد المتبادل بين الثقافات والمجتمعات، وأن الحضارة العالمية لا يمكن أن تكون حكرًا لثقافة بعينها.

ولذلك أصبحت النظم التعليمية والمؤسسات الثقافية والاعلامية في عالمنا العربي والإسلامي مطالبة أكثر من ذي قبل بالتعامل مع الواقع العالمي الذي يفرض الوعى بالتنوع واحترام ثقافات الآخرين، وذلك من خلال إعادة التفكير في معنى التربية وفلسفتها، وما يرتبط بها من مناهج تعليمية، وتطوير رسالتها الاعلامية ومحتواها، وتطوير أهداف وجهود مؤسساتها الثقافية، وذلك للتأكيد على القيم الثقافية العربية والإسلامية، والحفاظ على هوية مجتمعاتنا في إطار تفاعل إيجابي بناء مع ثقافات الآخرين، والعمل على دعم قيم التعاون والسلام والمسؤولية والقدرة على حل الصراعات والنزاعات، وإزالة كل أشكال التعصب والعنصرية، والتأكيد على كيفية التعلم للعيش معًا في عالم واحد، مستفيدين بإيجابيات ثقافات الآخرين.

المصادر:

1 - تقرير اللجنة الدولية للقرن الحادى والعشرين (1997). التعليم ذلك الكنز المكنون. تعريب جابر عبدالحميد جابر، القاهرة: دار النهضة العربية.

2 - جمال حمدان (1996). صفحات من أوراقه الخاصة مذكرات في الجغرافيا السياسية. إعداد وتقديم: عبدالحميد صالح حمدان. القاهرة: دار الغد العربي.

3 - المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (2004). الإعلان الإسلامي حول التنوع الثقافي. الرباط، المغرب.

4 - المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (2005). المؤتمر الدولي حول "تعزيز الحوار بين الثقافات والحضارات. الرباط، المغرب.

5 - المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (2009). المؤتمر الدولي حول حوار الحضارات والتنوع الثقافي. القيروان، تونس.

6 - منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (1992). التربية الدولية، خطوط توجيهية لتطوير منهج كتاب مدرسي للتربية الدولية، عمان: مكتب اليونسكو.

7 - منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (2002). إعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي.

8 - المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (2002). المؤتمر العربي الأوروبي للحوار بين الثقافات: مرتكزات التعرف على الآخر من أجل العيش معا. باريس، فرنسا.

9 - 2016 International Year of Global understanding. Proclaimed by the international councils of the natural. social. and human sciences. Available online at:
http://www.global-understanding.info

الطيب صالح عبقري الرواية العربية

استحـوذ الكاتب السوداني الطيـب صالح خلال حياته، علـى مكانة لدى محبي أدبه – لم يسبقه إليها روائي عربي آخـر – لذا لم يجد هؤلاء أي مبالغة في تتويج النقاد العرب الكبار له كـ"عبقري الرواية العربية".

ولـد صالـح في 1929 في إقليم مروى شمـالي السودان بقريـة كَرْمَكوْل بالقرب من قرية دبة الفقيرة، وهي إحدى قرى قبيلة الركابية التي ينتسب إليها تقع على ضفاف نهر النيـل تتبع لمنطقة الدبة في شمال السـودان، عند منحنى نهر النيل، في ما يعرف بديار الكابية.

يقـول الراحل صالح، في هذا الخصوص: «كانت أمهاتنا صغيرات السن، ففارق العمر بيني وبين والدتي سبع عشرة سنـة، أذكر أننا كنا نلعب مع أمهاتنا ومن كن في جيلهن.. لهـا ذاكـرة قوية وشديـدة الحفظ، تقـف في حلقة المديح فتحفـظ كل ما يقـال، وقد سمعتهـا مرارًا تـروى المدائح والأغاني وشعر الدوبيت (شعر البادية في السودان)».

في طفولتـه درس بالخلوة لحفظ القـرآن الكريم، وتعلم القـراءة والكتابـة، حـين بلغ الثامنـة انتظـم في المدرسة الأوليـة، درس المدرسـة الابتدائيـة بمدينـة بورتسودان، الميناء البحري السوداني على البحر الأحمر شرق البلاد. درس صالح الثانويـة بمدرسـة وادي سيدنـا الثانوية في مدينـة أم درمـان. قُبـل بكليـة الخرطوم الجامعيـة إبان الاستعمـار الإنجليزي، التي تحولت فيمـا بعد إلى جامعة الخرطـوم، وعلى الرغم مـن تميزه في العلوم فـإن ميوله الأدبيـة كانـت تدفعه إلى كليـة الآداب. ولم يجد استجابة لنقله إلى كليـة الآداب، ترك الدراسة الجامعية إلى مهنة التدريس، وعمل مدرسًا بالمدرسة الأهلية الوسطي بمدينة رفاعة.

وقد حمل قيم تلك القرية ومواصفاتها إلى الخرطوم ثم إلى أوروبا وحافظ عليها حتى مماته في 18 فبراير/شباط 2009، على ما قال أحد محبيه من السودانيين.

هاجـر صالح إلى لنـدن عام 1953 محـولاً اختصاصه مـن العلوم الطبيعيـة إلى "الشؤون الدوليـة". وفيها عمل في القسـم العربي لهيئة الإذاعـة البريطانية BBC وترقى لاحقًا ليصبح رئيسًا لقسم الدراما.

وفي ذات العـام كتب أول نص قصصي له بعنوان "نخلة على الجدول" وأذاعه عبر الإذاعة ذاتها. وأعقبه بـ"دومة ود حامـد" العمل الـذي يتناول حيـاة قرويـين سودانيين يتمسكـون بأرضهم وقيمهم. ونُشـر العمل في العام 1960 بمجلة "أصـوات" المتخصصة بالثقافة في لندن، وقد قام محرر المجلة المستشرق ديفد جونسون بترجمتها.

"موسم الهجرة إلى الشمال"

تشـير بعض المعلومات إلى أن الطيب صالـح بدأ بكتابة رواية موسم الهجـرة إلى الشمال أثناء إجازة في الجنوب الفرنسـي عـام 1962، وانقطـع عنهـا أربع سنـوات، ثم أنجزهـا لتنشـر في مجلّة "حـوار" البيروتيـة عام 1966 وأعـادت دار العـودة نشرها في بيروت ثـم نشرتها سلسلة "الهلال" بالقاهرة.

كان صدور روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" والنجاح الـذي حققته سببًا مباشرًا في التعريـف وجعله في متناول القارئ العربي في كل مكـان، وتمتاز هذه الرواية بتجسيد ثنائيـة التقاليـد الشرقية والغربية واعتمـاد صورة البطل الإشكـالي الملتبس على خلاف صورتـه الواضحة، سلبًا أو إيجابًا، الشائعة في أعمال روائية كثيرة قبله.

استطـاع صالح أن يصنع من خـلال رواياته شخصيات أسطوريـة مـق"ذات" بـت مجـذوب، والزين بطـل رواية "عرس الزين"، ومريود في قصة "مريود".

وفي لقاءاتـه الصحافية ينفي بشـدة أن يكون مصطفى سعيـد هـو شخصيًّـا، أو حتـى أصدقاءه الذيـن لا يتردد البعض في ذكـر أسمائهـم حـين يقومـون بمقاربات بين شخصيـات صالـح في رواياته وأصدقائـه في الحياة، من "كرموكول إلى الخرطوم لندن إلى المدن الأخرى"، التي عاشـ فيها، ويقر في حوار على الأقل أنه أبعد ما يكون عن شخصيـة مصطفى سعيد، وهي صورة لشخصية الإنسان

القـادم من العالم الثالـث إلى العالم الأول فانهزم هناك، ولكن سعـى إلى تحقيق انتصارات في الجانب الذي يتفرد فيـه: الجنـس، إنهـا شخصية معقـدة مريضـة، قاسية. ولخصهـا صالـح في الروايـة ذاتها في أثنـاء محاكمته في بريطانيـا على لسان قاضي المحكمـة: "إنه رجل استوعب عقلـه الحضارة الغربية، ولكنهـا شطرت قلبه". ويرى أنه أقرب إلى شخصية الزين في رواية "عرس الزين".

وظلت روايته "موسم الهجرة الى الشمال"، التي أكسبته شهـرة عالمية على مدى أكثر مـن 40 عامًا، المقياس الذي توزن به قيمة أعمال أخرى تالية تناول فيها روائيون عرب الصدام بين الشرق والغرب، ووصفتها الأكاديمية العربية ومقرهـا دمشـق عـام 2001 بأنهـا أهم روايـة عربية في القرن العشرين.

وفي كثـير مـن الروايـات العربيـة التي عالجـت الأزمة الحضاريـة بين الشرق والغرب كـان مصطفى سعيد بطل الرواية يطل برأسه متحديًا أبطال هذه الأعمال، كما سبق أن تحدى البريطانيين الذين كانوا يحتلون بلاده.

وصـدر حولـه مؤلـف بعنـوان "الطيـب صالـح عبقري الروايـة العربية" لمجموعة مـن الباحثين في بيروت، تناول لغتـه وعالمـه الروائـي بأبعـاده وإشكالاته، وحـاز في عام 2005 على جائزة ملتقى القاهرة الثالث للإبداع.

وبحسـب النقـاد، يمتـاز الفـن الروائي للطيـب صالح بالالتصاق بالأجـواء والمشاهد المحلية ورفعها إلى مستوى العالميـة من خلال لغـة تلامس الواقع خاليـة من الرتوش والاستعارات، منجزًا في هذا مساهمة جدية في تطور بناء الرواية العربية ودفعها إلى آفاق جديدة.

علـى مستوى حياتـه الشخصية تـزوج الطيب صالح في لندن من بريطانية وأنجب منها زينب وسميرة وسارة.

العودة

عاد الطيب صالح إلى السودان وعمل مدة من الزمن في الإذاعـة السودانية، حيث اشتهر بسرده لسيرة ابن هشام في برنامج "سـيرة ابن هشام" وبتقديم مقابلات مع رواد سودانيـين في الأدب والفن، وعمل مديـرًا إقليميًا بمنظمة اليونيسكـو في باريـس، وممثـلاً لهذه المنظمـة في الخليج العربي بين عامي 1984 و1989.

لم يعـد الطيـب صالـح إلى كرمكـول -حسب مـا تشير كل المصـادر- منذ هجرها قبل ثمانـين عامًا لكنها بقيت حاضرة كقيمة في أدبه أكثر من أي أديب آخر.

مؤلفاته

من أهم مؤلفاته: عـرس الزين رواية (1962)، موسم الهجـرة إلى الشمـال رواية (1971)، مريـود، نخلة على الجـدول، دومة ود حامد، وترجمت بعض رواياته إلى أكثر من ثلاثين لغـة، وتحولت روايته "عرس الزين" إلى دراما في ليبيـا ولفيلم سينمائي من إخراج المخرج الكويتي خالد صديق في أواخر السبعينيات حيث فاز في مهرجان كان.

الطيب صالح لدى حضورة إحدى المناسبات في السودان

الطيب صالح يجري حوارًا مع بديعة مصابني في مكتب هيئة الإذاعة البريطانية في بيروت 1965

أدبه الروائي:

لأنـه مهاجر مثل الكاتب الأيرلنـدي جيمس جويس، ظل الطيب صالـح باستمرار يستقي إلهام رواياته من موطنه الأصلـي (القريـة). ومثـل الكاتـب الإنجليـزي توماس هاردي، والروائي الأمريكي الحائز على جائزة نوبل ويليام فوكـنر شكلت القرية البسيطة المتخيلـة موضوعًا مهمًا في كتاباته الإنسانيـة والكونية. كما في مجموعته القصصية الأولى التـي نشـرت عـام 1960 "دومـة ود حامد". ففي قصـة "دومة ود حامد" من هـذه المجموعة يصف الطيب صالـح مونولوجًـا مأساويًا كان بدايـة لاستخدامه الحياة الخارجيـة والحداثـة التي غزت حياة القريـة في كتاباته، حيـث كانـت شخصيات القصـة تصارع الظلـم والفساد الأصلـي المتجذر في كل قرية وعائلة. كما في قصة "حفنة تمر" التي تتحدث عن ولد صغير يكتشف قسوة ومكر جده الحبيـب. دائمًـا ما تمثـل شخصية الجـد بصفته ناقلاً للثقافـة، دافعًا مستمـرًا للكتابة لدى الطيـب صالح، فهو الذي ينقـل قبح وجمال القرية السودانية لحفيده، ويحمّل ذلك الولد القروي البسيط تلك المسؤولية.

في روايتـه القصـيرة "عرس الزين" والتـي نشرت عام 1967، تتجسـد براعـة الطيـب صالـح في خلـط الثقافة الشفهيـة السودانية والمعايير الكلاسيكية الغربية. تذكرنا شخصية الزين بشخصيـات شكسبير الحمقى الحكيمة، فهـو أحمق ومغفـل يشبـه الحيوانـات في تصرفاته، لكنه أيضًـا وهب الحساسيـة الروحية، ولديـه نظرة خاصة في رؤيـة الجمـال. عندما عاد مـن المستشفى بعـد أن أصلح أسنانـه ظهـرت وسامته ولم يعد مضحكًـا، ليتزوج بعدها من ابنـة عمه الجميلـة ويقف أمـام الناس مثـل "سارية سفينة".

ظـل الطيـب صالـح في تصويـر حيـاة القريـة، يستمد مواضيعـه مـن تنـوع الفئـات الاجتماعية، وكل مـا يطال المجتمـع القروي من فساد، ومشـاكل الري، والاحتفالات، والتمسـك الصـارم بالتقاليد. ثـم اتجه للرمـوز العالمية التـي احتلـت أيضًـا روايتـه الأكثر تأثـيرًا "موسم الهجرة إلى الشمـال". وبعـد صدورها بسنـوات في بيروت، صدر لها ترجمة بعنوان "موسـم" لاقت رواجًا واسعًا نشرت في مجلـة أدبية معروفة عنوانهـا: إنكاونتر. ثم اكتشف لاحقًا

أن تلـك المجلة كـان يمولها مركز الاستخبـارات المركزية عبر "مؤتمر الحرية الثقافية".

وبالرغـم من أن روايته المترجمة أصبحت أحد الروايات الكلاسيكية الرائجة في دار بينجوين للنشر، وهو أمر نادر بالنسبة لعمل أدبي عربي. وفي مقارنة مألوفة اليوم للثقافة الغربية والشرقية تستفتح هذه الرواية بطالب درس الشعر يكتشـف غريبًـا متخفيًا في قريتـه وعندما سمـع الطالب الغريب مصطفى يقـرأ قصيدة لفورد مادوكس فورد وهو ثمـل، انجذب إلى حياة مصطفـى وماضيه القاسي الذي عاشه أثناء إقامته في لندن.

وبعد مـرور ما يقرب من 50 عامًـا عندما سادت موجة المنظومة الأدبية الحديثة على الكتابات التقليدية السائدة، احتفظـت "موسم الهجرة إلى الشمـال" بقوتها في صدم القراء بقناعاتهم المخفية. وتقول المصادر الأدبية العربية والبريطانيـة ، أن الرواية أظهرت العمـق والوعي الفكري للموقف السياسي "الحاد" لذكاء مصطفى الفطري.

أشـاد ديفيد برايس جونز في قـراءة أعدها عن الرواية المترجمـة قائـلاً: «نثر مدهش وسلس، هـذه الرواية أكثر تثقيفًـا مـن أي كتاب أكاديمـي آخر» أمـا الناقد المعروف روجـر ألن فقد وصف بنـاء الرواية على أنـه "بارع" على اعتبـار أنها عـبرت الحدود الثقافية. كتـب روجر: «يكمن الأسـلوب الفذ الـذي استخدمه المؤلف لينتـقل سوء الفهم على أوسع نطـاق ثقافي في استخدامـه للمكان وبالتحديد مـن غرفتـين فقـط». وينعكـس المكـان المـزدوج ذاك في زوجتين ميتتـين هما جان موريس في لنـدن، وحسنى بنت محمدين.

كتـب الناقـد ستيفـان ماير عـن التجريبيـة في الرواية العربيـة: «قد تبـدو هذه الروايـة مهمة من عـدة نواحي، لكنها من ناحية أهم هي وسيلة لاكتشاف تشابك العلاقات بين النوع الإنساني والسلطة». ضمن مظلة الشرق/الغرب تنسج الرواية مجموعة كبيرة من الجدليات، مثل: الذكر/الأنثـى، المسلم/ المسيحـي، الشمال/الجنـوب، التقليد/الحداثـة، الريف/الحضـر، الأيروس والثاناتوس، وهي كافيـة لظهور كتابـات جيل من الأكاديميـين حول الفروق الدقيقة غير المكتشفة في الرواية.

"نحو أفق بعيد"

وفي مجـال الصحافة، كتب الطيـب صالح خلال عشرة أعـوام عمـودًا أسبوعيًـا في مجلـة "المجلـة"، العربيـة الأسبوعيـة عـبر زاوية ثابتـة سماهـا "نحو أفـق بعيد". تنـاول فيهـا قضايا وهمـوم الكتابـة بأجناسهـا المختلفة بقـدر كبير مـن الجدية والرصانة. وخـلال عمله في هيئة الإذاعـة البريطانيـة تطرق الطيـب صالـح إلى مواضيع أدبية متنوعة.

في عـام 2004 م طبعت للطيـب صالح مقالات في مجلة «المجلـة» السعوديـة اللندنية تحت بابـه الشهير في المجلة "نحـو أفق بعيد"، جُمعت وصُنفـت في 9 أجزاء، ومنها:

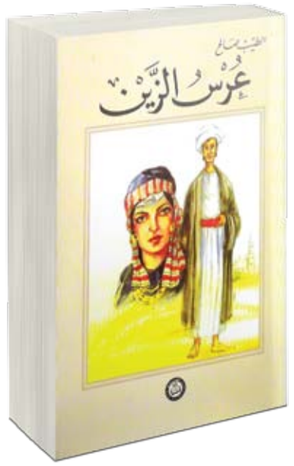

"المضيئـون كالنجـوم": من أعـلام العـرب والفرنجة، و"للمدن تفرد وحديـث: الشرق"، و"للمدن تفرد وحديث: الغـرب"، و"في صحبـة المتنبـي ورفاقـه"، و"في رحـاب الجنادريـة وأصيلـة"، و"وطنـي السـودان"، و"ذكريـات الموسـم"، و"خواطر الترحال". وأسهـم صالح في العديد من اللجان والمؤتمرات القطرية والإقليمية والدولية المعنية بفعاليـات الإعـلام والثقافة، وهو مـن الأعضاء الدائمين في جملـة مـن المهرجانات الثقافية العربيـة العالمية منها: "الجنادرية" في السعودية و"أصيلة" في المغرب، ومعرض القاهرة الدولي السنوي للكتاب.

ولم يكف صالح عن الانخراط في القضايا السياسية من خلال مقالات ظـل ينشرها في بعض الصحف والمجلات حتى أيامه الأخيرة.

ودائمًـا مـا يقارن نقاد عرب بين صالح والأديب المصري الراحل يحيى حقـي من جهة وبين معظم الكتاب من جهة ثانيـة، إذ امتلك حقي وصالح شجاعة التوقف عن الكتابة الإبداعية مثـل أي لاعب بارز يستشعر أنه لن يقدم أفضل مما سبق أن قدمه فيؤثر الاعتزال.

وقـال الروائـي عزت القمحـاوي مدير تحريـر صحيفة أخبـار الأدب المصريـة إن أبـرز ما يميز صالـح أن عنده حساسيـة كاتـب "فعندما وجد أنه ينبغـي عليه أن يتوقف عن كتابـة الإبداع توقف بالفعل. وقـد امتحنت أعماله في وجـوده إذ ظل موجـودًا في المشهد الإبداعـي العربي رغم توقفه عن الكتابة".

جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي

أطلقـت جائزة تحمـل اسمه بمناسبة الذكـرى السنوية الأولى لوفاتـه، وذلك في مجـالات النقد والرواية والقصة القصـيرة، تشجيعًـا للفـن والثقافة في السـودان والوطن العربي.

وفاته

تـوفي الطيـب صالـح في يـوم الثلاثـاء 17 فبراير عام 2009 في لندن، وشيع جثمانه في مقابر البكري بأم درمان يوم الجمعـة 20 فبراير في السودان حيـث حضر مراسم العزاء عدد كبير من الشخصيات البارزة والكتّاب العرب يتقدمهم الرئيس السوداني عمر البشير.

محمد بن عيسى يسلم للطيب صالح جائزة محمد زفزاف للرواية العربية في أغسطس 2002

أسطرة اليومي
رولان بارت

ياسمين الحضري اللّحياني
تونس

"رولان بارت" شخصيّة عصره ذو الوجوه المتعدّدة، فهو ناقد ومفكّر اشتغل على تفاصيل الحياة الثّقافيّة في أبعادها المختلفة، كما اهتمّ بقراءة الرّواية والنّصوص ونقدها، بالإضافة إلى ذلك مارس التّأويل وتعمّق في الدّراسات اللّغويّة والسيميولوجيّة بكلّ فروعها لذلك لا يمكن تصنيفه ضمن تيّار أو مدرسة معيّنة، فلرولان عالمه الخاصّ به إذ يرفض تمامًا من يلتقي معه فيتركك دائمًا باحثًا راكضًا وراء المعرفة غير قادر على تصنيفه شأنك شأنه فهو لا يرضى بالوصول يكره الاستقرار، فتراه يطوّر ويجدّد المفاهيم والمصطلحات، يكوّن لغة خاصّة به وكذلك المفردات كما يحلّق في حقول سيميولوجيّة مختلفة.

أدرك بارت أنّ مستقبل السّيميولوجيا رهين تطبيقاتها خارج حقول لسانيّة تهتمّ بالعلامات إذ تحوّل اهتمامه السيميولوجي إلى تقاطع مع الحياة اليوميّة في جانبها الثقافي والتواصلي، فاهتمّ بقراءة الصّورة وهو ما يظهر جليّا في كتابه الغرفة المضيئة من خلال تأمّلات في الفوتوغرافيا، كما اهتمّ بالثقافة الجماهيريّة التي فرضها المجتمع البورجوازي من خلال مؤلّفه "أسطوريات" "أسطرة الحياة اليوميّة" وهو كتاب في الحقيقة يربط ديناميّة التاريخ وتدوينه بشؤون الحياة اليوميّة والمجتمع وقضاياه.

إنّ الصّورة الأسطوريّة للحياة اليوميّة التي ينقلها بارت هي انعكاس لحياته الرّاهنة آنذاك تنقل "تفاهة التفكير البورجوازي" إن صحّ التّعبير من ناحية وتعلن عن نوع من الفضول إزاء كلّ ما يراه ويسمعه بارت من ناحية أخرى ولعلّ قارئ كتاب "أسطوريات" "أسطرة الحياة اليوميّة" سيلمس هذا ولا سيّما في التفاصيل الصّغيرة إذ يحلّل الذّوق العامّ ويقوم في الآن ذاته بتحليل العلاقة بينه وبين الغرض كالصّابون، لعب الأطفال ....

نجد أنفسنا أمام سرد روائي ينقل الأحداث والفعاليّات والتّظاهرات كما حصلت، ينقلها بواقعيّة مطلقة "فالزّمن البشري" يتمّ التعبير عنه بطريقة سرديّة فهنالك ترابط وثيق بين الزّمن والنشاط السّردي الذي يقوم به بارت من خلال سرد النشاطات اليوميّة وهي في الحقيقة تعبير عن حالة تفاعل الذّات مع المحيط الاجتماعي. فهل يمكن إدراج مثل هذا الفعل "فعل نقل ما هو يومي" ضمن "فنّ العيش" أو "استيطيقًا الوجود"؟

يعتمد بارت على السّرد في نقل واقعه المعاش آنذاك الذي يمكن أن تحتمله الصّورة ثابتة كانت أو متحرّكة كذلك هو حاضر في الأسطورة والخرافة والأقصوصة إذن هو حاضر في كلّ الأزمنة والأمكنة فهو يبدأ مع التاريخ البشري ذاته على رأي بارت الذي يقرّ بأنّ "السّرد موجود دائمًا وأبدًا، لأنّه يوجد حيثما وجدت الحياة ذاتها."[1]

فإلى أيّ مدى يكون السّرد قادرًا على نقل الواقع؟ ما هو مفهوم الأسطورة المتداول في الموروث الشّائع؟ إلى أيّ مدى يمكن اعتبارها نظام اتّصال وتواصل؟

في الحقيقة أنّ كلّ شيء يخضع للخطاب يمكن أن يكون أسطورة، فالواقعي واليومي بإمكانه أن يتحوّل من معاش إلى محكي ومقول وهنا نلاحظ تغيّرًا واضحًا في السّياقات، والأسطورة اليوم يمكنها أن تتبع من السّينما، الصّورة الفوتوغرافيّة التي تنقل بدورها الواقع وتعبّر عنه. في البداية لا بدّ أن نحدّد مفهوم الأسطورة المتداول في الموروث حتّى يؤمّن لنا ذلك سلامة وأمن الطّريق، إذن إنّ في تعريف الأسطورة في الموروث الشّعبي نُجمع على أنّها تلك الخرافة التي تستوعب شخصيّات غير عاديّة ومختلفة لا تمتّ للواقع بصلة للإنسان العادي "فالتّفكير الأسطوري يعبّر عن منهجيّة الشّعوب البدائيّة في التّفكير، وتفسير الكون حيث كانت الأسطورة تلعب دور المعرفة العلميّة في هذه المجتمعات التي لم تشهد ولادة العلم. أمّا التّفكير الخرافي فهو التّفكير الذي يتناقض مع الواقع، ويتنافر مع المنطق ويقوم على إنكار العلم ورفض مناهجه"[2] كما تقوم الأسطورة كذلك بتصوير أشخاص حقيقيين لكن مع المبالغة في تقديمهم كجعلهم شخصيّات تاريخيّة ليكونون أبطالاً لأساطير غالبًا ما تدور مواضيعها حول قضايا الولادة، النهاية والبداية، الموت والخير والشرّ...

تقوم الأسطورة بالأساس حول ثنائيّة الخيال والتّصوّر، فتعبّر عن دلالات اجتماعيّة متخيّلة ممّا يؤدّي إلى تأصّلها في الذّاكرة الجماعيّة لتصبح موضوع عقيدة جماعيّة فيمكننا القول أنّ للأسطورة سطوة على الإنسان نظرًا لما تتمتّع به من قدسيّة وسلطة على عقول النّاس ونفوسهم فهي تتحوّل من جيل وتتوارثها شعوب، "وفي هذا الصّدد يرى ليفي ستروس أنّ الأساطير تأخذ مكان العلوم في المجتمعات البدائيّة والتّقليديّة إلى حدّ ما"[3]، وإنّ كلمة الأسطورة "Mythology" تعود إلى اليونانيّة إذ تنقسم إلى شقّين أمّا الشقّ الأوّل فهو "Mytho" يعني حكاية تقليديّة عن الآلهة والأبطال أمّا الشقّ الثّاني "logy" يعني العلم[4]. أمّا اليوم فقد أصبحنا نتحدّث عن أسطرة من نوع آخر بمعنى أنّها تكون بعيدة كلّ البعد عن الخيال والتّصوّر وحياكة الخرافات إذ أصبحت الأسطورة استهلاكًا يوميًّا نابعًا من "الآن" و"المعاش" فالحاضر يعجّ بالأساطير فأيّ مجتمع قادر على أسطرة حياته وأشيائه اليوميّة فلقد أصبحت جزءًا من السّيميائيات حسب ما يقرّه رولان بارت "فالسّيميائيات هي علم الأشكال موضوعه العلامات المستقلّة عن ما تحمله من مضامين"[5]، فاهتمّ بارت بالثقافة الجماهيريّة التي فرضها المجتمع البرجوازي فحاول أن يجلي المظاهر اليوميّة من خلال الخطاب السّينمائي، الإشهاري والخطاب الإعلامي وهو ما يظهر جليًّا من خلال كتابه "أسطوريات" "أسطرة الحياة اليوميّة" وقد كتبت نصوص هذا الكتاب بمعدّل نصّ واحد كلّ شهر طيلة عامي 1954 و1956. تخضع هذه النصوص للتكرار والاستمراريّة نابعة من واقعه الرّاهن آنذاك فتكون مادّة التّفكير شديدة التنوّع سواء مقتبسة مقالة صحفيّة، معرض، فيلم أو عرض مسرحي.

تتبع هذه التّجربة من زمن معاش نابع من السّائد ومن رحم الواقع، فنقل اليومي هنا يتحوّل من المألوف إلى سياق توثيقي وخطاب مكتوب، فمجال الحياة اليوميّة هو في الحقيقة مجال شاسع لأنّه يشمل كلّ جوانب المعاش في أبعاده السّياسيّة، الثقافيّة والاجتماعيّة ويمتدّ ليشمل حتّى تلك التفاصيل الصّغيرة "فالحياة اليوميّة لا تعبّر عن نفسها بطريقة جدّ مستقيمة وواضحة، إنّها مكوّنة من أفعال بسيطة جدّ متعدّدة، إنّها مرتجّة ومنفجرة، إنّ لها غموض الظّلمة القاتمة"[6]، هذه النّصوص في الحقيقة تعكس ديناميكيّة اليومي، حركة الشّارع، من خلال نقل بعض العروض كعروض المصارعة مثلاً أو من خلال الخطاب الإشهاري، إذن نجد هنا بعدًا سوسيولوجيًا في بناء هذه "الصّور" وهو البعد الاجتماعي الذي يبيّن مظاهر الواقع وتأثيره على النّاس في واقعهم اليومي "فالبنية السّوسيولوجيّة هي نتاج جماعيّة الفعل المشترك المركّب من أشياء واقعيّة متفاوتة النّشوء، وتشمل الناس العاديين والنخبة، المدينة والبيت، أمكنة العمل وأمكنة العلاقات"[7] فاليومي حافل بالرّموز وإذا كانت الأسطورة قديمًا تهتمّ بكلّ ما هو خرافي، ميتافيزيقي فإنّ الأسطوري اليومي المنبثق من عالمنا وواقعنا المعاش يريد أن يكتشف الإنسان وإدراك أبعاده.

يركّز بارت على بلاغة الصّورة في الخطاب الإشهاري وعلى الحضور القويّ للإعلام والصّورة والسينما ودورهم في تكوين صورة نمطيّة للإنسان في المجتمع البرجوازي القائم عل الاستهلاك وهو هنا في الحقيقة يتهكّم على هذا الوضع الزّائف كما يراه، فيجعل الإنسان يعوم في مفارقات للأوضاع الموجودة فأن يركّز إشهار بعض المواد المصنّعة على جسد المرأة التي تقوم بعرضه فإنّ ذلك يعطي نزعة شهوانيّة وإغرائيّة بعيدة كلّ البعد عن دور المنتوج أو عند نقله لعرض مصارعة فبارت هنا لا ينقل عرضًا فرجويًّا بين عنصرين اثنين بل بالعكس فهو يورد الفرق بين المصارعة من ناحية والجيدو والملاكمة من ناحية أخرى فيتحدّث عن جسد المصارع الذي يشكّل المفتاح الأوّل للصّراع فيصفها بالأجساد السّقوطيّة التي تملك بدورها تفسيرات تساعد على قراءة العرض ككلّ من خلال الحركات، المواقف والإيماءات التي تشدّ الانتباه ليخرج هنا عن السياق الطّبيعي لما هو منقول "وبالتالي فالمصارعة تتطلّب قراءة مباشرة للمعاني المتكدّسة دون ضرورة لقراءتها. والمستقبل العقلاني للصّراع لا يهم هاوي المصارعة، بينما مباراة الملاكمة تقتضي دائمًا علمًا بالمستقبل. بمعنى آخر، المصارعة خلاصة عدد من المشاهد لا رابط بينها: فكلّ لحظة تفرض المعرفة الشّاملة لانفعال ينبثق بشكل وحيد مباشر دون أن يمتدّ نحو تتويج عاقبة معيّنة."[8] إنّ الأفراد في المجتمع يتواصلون ويتفاعلون باستخدامهم لجملة من الرّموز، العلامات، الإشارات والإيماءات وبالتّالي ينتجون معاني اجتماعيّة داخل حيّز ومجال معيّنين ولعلّنا هنا نتحدّث في هذا الجانب عن علم الاجتماع الذي تعدّدت محاولات تعريفه فنأخذ على سبيل المثال تعريف بيتريم سروكين على أنّه "ذلك المفهوم الذي يشير إلى جميع المعلومات الخاصّة بالتشابه بين مختلف الجماعات الإنسانيّة وأنماط التفاعل المشترك بين مختلف جوانب الحياة الاجتماعيّة الإنسانيّة، لذلك عرّفه بأنّه دراسة الخصائص العامّة المشتركة بين جميع أنواع المظاهر الاجتماعيّة"[9].

إنّ هذا العلم يدرس الأحداث والحقائق الاجتماعيّة إضافة إلى دراسة أفعال الأفراد وسلوكياتهم، خطاباتهم وأفعالهم والتي تكون في علاقة بالآخرين ضمن سياق تفاعلي تواصلي. يبدو هذا الاهتمام بالواقع ونقله إقرار مباشر من بارت بضرورة الآخر الذي يعتبر جزء مكوّن للذّات ذلك أنّ هذه الأخيرة واحدة، مفردة وذات عاجزة وإنّما الشّخصيّة الحقيقيّة هي تلك المتكوّنة من مجموعة فرديات متجمّعة في آن واحد.

إنّ سرد الإنسان لواقعه ظهر قديمًا أينما حاكى رسوماته على جدران الكهوف بتجسيد حياته وعلاقته مع الحيوانات ورهبته منها فهو يفرغ خوفه وفزعه ويتحصّن بهذه الرسوم في الوقت نفسه ولعلّ ما نجده في "يوميات" بارت إن صحّ التعبير سرد لما هو معاش يكتسي وظيفة وثائقيّة يستمدّ مادّته المسرودة من الواقع "المباشر والحقيقي" أين يكشف الغطاء عن بعض تفاصيل الحياة الصّغيرة، واليومي "هو منسوب إلى اليوم وهو العادي والمألوف، الحادث والواقع كلّ يوم"[10] لا يمكن حصره في التكرار وتعاقب الأحداث فقط بل ليشمل كلّ ما يعاش على جميع الأصعدة سواء الصّعيد الاقتصادي، الاجتماعي أو الثقافي وحتّى السياسي.

إذن هناك إنتاج ثقافة يوميّة تضمّ أنشطة حياتيّة وعلميّة تحاك من خلال علامات ورموز يقوم بارت بتفكيكها والتي تستوجب دراية وعلمًا للقدرة على فكّها خاصّة فيما يتعلّق بالمجتمع المصغّر والمختصر في جملة من النّصوص.

المراجع:

1 – رولان بارط، السرد والحياة ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، منشورات اتّحاد كتاب المغرب، سلسلة مؤلّفات 1992 ط1 ص 9.
2 – فؤاد زكريّا، التفكير العلمي، دار مصر للطّباعة، القاهرة، 1993 صفحة 57.
3 – Laucien – Lève Bruhl. La mentalité Primitive. Paris. Alcane. 1922 page 104.
4 – فراس السوّاح، مغامرة العقل الأولى، دار علاء الدين، 2002، طبعة 13. صفحة 12.
5 – رولان بارت، مبادئ في علم الدّلالة، ترجمة محمّد البكري، بغداد، دار الشؤون الثّقافيّة صفحة 96.
6 – Michel Maffesolli: La conquete du present pour une sociologie de la vie quotidienne. PUF. Paris 1979 page 14.
7 – ياسين النّصير، غير المألوف في اليومي والمألوف، نينوى للدّراسات والنشر والتوزيع، الصفحة 88.
8 – رولان بارت، أسطوريات "أسطرة الحياة اليوميّة"، ترجمة د. قاسم المقداد، دار نينوى للدّراسات والنشر والتوزيع، 2012 صفحة 16.
9 – أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصّبّاغ، منشورات المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت لبنان، الطّبعة الأولى سنة 2005.
10 – www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/يومي

جيمس جويس: من يخاف يقظة فينيجين؟

أحمد الزناتى محمد حسن

كاتب وروائي مصري

تقول الروائية الأمريكية سلفيا بلاث (1932–1962) أنّها حين انتهتْ من قراءة رواية يوليسيس للمرّة الأولى، اهتزّت ثقتها بنفسها وصاحت:".. أنا لا شيء على الإطلاق... صفر." الحقيقة أنَّ هذا كان شعور جميع مَن قرأ أعمال الأديب الأيرلندي الأشهر جيمس جويس، وفاجئهم ذلك الإعصار العاصف من الألفاظ والكلمات والأفكار التي بدَتْ أنها تأتي من بوابة جحيم مجهولة، لا يملك مفاتيحها سوى جويس نفسه.

بعد انتهائه من رواية يوليسيس، كرَّس جيمس جويس السنوات الأخيرة من حياته، وعلى نحو أدّق السبعة عشر عامًا السابقة على وفاته (1923–1939) في إنجاز مسوّدة الرواية الأخيرة، والأكثر تعقيدًا وغموضًا في تاريخ الأدب "يقظة فينيجين"، ثمّ دفع بها إلى المطبعة لتخرجَ إلى النور قبل سنتيْن من وفاته سنة 1941. لازم ضعفُ البصر جويس طوال حياته، وبعد انتهائه من روايته الأخيرة الضخمة، كان الرجل قد قارب حدود العمى التام، وهو المصير ذاته الذي لقيه جون ملتون حين أنهى "الفردوس المفقود". ولما أنجزَ جويس "يقظة فينيجين" قال:.. قد تكون هذه الرواية اليوم خارج "الأدب"، إلا أنّها ستصير قلبَ "الأدب" مستقبلاً."

اقتبسَ جويس عنوان روايته من مصدر أيرلندي أصيل؛ أغنية أيرلندية قديمة تحكي قصّة "تيم فينيجن"، الرجل الذي يعشق الشراب ويعمل في حمل الطوب والحجارة، يسقط ذات يوم من فوق سلّم مرتفع فتتحطّم جمجمته، فيحمل الرفاق جثمانه إلى منزله ويشرعوا في إقامة الطقوس الأيرلندية قبل الوفاة، تدور الكؤوس، ويدور شجار بينهم، فتسقط قطرات من الشراب على جسد تيم، فيستيقظُ ويقول لهم:" إنّ الشراب يعيد الحياة للموتى، هل تعتقدون أنني ميّت؟". وفي نهاية الفصل الأول تظهر شخصية HCE= Here Comes Everyman، أو "هنا يأتي كلّ إنسان"، مُبحرًا إلى شواطئ مدينة "دبلن"، ليأخذَ دورًا محوريًّا في الأحداث. الرموز واضحة. يرمز تيم إلى آدم، والسقوط من السُّلّم هو هبوط آدم من جنة عدن، وقطرات الويسكي – كلمة ويسكي هي كلمة إنجليزية مُنحدرة من أصل أيرلندي وتعني "ماء الحياة".

اعتمدَ جويس في روايته البناء الدائري، تقنية العودَ الأبدي لنيتشه، مُتجاهلًا القواعد الأرسطية القديمة: الحبكة والتصاعد الدرامي والوصول إلى نقطة النور، وكأنّ ذلك "لعبة صبيان" لا يقوى عليها الكبار، فالقصّة لا بداية لها ولا نهاية، بل قد لا تكون ثمّة قصّة مكتملة من الأساس. يستعير جويس "تقنية الفيلسوف والمؤرّخ الإيطالي الشهير جامباتستا ڤيكو" في حركة المسار الدائري للتاريخ، فالتاريخ سلسلة من الدورات في حركة دائمة من المدّ والجزر، عود على بدء، نهاية الدائرة هي النقطة التي انطلق منها القلم، خطّ مستقيم الاستدارة على حد تعبير محي الدين بن عربي.

يعترف جويس بصعوبة الرواية وتعقيدها، فيقول إنَّ الرواية تنتهي في منتصف عبارة، وتبدأ في منتصف العبارة نفسها، مما حدا إلى كثير من الباحثين إلى إعادة النظر في تأويل وفهم هذا العمل المُلغز، وكأنّه يتحدى القارئ، أو يختبر قدرته على الصبر أو السهر. في عبارة أخرى يقول: "يقظة فينيجين ملائمة لقارئ مثالي، يعاني من أرق مثالي". نعلم جميعًا أنّ صعوبة الرواية لا ترجع إلى بنيتها الدائرية، بل إلى اللغة المعقّدة التي استخدمها جويس في روايته، واستعار مفردات من لغات العالم الحيّة والميّتة، في محاولة لإضفاء طابع "الكونية" على نصّه.

كانت البداية سنة 1944، حين حاول أستاذ الميثولوجيا الأمريكي الشابّ آنذاك، جوزيف كامبل (1904–1987)، الذي صار أكبر باحث معاصر في تاريخ الأساطير، بالتعاون مع الروائي الأمريكي هنري مورتون روبنسون (1898–1961)، فكّ شفرات "يقظة فينيجين"، فأصدرا كتابًا ضخمًا يقع في ما يزيد عن 400 صفحة، يحمل عنوان: "مفتاح إلى يقظة فينيجن". يعود اهتمام كامبل وروبنسون إلى تحليل الرواية إلى سببيْن: السبب الأول هو ذيوع شهرة يقظة فينيجن عالميًّا بوصفها تحفة جويس النادرة، أما السبب الثاني فهو إعراض الكثيرين عن قراءتها باعتبارها ذلك "الكتاب العظيم" الذي لا يُمكن لأحد قراءته. في هذا الكتاب المهمّ، بذل المؤلّفان جهدًا هائلًا لتحليل الرواية، فصلًا فصلًا، بل صفحةً صفحة لكشف عالم جويس الغرائبي الغامض. الواقع أنَّ هدف كامبل، الذي تخصّصَ في تحليل أساطير العالم القديم وربطها بماضي الإنسان ومستقبله، وجدَ في "يقظة فينيجين" ضالّته، فرواية جويس حاولَت، هي الأخرى، اختزال تاريخ البشرية في ليلة واحدة، هي مدّة الرواية، أو تقديم ليلة كونية واحدة، تلخّص تاريخ الإنسانية من خلال قصّة واحدة تكرّر بلا انتهاء، علاقة رجل بامرأة.

في يناير 2014، قام أستاذ جامعي ياباني متقاعد اسمه Tatsuo Hamada، بجمع سلسلة من الحوارات التي أجريَت مع عشرة من كبار متخصصي "يقظة فينيجين" في الجامعات الأمريكية والإنجليزية، وينشرها تحت اسم How/why/what to read ، Finnegans Wake؟ كيف نقرأ "يقظة فينيجين"؟ ولماذا؟ وما الذي نقرأه؟

يقول Hamada في مقدّمة الكتاب أنّه يعتقد أنّ جويس سوف يرّحب بكاتب ياباني يكتبُ عنها، فالرواية تضمّ مفردات يابانية، كما ضمّت مفردات عربية وعبرية وصينية وسنسكريتية وأنجلو ساكسونية قديمة. خطّة الكتاب، أو الحوارات، شديدة التنظيم والإحكام، تشي بعقل أستاذ جامعي ياباني مولعٌ بالتنظيم والتبويب. ففي مقدمة الكتاب يقدّم Hamada ثبتًا بالموضوعات التي تناولها المُحاوَرون لدي تحليلهم ليقظة فينيجين. أسئلة الحوارات واحدة رغم تعدد الضيوف، وهي تسير على وتيرة واحدة، ربما لتجميع الإجابات في النهاية ووضعها في مصفوفة بيانية حسابية للحصول على نتائج جديدة.

تخيّرتُ من ضمن صفحات الكتاب ثمانية أسئلة أساسية تكرّرتْ بنصّها على مدار الحوارات.

هل يُمكن قراءة "يقظة فينيجين" من البداية للنهاية؟ هل هناك مقاطع في الكتاب عصيّة على الفهم؟ هل استطعتَ فهم الحبكة وأنتَ تقرأ الرواية؟ هل ثمّة فائدة تُرجى من قراءة "يقظة فينيجين"؟ هل كانت قراءة "يقظة فينيجين" تجربة ممتعة؟: ماذا أراد جيمس جويس من وراء كتابة "يقظة فينيجين"؟

رغم عدم معرفتهم الشخصية ببعضهم البعض، يتفقُ جميع الأساتذة الذين حاورهم البروفيسور الياباني على إجابات شبه متطابقة، وهي أنَّ الرواية قابلة للقراءة من البداية إلى النهاية، ولكن على القارئ أن يحرّرَ عقله من كل ما قرأ من قبل، ومن كل أنماط الحبكات الروائية والسردية التي مرّت عليه. عليه أن يتحلّى بالصبر، وأن يتخيّلَ دومًا شكل الدائرة وهو يقرأ، أن يُمسكَ قلمًا ويضع نقطةً ويدور بالقلم على الورقة بشكل دائري ليصنع دائرةً مُحكمة الرسم قدر الإمكان.

كما اتفقوا على أنَّ قراءة "يقظة فينيجين" هي تجربة ممتعة ، إلا أنَّ المُتعة ليست في السرد الروائي، بقدر ما كانت في الانطباع الذي استطاع جويس أن يخلقه في ذهن القارئ. وقال أحدهم:"...أنتَ تعلم أنَّ جاك لا كان ديريدا تحدّثا كثيرًا عن "يقظة فينيجين"، وإن لم يقرئا الرواية كاملةً". المهمّ ما يصل إلى ذهنك من تأثير وشعور بالفضول. كما ذهب معظمهم إلى أنّه من المستحيل فهم جميع أجزاء وعبارات يقظة فينيجين، وربما هذا الغموض هو الذي يقودُ القارئ إلى حالة الفضول المزعج اللذيذ، الذي يدفع القارئ للاستمرار في قراءتها.

بالنسبة للسؤال الأهم في هذه الحوارات: ما الذي أراده جويس من وراء كتابة رواية مثل "يقظة فينيجين"؟

يقول أستاذ جامعي متخصّص في أعمال الكاتب الأيرلندي: "..أعتقد أنَّ جويس أرادَ أن يزجَّ بنا إلى حالة الحُلْم ذاتها، من خلال توسيع مجموعة محددة من الأحداث التي نراها في حالة اليقظة. أوجد جويس حالةً اندماج مستحيلة داخل الحُلْم، هي تلك الحالة التي تخرسُ فيها قدراتنا اللغوية أو تصاب بالشلل، وتتوهّج فيها قدرتنا على التخيّل والشعور. أرادَنا جويس أن نمرَّ بالتجربة التالية: كيف سيكون الأمر لو أنَّ أننا امتلكنا "لا وعيًا" منظمًا في بناء مثل بناء اللغة، أو العكس، ماذا لو أنَّ اللغة نُظِّمتْ في بناءٍ أشبه ببناء اللاوعي."

قراءة "يقظة فينيجين" لا تتطلّبُ من قارئها، المصاب بأرق مثالي وفقًا لتعبير جويس، إلا أن يتخلّصَ من التزامه بفهم الأدب من خلال العقل وحده، متأسيًا برؤية مُلهم جويس في هذه الرواية، أقصد الفيلسوف الإيطالي فيكو حين قال أن الإنسان في عملية اكتسابه للمعرفة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يعتمد على العقل وحده، وإنما يحتاج إلى جميع ملكاته الأخرى، أن ينفتحَ على حواسّه، أن يكون مستعدًا لكلّ فهم وكل تأويل، أن يقولَ "نعم" لكل شيء، وهي آخر كلمة في "يوليسيس" جويس.

رواية "يقظة فينيجين"

المصادر:

1 - How/Why/What to Read Finnegan's Wake? Tatsuo Hamada.. Contemporary Literature Press. Bucharest 2014

2 – أقدّم لكَ..جويس، تأليف: ديفيد نوريس، كارل فلينت، ترجمة: حمدي الجابري، المشروع القومي للترجمة، 2002

بين حضارتين:
مفارقاتٌ بين الشرق والغرب
(شهادةُ طبيبٍ عربيّ في الغرب)

الطهارة والقذارة بين الشرق والغرب - 3

التأثير الإسلامي في الحمّام الغربي-الأوروبي

أ.د: مهند الفلوجي

أستاذ الجراحة والمشرف على:
معهد تاريخ الطب والعلوم
عند العرب والمسلمين
(www.ihams.org)
لندن

مشاهداتٌ – وشواهدٌ – وشهادات

ومفردها مشاهدة الشاهد للشهادة - وجمعها مشاهدات، و شواهد/شهود ، وشهادات على التوالي:

1.الإستنجاء في الخلاء الغربي: نحن المسلمون في الغرب نعدّ الاستنجاء والتطهر بالماء سمة من سمات الحضارة الراقية، فنحن كثيرًا ما نفضّل خلاء العجزة (handicapped toilet) لوسعها ولتوفر مغسلة صغيرة فيها؛ وكان لنا إجراء معقّد (Rigmarole) نتّبعه عند دخول الخلاء الغربي: كنا نستنجس من الكرسي فنغسله أولاً ثم ننشفه ثم نغطيه بالمناديل الورقية ونجلس عليه (وإن ضاقت بنا الأمور، نتربص فوق الكرسي) وبعد قضاء الحاجة، كنا نتمسح كثيرًا بالمناديل الورقية ثم نتمسح بمناديل منقوعة بالماء (من حوض المغسلة الصغير) ثم بالمناديل الجافة. وعند الوصول للبيت نقوم بالتشطيف التقليدي بالماء.

2. أحال الطبيب العام (General Practitioner) مريضًا لعيادتي التخصّصية (لأمراض القولون والمستقيم) يشكو من حكّة شرجية حادة (Pruritus ani) وكان المريضُ طبيبَ أسنان (Dentist) إنجليزي ذا قامة طويلة وجسم ممتلئ وشعر كثيف. كانت المنطقة حول المخرج ملتهبة حمراء متقرحة فقلت له: سأقوم بالفحوص والعلاج اللازم، لكن عندي نصيحة خاصة، هي أن تأخذ قنينة سعة لترين (سفن أب) أو (بيبسي كولا) وتضعها في صندوقك الخاص (Locker) وكلما تذهب للاستنجاء املأ القنينة بالماء واستخدمها للتشطيف ثم نشّف المنطقة تمامًا واغسل يديك وأرجع القنينة لصندوقك الخاص. عمل بالنصيحة وجاءني بعد شهرٍ متحسنًا وبنقاهة جيدة في المنطقة.

3. حدثني صديق من العراق كان يدرس في إنجلترا لنيل شهادة الكمبيوتر وقال: أن التهوية في مركز الكمبيوتر (الذي يعمل فيه) تعطّل وتوقف فجأة ذات مرة، فعجّت وفاحت رائحة كريهة لا تُطاق من موظفي المركز هي مزيجٌ من ريح البراز وتعرّق الجلد، ولم يتنفس صاحبنا الصعداء إلاّ عندما عادت التهوية للمركز!

4. الاستنجاء بالماء عند الشرقيين وعند الفرنسيين حصرًا (باستخدام ماء نافورة الحمام Bidet المأخوذة أصلاً من الأندلس) هو عادة تخالف باقي الأوروبيين بالاستنجاء بالمناديل الورقية يوميًّا ولسبع مرات بالأسبوع (حيث يشكّل البراز طبقة رقيقة جافّة متراكمة) من ثم يقوم الأوروبي بأخذ حمام بانيو دافئ نهاية الأسبوع يغط فيه فتتحلل طبقات البراز الجافة ليصبح ماء البانيو كله ملوثًا (قذرًا) يغرف منه على جسده كله، فيدخل الماء الملوث في عينيه وأنفه وفيه بعد أن كان محصورًا في منطقة الشرج!!!

5. وقع طبيب عربي (متزوج) بغرام ممرضة إنجليزية فكان يدعو تلك الممرضة لتناول العشاء في بيتهم وكان يتحايل على زوجته أن علّميها الطبخ العربي وعلّميها الإسلام والعادات الشرقية كالاستنجاء بالماء، قام صاحبنا بعدها بتطليق زوجته العربية والتزوج من الممرضة الإنجليزية بعد أن تعلمت الاستنجاء بالماء!!! (وهو بيت القصيد لأنه كان يعفّ من رائحتها، ولأن القانون الإنجليزي لا يبيح له تعدد الزوجات).

6. في مجلس ترفيهي لبعض القانونيين وصف الإنجليزي (ضاحكًا) أحدَ الإخوة السودانيين بالـ (dirty bugger أي اللوطي القذر) وهي عبارة يقولها الإنجليز للتندر والهزل لا الجِدّ. فاستشاط الأخ السوداني غضبًا فوقف متحديًّا بجلبابه وعمامته البيضاء الزاهية قائلاً: (let us take off our underwear and see who is the dirty bugger؟!) أي (لننزع ألبستنا الداخلية ونرى مَن اللوطي القذر؟!) فنزع لباسه الداخلي وكان أبيضًا ناصعًا. أحسّ الإنجليزي بالفضيحة إنْ هو نزعَ لباسَه الداخلي الملوّث بالبراز (لعدم الاستنجاء بالماء) فاعتذر له على الفور، ورفض التحدي جملة وتفصيلاً.

7.عند فحصي الرجال والنسوة الإنجليزيات كانوا قمة في القيافة والهندام الظاهري، ولكن كوني جراح مهني باختصاص القولون والمستقيم عندما أقوم بفحص المؤخرة كانت في أغلب الأحيان قذرة. نحن في الشرق نعدّ الإنسان مخبرًا (مظهرًا) وجوهرًا، لكن في الغرب تنطبق الأمثال الشعبية الشرقية عليهم: (من بره هالله، ومن جَوّه يُستر الله)؛ (من بَرّه يغشي، ومن جَوّه شيخ محشي)؛ (من بَرّه نقشي نقشي، ومن جَوّه قمل محشي).

8. قامت ممرضة بمستشفى الأطفال بوضع الطفل واقفًا وسط طشت الماء لتغسل جسمه من ماء الطشت، فبال الطفل في الطشت وهو واقف فيه، فلم تبالِ الممرضة بذلك قيد أنملة واستمرت تغرف من ماء الطشت الملوث ببول الطفل ترشه على جسمه!!! (هم لا يعرفون الطهارة كما نعرفها ومفهوم الطهارة أوسع من مصطلح النظافة).

9. مفاهيم وسلوكيات خاطئة: قضينا عطلة نهاية الأسبوع في أماكن المخيمات في أسكوتلندا بسيارتنا تويوتا الكبيرة (Toyota Estate car) وكانت ملجئنا في المخيم، لكن اضطرارنا لقضاء الحاجة يُحتّم علينا الذهاب للحمام وفيه رأينا ما لا يُسرّ: الرجال والنساء يملؤون حياض المغاسل بالماء ليغسلوا منه وجوههم وشعرهم وإبطهم (ونحن نعدّ حوض المغسلة موضعًا للبصاق والنخامة والمخاط).

وكنتُ كلما أدخل الخلاء الإفرنجي هناك، كثيرًا ما أرى هذه القصيدة الإنجليزية المضحكة:

Some come here to sit and think
Some come here to shit and stink
But I come here to scratch my balls
And read the writings on the walls

(البعض يأتي هنا ليجلس ويفكّر
والبعض يأتي هنا ليخرأ ويُقذّر
لكني أتيت هنا لأحُكّ (...)
وأقرأ الكتابات على الجدران)!!!

وحين عملت في دولة الإمارات العربية المتحدة كأستاذ مساعد في الجراحة، أسكنني أستاذ الجراحة آنذاك (A. S) مسكنه في إجازته الصيفية لأحافظ على بيته في غيابه فرأيت عجبًا (لم أر قبله) إذ يضع هذا الأستاذ أحذيته في أعلى خزانة ملابسه (wardrobe) مع ثيابه الداخلية وأربطته!!!

10. كنت مسجلاً (Registrar) في الجراحة للأستاذ الجراح البريطاني روبن تاغرت (R. E. B. Tagart) وكنا إذا دخلنا غرفة تغيير الملابس (Changing Room) يقوم بنزع كل ملابسه حتى يغدو عاريًا تمامًا أمامي فيمدّ يده على أماكن عورته (وأنا أستحي من وضع عينيّ في عينيه) ثم يدخل الخلاء الغربي الضيق فيفتح الباب ويناقشني في شؤون المرضى وأحيانًا يعصر بطنه ويتكلم معي ثم يتمسح بالمناديل الورقية (وهو عارٍ تمامًا) يحادثني ويبتسم وأنا أحادثه ولا استطيع كبت ضحكاتي ولا قهقهتي أثناء الحديث معه، وهو يعلم بذلك ويبتسم. كان الجميع يعرف ذلك عنه، ويقولون إنه أمر طبيعي لإنسان غير مُعقّد!!!

11. يُعدّ الختان Circumcision (أو الطهور كما نُسمّيه) أكثر العمليات شيوعًا في العالم حيث أن أول من قام به هو نبي الله إبراهيم (عليه السلام) والبابليون والفراعنة، ويمارسه اليوم المسلمون والهندوس واليهود أما النصارى فلا يختتنون إلا للدواعي الطبية (كتضيق القلفة وأمراضها). وأثبت الطب الحديث إن المادة الجبنية البيضاء المفرزة بين حشفة القضيب والقلفة والمسماة (سميغما – Smegma) هي مادة قذرة تستحث تكوين سرطان القلفة ورأس القضيب وسرطان فرج المرأة (زوج غير المختون من الرجال)، ناهيك عن الأمراض التي تصيب القلفة كالتضيق والالتهاب. من هنا كان الختان فعلاً، طهورًا ونظافة للرجل وزوجه.

12. جميعنا يتذكر كيف كان آباؤنا يحمون أرضية الحمام بالحطب (واليوم تُحمى بالسخّان) ليغلي الماء في (خزّان الحمام) لأجل أن نستحم جميعًا يوم الخميس (ليلة الجمعة) لتحضيرنا نظيفين ليوم وصلاة الجمعة. لكم أذكر حين كنا صغارًا أبناء 6-7 سنوات (حين نغسل أنا وابن خالتي بالحمام) فيقول لي (صوبن الرأس هوايه إلى أن يجز الشعر بمسح اليد عليه)- أي يحدث صوتًا عند المسح عليه من نظافته.

كنا إذا خرجنا من الحمام يضعوا كوفيه معصوبة من أطرافها (الشتاية) على رؤوسنا، ثم نجلس حول المدفئة (صوبة علاء الدين العراقية) حيث الغلاية (Kettle- الكتلي) تغلي على النار ونشرب الشاي أو حامض نومي بصرة الحار، ونأكل الكستناء المشوية اللذيذة. وما زال تراث الأمثال الشعبية ينطق: (اللي ما يسبح الخميس يخيس)، و(اللي يغسل الخميس عِرّيس).

وسنن الفطرة (أعمال يجب ان يقوم بها المسلم بشكل دوريّ) مما جبلت عليه الفطرة السّليمة، تقضي للنظافة والصحة والتجمُّل. ففي الحديث المتفق عليه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: الْخِتَانُ وَالِاسْتِحْدَادُ وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ وَنَتْفُ الْإِبِطِ وَقَصُّ الشَّارِبِ). وفي صحيح مسلم عن عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: (عشرٌ من الفطرة: قصُّ الشّارب، وإعفاءُ اللّحية، والسّواكُ، واستنشاقُ الماء، وقصُّ الأظافر، وغسلُ البراجم، ونتفُ الإبط، وحلْقُ العانة، وانتقاصُ الماء. قال زكريّاءُ: قال مصعَبٌ: ونسيتُ العاشرةَ، إلّا أن تكونَ المضمضةَ. زاد قُتيبةُ: قال وكيعٌ: انتقاصُ الماءِ: يعني الاستنجاءَ).

1. الختان.
2. الاستحداد (حلق شعر العانة).
3. تقليم الأظفار.
4. نتف الإبط (او حلقه).
5. قص الشارب وحفّه: لأن طول الشارب تلوثه إفرازات ونخام الفم والأنف وبقايا الطعام. وحفّ الشارب بمعنى نزع ما طال منه حتى وصل للفم، لأن طبيعة الرجل مجبولة على حُبّ إظهار شاربه الذي يدلّ على الرجولة.
6. إعفاء اللّحيَةُ لزينة الرجل.
7. السواك والاستياك: أي تنظيف الفم والأسنان بالسّواك (قطعة من خشب الأراك) وفي الحديث (السّواكُ مَطْهَرَةٌ للفم، مَرضاةٌ للرّب).
8. غسل البراجم وتنظيفها وهي التعرّجات والعقد التي بين الأصابع، لتجمّع الأوساخ فيها، ورفع المرض.
9. المضمضة والاستنشاق أي غسل الفم والأنف عن طريق إدخال الماء فيهما ثم إخراجه منهما على التوالي.
10. انتقاص الماء: وهو إزالة النّجاسة العالقة بالفرج باستخدام الماء أثناء الاستنجاء.

وسنن الفطرة جاءت متفقة مع اكتشافات الطب الوقائي ضد الجراثيم والكائنات الدقيقة مسببات الأمراض، فكان محمد (صلى الله عليه وسلم) النبي الأمّي أول من وضع أصول الطب الوقائي، فصادق العلماء على صدقه، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ سورة سبأ: 6.

تاريخ الحمّامات

ربما كان أول حوض استحمام (Bathtub أو بانيو) معروفًا في قصر كنوسوس the palace at Knossos من العصر البرونزي المتأخر (1500 ق م). هذا الحوض (الصورة) يعود للملك مينوس، وهو مصنوع من الطين المصبوغ (Painted Terracotta).

ويتم ملء حوض الاستحمام وتفريغه باليد، حيث لم يكن هناك حفرة للصرف الصحي. وحسب الأساطير المتداولة فإن كليوباترا كانت تستحم في حليب الحمير للحفاظ على نعومة ونظارة بشرتها - ربما كان نفس الشيء بالنسبة لملكة مينوس؟

في روما القديمة، كان الرومان يستخدمون شعور الجواري لتنظيف أيديهم. وكانت الحمامات العامة مركزًا هامًّا للحياة الاجتماعية، ولكن الأغنياء كانوا أحيانًا يختاروا الاستحمام في القطاع الخاص. تطورت

المرافق الصحية وتم توصيل المنازل الغنية وحتى المتوسطة بأنابيب الرصاص إلى القنوات المائية (Aqueducts)، وأمكن التحكم بتدفق الماء وإيقافه بالصنابير. تم تدمير العديد من القنوات الرومانية أو إهمالها خلال سقوط الإمبراطورية، وأضحت المياه الجارية ترفًا نادرًا من بعد. انتقدت النصرانية بشدة مجون قياصرة الروم بالاستحمام مع الجواري والولدان لإشباع رغباتهم الجنسية، واعترضت الكنيسة على الاستحمام المشترك، ومن الدعارة التي تواكب ذلك، ومن ثم عدّت الاستحمام عادة للفسق والمجون واعتبرت عدم الاستحمام علامة تقوى وتقرب من رب العالمين !!!

ورغم ذلك، كان الاستحمام الخاص في القرون الوسطى متواجدًا لكن نادرًا. حتى أن بعض الطبقات الدنيا من الناس أبقوا أحواض بالماء النظيف لغسل أيديهم ووجوههم قبل وجبات الطعام وعلى مدار اليوم. وتصطف أحواض خشبية مبطنة تشبه البراميل تستخدم أحيانًا كحمامات الشخصية. وكثيرًا ما يكون الماء باردًا. في أشهر الشتاء وعند الأُسَر الأكثر ثراء، يتم تسخين المياه في الغلايات أو عن طريق رمي الصخر على النار ثم تغميسها في الحوض البارد. معظم الأحواض يتم إحضارها إلى غرفة النوم (إذا كانت منفصلة عن الغرف الأخرى)، ولكن بعض بيوت الراقية كانت مخصصة في غرف الحمام، وأحيانًا مع أرضيات مبلطة وسخانات مياه الساخنة. وبما أن الأحواض كانت محمولة، فإنها يمكن أيضًا أن تُخرج في الصيف من المنزل للاستحمام في الهواء الطلق، وكان المسافرون الأثرياء يجلبوا معهم

أحواضهم الخاصة بهم للاستحمام أثناء الرحلة. كان من الضيافة المهذبة تقديم الحمام. وغالبًا ما يُقدم الطعام والشراب أثناء الاستحمام في الحوض، وبمساعدة الخدم (الصورة السابقة).

وبحلول عصر النهضة، توفيت الحمامات العامة تقريبًا في أوروبا الغربية، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى الطاعون الأسود، الذي كان الناس يعتقدون أن الإنسان يصاب بعدواه بسهولة أكبر إذا تم فتح المسام جراء الاستحمام بالماء الحار. وكان ينظر إلى الأوساخ على أنها حماية ضد الجراثيم. وهكذا انقلبت الأمور في عصر النهضة، وصار يُنظر إلى المياه على أنها مادة قاتلة كامنة. بل وحذر الجراح الملكي الفرنسي (أمبروز باري- Ambroise Paré) الذي عالج أربعة ملوك فرنسيين في القرن السادس عشر من تأثير الماء الضارّ على الجسم:

(the flesh and the whole disposition of the body are softened and the pores open، and as a result، pestiferous vapour can rapidly enter the body and cause SUDDEN DEATH، as has frequently been observed)

(إن لحم الجسد وكل البدن يصبح طريًّا وتنفتح المسام، ونتيجة لذلك، يمكن للبخار الوبائي أن يدخل الجسم بسرعة ويسبب الموت المفاجئ، كما لوحظ في كثير من الأحيان)!!! وحتى بعد ظهور أهمية النظافة، نصحت الكتيبات الطبية الناس فقط بغسل الأجزاء الظاهرة للآخرين: الوجوه واليدين والأذنين والعنق!!!

في الواقع، انتكست النظافة في أوروبا الغربية في تلك المرحلة، كما نستخلصها من عادات الاستحمام للعوائل الملكية. وعُدّت الملكة إليزابيث الأولى نموذجًا للنظافة لأنها أصرت على الاستحمام مرتين بالسنة (ويقال مرة واحدة في الشهر)!!! في عصر محاكم تفتيش إسبانيا، كان الاستحمام ممنوعًا ودُمّرت الحمامات العامة بالمئات (لارتباطها بطقوس النظافة الإسلامية واليهودية). ورُصِد بعض المسلمين الذين تنصروا قسرًا، وتم اعتقالهم لأنهم اغتسلوا قبل النوم! ولقد صُدِمَت إيزابيلا ملكة إسبانيا عندما أبلغها كولومبوس أن أناس الـ (تاينو Taíno- الذين رآهم في رحلاته) يستحمّون يوميًّا؛ ولقد قالت هذه الملكة أنها استحمت مرتين فقط في كل حياتها!!!

الابتكارات الإسلامية وتأثيرها في الغرب: الصابون، الشامبو، النظافة، ومستحضرات التجميل

عُرفت العصور الوسطى بانعدام النظافة والصحة العامة بسبب رؤى الكنيسة وأطباء أوروبا، مما أدى لاستشراء الأمراض، وكانت إحدى خصائص الصليبيين الأكثر تميزًا هي أنهم لا يغسلوا بصابون ولا يغتسلوا في حمام.

في الإسلام، تعدّ النظافة نصف دين المسلم (الحديث النبوي: الطهور شطر الإيمان). وكان هذا دافعًا للمسلمين للبقاء نظيفين، كما أن عدم النظافة تؤدي لأمراض لا حصر لها.

الصابون: ولعل أعظم ما ابتكره المسلمون لأجل النظافة هو الصابون. والفضل بذلك إنما يعود للكيميائيين المسلمين.

قبل اختراع الصابون استخدم الناس الزيوت لتنظيف أنفسهم، ولكن لم يملك كل الناس هذه الزيوت. كما استخدموا ورق السدر.

يُصنّع الصابون عن طريق خلط الزيت (عادة زيت الزيتون) مع مادة قلوية (أشبه بالملح). ثم يُغلى المزيج ويُترك ليتصلّب، قبل استخدامه في المنازل والحمامات العامة. كتب العديد من الصيادلة المسلمين (بما في ذلك الرازي) وصفات مختلفة للصابون. ولقد اكتشفت مؤخرًا مخطوطة يعود تاريخها إلى القرن الـ 13، تحوي وصفة للصابون. والتعليمات كما يلي:

"خذ بعض زيت السمسم، رش عليه من البوتاس القلوي وبعض الجيره lime، واخلطهم معًا واغلي. وبعد طبخها، يتم سكبها في قوالب وتركها لتتماسك وتصبح صابونًا صلبًا.

Emulsifying agent made usually by action of alkali on fat or fatty acids and consisting essentially of sodium or potassium salts of such acids.

العطور وعلم التجميل: وكان الزهراوي، أحد أشهر علماء التجميل في عصره، وهو معروف في الغرب باسم "أبولكاسيس" (أي أبو القاسم)، وقد كتب موسوعة طبية تدعى (التصريف لمن عجز عن التأليف) في ثلاثين مُجلدًا. وفي المجلد 19، فصل كامل مُخصص لمُستحضرات التجميل. وكان الفصل هذا أول مساهمة أصيلة في التجميل.

وكان تجميل الجسم بالعطور موجودًا قبل الزهراوي، لكن الزهراوي اعتبر مستحضرات التجميل فرعًا من الأدوية إضافة تأثيرها بالتجميل. وتعامل الزهراوي مع العطور والبخور والعنبر والمسك والعود. وذكر الكثير من الأحاديث النبوية التي تستحث على النظافة والعناية بالشعر وأجزاء أخرى من الجسم.

مزيل الروائح: وتشمل مساهمة الزهراوي في هذا الموضوع؛ مزيلات الروائح تحت الإبط (Deodorant)، أصابع إزالة الشعر، العناية بالشعر ومستحضرات اليد. وكلمة Deodorant مشتقة عربيًّا من De- أي بلا أو مزيل و odorant من odour أي عطر أي مزيل العطر أو مزيل الرائحة.

الأصباغ: وذكر الزهراوي أصباغ الشعر والحناء وتحويل الشعر الأشقر إلى الأسود. ذكر أيضًا الفوائد من مستحضرات سوائل اسمرار الجلد (من الشمس -sun

tan)، ووصف مكوناتها بالتفصيل. وقد استخدمت كتبه المترجمة باللاتينية ككتب مدرسية جامعية رئيسية في العديد من الجامعات الأوروبية.

وكان يستخدم "أدهان"، والمواد الدهنية، للدواء والتجميل. تعامل الزهراوي مع المخزونات المعطرة، ورفعت وضغطت في قوالب خاصة. وربما كانت هذه هي أقرب تمثيل لأحمر الشفاه في الوقت الحاضر ولمزيل الروائح.

ساهم الإغريق كثيرًا في مستحضرات التجميل لأجل الجمال وحسب، ولكن جوانب النظافة والصحة هي الأهم حقًّا. كان للمسلمين القدح المعلى لاكتشاف الجانب الصحي لمستحضرات التجميل.

الليفه أو اللوفه: (Luffa، Loofa، Loofah) مثلها مثل الاسفنجة (Sponge) اللتين تستعملان للغسيل في الحمام والكلمتان من أصول عربية: من لِفّ ولفه نبات ينمو في الحدائق ويتسلق على الجدران ويلتف حول الأغصان وثمرته حين تجفّ تستعمل كفرشاة لتنظيف الجسم في الحمّام، بالعامية ليفة.

الحجر الصحي: جعل الإسلام الطهارة والنظافة من أساسيات الدين والإيمان، ليمارسه كل مسلم، قبل الصلاة خمس مرات في اليوم (الوضوء). وكان المسلمون أول من أدخل الحجر الصحي للمرضى. تم ذلك بسبب اكتشاف الجراثيم (أكتشفها المسلمون وفي معاجم اللغة العربية نجد كلمتي الأرومة والجرثومة).

الشامبو وحمام البخار: أدخلهما لبريطانيا وأوروبا مسلمٌ اسمه شيخ دين محمد، الذي افتتح عام 1814 ولأول مرة:

(حمامات مُحمد للبخار الهندي – Mahomed's Indian Vapour Baths) على الواجهة البحرية لمدينة برايتون (Brighton Seafront). وتم تعيينه جراح الشامبو للملك جورج الرابع ووليليام الرابع Shampooing surgeon for King George IV and) (William IV.

والشامبو أصلاً مستحضر صابون لغسل الشعر وقد تكون الكلمة من أصل عربي (شبوبٌ) المُحسِّن للشيء، وما يوقد الشباب (أي الفتاء). وشبّ: اتقد شبابًا (نشاطًا) وغيّرَ لون الشعر. وقد تكون من الهندوستانية شامبنا أي دلك العضلات capna، to squeeze.

ففي الهندية تعني تدليك تطور معناها لغسول الشعر والجسد (بل وحتى غسول الأرض والزرابي)

شيخ دين محمد كان بنغلا أنجلو-هندي جراح ومسافر ورجل أعمال، كان واحدًا من أبرز المهاجرين غير الأوروبيين الأوائل إلى عالم الغرب. وقدم الشامبو لأول مرة إلى أوروبا، مع التدليك العلاجي، كما وقدم أطباق مطبخ جنوب آسيا. كان أيضًا أول هندي ينشر كتابًا باللغة الإنجليزية.

ولد محمد في بتنا Patna (بيهار- مقاطعة البنغال) عام 1759. كان والده، موظفًا في شركة الهند الشرقية (East Indian Company). نشأ شيخ دين محمد في پتنا. توفي والده عندما كان محمد صغيرًا. ثم صار تحت جناح الكابتن جودفري إيفان بيكر (Captain Godfrey Evan Baker)، وهو ضابط بروتستانتي أنجلو-أيرلندي (وهو في سن الـ 10). خدم في جيش شركة الهند الشرقية البريطانية كجراح متدرب وبقي محمد مع وحدة الكابتن بيكر حتى 1782 وتعلم محمد الكثير من كيمياء المغول وفهم التقنيات المستخدمة لإنتاج مختلف القلويات والصابون والشامبو. وعندما استقال الكابتن، استقال محمد أيضًا من الجيش، واختار مرافقة الكابتن بيكر، "أفضل صديق له"، لبريطانيا.

وفي عام 1784، هاجر محمد إلى كورك (أيرلندا) مع عائلة بيكر. هناك درس لتحسين مهاراته في اللغة الإنجليزية في مدرسة محلية، حيث وقع في شراك الحب والغرام مع Jane Daly جين دالي، "فتاة أيرلندية جميلة من والدين محترمين". عارضت عائلة (دالي) علاقتهما، ثم هرب الزوجان إلى مدينة أخرى للزواج في عام 1786. في ذلك الوقت كان من غير القانوني للبروتستانت أن يتزوجوا من غير البروتستانت، وبالتالي تحوّل (محمد) إلى الأنجليكانية (أصبح بروتستانتيًا) طمعًا في الزواج من حبيبة قلبه (جين دالي) "للأسف تحت وطأة الظروف والوحدانية القاهرة باع محمد دينه لأجل امرأة قد تكون غيّرت حياته كما أنها أثرتها". رُزِق شيخ دين محمد من زوجته (جين) سبعة أطفال: روزانا، هنري، هوراشيو، فريدريك، وأرثر، ودين، وأمليا (Rossana Mahomed، Henry Mahomed، Horatio Mahomed، Frederik Mahomed، Arthur Mahomed، Dean Mahomed، and Amelia Mahomed).

في عام 1794، نشر محمد كتاب عن أسفاره (رحلات دين محمد The Travels of Dean Mahomet). يبدأ الكتاب بالثناء على جنكيز خان، وخصوصًا أول إمبراطور مغولي مسلم في الهند (بابور Babur). ووصف لاحقًا الامبراطور المغولي شاه علم الثاني، ومدينتي الله أباد ودلهي بتفاصيل غنية، مع وصف سلسلة من الصراعات العسكرية مع السلطات الهندية المحلية.

اقترح المحرر مايكل فيشر أن بعض مقاطع الكتاب يمكن إعادة صياغتها عن كثب روايات أسفاركُتبت في أواخر القرن الثامن عشر.

في عام 1810، بعد الانتقال مع زوجته إلى لندن، افتتح دين محمد أول مطعم هندي في انكلترا: دار القهوة الهندوستاني (Hindostanee Coffee House) في 34 جورج ستريت، بالقرب من ساحة بورتمان، وسط لندن؛ وهو أول مطعم يديره هندي. وتقدم فيه النركيلة لتدخين التبغ، مع تقديم الأطباق الهندية الشهية. لكن انتهى المشروع بسبب صعوبات مالية وإدارية. وقامت بلدية ويستمنستر بتخليد اسم المطعم في لوحة خضراء في موضعه الأصلي.

في عام 1814 انتقل مع زوجته إلى برايتون، وهي مدينة متطورة. وهناك أقام حمامات محمد، لعلاج المرضى الذين يعانون من أمراض العضلات بالتدليك (مساج) أو بشامبو الأعشاب والزيوت الهندية من بعد حمام البخار (شبيهة بالحمام التركي). تسبب علاج محمد الناجح بشهرته وتوافد المرضى لحماماته. خصوصًا مرضى الروماتيزم والشلل والنقرس وتصلب المفاصل وتشنج العضلات وآلام المفاصل والعظام. فلقبوه بطبيب برايتون "Dr. Brighton". وصارت المستشفيات تحيل له الحالات المرضية التي فشل معها العلاج الطبي. وكتب مقالة عن حماماته في الصحف المحلية: The Indian type of Turkish bath (Medicated Vapour Bath)

في عام 1822، عيّنه الملك جورج الرابع King George IV "جراح الشامبو Shampooing Surgeon" الشخصي، وهو منصب استمر به وهو تحت وليام الرابع William IV . وفي العام نفسه 1822، نشر شيخ الدين محمد عمله الطبي: شامبوينغ أو الفوائد الناتجة عن استخدام حمام بخار العلاج الهندي:

(Shampooing; or Benefits resulting from the use of the Indian medicated vapour bath).

شيخ الدين محمد Sake Dean Mahomed (صورة بفرشاة توماس مان بينس Thomas Mann Baynes - حوالي1810) أول من أدخل مطبخ جنوب آسيا وحمام الشامبو والتدليك العلاجي إلى أوروبا. وكان أيضًا أول هندي ينشر كتابًا باللغة الإنجليزية. توفي محمد عام 1851 (وعمره 92 سنة) ودفن مع زوجته (جين دالي) في كنيسة القديس نيكولاس، برايتون St Nicholas Church، Brighton

الأفلاج
في كتابات رحالة أوروبيين
في شرقي الجزيرة العربية

د. علي عفيفي علي غازي
أكاديمي وصحفي

يعرف الإنسان الخليجي القديم، في سبيل إيصال الماء من مصدرها للمناطق البعيدة، التي لا يوجد بها عيون، نظام شامل للري متطور، بحفر قنوات ضخمة على سطح الأرض، مغطاة أو مكشوفة، أو بحفرها في باطن الأرض بشكل انحداري يسمح بجريان الماء من بئر رئيسية، تُسمى بأم الفلج، وتُعرف الفتحات التي تتصل بالقناة، باسم الثقبة أو الفرضة، أما أول مكان خروج الماء إلى سطح الأرض فهو الشريعة. وذلك بهدف تجميع المياه الجوفية أو مياه العيون والينابيع الطبيعية أو المياه السطحية، أو السيول بحيث تنتقل المياه المتجمعة من مواردها في الفلج دون استعمال الآلات لرفعها. وتُعرف هذه الطريقة لتوزيع الماء في البحرين باسم "الفقب" أي الثقب. وفي سلطنة عمان والإمارات العربية المتحدة باسم الأفلاج، ومفردها "فلج". والتي تعني لغويًّا "شق في الأرض"، والجدول المائي الصغير، والقناة التي تروي الأرض. وقيل هو الماء الجاري، والجمع فلاليج وأفلاج[1]. والكلمة مُستمدة من جذور سامية قديمة، تعني "تقسيم"، ويُمكن إطلاق الكلمة على نظام تقسيم المياه بين المساهمين، إذ إنه عبارة عن تنظيم مُعين لتوزيع المياه بين من لهم حقوق فيها.

يُرجع بعض الباحثين الآثاريين والمؤرخين منشأ نظام الأفلاج إلى مصر الفرعونية، إذ مارس المصري القديم الزراعة المروية، وفي حوالي عام 3000 قبل الميلاد شق القنوات؛ لنقل الماء إلى الأراضي المرتفعة في موسم الفيضان[2]. وتذكر المصادر التاريخية أن "نينوى"، وهي من أقدم حضارات العراق القديم، كانت تحصل على الماء بواسطة نظام القنوات، وقد نصت شريعة الملك البابلي حمورابي (1810 - 1750 ق. م.) على صيانة الماء وأقتية الري وتنظيفها سنويًّا، واعتبرت الاعتداء عليها جُرمًا يُعاقب عليه[3]. وقد تمخضت الدراسات والأبحاث عن الكثير من المكتشفات الأثرية، التي تؤكد معرفة مجتمعات شرقي الجزيرة العربية لنظم الري منذ عام 2500 قبل الميلاد. وقد اشتهرت إمارات ساحل عمان المتصالح بانتشار الأفلاج في: العين والفجيرة ورأس الخيمة. وخاصة منطقة "هيلي" بمدينة العين، التي تُعدّ من أهم المواقع التاريخية المشهورة بالأفلاج[4].

تتعدد أنواع الأفلاج، ومنها: الفلج الداؤودي الذي يُنسب إلى النبي داود، عليه السلام، إذ ينقل ولكنسون أسطورة تقول إن النبي سليمان بن داود، عليه السلام، في رحلته اليومية على بساط الريح إلى بيت المقدس، وفي طريقه إلى عُمان رأى قلعة "سلوت"، فأمر الجن أن تبحث الموضوع، وأخبره رسوله الهُدهد، أحد الطيور، أن القلعة غير مسكونة، فدخل النبي سليمان عُمان، وظل بها عشرة أيام، كان يأمر الجن المُسخرة له أن تبني ألف فلج في كل يوم من أيام إقامته، ومن يومها أصبح في عمان عشرة آلاف فلج، يُعرف بالداؤودي[5]، وهو ذلك الفلج الذي يستمد مياهه من عمق بعيد عن سطح الأرض. أما الفلج الغيلي، فإنه يستمد مياهه من غيول السيول والأودية، أو من ينبوع أو عين طبيعية، أو مجموعة عيون تتدفق منها المياه وتنساب على سطح الأرض مخالفًا بذلك الأنواع الأخرى، التي تعتمد على المياه الجوفية، وتعني كلمة غيل في الاستخدام المحلي الماء على السطح الحصوي للوادي[6].

يلفت نظام الري بالأفلاج جُلّ رحالتنا الذين زاروا الجزيرة العربية والخليج، وبالتالي من الصعوبة الإحاطة بكل ما ذكروه في هذا المقال، ولهذا سوف نستعرض في اقتضاب إشارات سريعة. بداية يذكر الضابط البحري البريطاني جيمس ريموند ولستد James R. Welsted. الذي قام برحلاته في شبه الجزيرة العربية والعراق (1830–1835) أنه "توجد في عمان بعض الأودية الجافة التي تجري تحت الأرض، وهي ذات قيمة كبيرة في هذه المناطق، كما توجد بعض الخيران الصغيرة التي يتضاءل حجم بعضها كثيرًا في مواسم الجفاف". ويُشير إلى قيام العمانيون بسحب "المياه من الآبار العميقة بأسلوب فريد، حيث يثبتون خشبتين في منتصف قطر فوهة البئر...، وحين يمتلئ الإناء يُسحب ويُسكب في مستودع صغير ليتمّ توزيعه عبر جداول مستحدثة على وجه الأرض... ثم يُجرى توزيعه... بالنجوم التي يعرفون المواقيت الثابتة لخروج بعضها وغيابه". وفي واحة مأدبة أدهشته جداول المياه تنساب من جميع الاتجاهات، وتجلب الراحة للنفس[7].

يصف الرحالة الإيطالي كارلو جوارماني Carlo Guarmani، الذي ارتحل في شمال ووسط الجزيرة العربية في عام 1851، واحة تيماء بأنها عبارة عن "متاهة من الشوارع الصغيرة التي تظللها أشجار النخيل، وأشجار الكروم التي تتدلى فوق هذه الشوارع، كما تظل هذه الشوارع أيضًا أفرع أشجار التين البارزة، وأشجار الخوخ والرمان التي جرى جلبها من دمشق قبل سنوات قليلة، وثبت نجاحها. هذه الأشجار يجرى ريها في قنوات، الكثير منها يُصنع من جذوع النخيل، تحمل الماء إلى المزارع من بئر عامة، في حال عدم وجود أبيار، أو من أبيار أُخرى قريبة، غالبًا ما تكون ملكًا لصاحب البيارة"[8].

يُشير الرحالة الإنجليزي وليم جيفورد بالجريف (William Gifford Palgrave. 1826 – 1888)، والذي قام برحلته في شرق ووسط الجزيرة العربية (1862–1863) إلى أن الري في واحة الجوف "يعتمد على القنوات الجارية التي تحمل الماء العذب الصافي... وما أجمل تلك المناظر لو تذكرنا الصحراء القاحلة"[9].

يرى الرحالة والسياسي البريطاني صموئيل مايلز Samuel Miles، الذي استطاع أن يتجول في سلطنة عُمان بين عامي (1874–1885)، أن القناة أو فلج المطارد هو أحد علامات الرخاء السابق في صحار، حيث كان هذا الفلج يمد المدينة بالمياه في العصور القديمة. وفي وصفه للفلج يقول "إنه عبارة عن بناء صخري جيد يصله بسطح الأرض وادي الجزى القريب من حورا برجه، أو هضبة صحار كما نُسميها، إلى الشاطئ بمسافة تبلغ من أربعة إلى خمسة عشر ميلًا، وآثاره ما زالت موجودة إلى الآن". وقد لاحظ مايلز مثل هذا لبناء بجوار جبل غرابة[10].

يقوم الشاعر والرحالة الإنجليزي تشارلز داوتي (Charles Doughty 1843- 1926)، برحلته في الجزيرة العربية، ويقضي بها سنتين (1876–1877) متجولًا في صحرائها، ويُشير إلى الأفلاج في وادي الدواسر، بقوله: "وتقع الأفلاج، جمع فلج، وتعني الصدع في الجبل، في جبل طويق وسكانها من الدواسر"[11].

تقوم الرحالة البريطانية آن بلنت (1837 - 1917) Ann Blunt في شتاء عام 1878–1879 برحلة برفقة زوجها من دمشق إلى حائل، في شمال نجد، ومنطقة جبل شمر، وتكتب عن الأفلاج تقول: "أما الأرض فصارت أخشن من ذي قبل، وصارت الأفلاج أكبر والسفر أشق وأعسر، غير أن الأفراس والجمال تابعت طريقها بإقدام". وتروي قصة تدور أحداثها حول عاشقين شابين فرا من الجوف بنية الزواج، فلاحقهما ذووهما. ولما شكا بأنهما ملاحقان، وبُغية تجنب الفضيحة، اتفقا على أنهما بدلًا من أن يمضيا معًا، فضّلا أن يسيرا بخطين متوازيين يبعدا الواحد عن الآخر بمقدار مئة ياردة، وعلى هذا النحو انطلقا في رحلتهما.

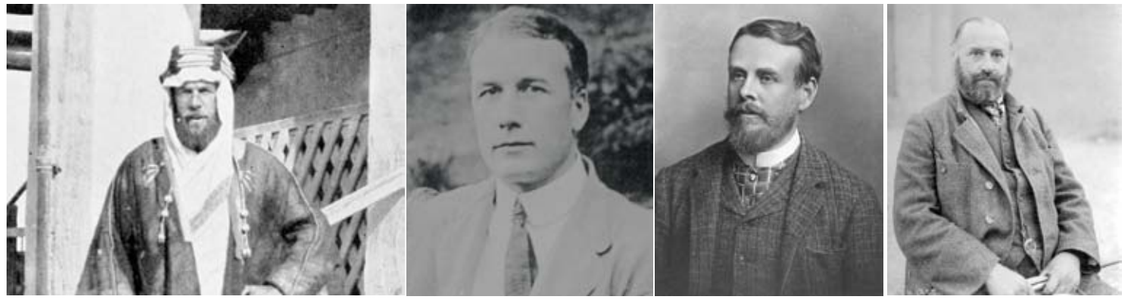

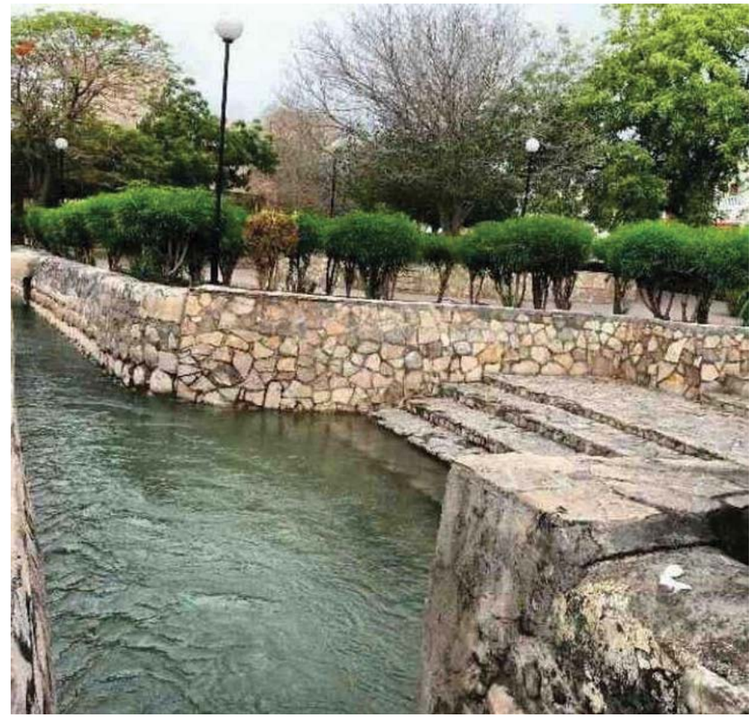

فلما وصلا إلى أحد الأفلاج...، نال منهما التعب كل مبلغ، فانطرحا كل منهما تحت شجيرة ليُلاقي حتفه. وعلى هذه الشاكلة عثر عليهما، ولكن لحسن الحظ قبل فوات الأوان، وسر اختيارهما ذويهما على الجانبين، فصدرت الموافقة على زواجهما، وتمّ الاحتفال بعرس بهيج للغاية". وتذكر أنها خيمت إحدى الليالي في صحراء النفود بين المراعي، "على طرف أحد الأفلاج التي اعتدنا عليها خلال طريقنا من الجوف...، ولا تُعدّ هذه الأفلاج ذات شأن بالمقارنة مع ما شهدناه إلى جهة الغرب"[12].

يُشاهد المستشرق الألماني يوليوس أوتينج Julius Euting الذي قام برحلته إلى شمال شرق الجزيرة العربية (1883-1884) في واحة تيماء "توزيع الماء بين ملاك البساتين... عبر قناة تتفرع منها جداول صغيرة لكل منها صمام يُمكن من خلاله حبس الماء، ومن المعتاد أن كل من له نصيب في تلك الجداول يقوم بجلب جمل للعمل في إخراج غروب الماء من أعماق البئر، كما يحرص بنفسه على صحة عملية توزيع الماء خلال تلك الجداول... التي تمتد عبر الشوارع". ويذكر أنه توجد بقرية كاف "قنوات أخرى لتصريف المياه الفائضة يُمكن أن يستفيد منها صغار الملاك"[13].

يكتب الرحالة الألماني ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim 1860 -1946)، الذي قام برحلته من البحر المتوسط إلى الخليج بين عامي 1892-1894، عن الينابيع والأفلاج والنخيل في شمال ووسط الجزيرة العربية، يقول: "تقع إلى الجنوب من الخرج واحات الأفلاج، وتوجد هنا ينابيع مشابهة لتلك التي توجد في الخرج، وكانت تغذي سابقًا نظام أقنية واسعة، لا يجري فيها الآن سوى سيح (مسيل) واحد أخذت منه الواحة اسمها...، وتغذي الينابيع الواحتين القديمتين في شرق الجزيرة، والتي تُشكّل مدينة الهفوف ومرفأ القطيف مركزها، وتشكل زراعة أشجار النخيل المرتبة الأولى في اقتصاد الواحات، ولكن، من الممكن، أن تتمّ زراعة الحبوب أيضًا بالاعتماد على الري أو في الأراضي التي تسقيها الأمطار أو السيول"[14]. وفي موضع آخر يُشير إلى أن "العديد من هذه الينابيع متصل مع قرية بقنوات تحت الأرض مزودة بفتحات كبيرة للتهوية، تُسمى كهريز"[15].

يرتحل الرحالة الشاعر ثيودور بنت Theodore Bent وزوجته مابل، في اليمن وعمان قادمين من الحبشة في عام 1893، ويُشاهدا "الجداول تنساب مياهها فوق ما يُشبه جدارًا ضخمًا مُدهلًا، فتشكل شلالات خفيفة القوام، وتتدلى منها المقرنصات الحجرية، بشكل مشوش، وفي الوسط يُصبح عمقها 55 قدمًا، وأكبر طول لها حوالي الميل، وهي عبارة عن ظاهرة طبيعية رائعة"[16].

يبذل المبشر الأمريكي صموئيل زويمر Zwemer Samuel 1867-1952، عضو الإرسالية التبشيرية، منذ عام 1892 عدة محاولات لزيارة الإمارات العربية المتحدة، التي لم تغب عن ذهنه، ولكن من دون فائدة، إلا أن رغبته تحققت أخيرًا في مايو من عام 1900، حيث وصل الشارقة في 14 منه بعد أن مر في طريقه بجزيرة أبو موسى، ومنها إلى دبي، ووصف الطريق الذي سلكه بقوله: "على الرغم من أنه محفوف بالمخاطر والصعاب إلا أنه طريق جميل، وعلى هذا الساحل ينمو العديد من الفواكه مثل المانجو والنخيل، ويستخدم الأهالي للري طريقة تُسمى "أفلاج" جمع فلج، وهي تعمل عن طريق تحويل لمجرى الغدير ليصب في قنوات تروي المزروعات"[17].

يُشاهد، في الرياض، الدبلوماسي الدنماركي باركلي رونكيير Barkley Ronquier، الذي قام برحلته الأولى والأخيرة للجزيرة العربية في العام 1912، "الماء ينساب جداول رقراقة من جيوبها العديدة عبر قنوات تأخذه لسقي النباتات العطشى دائمًا"[18].

يخترق الرحالة البريطاني جون فيلبي John Phillby 1885-1960، شبه الجزيرة العربية بين سنتي 1917-1918، فقد كتب عن وسائل الري المتبعة في الأفلاج، واستخدام الكهاريز (الدبل) وهي مجاري مائية جوفية اصطناعية؛ بل أشار إلى احتمال وجود مجرى مائي قديم كان يأتي من خط تقسيم المياه في الأفلاج[19].

المراجع:

1 - ابن منظور: لسان العرب، عبدالله علي الكبير وآخرون (تحقيق)، (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ص 3456، 3457.

2 - حسين محمد حسين: "نظام الأفلاج والنقب أو قنوات الري تحت الأرضية"، صحيفة الوسط، العدد 2631، (19 نوفمبر 2009م/ 2 ذي الحجة 1430هـ).

3 - محمود الأمين: شريعة حمورابي، (بيروت: دار الوراق للنشر المحدودة، 2007)، ص 25.

26: مجموعة من المؤلفين: شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق الأدنى القديم، أسامة سراس (ترجمة)، (دمشق: دار علاء الدين، 1993)، ص 103، 104.

4 - "بعود تاريخه إلى ما قبل الميلاد، والهيلي أهم مواقعه، الأفلاج.. نظام ذكي للري"، صحيفة البيان، (23 نوفمبر 2013).

5 - جي. رسي. ولكنسون: الأفلاج ووسائل الري في عمان، محمد أمين عبدالله (ترجمة)، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 2003)، ص 68.

6 - "نظام الري في عُمان ما زال يعتمد على الأفلاج القديمة"، صحيفة الوسط، العدد 2002، (29 فبراير 2008م/ 21 صفر 1429هـ).

7 - جيمس ريموند ولستد: تاريخ عمان رحلة في شبه الجزيرة العربية، عبدالعزيز عبد الغني إبراهيم (ترجمة)، (بيروت: دار الساقي،2002)، ص 180-182.

8 - كارلو جوارماني: شمال نجد، رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم في العام 1864، صبري محمد حسن (ترجمة)، (القاهرة: دار الهلال، 2010)، ص 210.

9 - عوض البادي: الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية (منطقة الجوف ووادي السرحان) 1845-1922، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002)، ص 74، 83.

10 - س. ب. مايلز: الخليج بلدانه وقبائله، محمد أمين عبدالله (ترجمة)، (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1983)، ص 444.

11 - سعد العبدالله الصويان: محاضرات في أدب الصحراء العربية، (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث - كتاب المأثورات الشعبية، 2013)، ص 114.

12 - ليدي آن بلنت: رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية، أحمد إيبش (ترجمة)، (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2005)، ص 194، 198، 328.

13 - يوليوس أوتينج: رحلة داخل الجزيرة العربية، سعيد بن فايز السعيد (ترجمة)، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، 1999)، ص 156، 22.

14 - ماكس فرايهير فون أوبنهايم: البدو، الجزء الثالث: شمال وسط الجزيرة العربية والعراق الجنوبي، محمود كيبيو (ترجمة)، (لندن: شركة دار الوراق للنشر المحدودة، 2007)، ص 19، 20.

15 - ماكس أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج: لبنان وسوريا، محمود كيبيو (ترجمة)، (لندن: دار الوراق للنشر المحدودة، 2008)، ص 289.

16 - بيتر برنيت: بلاد العرب القاصية، رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب، خالد أسعد عيسى: أحمد غسان سبانو (ترجمة)، (بيروت: دار قتيبة للنشر والتوزيع، 1990)، ص 207.

17 - فاطمة حسن الصايغ: "الساحل المتصالح في كتابات المنصرين"، في كتاب عبيد علي بن بطي (تحرير): كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور، (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1996)، ص 308؛ نقلا عن:
Arabian Mission Correspondence. No. 753. Box 2. (May 1900).

18 - باركلي رونكيير: عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل، منصور محمد الخريجي (ترجمة)، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1999)، ص 174.

19 - محمد فاتح عقيل: الجزيرة العربية في كتابات بعض الرحالة الغربيين، (الإسكندرية: مكتبة دار نشر الثقافة، 1962)، ص 26، 30.

صورةٌ وجدار

ناصر زين الدين

الإمارات العربية المتحدة

ذاتَ يوم
ستفتح أميَّ صندوقها الخشبيَّ
فتلمحني فوقَ منديلها خاتمًا
قد عراهُ الغبارْ.
وتبحث في ركنها عن صغيرٍ
تسلّل خلف الستائرِ
يقرضُ لقمته مثل فارٍ خبيثٍ
ويهرب من كوة البيت
قبل انبلاجِ النهار.
ذاتَ يوم ستدخل أختيَ ساخرةً
من شقي تسلّقَ فوق السياجِ
يراقبُ جارتها
وهي تحضنُ في سلة الصدر
إضمامةً من زهورٍ
بعشر زنابق فضّيةٍ،
سترت لؤلؤًا وبهارْ.

ذات يوم ...
سيسعى أبي نحو مدرسةِ الحيِّ
خلفَ خطاهُ
غلامٌ يسائلُ
عن شجرٍ يتشبَّثُ بالغيمِ
ينمو على ظهر حوتٍ
ويجفل قد أخطأ الدربَ لما استدارْ.
ذات يوم ..
سيأتلفُ الصحب
خمرٌ يحرر أحلامهم
وأمانٍ تفيض على الشفتين
يدغدغها الخمرُ
يُرفعُ نخبُ نديمٍ تأخر عن عيدهم
كلَّل الصَّدرَ وردًا وطارْ
ومازالَ يرمقهم باسمًا
من إطارٍ تسمَّرَ فوقَ الجدارْ.

المدهش عند المصريين القدماء

أ.د. يعرب قحطان الدُّوري[1]

جامعة برليس – ماليزيا

الحضارة هي كل ما ينتجه عقل الإنسان من فنون وعلوم وآداب وفلسفة وتشريع، والقدرة على الاستفادة من هذه الحصيلة. ويقسّم المؤرخون تاريخ الإنسانية إلى عصور، فهناك عصر ما قبل التاريخ، والعصور التاريخية. لقد تميزت الحضارة المصرية القديمة خلال حقبها التاريخية المتعاقبة منذ أقدم العصور بالاهتمام البالغ بالهندسة والتكنولوجيا والحِرف الدقيقة في كل مناحي الحياة، حيث اتضح ذلك مما تركه المصريون القدماء من آثار تدل على عظمتهم. منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، كان لدى قدماء المصريين نظم في القياسات الهندسية للأطوال والحجوم والأوزان. قياس الأطوال بوسائل مثل الكف والشبر وطول الذراع، وكانت هناك مسطرة رسمية أو نمطية لتلك الوحدات. كما كانت هناك وحدة لقياس الحجوم تسمي هون، وعشرة أمثالها يسمي هيكات، ووحدة للوزن تسمي بيكا. وعرض المصري القديم الميزان المعروف بشكله الآن، كما استخدم المصريون القدماء الساعة الشمسية والمائية لقياس الزمن، وعرفوا فائدة التزييت واستخدمه في نقل الحجارة، وترك آثارًا هائلة من فن النحت فكان التمثال النصفي للملكة نفرتيتي من أروع الأمثلة للنحت في العالم.

والعمارة المصرية القديمة يوضحها المعابد ذات الأعمدة الضخمة بما عليها من زخارف على هيئة زهرة اللوتس، والنقوش ذات الألوان الزاهية في الأقصر ووادي الملوك والملكات، ومعبد إسنا، حيث توجد المسلات الفرعونية بما عليها من رسومات ونقوش. كما أن أهرامات الجيزة إحدى العجائب المعمارية المصرية القديمة التي تعد أضخم بناء في العالم. وصنع المصريون القدماء أقدم عربة بعجلات حيث تم العثور عليها كاملة في أحد القبور. وهي تحفة فنية رائعة، وتتكون من عدة أجزاء يتم تجميعها بخبرة ودقة، وهي المحور، وفراغ المحور، والكلابات للدعامات، والمحيط الخشبي الخارجي للعجلة. كما اخترع المصري القديم المنضدة الدائرية أو العجلة الفخارية لتشكيل الطمي بعملية الدوران. واستخدموا الأبراج والسلالم المستخدمة في البناء. وكانت هناك أدوات من الخشب والنحاس لعمليات الغزل والتفصيل[2] . استطاع المصريون القدماء نقل ملايين الكتل الحجرية، التي تزن الواحدة منها أطنانًا، لبناء هرم يزن ستة ملايين وخمسمائة ألف طن يمكن رؤيته من الفضاء، في فترة استغرقت 20 عامًا، فكيف فعلوا ذلك، وما التكنولوجيا التي استخدموها، وما المصانع أو المعدات الثقيلة المساهمة

في البناء بهذه العظمة من الدقة والفخامة.

نظرية بناء الأهرامات

بعد نجاح الوحدة السياسية لمصر القديمة في عهد أول أسرة حاكمة، وقد قويت وحدة البلاد في عهد الأسرة الثانية، وشهدت مصر تقدمًا في جميع نواحي الحياة، كما تطور استعمال الكتابة المصرية القديمة التي سماها الإغريق "الهيروغليفية". أصبحت مصر مهيأة لاستقبال عصر جديد، هو عصر الدولة القديمة. يطلق المؤرخون على عصر الدولة القديمة اسم "عصر بناة الأهرام"، إشارة إلى تلك الأهرامات الضخمة التي نراها جميعًا، والتي بنيت في بطن الصحراء على يمين الوادي، من إقليم الفيوم جنوبًا إلى الجيزة شمالاً. ولكن لماذا بنيت الأهرامات وما هو الغرض منها؟ ترجع الفكرة في بناء الأهرامات إلى اعتقاد المصريين القدماء في خلود الروح، وإلى اعتقادهم في البعث مرة أخرى وبوجود حياة أبدية. لهذا بنى المصريون القدماء مقبرة حصينة توضع فيها الجثة بعد تحنيطها، وتزود بمجموعة كاملة من حاجيات الميت كالأدوات وقطع الأثاث وأنواع الأطعمة والشراب التي كان يستعملها في حياته، حتى إذا ما جاءت الروح وحلت في الجثة، عاد الإنسان إلى حياته الأبدية. ونقشت جدران المقبرة بالمناظر المعتادة، لتدخل السرور على الميت. كانت مصر على جانب كبير من الخير والرخاء، وكان الأمن سائدًا وحياة الناس هادئة مستقرة. وازدهرت الآداب والعلوم والفنون. كما رافقت ذلك حركة بناء ضخمة، وذلك بفضل ما توافر لمصر من ثروات طبيعية. وهكذا عاشت مصر أزهى عصورها في عصر الدولة القديمة، ذلك العصر الذي اجتمع فيه نشاط الفكر إلى جانب نشاط العمل والتنفيذ[4].

لكن إذا أردنا معرفة السر في بناء الاهرامات علينا التعمق في قراءة الفكر اللاهوتي للمصريين القدماء. فالهرم مرتبط بالنظرية القديمة للوجود. نظرة تفسرها أسطورة أجدواد Ogdoad المبنية على أربعة عناصر وهي الماء والشروق والهواء والروح. تلك عناصر الوجود عند المصريين القدماء، وإذا ما تم توفير العناصر الثلاثة الأولى داخل الهرم لم يبق سوى انتظار عودة الروح لتنطلق الحياة الجديدة في دورة وجودية لا تنتهي، أو نظرية عاد الوجودية وهي نظرية مبنية على فكرة الخلود. يخبرنا القرآن الكريم عن الرغبة القوية عند العاديين في الخلود ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[5] لذلك فالأهرامات ليست قبورًا ولم توجد لهذا الغرض، بل كانت بوابة تمكن الروح من العبور إلى عالم الخلود، ثم العودة إلى عالم الوجود. أي إنها وسيلة اتصال بين الأرض والسماء. أما التابوت الذي وجد داخل ما يسمى بـ "غرفة الملك" فهو غالبًا تابوت العهد عند المصريين القدماء. فالتابوت هو المكان الذي عادة ما تحفظ فيه الأشياء الثمينة وليس أثمن من رسالة عقائدية يؤمن الناس بها إنها رسالة الرب. وإذا علمنا أن الملك "خوفو" كان في حياته يبحث عن كتاب الحكمة الذي تركه (توت) أو نون. وأن الشكل الهرمي في الشكل 1 المسمى (بن بن) يشير إلى البعث، فاكتملت بذلك عناصر نظرية بناء الأهرامات[6].

شكل 1: الحجر ذو الشكل الهرمي (بن بن) وهو يشير الى البعث وعادة ما يوضع أعلى الهرم.

شكل 2: أبو الهول أو حارس المشرق يقف بجانب الأهرامات الثلاثة.

جاء في كتاب رسالة أبي الهول لمؤلفه جراهام هانكوك وروبرت بوفال: أن أبا الهول (شكل 2) بني في ذات الوقت مع اهرامات الجيزة الثلاثة قبل 12500 سنة[7].

نظر المصريون القدماء إلى Atum باعتباره الإله الابن أول إله يسكن في الأرض. وإلى Ptah الإله الأب أول إله في السماء. ونظروا إلى ملوكهم بوصفهم الأمناء الذين تتجسد فيهم روح الإله. يُروى أن الأمير الشاب رأى في المنام حارس المشرق (أبو الهول) الذي بشره بأنه سيعتلي عرش مصر. كما هو مدون على لوحة الحلم (شكل 3) التي تقول: أي بني انظر إلي بتمعن، أنا أبوك حار إم خو خبري رع آتوم. والتي

شكل 3: لوحة الحلم التي امر نون مصر (تحتمس الرابع) بوضعها بين يدي أبي الهول.

تعني حارس المشرق حبر الرب آدم[8].

يُطلق لقب غنم خوفو Khnum khufu على باني الهرم الأكبر كما في الشكل 4. قد يقرأ البعض الكلمة الأولى على أنها مغنم ومغانم وهو تعبير عن الحرب. وكلمة خوفو تعبر عن الخوف. والنتيجة غانم الخوف بمعنى الذي يزرع الخوف في قلوب أعدائه. وهو لقب يليق بشخصية رجل مثل باني الهرم الذي عرف بشدته وبطشه. وبالبحث في أسماء آلهة مصر القديمة نجدهم يصورونه بجسد رجل ورأس خروف. يقولون أنه رب الآلهة والناس. وعندئذ نستطيع القول أن الهرم الأكبر يمثل الإله الأب. وبالبحث المعمق في معنى كلمة خُنم نجد أصلها (أمّن من الأمن). وهي الأقرب إلى (أمّن من خوف). كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾[9]. كما يطلق على باني الهرم الأوسط Khafre وتعني حبر رب العالمين وتمثل الإله الابن. أما الهرم الأصغر Menkare فتعني أمين قول الرب، وتمثل الروح الأمين للمصريين القدماء[10].

شكل 4: أهرامات الجيزة الثلاثة.

أبيدوس

وهي عابد الوادي Abydos من أهم المدن التاريخية وأقدمها وكانت عاصمة مصر العليا (شكل 5). ارتبط اسمها بمعبد إيزيريس Osireion حيث استخدمت حجارة كبيرة مما يدل على المراحل المبكرة جدًّا في بنائه. وهناك إشارة تدل على أن تاريخه يعود إلى زمن ما بين عاد وثمود حسب الأسماء المنقوشة على جدران المعبد[11]. كما جاء في القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾[12].

شكل 5: معبد إيزيريس بأبيدوس أو العرابة المدفونة.

إن الذين بنوا هذه المباني كانوا أشد منا قوةً وباسًا. فمَنْ مِن بني البشر اليوم يستطيع تحريك حجارة بحجم ضخم يزيد وزنها عن 100 طن[13]، أو تقطع بمهارة عالية وتحرك مسافة 900 كم[14]. إن البنية الجسمانية القوية هي التي

تستطيع ذلك. كما نقرأ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾[15].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾[16].

شكل 6: الأحجام الضخمة لحجارة الأهرامات.

فيصبح بالتأكيد إن من قام بهذه المهمة هم أناس بحجم عملاق تمكنوا من حمل الحجارة الكبيرة وتحريكها بسهولة[17] (شكل 6). أنهم قوم عاد الذي أخبرنا عنهم القرآن الكريم. قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[18]. وقوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[19].

فأحجام أولئك لم تكن طبيعية بالنسبة لنا، ولم تكن بحجم آدم عليه السلام، بل كانوا وسطًا بين الاثنين. وزادهم الله في الخلق بسطة (شكل 7). جاء في الحديث الصحيح، روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعًا. فلما خلقه قال اذهب فسلم على أولئك النفر. وهم نفر من الملائكة جلوس. فاستمع ما يجيبونك. فإنها تحيتك وتحية ذريتك. قال فذهب فقال السلام عليكم. فقالوا السلام عليك ورحمة الله. قال فزادوه ورحمة الله. قال فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعًا. فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن[20].

ويدعم هذا الأمر بارتفاع مدخل الهرم بارتفاع 17 مترًا مقارنة بالمدخل الذي حُفر في عهد الخليفة المأمون كما في الشكل 8، للدلالة على أحجام اولئك العمالقة[21].

كذلك عرض مدخل الهرم بـ 3 أمتار وارتفاعه بـ 10 أمتار،

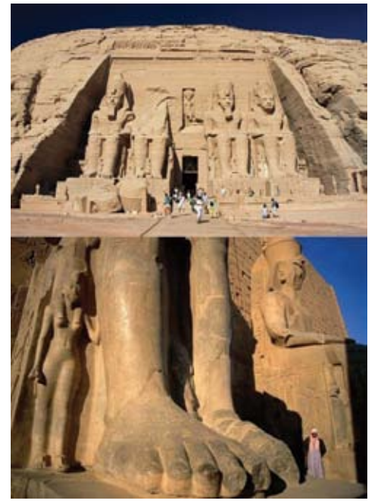

شكل 7: الأحجام الضخمة للأقوام الذين بنوا تلك المعابد والأهرامات.

شكل 8: مقارنة للمدخلين في الهرم الأكبر خوفو.

يدعم هذا الافتراض كما موضح في الشكل 9 [22].

لقد امتاز عمل المصريين القدماء بالدقة والمهارة العالية هندسيًا وحسابيًا (شكل 10) ولولا هذا ما صمدت

شكل 9: مدخل الهرم الأكبر خوفو.

انجازاتهم آلاف السنين فأصبحت تراثًا إنسانيًا تقف له البشرية احترامًا وتقديرًا[23]، بل أكد عليه القرآن الكريم في سورة الشعراء: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾[24].

كما استدل على ذلك من حياتهم اليومية حيث استخدموا الباحث عزالدين كزابر في بحثه المعنون: طول آدم والإنسان

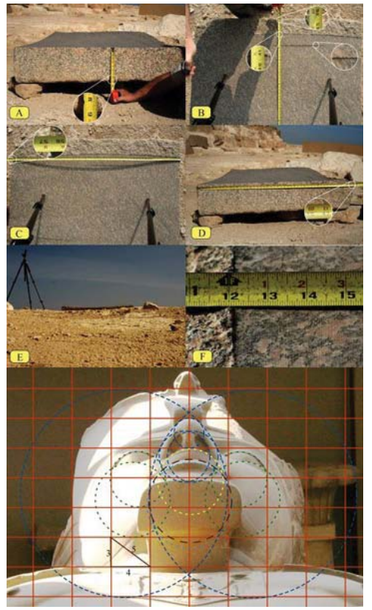

شكل 10: الدقة العالية لعمل المصريين القدماء التي حيرت علماء هذا العصر.

الأواني الحجرية المواكبة لمساكنهم المبنية من الحجر. هذه الأواني والمباني المبنية من الطين من مرحلة ما قبل السلالة الأولى تدل على أن المصريين القدماء استخدموا الطين في البناء قبل استخدام الحجارة. لأنه ووفقًا لمختصي الدراسات المصرية القديمة فإن النقلة من استخدم الطين إلى الحجارة حدثت في زمن زوسر الملك الثالث من الأسرة الثالثة وهو الذي بنى أول هرم حجري في نظر العلماء.[25] كما أن هذه الأواني الحجرية تمت صناعتها بتكنولوجيا راقية لم نعرفها في يومنا المعاصر، وفي عهد مبكر من الحضارة المصرية القديمة، سبقت بكثير عهد فرعون موسى[26].

أما المسلات فكانت تنحت في الصخر بشكل أفقي (شكل 11) ثم تنقل قطعة واحدة لتثبت عموديًا في موقعها الذي عادة ما يبعد مئات الأميال عن المحجر. وبقياس اليوم، إذا أردنا نقل مسلة من هذه المسلات العملاقة فالطريق الوحيدة هي أن نقوم بتقطيعها ثم إعادة تركيبها من جديد[27].

نحن أمام معجزة حقيقية لا يمكن تفسيرها بمقاييس الحجم البشري اليوم وإمكاناتنا الحالية. حيث يوجد ما معدله 7 مليون صخرة مختلفة الأحجام يصل وزنها إلى 70 طن استخدمت في بناء الأهرامات الثلاثة[28]. هذه الصخور قطعت ونحتت ونقلت من أماكن بعيدة ورتبت بشكل هندسي مضبوط استقر على مدى آلاف السنين. مثل هذا العمل نعجز عنه اليوم برغم التكنولوجيا المتوفرة لدينا. فلا نجد غير تفسير وحيد هو أن من صنع هذه الآثار لم يكونوا بأحجامنا اليوم، بل إنهم عمالقة يتراوح أحجامهم ما بين 6 و15 مترًا (الشكل 7). كما يلزم الإشارة إلى

شكل 11: مسلة غير مكتملة لم تحرك من مكانها.

ومنحنى نقصانه مع الزمن. حيث أشار إلى إن مسالة طول القدماء يلزمنا طرح السؤال التالي: هل يلزم طول عمر آدم وذريته أن تكون صفاتهم البدنية على غير ما نعهده الآن؟ أم أن طول العمر وهيئة الجسم مسألتان منفصلتان ولا علاقة بينهما؟ يمكن القول بناء على الشواهد، إن الإنسان الأول الذي يتجاوز عمره المئات من السنين وقد يصل إلى أكثر من ألف سنة، مثل نوح عليه السلام الذي ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[29]، لا يكون بدنه مماثلاً للبدن الحالي. لذلك نتوصل إلى ضرورة أن يواكب عمر الإنسان بدنًا يتحمل حياة خاصة، فالعلاقة مطردة بين طول العمر وطول البدن[30].

أدوات البناء للأحجار الضخمة

لم نعلم لحد الآن منذ آلاف السنين الكثير عن المصريين القدماء الذين بنوا حضارتهم العظيمة، فما هي الوسائل التي بنوا فيها، ومن قام بذلك، وكيف عملوا ذلك. فمن خلال الصناديق الموضوع في داخل الأهرامات الثلاثة يفترض البناء قد تم في عهد السلالة الرابعة، قبل 4500 سنة. ولهذا مطالبون بالسؤال كيف أن المصريين القدماء لم يغيروا أدوات التقطيع مثلاً على امتداد ألف سنة تقريبًا. لذا وجدنا أن هؤلاء القوم لم يكونوا من الغباء مطلقًا، بل كانوا عباقرة حقيقيين في كل إنجازاتهم. وفي الوقت نفسه نتعجب للقدرة الهائلة والمبدعة حيث لم يُسألوا كيف أدوا عملهم ببراعة، وبدون آلام وأضرار، وبأقل الجهود المطلوبة، وبدون الحاجة لأوقات إضافية لإتمام العمل اللازم. فإن كان هناك لغز محير عمله المصريون القدماء، فلما النموذج الأثري القائم منذ آلاف السنين ما يزال شاخصًا وواقفًا أمام دهشة المختصين بالدراسات الآثارية والمصرية القديمة.

علمنا من خلال الدراسات السابقة[31] أن المواد التي أستعملها المصريون القدماء هي موجودة ومتوفرة في الطبيعة دون الحاجة لتطويرها أو تحويرها، وموجودة حاليًا في المتحف المصري بالقاهرة ومتحف الأقصر في أسوان منها: عجلات خشبية، ومثاقب خشبية، وزلاجات خشبية، ومطارق خشبية. إضافة إلى مناحت نحاسية، ومناشير نحاسية، ومثاقب نحاسية، وفؤوس ومطارق نحاسية، وزلاجات ومحاور نحاسية. لكن السؤال المطروح، كيف يمكن للمعادن الخفيفة كالنحاس قطع أحجار قاسية كالغرانيت؟ كان التصور القديم أن الفتحات المصنوعة في حجر الغرانيت يُدخل فيه الخشب حتى يغمر في الماء فيمتصها الخشب فيتشقق الحجر تدريجيًا. لكن المختصون بالدراسات المصرية القديمة لهم رأيهم الخاص، حيث أدوات النحت متوفرة وفتئذ والتي لعبت دورًا هامًا في تهيئة القطع الأثرية في محاجر أسوان. لكن الشيء المؤسف، هل هذه الأدوات وحدها التي أنجزت العمل كما نراه اليوم. فالمناحت النحاسية ليست كافية لقطع أحجار الغرانيت الصلبة. فمثلاً المدقات والمطارق قد تؤدي إلى تهشيم الأحجار تدريجيًا فتتلفها مما لا يستفاد منها لاحقًا. ولغرض التوضيح الأفضل لا بد من متخصصين بالأعمال التطبيقية لشرح كيفية بناء هذه الآثار الفخمة القديمة. المؤكد أن جهودًا مضنيةً قد أدت فعلها لتوضيح عمل الأدوات البسيطة المؤدية لهذه الأعمال القديمة[32]. لشرح السبل اللازمة لعمل القطع الأثرية والمنحوتات من قبل المصريين القدماء ولنقتنع أن هذه الطرق والوسائل هي حقيقية وصائبة، لا بد من أتباع الطرق التالية:

1 – يجب أن يملك الخبراء التجريبيون الحاليون الدراية الكاملة للتشخيص السليم للقطع الأثرية.

2 – وصف حقيقي نظري للطرق المستعملة من قبل المصريين القدماء.

3 – تفضيل العمل ووصفه أنه الأصعب.

4 – مقارنة النتائج التجريبية بالقطع الأثرية الأصلية من كل جوانب التشخيص الدقيق.

ففي كل الحالات تمكن الخبراء التجريبيون من انجاز النقطتين 2و3. لكن بالرغم من محاولات الاقتناع والشروحات، كان الوصول إلى النقطتين 1و4 يغلفهما النقص بالشيء. ما تعلمناه فعليًا هو أن المصريين القدماء استعملوا أدوات بسيطة بالمعادن المتوفرة يومئذ مثل النحاس والذهب والفضة والمستعملة في بناء الأهرامات الثلاثة في حقبة السلالة الرابعة. وأن تجارب الجلخ هي المستعملة في تهيئة الأحجار للبناء. وأن المصريين القدماء لم يطوروا طرق استخلاص المواد الخام الضرورية لإنتاج الحديد والفولاذ مثلاً. حيث استخدموا الحديد المتوفر على الأرض فقط. ومع ذلك فوسائل البناء المحنكة المصنوعة من الحديد والفولاذ لم تستكشف بعد وتثبت في سجل الآثار. وما وجد لحد الآن لم يكن ملائمًا بما يكفي لشرح صنع القطع الأثرية والنصب العملاقة. بقي السؤال الأكثر إلحاحًا وهو كيف تمكن المصريون القدماء من قطع الأحجار الصلبة بكل كفاءة ومهارة لحل اللغز الذي بقي قائمًا آلاف السنين[33]. هنا يجب فهم من أين أتى هؤلاء الصناعيون المهرة، وما هي أوصافهم. حيث الجواب يتطابق مع ما طرحناه في نظرية بناء الأهرامات المنبثقة عن قراءة الفكر اللاهوتي، وهو حجم الأجسام البشرية الضخمة التي يتراوح طولها ما بين 6 إلى 15 مترًا يجعلها قادرة على القيام بكل عمل جسيم حسب وجهة نظرنا، وبسيطة حسب وجهة نظرهم من عمليات تقطيع الصخر الصلب ذو الوزن الكبير التي تزيد عن 100 طن، وبقياسات هندسية فائقة، وحمله مسافات بعيدة جدًا تصل إلى 900 كم، ورفعه عاليًا بمسافات تصل إلى 147م كما في قمة هرم خوفو (شكل 4).

الهوامش

1 – البريد الإلكتروني: yaldouri@yahoo.com.
2 – التكنولوجيا عند قدماء المصريين، د. محمد عبد المحسن سيد.
3 – الرمال المبللة.
4 – موسوعة الحضارة المصرية القديمة.
5 – سورة الشعراء، 129.
6 – التاريخ المصري القديم، ص 93.
7 – The Message of the sphinx. page 77.
8 – التاريخ المصري القديم، ص 95.
9 – سورة قريش، 4.
10 – التاريخ المصري القديم، ص 97.
11 –التاريخ المصري القديم، ص 101.
12 – سورة الفجر، 6-10.
13 – The land of Osiris. page 67.
14 – The revelation of the pyramids.
15 – سورة الروم، 9.
16 – سورة غافر، 21.
17 – A different story about ancient Egypt and our origins.
18 – سورة فصلت، 15.
19 – سورة الأعراف، 69.
20 – صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم 2841.
21 – The revelation of the pyramids.
22 – المصدر السابق.
23 – Adaptation from lost technologies.
24 – سورة الشعراء، 128-135.
25 – The Gods of Egypt.
26 – Serpent in the sky. page 85.
27 – التاريخ المصري القديم، ص 114.
28 – Counting number of stones in the pyramid.
29 – سورة العنكبوت، 14.
30 – عُمْر البشرية.
31 – Lost technologies. page 199.
32 – Experiments in archaeology. page 133.
33 – Lost technologies. page 204.

المصادر العربية

– القرآن الكريم
– التاريخ المصري القديم، حسن عمر فتاح، سلسلة إصدارات الهيئة المغربية للإعجاز العلمي، الطبعة الأولى، المغرب، 1435هـ – 2014م
– التكنولوجيا عند قدماء المصريين، د. محمد عبد المحسن سيد، جريدة الأهرام، العدد 44646، السنة 133. 2.مارس 2009
– الرمال المبللة: أبسط أسرار بناء الأهرامات، علاء البشبيشي، http://www.sasapost.com/simple-way-egyptians-moved-massive-pyramid-stones-without-modern-technology/.
– http://defense-arab.com/vb/threads/71765/page-8
– صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، حققه: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه – الطبعة الأولى، 1374هـ
– عُمْر البشرية، ومتحنى نقصان عُمْر الإنسان. http://kazaaber.blogspot.com/2012/11/blog-post.html/
– موسوعة الحضارة المصرية القديمة، http://dr-rahmh.ahlamontada.com/t159-topic

المصادر الأجنبية

- A different story about ancient Egypt and our origins. https://m.youtube.com/watch?v=ugWCRliG4Rg
- Adaptation from lost technologies of ancient Egypt. Advanced engineering in the temples of the Pharaohs. http://www.gizapower.com/LoTeAnArticle.htm
- Counting number of stones in the pyramid. http://www.egyptorigins.org/numberofstones.htm
- Experiments in archaeology. stoneworking technology in ancient Egypt. Denys A. Stocks. Routledge. UK. 2003
- Lost technologies of ancient Egypt. Christopher Dunn. Bear & Company. USA. 2010
- Serpent in the sky. The high wisdom of ancient Egypt. John Anthony West. Quest Books. USA. 1993
- The Gods of Egypt. https://m.youtube.com/watch?v=ffKaHwnmNXc
- The land of Osiris. An introduction to khemitology. Stephen S. Mahler. Adventures Unlimited Press. 2002
- The message of the sphinx. A quest for the hidden legacy of mankind. Graham Hancock and Robert Bauval. Crown Publishing Group. New York. 1996
- The revelation of the pyramids. http://vimeo.com/65293943

الأحوال الاجتماعية في فجر الدولة السعودية في كتب الرحالة المغاربة

الزبير مهداد

المغرب

يُعد الملك عبدالعزيز المؤسس الفعلي للمملكة العربية السعودية، وكان له تأثير كبير على بلده وعلى كل المنطقة. وقد أسهمت الرحلات الحجية في التعريف بهذا الملك وبالدولة السعودية الجديدة، ورصدت التحول الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي تم في ظل حكمه. وهذا المقال يحاول استقراء رحلات خمسة كتّاب مغاربة، زاروا المملكة في عهد الملك عبدالعزيز ودوّنوا ملاحظاتهم ومشاهداتهم، وهم:

1. إدريس بن محمد الجعيدي، قاض، رحل إلى الحجاز عام 1348هـ 1930م، نشر مذكرات رحلته في حلقات بجريدة السعادة.

2. محمد بن أحمد الهواري، رئيس تحرير جريدة (السعادة)، رحل إلى الحجاز سنة 1352هـ 1934م ألف (دليل الحج والسياحة).

3. أحمد الرهوني التطواني، عالم، قاض ووزير عدل خلال الاستعمار، رحل إلى الحجاز عام 1937، نشرت رحلته في تطوان.

4. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، فقيه، عالم إصلاحي ووزير، حج عام 1946، خلف تقريرًا مخطوطًا حول رحلته.

5. محمد بن عبدالسلام السايح، عالم قاض ترأس وفد الحجاج المغربي عام 1366، صنف (لمحة البصر على الديار المقدسة).

القاسم المشترك بين هؤلاء الرحالة، هو درجتهم العلمية العالية، وتوليهم مناصب المسؤولية العلمية والإدارية والقضائية في بلدهم، وتوثيقهم لرحلاتهم منها ما نشر في كتاب، أو في الصحف. حرصًا منهم على تقاسم المعرفة وتنوير الرأي العام بمشاهداتهم بالمملكة العربية السعودية في فجر نهضتها بقيادة الملك عبدالعزيز.

هؤلاء الرحالة رصدوا باهتمام بالغ وعين ذكية، كثيرًا من مظاهر الحياة الاجتماعية السعودية، ومؤشرات التغيير الاجتماعي التي طرأت على المجتمع السعودي في العصر الحديث، بعد تأسيس الدولة السعودية الحديثة وإرساء هياكلها، وانفتاحها على دول العالم، تبادله التأثير والتأثر أخذًا وعطاءً.

هذه المقالة تستعرض ما دونه الرحالة من ملاحظات أو وثقوه من معلومات، تخص التطور العمراني في الحرمين، والأنشطة السكانية، والأحوال الاقتصادية، والظواهر الاجتماعية.

التطور العمراني

التطور المعماري الذي كانت تبدو عليه مكة المكرمة كان لافتًا لنظر الرحالة، مثيرًا لإعجابهم، خاصة الرحلات التي تمت خلال النصف الأول من القرن العشرين، كانت مكة المكرمة، واعتبارًا لمكانتها الدينية العريقة، واحتضانها الحجاج والمعتمرين الوافدين من كل الربوع الإسلامية، تشهد كثافة عمرانية بارزة.

يصف الهواري ما تضمه مكة المكرمة من بنايات حكومية: جوار الحرم فيه محلات مهمة وبناءات عديدة كدار البريد

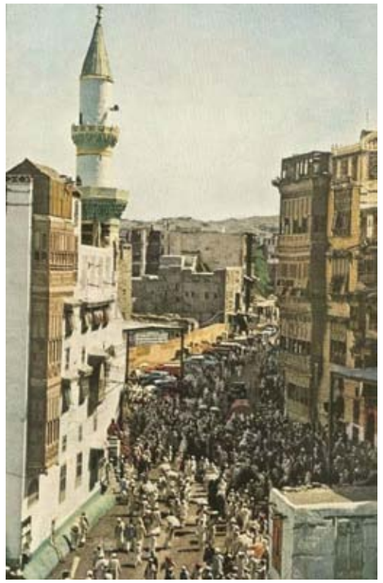

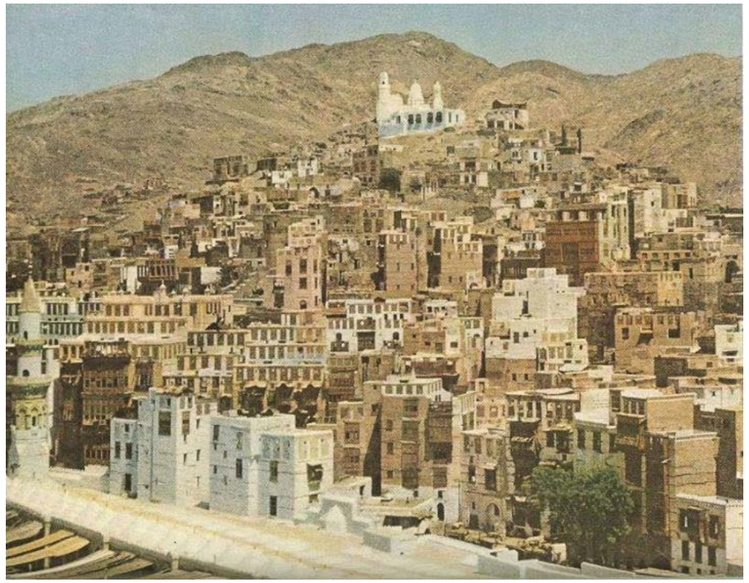

والتلغراف ودور الحكومة الحجازية التجارية ودار النيابة العامة والخارجية الحجازية، ورياسة المالية والمحاسبة الداخلية، وقلم المطبوعات، وإدارة الأمن العام، والمصارف[1]، أما الرهوني فقد أثرى مذكراته بذكر إحصاءات ثمينة للمؤسسات العمومية والمرافق التي تضمها مكة المكرمة أثناء زيارته لها: مستشفى عسكري، وآخر للغرباء، وسبعة عشر مصنعًا، ومدبغتان للجلود، ومسلختان، ومخزنان، وثلاثة قلاع تحكم في البلد، وبها عساكر، وبها حمامان، وعشرون سبيلاً للماء وعشرون صهريجًا، وسبعة عشر رباطًا يأوي إليها الفقراء، وثمان طاحنات، وستون فرنًا، وخمسة وتسعون قهوة، ومحجر صحي وصيدلية، ومتجران كبيران للجواهر، وسبعة عشر كوشة لصناعة الجير، ومصانع للفخار، ومخزن كبير للغاز، وثلاثة آلاف حانوت، وستة آلاف دار، ودورها من طبقة إلى خمس طبقات، وبها كثير من البساتين والبرك والخصص (نافورات)[2].

وجود هذه المؤسسات يؤشر لحجم المدينة ونشاطها ولطبيعة الخدمات التي توفرها لساكنيها والنازلين بها، وهم من جنسيات مختلفة، ما كان يحفز بعض زوارها على استيطانها تبركًا بقداستها، أو ممارسة لأنشطة تجارية أو خدماتية إسهامًا في خدمة الحجاج وبحثًا عن فرص ارتقاء اجتماعي، الأمر الذي بصم التركيبة السكانية للمدينة بوضوح.

التركيبة السكانية

الفقيه الرهوني كان شاهدًا على التنوع السكاني لمكة المكرمة، بل ولم يفته أن يذكر بالتحديد أصولهم (وسكانها فيهم المكي وأعراب من البادية، وفيهم يمنيون وحضارم ومجازيون ونجديون، ومنهم هنود وقوم من جاوة، وبخاريون وأفغانيون، وأعجام وشوام وأتراك ومصريون وسودانيون

> التطور المعماري الذي كانت تبدو عليه مكة المكرمة كان لافتًا لنظر الرحالة، مثيرًا لإعجابهم، خاصة الرحلات التي تمت خلال النصف الأول من القرن العشرين، كانت مكة المكرمة، واعتبارًا لمكانتها الدينية العريقة، واحتضانها الحجاج والمعتمرين الوافدين من كل الربوع الإسلامية، تشهد كثافة عمرانية بارزة.

ومغاربة، وغيرهم من الأمم الإسلامية)[3]. ويشير بذكاء إلى أهمية هذا التنوع الذي أسهمت وحدة الملة في تكاملهم وفي اندماجهم كلهم في بوتقة مكة المكرمة (من هذه الأخلاط حصل امتزاج في الأخلاق، وفي الصور، وفي اللغات، وفي الأزياء، وهم يزيدون على 120 ألفًا، كلهم مسلمون، ولهم كسائر الناس عادات فيها المستحسن والمستهجن)[4]. ما يدل بوضوح لا يقبل الجدال على أن هؤلاء السكان كلهم يتمسكون بقيم التعايش والحوار والتسامح والتساكن في رحاب البلد الأمين، على الرغم من تمسك بعضهم بعاداتهم التي لا تحول دون التعايش والتساكن، كل ذلك بفضل وحدة العقيدة الإسلامية.

الأنشطة المهنية

يتوزع السكان على عدة مهن ووظائف، بعضهم موظفين بالإدارات العمومية، السعوديون على وجه الخصوص، إلى جانب بعض الأجانب كالسوريين والمصريين، يقول الهواري (جميع الإدارات يديرها مديرون حازمون من النجديين والحجازيين، ويعاونهم في أعمالهم جماعة من شباب نجد والحجاز وسوريا ومصر)[5].

والنشاط التجاري بمكة كان لافتًا لنظر الرحالة، فقد كان يستقطب الكثير من الساكنة التي كانت تشتط بالخصوص في مواسم الحج والعمرة، عند حلول ضيوف الله بالعاصمة المقدسة، فقد جرت العادة أن يعود الحجاج محملين بالهدايا والتذكارات الثمينة إلى بلدانهم. وكانت شوارع معلومة تزخر بالدكاكين والباعة كشارع الجودرية، وشارع المسعى، وحارة الشامية بالشارع نفسه، وشارع القشاشية، وكانت البضاعة متنوعة:

- تجارة المواد الغذائية والخضر والفواكه والحلوى المثلجة.
- والتحف والهدايا والأثاث المنزلي والألبسة.
- تجارة الملبوسات والأقمشة ومواد الزينة.
- تجارة الكتب.

تضمنت مذكرات الجعيدي حديثًا مفصلاً عن ذلك: (من شارع المسعى تبتدئ طريق مسقوفة، بها محلات تجارية كثيرة تباع فيها أصناف السلع والمأكولات والتحف والهدايا التي يأخذها الحاج معه إلى وطنه، ومنها إلى سوق الجودرية، وبه تباع الثياب وأدوات المنزل والأقمشة وجميع البضائع، وبباب السلام تباع الكتب التي ترد من الخارج، وتوجد هناك دكاكين كبيرة للتحف وبيع الكحل والمكاحل المزخرفة وغيرها من الأشياء التي تباع للحجاج[6]، في شارع

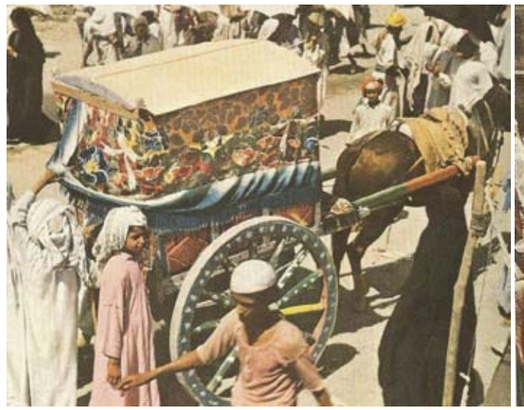

المسعى به حارة الشامية الوحيدة التي تباع فيها الأقمشة والمنسوجات الواردة من الهند ومصر وسوريا، وعدد وافر من التجار يستوردون البضائع من أوروبا مباشرة[7] ، وشارع القشاشية يستمر ممتدًا إلى المعابدة مارًا بالحلقة، وهي سوق تباع فيه الخضر والفواكه التي ترد من الطائف[8] .

وبمكة المعظمة شوارع أخرى فسيحة نظيفة، مملوءة بأصناف البضائع والمأكولات المتنوعة والأدوات المنزلية والفواكه المحفوظة والحلويات المثلجة الجاوية والهندية، ومحلات عديدة لشراء المبردات والحلويات المثلجة، وبالجملة، فمدينة مكة المكرمة من المدن المهمة العظيمة في العالم تجارة وعمارة)[9] .

ويسجل الحاج الرهوني أن البضاعة التي كانت تعرض في دكاكين وشوارع مكة كانت في معظمها مستوردة تأتي من الخارج[10] .

كما كان المكيون يشتغلون بكراء الدور، التي كانت تدر دخلاً محترمًا بسبب كثرة الطلب عليها في موسم الحج، (متوسط كراء البيوت بمكة بلغ 10 جنيهات إنجليزية، قال: وتوجد محلات يبلغ كراؤها مئة جنيه، وعقب على هذا قائلاً: وربما كان هذا الثمن يساوي قيمة النزل كله!)[11] . ويضيف الجعيدي (بمنى توجد بها أيضًا عدة بناءات ودور عديدة ينزل بها الحجاج يكترونها من أربابها الذين لا يشغلونها إلا في موسم الحج، وكراء أوسط البيوت يساوي 20 جنيهًا، وأهل منى يقولون: إن (من أراد الغنى فليشتر بيتًا بمنى) لأن كراءها أعظم من ثمن قيمتها![12]

النقل

كما تُعد خدمة النقل من الخدمات الثمينة المعتبرة في مكة المكرمة، لتلبية الحاجة المتزايدة إلى هذه الخدمة في مواسم الحج: الجعيدي (أما أجرة الركوب لعرفة ذهابًا وإيابًا فهي ثلاثة جنيهات للحمار، وأربعة لراكب العربات، وجنيهات لراكب الشقدف، وجنيه ونصف لراكب الجمل بدون شقدف)[13]. هذه المداخيل تستخلص منها الحكومة جزءًا هامًا، على حد تعبير الجعيدي.

وعلى الرغم من غلاء تكلفة التنقل، فقد كان الحجاج يجدون عناءً كبيرًا خلال تنقلهم بسبب نقص الوسائل أحيانًا في مواجهة كثرة الطلب، ما كان يفتح شهية بعض السواق ليفرضوا أتاوات زائدة على الثمن مقابل تقديم الخدمة، وفي ذلك يقول الجعيدي: وفي صباح يوم الجمعة 17 منه لم نجد سيارات لدى الشركة المكلفة بالحجاج، وحصل لنا ضجر عظيم وقلق من أرباب السيارات، واشتكينا على رجال الحكومة، فأمرتنا بزيادة نصف جنيه للواحد لتهيئ لنا السيارات، فأدينا تلك الزيادة ظلمًا وعدوانًا، فحضرت السيارات فوقع عليها ازدحام شديد واشتباك كبير من جميع الحجاج، وما ركبنا حتى حصلت لنا مشقة عظيمة، وقد بلغت درجة الحرارة في ذلك اليوم 46 درجة والعياذ بالله.

وسائل النقل

وسائل النقل التي كان يستعملها الحجاج، في تنقلهم داخل مكة:

- الجمال، وبعضها كان مجهزًا بالشقادف؛ وهي الواسعة الانتشار. ثم الحمير.
- العربات المجرورة بالحمير والبغال.
- السيارات وكانت في بداية انتشارها في السعودية.

تستعمل الدواب خلال الانتقال داخل مكة، بين جهاتها، يقول الجعيدي واصفًا تنقله خلال الحج بين عرفة ومنى: وكان ذلك يوم الثلاثاء 7 ذي الحجة، ومنذ ذلك الحين والناس تخرج أفواجًا أفواجًا إلى منى وعرفة، فالبعض على الجمال، والبعض على الشقادف، والبعض على الحمر، أو على العربات الخشبية التي تجرها التي تجرها الحمير والبغال، ومن الحجاج من خرج راجلاً. ولقد صارت زحمة عظيمة بمكة، وضاقت شوارعها بسبب ازدحام الجمال والشقادف[14] .

أما للمسافات الطويلة كالسفر إلى المدينة المنورة أو جدة، فتستعمل السيارات في الغالب. يقول الجعيدي: (كان خروجنا من مكة ظهر يوم الجمعة المذكور متضجرين من أفعال أرباب السيارات وتهاونهم، ومن عدم اهتمام الحكومة بأمر ركوب الحجاج وشد عضدهم، مع أنها تتسلم من كل حاج نحو 14 جنيهًا في ضريبة ركوبه ونزوله وإقامته وغير ذلك)[15] .

مشكل الزحام كان قائمًا من قديم، وأحتد بعد إدخال السيارات، ففي سنة 1930، وتفاديًا للزحام ولحوادث السير المحتملة، يذكر الجعيدي أن استعمال السيارة كان قاصرًا رجال الحكومة، في حين أن الحجاج ممنوعين من ذلك، (لم ترخص لأي أحد من الحجاج أن يتوجه على السيارة).

شوارع مكة المكرمة كانت تكتظ بالجمال، التي كانت تستعمل بكثافة في نقل الحجاج والبضائع، فالحاج السائح الذي حج عام 1946 دون في مذكراته ذلك، وسجل انزعاج السائق من كثرة الجمال التي تزاحم السيارات (يغتاظ ويصيح قائلاً: هذه بلد الجمل، لا بلد السيارة)[16].

العملة

مكة المكرمة كانت وما تزال تعد سوقًا مالية عالمية، تروج فيها عملات البلاد الإسلامية وغيرها من البلدان، يقول الرهوني: (ونقودها مجموعة من نقود العالم الإسلامي وغيره، واليوم، هناك الليرة الذهبية لكل دولة، وهناك الريال السعودي الفضة الذي يساوي في الليرة الذهبية عشرين ريالاً ونصف ريال، وهناك قروش 22 فضة، وهللات نحاس فيها 80 وأقل وأكثر، وهناك هلالة مشيئة 21 فيها هللتان، وفي مكة أيضًا الفرنك الفرنسي، سعره ذهبًا أو فضة، وهناك غير ذلك من السكك التي تروج)[17].

في حين أن الحاج السائح الذي زار مكة عام 1946، فقد ذكر بعض التفاصيل الدقيقة التي تقدم لنا صورة عن قيمة العملات (أما بورصة مكة فالليرة المصرية صرفها بالريال السعودي اثنا عشر ونصف وقرشان، فالريال السعودي عشرون قرشًا، والليرة الإنجليزية الذهبية تصرف بخمسة وستين ريالاً سعوديًّا، وبخمس ليرات مصرية ورقية، والألف من الفرنك يصرف بخمسة عشر ريالاً سعوديًّا إلى سبعة عشر أخيرًا، ولأهل مكة مهارة عجيبة في الصرف بكثرة السكك المختلفة النافقة ببلادهم)[18].

ينتقد الحجوي عدم إصدار المملكة العربية السعودية عملة ذهبية، على الرغم من توفر البلد على موارد اقتصادية وثروات هامة (البترول، مداخيل الحج، ومناجم الذهب) (ومع هذا فهو إلى الآن ليست له سكة مضروبة من الذهب، وإنما سكته فضية، ومع اتساع ماليته)[19].

والأدهى من ذلك أن الريال السعودي المتداول كان يمثل نصف قيمته الحقيقية (جمع من المملكة جميع الريال الذي يتعارفون به، وضرب بدله نصف الريال، وسماه: ريال. فهم الآن لا يتصارفون إلا بنصف الريال، وهم مجبرون على تسميته ريالاً، ولذلك انتشر غلاء مفرط في المملكة كلها)[20]. (وهذه الأحوال إذا تأملها ذو الفكر المنور، يعلم أن في الخفاء يتولد منها جراثيم وميكروبات الفتن والطيش والفساد والبطش)[21] .

الفوارق الاجتماعية

هذه الكثافة السكانية المكية، والرواج التجاري، والرخاء الذي كانت تبدو عليه لزوارها، فإنها، آنذاك، كانت تخفي خلفها فوارق اجتماعية، فقد لاحظ الحجوي على المستوى الاجتماعي وجود فوارق اجتماعية صارخة واستفحال الفقر في البلاد وانتشار الغلاء (فهي من أغلى البلاد، وهي من أغنى البلاد أيضًا ومن أفقرها أيضًا)[22] . يضيف الحجوي قائلاً: (حكى لي رجل من موظفي التدريس في المدينة المنورة عرفته فوجدته يسوق سيارة، كيف بك تسوق وأنت مدرس؟ فقال: يماطلوننا أشهرًا، فاضطررنا لهذه الخدمة)[23] .

وهذا التناقض الاقتصادي الاجتماعي الصارخ، يدفع الحجوي إلى التساؤل، عما قد يخفيه وراءه من مظاهر الفساد، التي يدعو الله أن يقي المسلمين عامة والحرمين خاصة شرها، لأن وجود الثروة مع الفقر مؤشر لغياب العدالة الاجتماعية ولسوء التدبير.

ويضيف الحجوي أن البلاد تتوفر على إمكانات اقتصادية هامة وموارد مالية متنوعة (البترول، الذهب، الرسوم الجمركية) ما يؤهلها لأن تكون أحسن حالاً مما هي عليه، إلا أن واقع الحال يكشف عن خلل في الإدارة المالية للدولة من خلال مظاهر الفقر والغلاء وضعف البنيات التحتية (الشبكة الطرقية) واضطراب صرف أجور الموظفين، وهذا الخلل يرى الحجوي أنه ناشئ عن قلة الأطر الكفاءة القادرة على تسيير وتدبير الشؤون المالية بإحكام ومهارة.

وقد غاب عن الحجوي على ما تميز به من فطنة وذكاء متقد، أن الحرب العالمية الثانية كانت قد انتهت على التو وكانت تأثيراتها السلبية على اقتصاد العالم وخيمة وخطيرة، وأن الدولة السعودية كانت حينئذ حديثة عهد بالتأسيس، ولم يكن قد مضى على بسط نفوذها على مكة المكرمة سوى عشر سنين، وهي مدة قصيرة في عمر الأمم، لا تسمح بإقرار كل النظم وتنفيذ كل الخطط والبرامج وحل المشاكل المتراكمة الموروثة.

ظواهر اجتماعية

لم يفت الرحالة أن يسجلوا بعض الظواهر الاجتماعية اللافتة لنظرهم، نذكر منها:

1. عملية هدم القباب التي كانت مقامة على بعض القبور: يقول الجعيدي: (مقبرة المعلاة، وهي المقبرة الوحيدة لدفن الموتى، وبها قبور عدة للصحابة والعلماء رضوان الله عليهم، وقد حطمت الحكومة جميع قبابها وأبنيتها المشيدة، ولم تبق فيها أدنى قبة)[24] هذه العملية التي كانت أثير حولها كثير من النقاش.

2. وفرة العمل الخيري الإحساني: يقول الهواري: (زرنا التكية المصرية لمحمد علي، حيث تفرق الصدقات يوميًّا على 340 من الفقراء، وبها أطباء وصيادلة لصرف الأدوية ومعالجة الفقراء مجانًا، وفي حديقة جميلة وبناءات فاخرة ومخازن كثيرة لخزن المؤن، ومطابخ واسعة لطبخ الطعام للفقراء، ومجزرة خاصة بذبح الحيوانات اللازمة للتموين، والنفقات التي تصرف على هذه التكية ومن مالية أوقاف مصر لها بال)[25] .

3. إهمال الحجاج لنظافة البيئة: تكلم الرهوني عن منى (إنها لا تسكن إلا في أيام الحج) ووصف الجمرات، ومسجد الخيف، وبعض المشاهد المعروفة، ملاحظًا أن الذبائح كانت ملقاة في الفضاء بين الخيام على حالة يجب الالتفات إليها وتدارك ضررها[26].

4. انتشار تدخين التبغ: يقول السايح (كان في صدر ما أثار انتباهه إقبال معظم أهل الحجاز على التدخين، وقد كان التدخين في المغرب إلى عهد قريب مخل بالمروءة)[27] .

الخاتمة

وعلى الرغم من قصر المدة التي يقضيها الحجاج في البلد، فقد كان الحجاج المغاربة شهداء على النهضة التي شهدتها المملكة العربية السعودية بفضل القيادة الحكيمة للملك عبدالعزيز آل سعود. وأبرزت مذكراتهم جوانب هامة في الحياة السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للملكة وهي في السنوات الأولى من قيامها.

والرحالة كانوا في معظم كتاباتهم شهودًا على العصر، أبدوا ملاحظات كثيرة دقيقة وثمينة حول القضايا التي عاينوها في البلدان التي زاروها، فرصدوا مظاهر التعمير والتمدن والمسالك والبنيات الأساسية، وما تتم عنه من أنظمة قائمة أو فوضى شاملة. ومؤشرات التحول الاجتماعي التي شهدها المجتمع السعودي في مطلع القرن العشرين.

المراجع:

1 – الهواري، محمد بن أحمد: دليل الحج والسياحة، الرباط، المطبعة الرسمية، 1935، ص 130

2 – الرهوني، أحمد: الرحلة المكية، تطوان، معهد الجنرال فرانكو، مطبعة الأحرار، 1941م، ص 106

3 – الرهوني، ص 107

4 – الرهوني، ص 107

5 – الهواري، مرجع سابق، ص 129

6 – التازي، عبدالهادي: رحلة الرحلات، مكة في مئة رحلة مغربية ورحلة، مكة، مؤسسة الفرقان، 2005، ص 608

7 – التازي، ص 609

8 – التازي، ص 609

9 – التازي، ص 610

10 – الرهوني، ص 107

11 – التازي، ص 607

12 – التازي، ص 613

13 – التازي، ص 614

14 – التازي، ص 612

15 – التازي، ص 615

16 – السائح، محمد بن عبدالسلام: لمحة البصر على البلاد المقدسة، تحقيق محمد قرقزان، الرباط، الإيسيسكو 1995، ص 144

17 – الرهوني، ص 107

18 – السايح، ص 165

19 – الحجوي، محمد بن الحسن: رحلة حجازية، تحقيق عبدالكريم خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي (الدار البيضاء) دار ابن حزم (بيروت) 2010 ص 75

20 – الحجوي، ص 75

21 – الحجوي، ص 75

22 – الحجوي، ص 75

23 – الحجوي، ص 46

اللغة العربية... واللاتينية الكلاسيكية

هشام إسماعيل عدرة

كاتب وصحافي سوري

ينادي بين الفينة والأخرى بعض الكتاب والباحثين والمفكرين العرب بإصلاح اللغة العربية الفصحى وإصلاح حرفها بل واستبدالها باللهجات العامية مقارنين ذلك باللاتينية الكلاسيكية حيث يرى هؤلاء أن العربية الفصحى كاللاتينية الكلاسيكية التي ماتت تدريجيًّا وحلّت محلها وعلى أنقاضها لغات جديدة كالفرنسية والإنجليزية. ويقول هؤلاء مادامت اللاتينية قد ماتت واندثرت بعد أن شاخت وهرمت وعجزت فلماذا لا تُشاد أيضًا على (رفات العربية الفصحى) (لغات عربية جديدة) فيكون ثمّة لغة مصرية وأخرى لبنانية وثالثة خليجية ورابعة يمنية...!! فقد ركب الباحث المصري الراحل (سلامة موسى) موجة نقد اللغة العربية ووجوب التجديد فيها.. كما كانت محاولات الكاتب والشاعر اللبناني الذي توفي مؤخرًا (سعيد عقل) والذي طالب باستبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني (وضع الأبجدية اللبنانية التي تكتب بحروف لاتينية)، في حين اقترح سلامة موسى الأخذ برأي العالم السيكولوجي الإنجليزي (أوجدن) في ما سماه" الإنجليزية الأساسية" ويتلخص رأي هذا العالم بتحديد الأسماء والأفعال والنعوت في اللغة الإنجليزية بحيث جعلها (946) كلمة، إلا أن اقتراح العالم أوجدن لم يلق أي استجابة، خصوصًا وأن اللغة حين نسخرها فقط من أجل العلوم والمخترعات العلمية على حساب الروح نميت النفس ونستبدل أجواءنا اللطيفة والروحية الرقيقة بأجواء مادية بحتة. من جهته الشاعر والقاضي والسياسي المصري الراحل عبدالعزيز فهمي الذي انتخب عضوًا بمجمع اللغة العربية سنة 1940 تقدم للمجمع بمشروع لإصلاح الحرف العربي، كما أعلن عن جائزة كبرى تعادل نصف ثروته الضخمة لمن يستطيع أن يلائم ما بين الحرف اللاتيني واللغة العربية واستجاب لرغبته العديد من المفكرين العرب والمستشرقين ولكنهم فشلوا في ذلك.

من المعلوم أن اللاتينية هي لغة الكنيسة الأوروبية قديمًا، وقد استخدمتها إلى جانب اليونانية والرومانية القديمتين جماهير من الشعوب الأوروبية والإغريقية والرومانية وغيرها.. وهذه الشعوب كانت تتكلم ـ إلى جانب اللاتينية ـ لغات بدائية متجانسة حينًا في مناطق مجاورة متباينة حينًا آخر في مناطق أكثر بعدًا وأشد اقتناعًا على التقارب، إلا أن اللاتينية كانت اللغة الأم أو بتعبير آخر اللغة الرئيسية لغة الرقي العلمي فيما بعد التي استخدمها الشعراء والكتاب والعلماء والفلاسفة! ولأسباب سياسية ودينية ومعاشية واقتصادية ودفاعية .. نزحت جماعات كبيرة من الناطقين بها إلى جهات وأصقاع وأقطار مختلفة من أوروبا فالتقت هذه الجماعات مع أخرى قادمة من نواح متعددة يتكلم أفرادها لهجات متباينة وحينما استقر هؤلاء وتطورت حياتهم الاجتماعية والفكرية العامة تنبهوا إلى هذا الاختلاط بين اللهجات المحكية وإلى ضرورة توحيد هذه اللغات ودمجها بلغة واحدة سليمة تكوّن شعبًا أطلَّ على الحياة بكل مظاهرها وحاجاتها الأولى وكانت أمنية وطنية وحاجة اجتماعية ملحة لدى هؤلاء أن يتخاطبوا بلغة واحدة تحاكي نوازعهم وتترجم مشاعرهم وتكون لهم مصدر الإلهام الثقافي والعامل الاجتماعي العظيم في بناء نهضتهم ورقيّهم وكان ـ أمام حقيقة الاستقرار العلمي والفكري والاقتصادي.... أن قدّم المفكرون في هاتيك الجماعات لغة حديثة راقية مبنية على أسس لاتينية صحيحة متطورة.. منها الإنجليزية و الفرنسية وغيرهما.. ومرحلة كهذه ليست بالعمل العادي البسيط ذلك لأنها عملية جمع شتات شعب وتوحيد لسان أمة.

والأمر في العربية يختلف اختلافًا جذريًّا و كليًّا مع اللاتينية وأحوالها العامة... إن العربية المعاصرة ليست هي اللغة العربية التي كان يستخدمها أجدادنا القدامى، حيث أن المرحلة التطورية الحاضرة للغة العربية هي المرحلة الأخيرة لأعظم عملية تطوير لغوية.. ففي تاريخنا القديم كانت العربية لهجات قبائلية مختلفة إلى حد ما في النحو وقبائل متحاربة حينًا متهادنة متسالمة حينًا آخر ولكن الأصرة العربية الأصيلة سرعان ما قربت بين فئات الشعب وأخذت توحد لهجاته في لغة واحدة استخدمها في أسواقه الأدبية وحياته الشعرية، من خلال نوازع طبيعية واجتماعية تدعمها إذ أننا نلمس أنه ما كاد الإسلام العظيم ينبثق من شبه جزيرة العرب بلغة العرب حتى استجاب له ـ بفترة قصيرة تاريخيًّا ـ أبناء القبائل والبلدان العربية روحًا ولغة ونظامًا وتجديدًا في كل مظاهر الحياة من رقيّ علمي وتطور فكري وتهذيب عاطفي، وتأجج الشعور الروحي والاجتماعي بأن العربي أصبح صاحب رسالة إنسانية تمدينية جديدة على عاتقه يقع نشرها في الدنيا لتكون أمته إحدى الأمم التي أرست صروح الإنسانية والعدالات الاجتماعية خالدة في سجل الحياة الراسخ والوجود الإنساني الرفيع. وهنا نجد أن لغته قد توحدت ولهجاته تساوت واندمجت وأنه أصبح جديدًا في الحياة الجديدة .. إنه أصبح في حياة مستقرة تمامًا كحياة شعوب أوروبا التي أسلف معالجة وضعها وبيّنا وفرة لهجاتها ولغاتها.. وإذًا فالعربية أصابها كغيرها الكثير من الإصلاح والتطور والتحويل الطبيعي الذي هو تلبية جذرية لنداء التطور الفكري العميق، وإننا لنلمس وحدة اللغة العربية شاملة تامة في البلاد العربية يومَ رقيّ شعبنا إلى مستوى حضاري ومدني عالي في عصور الازدهار العربية في هذه الفترة الراقية تصل العربية إلى الذروة من القوة فتعطي المفكرين مفردات ذات قوة دينامية وإيحائية هي أرقى مظاهر الحضارة والعلوم وخاصة مع تحرر العربية الفصحى من الألفاظ الناشزة.

اللغة لهجتان وهي مفهوم اجتماعي طبعي

واللغة لهجتان، أو هي ذات صوت مزدوج (فصحى وعامية) واللغة بخصائصها هذه، مفهوم اجتماعي طبعي لكل مجتمع وأمة، ذلك لأن المقاييس الأدبية والمعايير العلمية شيء، والبداهة في الأحوال العادية شيء آخر. ومقارنة بسيطة بين لغتنا ولغات أخرى، نجد أن لغات راقية واسعة الانتشار غنية بالمفردات العلمية، إلى جانب ازدواجيتها، نجد أن لها خصائص أخرى هي هذا التباين في معنى الكلمة بين قطر وقطر، ومنطقة وأخرى أو بين مدينة وثانية...

فالإنجليزية أو الفرنسية مطبوعة بهذه الظاهرة حيث فيها مفردات يستخدمها الاسكتلندي فيما يجهلها أبناء لندن أو كورانيل. وسكان الجبال الفرنسية لا يفهمون إلا بصعوبة (زقزقات) أبناء باريس. والعكس صحيح وأقرب إلى الدقة. ومع هذه المفارقة يجمع بين أبناء الشعب الفرنسي أو الإنجليزي لغة واحدة هي لغة الكتابة والتعبير وحفظ التراث الفكري والتاريخي تستلهم منها الأجيال الطالعة قوتها وامتداد حياتها. ويستوحي منها ابنها بطولات أجداده ومدى ما قدموه للإنسانية من علوم وفنون وعدالة فيكونون له حافزًا ولأحفاده قدوة، ينزعون في هذه الميادين الراقية، دليلهم ذلك التراث الرائع المطبوع بروائع التعابير ورصانة الأساليب..

ولكننا رغم ذلك فإن نفرًا من المفكرين العرب ما يفتأ يستهجن هذه الازدواجية ويسند هذا (العيب اللغوي) إن صح التعبير. هكذا دونما دقة أو دراسة علمية أو إنصاف لأصل هذه اللغة!...

لنحاول أن نبحث في عوامل جذرية لازدواجية اللغة، استقصاء لواقعها وحقيقتها، ولننسى بادئ بدء، أن الازدواجية طبعية الوجود الاجتماعي في اللغة، وإن اللغة كائن حي له كل مقومات الحياة من صعود وهبوط ومرض وصحة وازدهار وقهقرى وجمود وانطلاق. ونعود إلى مرحلة التربية الأساسية الأولى حيث يولد الإنسان طفلاً وينمو على نهج تربوي ذي صفة خاصة أو عامة، فإن أسلوب هذه المرحلة من النمو في التكييف والتكوين والتهذيب، هي المسؤولة عن قيم الحياة وغناها وصيانتها أو تدهورها وانحطاطها، وليست اللغة إلا واحدة من القيم الرائعة.

> اللاتينية هي لغة الكنيسة الأوروبية قديمًا.. وقد استخدمتها إلى جانب اليونانية والرومانية القديمتين جماهير من الشعوب الأوروبية والإغريقية والرومانية.

> إن العربية المعاصرة ليست هي اللغة العربية التي كان يستخدمها أجدادنا القدامى، حيث أن المرحلة التطورية الحاضرة للغة العربية هي المرحلة الأخيرة لأعظم عملية تطوير لغوية؟!...

مراجع ومصادر:

1. كتاب البلاغة العصرية واللغة العربية . لمؤلفه الراحل سلامة موسى . مؤسسة المعارف للطباعة والنشر القاهرة 1964.

2. جريدة البيان الإماراتية عدد 29 نوفمبر 2014 مقال عن الراحل سعيد عقل.

3. كتب (تبسيط قواعد اللغة العربية) دار النوادر بيروت 2006 وكتاب في اللغة العربية وبعض مشكلاتها وكتاب (نحو عربية ميسرة) . دار الثقافة . للباحث اللبناني الدكتور أنيس فريحة.

أديب العربية وشيخها أبو فهر محمود محمد شاكر

صبري بن سلامة شاهين

الرياض

محمود بن محمد شاكر بن أحمد بن عبدالقادر من أسرة أبي علياء الحسينية في جرجا بصعيد مصر، ولد في الإسكندرية 1/10/ 1327 الموافق 2/1/ 1909م، وانتقل إلى القاهرة في العام نفسه مع والده، إذ عُيّن والده وكيلاً للجامع الأزهر، وأخوه العلامة أحمد شاكر واحد من كبار محدثي العصر.

ويعد محمود شاكر ظاهرة فريدة في الأدب والثقافة العربية، فهو كاتب له أسلوبه المميز، وشاعر مبدع، بلغ إبداعه الشعري الذروة في قصيدته "القوس العذراء"، ويعد أيضًا محققًا بارعًا لكتب التراث، قادرًا على فك رموزها، ومفكرًا متوهج العقل، ومثقفًا واسع الاطلاع، حوى في صدره أطراف الثقافة العربية، كأنها لديه كتاب واحد.

وظل سنوات طويلة في عزلة اختارها لنفسه، يقرأ ويدرس ويصدح في واحته الظليلة، لا يسمع شدوه إلا المقربون منه، تاركًا الدنيا ببريقها وأضوائها وراء ظهره، ولم يخرج من واحته إلا شاكي السلاح، مستجيبًا لدعوة الحق، حين يشعر بأن ثقافة أمته يتهددها الخطر، فيقصم بقلمه الباتر زيف الباطل، ويكشف عوار الجهلاء المستخفين وراء الألقاب الخادعة؛ ولذلك جاءت معظم مؤلفاته استجابة لتحديات شكلت خطرًا على الثقافة العربية.

وبرغم هذا العطاء المبكر يقول الأستاذ محمود عن نفسه: لم أجد لنفسي خلاصًا إلا أن أرفض متخوفًا حذرًا شيئًا فشيئًا أكثر المناهج الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية، التي كانت يومئذ تطغى كالسيل الجارف، يهدم السدود، ويقوض كل قائم في نفسي، وفي طريقي، ويومئذ طويت في نفسي على عزيمة ماضية أن أبدأ وحيدًا متفردًا رحلة طويلة جدًّا، وبعيدة جدًّا، وشاقة ومثيرة جدًّا.

بدأت بإعادة قراءة الشعر العربي كله، أو ما وقع تحت يدي منه على الأصح، وقرأت ما يقع تحت يدي من كتب أسلافنا من تفسير لكتاب الله، إلى علوم القرآن الكريم مع اختلافها إلى دواوين من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وشروحها، إلى ما تفرع عليه من كتب علماء الحديث وكتب الجرح والتعديل، إلى كتب أصول الفقه وأصول الدين، وما شئت بعد ذلك من أبواب العلم.

لقد انصرف محمود شاكر إلى التعليم المدني، فالتحق بالمدارس الابتدائية والثانوية، وكان شغوفًا بتعلم الإنجليزية والرياضيات، ثم تعلق بدراسة الأدب وقراءة عيونه، وحفظ وهو فتى صغير ديوان المتنبي كاملاً، وحضر دروس الأدب التي كان يلقيها الشيخ المرصفي في جامع السلطان برقوق، وقرأ عليه في بيته: "الكامل" للمبرد، و"الحماسة" لأبي تمام.

وفي الجامعة استمع محمود لمحاضرات طه حسين عن الشعر الجاهلي، وهي التي عرفت بكتاب "في الشعر الجاهلي"، وكيف صُدِمَ حين ادعى طه حسين أن الشعر الجاهلي منتحل، وأنه كذب ملفق، لم يقله أمثال امرئ القيس وزهير، وإنما ابتدعه الرواة في العصر الإسلامي، وضاعف من شدة الصدمة أن ما سمعه من طه حسين سبق له أن قرأه بحذافيره في مجلة استشراقية بقلم المستشرق الإنجليزي مرجليوث.

وتتابعت المحاضرات حول هذا الموضوع، ومحمود عاجز عن مواجهة طه حسين بما في صدره، وتمنعه الهيبة والأدب أن يقف مناقشًا أستاذه، وظل على ذلك زمنًا، لا يستطيع أن يتكلم، حتى إذا نفد صبره وتحمله، وقف يرد على طه حسين في صراحة وبغير مداراة، لكنه لم يستطع أن يواجهه بأن ما يقوله إنما هو سرقة لأفكار مرجليوث بلا حياء أو اكتراث.

معركته مع طه حسين

لقد كان هذا الشاب مباركًا، حيث ملأ صوته الدنيا، وهو لا يزال في ريعان الشباب لم يبلغ العشرين، حيث كان في سن الاستعداد العلمي، ولكن عقله كان كبيرًا وناضجًا بالمعارف والعلوم، جعله ينازل أستاذه الدكتور طه حسين، ويصارعه، ومهما تكن نية طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي، فإن موضوع الكتاب كان خطيرًا للغاية.

فقد كان طه حسين يدعي أن الشعر الجاهلي لا أساس له، وهو منتحل في عصر الإسلام. وهو بهذا الادعاء ينفي عن الأمة العربية كتاب حياتها، فالشعر ديوان العرب. ومن ثم فهو ينفي النموذج الذي تحداه القرآن الكريم، وبهذا يسقط عن القرآن إعجازه، بالإضافة إلى ما في الكتاب الذي يموج بمفتريات متعددة على قصص الأنبياء، وتاريخ الأمم السابقة على الإسلام.

ولقد لقي الكتاب تأييدًا واسعًا باسم الحرية التي يجب أن تتوافر للأدباء والكتاب، ولكنه وجد معارضة أوسع. ولقد وقف الأزهر الشريف وقفة قوية بأعلامها وعلمائها الكبار، الذين لهم في العلم قدم ثابتة وأصالة راسخة.

ولكن وقوف شاب في السنة الثانية من كلية الآداب ضد أستاذه في قضية كهذه، فإن هذا يثير الإعجاب جدًّا، فلقد فند مزاعم أستاذه الذي حاد عن الطريق تفنيدًا قويًّا واضحًا، ورد عليه ما قاله، وكان الدكتور طه حسين وقتها ملء السمع والبصر. بعد أن عاد من باريس وحاز أرقى الشهادات، إلا أنه جاء ليردد ما سمعه، وتلقاه في الخارج عن تراثنا العربي والإسلامي، ودخل إليه بحيلة ماكرة، جازت على الكثيرين، وضاعت حقائق كثيرة في رخامة صوته، وحسن إلقاء ما يقوله في أسماع الناس. وأهل الحقيقة الذين لا تتطلي عليهم هذه الحيل قليلون، وقد كان منهم هذا الشاب الفتى "محمود شاكر"، ولما أن وجد أن وجوده في الجامعة لن يؤدي إلى الغرض الذي يهدف إليه.

فأصبح البقاء فيها عبثًا وأي عبث، ومن ثم هجر الجامعة.

وقد وصف محمود شاكر هذه المحنة في المقدمة الجديدة لكتابه "المتنبي"، حيث قال: (كان ما كان، ودخلنا الجامعة، بدأ الدكتور "طه" يلقي محاضراته التي عرفت بكتاب "في الشعر الجاهلي" ومحاضرة بعد محاضرة، ومع كل واحدة يرتد إليَّ رجع من هذا الكلام الأعجمي الذي غاص في يمّ النسيان! وثارت نفسي، وعندي الذي عندي من المعرفة بخبيئة هذا الذي يقوله الدكتور "طه"، عندي الذي عندي من هذا الإحساس المتوهج بمذاق الشعر الجاهلي، كما وصفته آنفًا، والذي استخرجته بالتذوق، والمقارنة بينه وبين الشعر الأموي والعباسي. وأخذني ما أخذني من الغيظ، وما هو أكبر وأشنع من الغيظ، ولكني بقيت زمنًا لا أستطيع أن أتكلم.

تتابعت المحاضرات، والغيظ يفور بي، والأدب الذي أدبنا به آباؤنا وأساتذتنا يمسكني، فكان أحدنا يهاب أن يكلم الأستاذ، والهيبة معجزة، وضاقت عليَّ المذاهب، ولكن لم تخل أيامي يومئذ في الجامعة من إثارة بعض ما أجد في نفسي، في خفوت وتردد.

فالدكتور "طه" أستاذي، وله عليَّ حق الهيبة، هذا أدبنا. وللدكتور "طه" عليَّ يدٌ لا أنساها، كان مدير الجامعة يومئذ "أحمد لطفي السيد" يرى أن لاحق لحامل "بكالوريا" القسم العلمي في الالتحاق بالكليات الأدبية، ملتزمًا في ذلك بظاهر الألفاظ! فاستطاع الدكتور "طه" أن يحطم هذا العائق بشهادته لي، وبإصراره أيضًا. فدخلت يومئذ بفضله كلية الآداب، قسم اللغة العربية، وحفظ الجميل أدب لا ينبغي التهاون فيه. وأيضًا فقد كنت في السابعة عشرة من عمري، والدكتور طه في السابعة والثلاثين، فهو بمنزلة أخي الكبير، وتوقير السن أدب ارتضعناهُ مع لبان الطفولة.

وظللت أتجرع الغيظ بحثًا، وأنا أصغي إلى الدكتور "طه" في محاضراته، ولكني لا أستطيع أن أتكلم، أو أناظره كِفاحًا، وجهًا لوجه، وكل ما أقوله، فإنما أقوله في غيبته. تتابعت المحاضرات، وكل يوم يزداد وضوح هذا السطو العريان على مقالة "مرجليوث"، ويزداد في نفسي وضح الفرق بين طريقتي في الإحساس بالشعر الجاهلي، وبين هذه الطريقة التي يسلكها الدكتور "طه" في تزييف هذا الشعر. وكان هذا "السطو" خاصة مما يهز قواعد الآداب التي نشأت عليها هزًّا عنيفًا، بدأت الهيبة مع الأيام تسقط شيئًا فشيئًا، وكدت ألقي حفظ الجميل ورائي غير مُبال، ولم يبق لتوقير السن عندي معنىً.

وجاءت اللحظة الفاصلة في حياتي. فبعد المحاضرة، طلبت من الدكتور "طه" أن يأذن لي في الحديث، فأذن لي مبتهجًا، أو هكذا ظننت. وبدأت حديثي عن هذا الأسلوب الذي سماه "منهجًا" وعن تطبيقه لهذا "المنهج" في محاضراته، وعن هذا "الشك" الذي اصطنعه، ما هو، وكيف هو؟ وبدأت أدلل على أن الذي يقوله عن "المنهج" وعن "الشك" غامض، وأنه مخالف لما يقوله "ديكارت"، وأن تطبيق منهجه هذا قائم على التسليم يداخله الشك، بروايات في الكتب هي في ذاتها محفوفة بالشك! وفوجئ طلبة قسم اللغة العربية، ولما كدت أفرغ من كلامي، انتهرني الدكتور "طه" وأسكتني، وقام وقمنا لنخرج. وانصرف عني كل زملائي الذين استنكروا غضابًا ما واجهت به الدكتور "طه"، وبعد قليل أرسل الدكتور "طه" يناديني فدخلت عليه وجعل يعاتبني، يقسو حينًا ويرفق أحيانًا، وأنا صامت لا أستطيع أن أرد. لم أستطع أن أكاشفه بأن محاضراته التي نسمعها كلّها مسلوخة من مقاله "مرجليوث"، لأنها مكاشفة جارحة من صغير إلى كبير، ولكني على يقين من أنه يعلم أني أعلم، من خلال ما أسمع حديثه، ومن صوته، ومن كلماته، ومن حركاته أيضًا! وكتمان هذه الحقيقة في نفسي كان يزيدني عجزًا عن الرد، وعن الاعتذار إليه أيضًا، وهو ما كان يرمي إليه. ولم أزل صامتًا مُطرقًا حتى وجدت في نفسي كأني أبكي من ذلٍّ العجز، فقمت فجأة وخرجت غير مودع ولا مبال بشيء. وقضي الأمر! ويبس الثرى بيني وبين الدكتور "طه" إلى غير رجعة!

ومن يومئذ لم أكف عن مناقشة الدكتور في المحاضرات أحيانًا بغير هيبة، ولم يكف هو عن استدعائي بعد المحاضرات، فيأخذني يمينًا وشمالاً في المحاورة، وأنا ملتزم في كل ذلك بالإعراض عن ذكر سطوه على مقالة "مرجليوث"، صارفًا همي كله إلى موضوع "المنهج" و"الشك" وإلى ضرورة قراءة الشعر الجاهلي والأموي والعباسي قراءة متذوقة مستوعبة. ولكني من يومئذ أيضًا لم أكف عن إذاعة هذه الحقيقة التي أكتمها في حديثي مع الدكتور "طه"، وهي أنه سطا سطْوًا كريهًا على مقالة "مرجليوث"، فكان بلا شك يبلغه ما أذيعه بين زملائي. وكثر كلامي عن الدكتور "طه" نفسه، وعن القدر الذي يعرفه من الشعر الجاهلي، وعن أسلوبه الدال على ما أقول. واشتد الأمر، حتى تدخل في ذلك، وفي مناقشتي، بعض الأساتذة كالأستاذ "نلّينو" والأستاذ جويدي من المستشرقين، وكنت أصارحهما بالسطو، وكانا يعرفان، ولكنهما يداوران. وطال الصراع غير المتكافئ بيني وبين الدكتور "طه" زمانًا، إلى أن جاء اليوم الذي عزمتُ فيه على أن أفارق مصر كلها، لا الجامعة وحدها غير مبال بإتمام دراستي الجامعية، طالبًا للعزلة، حتى أستبين لنفسي وجه الحق في "قضية الشعر الجاهلي" بعد أن صارت عندي قضية متشعبة كل التشعب.

وترك محمود الجامعة بعد أن سقطت هيبتها من نفسه، وعجز أن يحتمل هذا الفساد الذي رآه في أساتذته. وتولد عن شعوره بالعجز عن مواجهة التحدي خيبة أمل كبيرة، فترك الجامعة غير آسف عليها وهو في السنة الثانية، ولم تفلح المحاولات التي بذلها أساتذته وأهله في إقناعه بالرجوع، وسافر إلى الحجاز سنة 1928 مهاجرًا، وأنشأ هناك مدرسة ابتدائية عمل مديرًا لها، حتى استدعاه والده الشيخ، فعاد إلى القاهرة.

وبعد عودته سنة 1929 انصرف إلى قراءة الأدب ومطالعة دواوين شعراء العربية على اختلاف عصورهم، حتى صارت له ملكة في تذوق الشعر، والتفرقة بين نظمه وأساليبه، وبدأ ينشر بعض قصائده الرومانسية في مجلتي "الفتح" و"الزهراء" لمحب الدين الخطيب، واتصل بأعلام عصره من أمثال أحمد تيمور وأحمد زكي باشا والخضر حسين والرافعي، الذي ارتبط بصداقة خاصة معه. ولم يكن محمود معروفًا بين الناس قبل تأليفه كتابه "المتنبي" الذي أثار ضجة كبيرة بمنهجه المبتكر وأسلوبه الجديد في البحث، وهو يعد علامة فارقة في الدرس الأدبي.

والعجيب أن محمود شاكر الذي ألف هذا الكتاب لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، ولم يكن يقصد تأليف كتاب عن المتنبي، إنما كان مكلفًا من قبل فؤاد صروف رئيس تحرير مجلة المقتطف بأن يكتب دراسة عن المتنبي، ولكن هذا التكليف تحول على يد شاكر إلى كتاب مستقل، أنجزه في مدة قصيرة على نحو غير مسبوق، ونشرته مجلة المقتطف في عددها الصادر في يناير 1936م.

وقد اهتدى شاكر في كتابه إلى أشياء كثيرة لم يكتبها أحد من قبله، استنتجها من خلال تذوقه لشعر المتنبي، وتم استقبال الكتاب بترحاب شديد، وكتب عنه الرافعي مقالة رائعة، أثنى عليه وعلى مؤلفه.

وكان هذا الكتاب فتحًا جديدًا في الدرس الأدبي، وتحديًا لأدباء العصر، فكتب بعده عبدالوهاب عزام كتابه "المتنبي في ألف عام"، وطه حسين "مع المتنبي"، واتهمهما شاكر بأنهما احتذيا منهجه، وسطوا على بعض آرائه، وهاجم شاكر ما كتبه طه حسين في سلسلة مقالات، بلغت 12 مقالاً في جريدة البلاغ، تحت عنوان "بيني وبين طه حسين".

وكانت حقبة الخمسينيات حقبة مشهودة في حياة شاكر، فقد ترسخت مكانته العلمية، وعرف الناس قدره، وبدأت أجيال من الدارسين للأدب من أماكن مختلفة يفدون إلى بيته، يأخذون عنه، ويفيدون من علمه ومكتبته الحافلة، فضلاً عن كثير من أعلام الفكر الذين كانوا يحرصون على حضور ندوته الأسبوعية كل يوم جمعة، مثل فتحي رضوان، ويحيى حقي، ومحمود حسن إسماعيل، ومالك بن نبي، وأحمد حسن الباقوري، وعلال الفاسي، وعبدالرحمن بدوي، وعبدالله الطيب.

وقد انتفع بهذه الدروس كثيرون، وكان الأديب الكبير يحيى حقي يعلن في كل مناسبة: أن شاكر هو أستاذه الذي علمه العربية، وأوقفه على بلاغتها، وأن ترجمات كتب مالك بن نبي خرجت من بيت شاكر، فقد قام أحد أفراد ندوته وترجمها إلى العربية، وهو الدكتور عبدالصبور شاهين، وكان آنذاك شابًا صغيرًا في بداية مشواره العلمي.

وقد عرض الأديب الكبير رحمه الله بجلاء خطة أعداء القرآن في مقدمته الفذة لكتاب مالك بن نبي رحمه الله "الظاهرة القرآنية". لكن ما الرابط بين الشعر الجاهلي والتنزيل؟ وأي ضرر في إنكار الشعر الجاهلي؟ وما مصلحة القرآن في امرىء القيس؟

"الشعر الجاهلي هو أساس مشكلة إعجاز القرآن" هذا مفتاح اللغز.

لقد انتبه المستشرقون إلى ما لم ينتبه إليه الباقلاني، أدركوا منزلة الشعر الجاهلي في شأن إعجاز القرآن، فحشدوا كل باطلهم لإتلاف الشعر الجاهلي، والنية هي الإجهاز على شاهد الإثبات، المقر بإعجاز القرآن، فما كانت معركة الشعر الجاهلي في واقع الأمر إلا معركة القرآن، ولعل الحقد على القرآن كان من القوة بحيث أعمى أبصارهم، واستعانوا بالسفسطة والغش والتزوير بدرجة مكشوفة، فضحها مستشرقون آخرون، غير أن أبناء جلدتنا غباء أو تواطؤا اعتبروا السفسطة منهجًا علميًّا، فادخلوها إلى الجامعات، وروجوا لها، فكانت النكسة الفكرية التي ما زلنا نعاني منها إلى الآن.

رجال النهضة عند محمود شاكر

ويرى الأستاذ محمود شاكر أن الأمة بإمكانها أن تنهض، وأن تدخل طورًا تجديديًّا في تاريخها المعاصر، على يد خمسة رجال هم:

1 - عبد القادر البغدادي صاحب "خزانة الأدب" في مصر، وهو الذي يعده الشيخ شاكر الرائد في تبنّيه إعادة قدرة الأمة على تذوق اللغة والشعر والآداب وعلوم اللغة.

2 - الجبرتي الكبير حسن بن إبراهيم (والد صاحب التّاريخ) في مصر، ويعده الشيخ شاكر رائدًا في تنبيه الأمة إلى الصناعات الحضارية وعلوم الكيمياء والفلك.

3 - محمد بن عبدالوهاب في جزيرة العرب، ويعده الشيخ شاكر رائدًا في تحقيق النهضة الدينية، ورد البدع والعقائد الفاسدة.

4 - محمد عبدالرزاق المرتضى الزبيدي صاحب "تاج العروس" في الهند وفي مصر، فهو رائد بعث التراث اللغوي الديني.

5 - الشوكاني في اليمن، ويعده الشيخ شاكر إمامًا في إحياء عقيدة السلف ونبذ التقليد والدعوة إلى الوحدة وتجريم التعصب.

ثم بين محمود شاكر أسباب عدم حصول النهضة، ويربط بين الإخفاق الحاصل وبين جهود المستشرقين في إيجاد الصراعات تحت عناوين: (الأصالة والمعاصرة) و(القديم والجديد) و(الثقافة العالمية) وبالقضية الهزلية (قضية موقفنا من الغرب).

وفي ندواته الفكرية في بيته كان يعارض عبدالناصر علانية، ويسخر من رجالات الثورة، ويستنكر ما يحدث للأبرياء في السجون من تعذيب وإيذاء، وكان يفعل ذلك أمام زواره، ومن بينهم من يشغل منصب الوزارة، كالشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف آنذاك، ونتيجة لذلك لم يسلم شاكر من بطش السلطة، فألقت القبض عليه سنة 1959م، وبقي رهن السجن 9 أشهر حتى تدخلت شخصيات عربية، فأفرج عنه، وعاد لمواصلة نشاطه في تحقيق كتاب تفسير الطبري، الذي بدأ في نشره من قبل، وانتظمت ندوته مرة أخرى.

وظل شاكر في عزلته الاختيارية بين كتبه وتلاميذه ومحبيه، لا يشارك في الساحة الفكرية بمقالاته وآرائه حتى بدأ لويس عوض في نشر سلسلة مقالات له في جريدة الأهرام سنة 1964م، تحت عنوان "على هامش الغفران"، وكان الكاتب قد لمع نجمه بعد تعيينه مستشارًا ثقافيًّا لجريدة الأهرام، وأصبح مهيمنًا على أمور الثقافة في مصر، وصار له حواريون وسدنة يبشرون بآرائه.

وقد أثارت مقالات لويس عوض موجة من الشغب بين أوساط كثير من المثقفين، لما فيها من تحامل على المعري، ولم يجرؤ أحد على الرد سوى محمود شاكر الذي خرج من عزلته، وانبرى للويس عوض في سلسلة من المقالات المبهرة في مجلة الرسالة، كشفت عما في مقالات لويس عوض من الوهم والخلط التاريخي والتحريف في الاستشهاد بشعر أبي العلاء المعري، وعدم تمحيص الروايات التاريخية، والادعاء بتلقي المعري علوم اليونان على يد أحد الرهبان. وكانت مقالات شاكر التي ظهرت تباعًا حدثًا ثقافيًّا مدويًا، كشفت عن علم غزير ومعرفة واسعة بالشعر وغيره، وقدرة باهرة على المحاجاة والبرهان، ولم تقف هذه المقالات عند حدود الرد على كلام لويس، بل انتقلت إلى الحديث عن الثقافة والفكر في العالم العربي والإسلامي، وما طرأ عليها من غزو فكري، ولا سيما حركة التبشير التي غزت العالم الإسلامي.

وتدخل الناقد الكبير محمد مندور عند شاكر ليوقف مقالاته دون جدوى، وأصاب لويس عوض الذعر والهلع من مقالات شاكر التي فضحته بين أوساط المثقفين، وكشفت عن ضعف ثقافته حتى في تخصصه في الأدب الإنجليزي، حين كشف شاكر عن فساد ترجمته العربية لمسرحية الضفادع لأرسطوفان، وراح لويس يطوف على المجلات والصحف، يستنصرهم ضد شاكر، ويزعم أن المعركة بينهما معركة دينية، ولم يتوقف شاكر عند كتابة مقالاته حتى أغلقت مجلة الرسالة نفسها، وألقي به في غياهب السجن سنتين وأربعة أشهر من أغسطس 1965م، إلى ديسمبر 1967م، وقد جمعت هذه المقالات في كتابه "أباطيل وأسمار" الذي يعد من أهم الكتب التي ظهرت في المكتبة العربية في النصف الأخير من القرن العشرين.

وبعد خروجه من السجن عاد إلى ما كان عليه من قبل، فكتب في مجلة "المجلة" 7 مقالات إضافية تحت عنوان "نمط صعب، نمط مخيف" استجابة لصديقه الأديب يحيى حقي، حين أشاد بترجمة الشاعر الألماني "جوته" لقصيدة الشاعر الجاهلي "تأبط شرًّا".

ثم دارت معركة أخرى بينه وبين الباحث العراقي الدكتور علي جواد الطاهر حول تحقيقه كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي، وتولد عن ذلك كتابه "برنامج طبقات فحول الشعراء".

وأطلق عليه العقاد: المحقق الفنان. وإنجازاته في هذا المجال كثيرة، وهي عنوان على الدقة والإتقان، ومن أشهر الكتب التي حققها: تفسير الطبري، طبقات فحول الشعراء، تهذيب الآثار للطبري. وشاكر لا يحب أن يوصف بأنه محقق لنصوص التراث، وإنما يحب أن يوصف بأنه قارئ وشارح لها، وهو يكتب على أغلفة الكتب التي يقوم بتحقيقها عبارة: "قرأه وشرحه".

وعاش على أقل القليل يكفيه ويسد حاجته، ومرت عليه سنوات عجاف، لكنه لم ينحن أو يميل على الرغم من أنه لم يكن له مورد سوى عائده من كتبه، التي كان يقوم بتحقيقها، وكان اسمه على صدرها يضمن لها النجاح والرواج، ولم يكن يأخذ شيئًا على مقالاته التي يكتبها، فأعاد لمجلة العربي الكويتية سنة 1982م مئة وخمسين دولارًا، نظير مقالة كتبها ردًّا على الكاتب اليمني عبدالعزيز المقالح حول طه حسين، ورفض أن يتسلم من دار الهلال مكافأته عن تأليفه كتابه المهم "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا".

وقد بين الأستاذ محمود شاكر في هذا الكتاب كيف خطط المستشرقون وأذنابهم لوأد الدعوة الإصلاحية في نجد على يد الإمام محمد بن عبدالوهاب لئلا تهدد النصرانية، فقال: (وثبت هذا الطاغية "محمد علي" قواعد ملكه، وازداد إطباق القناصل والمستشرقين على عقله وقلبه، وسارت الجيوش قاصدة جزيرة العرب، ودارت الحرب التي لم تنته إلا بعد ثمان سنوات، في سنة 1819 م، وفقدت الجيوش المصرية آلافًا من أبنائها، ولقيت هزائم كادت تودي بها، وأخيرًا تم النصر لمحمد علي، بعد أن ارتكب من الفظائع ما لا يستحله مسلم، واستباح الديار والأموال والنساء، وهدم المدن، فكان هو وابنه إبراهيم وسائر أولاده طغاة من شر الطغاة.

أما المعركة الثالثة في الأهمية فهي تلك التي قال فيها بعضهم: إن كلام العرب في باب (الحكم): أن عبارة (القتل أنفى للقتل) أبلغ من الآية القرآنية: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾؛ إذ لم ينم "الرافعي" ليلته، بعد أن لفت الأستاذ الكبير "محمود" نظره إلى هذا الأمر بقوله: "ففي عنقك أمانة المسلمين جميعًا، لتكتبن في الرد على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها"؟

واستطاع الرافعي ببلاغته أن يقوض هذا الزعم من أساسه بمقالاته: (كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة)، التي عدَّد فيها وجوه الإعجاز في الآية الكريمة: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. ولأنه كان يشعر أنه صاحب رسالة فإنه كان ينتفض حين يرى انتهاك حرمة من حرمات اللغة العربية، فيقف مدافعًا عنها بكل ما يملك من أدوات علمية وفكرية، تجعل الخصم يسلم بما يقول أو يلوي هاربًا. ومعاركه كلها جمعت في كتب، وصارت وثائق في تاريخنا الفكري الحديث، كتبها هو من موقع المدافع والحارس لثقافة الأمة، ولولا خصومه لما ظهرت معظم مؤلفاته؛ لأنها كانت استجابة لتحديات عظيمة، وهي تظهر عظمة شاكر؛ لأنه لم يحتشد لها مثلما يحتشد المؤلفون عند تأليف كتبهم، وإنما دخلها كارهًا مستندًا إلى ثقافة واسعة وعلم غزير، وفكر ثاقب، وروح وثابة، فأتى بالعجب العجاب.

فأبو فهر. وما أدراك ما أبو فهر. إن نظرة خاطفة في كلمات سطرتها أنامله تنبيك عنه. وتجعلك تَرِد إليه قسرًا بلا إجبار، ومُرغمًا بلا إعسار.

فلما أخذ أبو فهر يعالج قضية الاستهانة بعلوم الأوائل في مطلع تحقيقه لكتاب (أسرار البلاغة) للجرجاني، انتثرت من مكنون فرائده بعض قواعدَ، كانت قبل انكشافها دفينةً، لم يرعَها كثير من أدعياء العلم. أذكر منها :

(الاستهانة داء وبيل، يطمس الطرق المؤدية إلى العلم والفهم).

(ذهبت نظرية الدكتور طه في الشعر الجاهلي بددًا، لأنها لم تقم على أساس صحيح من العلم والنظر).

(كتاب سيبويه لا يعلم طالبَ العلم النحوَ، إلا إذا مهَّد له الطريق ابنُ عقيل وابنُ هشام والأشمونَي، وإلا فقد قذف نفسه في المهالك).

ومن أقواله: (فمن الغفلة التي تطمس القلب والعين والعقل، أن يعرف ذلك إنسان له بقية من نخوة أو كرامة، أو عقل، ثم لا يعيد النظر في كل من أمور الأمة العربية والإسلامية، ليرى أثر إصبع التبشير العامل على تحطيم النفس العربية المسلمة، في كل ناحية من نواحي الحياة الأدبية والسياسية والاجتماعية، وليبصر عيانًا صدوع التحطيم والهدم ظاهرة في حياتنا، وليدرك أن العدو الذي يريدنا أن نعتنق مبادئ الحضارة الغربية، وأن يفشي طريقة العيش الغربية، إنما يريد أن يقوض بناءً كاملا، تمّ كماله في قرون متطاولة، وبقي يتقارع الخطوب والأحداث والنكبات دهورًا، محتفظًا بقوته وكيانه، ولم يجترئ عليه العالم الأوروبي المسيحي، إلا بعد طول تردد). من كتاب أباطيل وأسمار.

وقال أخوه الشيخ العلامة أحمد شاكر رحمه الله تعقيبًا على أثر ابن عباس في تفسيره: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: "إنه ليس بالكفر الذي تذهبون إليه، إنه ليس كفرًا ينقل عن الملة، إنه كفر دون كفر".

وهذه الآثار عن ابن عباس وغيره، مما يلعب بها المضللون في عصرنا هذا، من المنتسبين للعلم، ومن غيرهم من الجرآء على الدين: يجعلونها عذرًا أو إباحة للقوانين الوثنية الموضوعة، التي ضربت على بلاد الإسلام.

وذكر الشيخ أحمد شاكر نص رواية الطبري، ثم قال: فكتب أخي السيد محمود، بمناسبة هذين الأثرين ما نصه:

"اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة، وبعد: فإن أهل الريب والفتن من تصدروا للكلام في زماننا هذا، قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله، وفي القضاء في الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله، التي أنزلها في كتابه، وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام. فلما وقف على هذين الخبرين، اتخذهما رأيًا يرى به صواب القضاء في الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضي بها، والعامل عليها.

وإذن، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام، بالاحتكام إلى حكم غير حكم الله في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم. فهذا الفعل إعراض عن حكم الله، ورغبة عن دينه، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القائل به والداعي إليه.

والذي نحن فيه اليوم، هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وسنة نبيه، وتعطيل لكل ما في شريعة الله، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع على أحكام الله المنزلة، وادعاء المعتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا، ولعلل وأسباب انتقضت، فسقطت الأحكام كلها بانقضائها. فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بني عمرو بن سدوس!

ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة، فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أنّ سنّ حاكم حكمًا وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها. هذه واحدة. وأخرى: أن الحاكم الذي حكم في قضية بعينها بغير حكم الله فيها، فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل، فهذا أمره أمر الجاهل بالشريعة. وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية، فهذا ذنب تناله التوبة، وتلحقه المغفرة. وإما أن يكون حكم به متأولاً حكمًا خالف به سائر العلماء، فهذا حكمه حكم كل متأول، يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما أن يكون كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم في أمر جاحدًا لحكم من أحكام الشريعة، أو مؤثرًا لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام، فذلك لم يكن قط. فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه. فمن احتج بهذين الأثرين وغيرهما في غير بابها، وصرفها إلى غير معناها، رغبة في نصرة سلطان، أو احتيالاً على تسويغ الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله: أن يستتاب، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله، ورضي بتبديل الأحكام، فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين.

فهذه واحدة من إبداعات محمود شاكر، وثانيها وأنت تنظر إلى قول الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ بعد ذكر أقوال أهل العلم فيها: وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس، وهو أن "الدرجة" التي ذكر الله في هذا الموضع، الصفحُ من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها، وإغضاؤه لها عنه، وأداء كل الواجب لها عليه.

وهذا هو المعنى الذي قصده ابن عباس بقوله: (ما أحب أن أستنظف جميع حقي عليها، لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾. وهذا القول من الله تعالى، وإن كان ظاهرُه ظاهر الخبر، فمعناه معنى ندب الرجال إلى الأخذ على النساء بالفضل، ليكون لهم عليهن فضل درَجة).

وهنا علق العلامة محمود شاكر قائلاً: (لم يكتب الطبري ما كتب على سبيل الموعظة، كما يفعل أصحاب الرقائق والمتصوفة، بل كتب بالبرهان والحجة الملزمة، ثم أتبع ذلك بندب الرجال إلى فضيلة من فضائل الرجولة، لا ينال المرء فضلها إلا بالعزم والتسامي، وهو أن يتغاضى عن بعض حقوقه لامرأته، فإذا فعل ذلك فقد بلغ من مكارم الأخلاق منزلة تجعل له درجة على امرأته. ومن أجل هذا الربط الدقيق بين معاني هذا الكتاب البليغ جعل أبو بكر هذه الجملة حقًّا وندبًا للرجال على السمو إلى الفضل، لا خبرًا عن فضل قد جعله الله مكتوبًا لهم، أحسنوا فيما أمرهم به أم أساءوا.

والطبري لم يغفل قط عن هذا الترابط الدقيق بين معاني الكتاب، بل هو لا ينسى أبدًا أن هذا الكتاب جاء ليعلم الناس، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وأنه جاء ليؤدبهم بأدب رب العالمين، فيربط بين هذا الأدب الذي دل عليه التنزيل، وبينته سنة رسول الله، ويخرج من ذلك بمثل هذا الفهم الدقيق لمعاني كتاب الله مؤيدًا بالحجة والبرهان.

وأحب أن أقول: إن التخلق بآداب كتاب الله يهدي إلى التفسير الصحيح، كما تهدي إليه المعرفة بلغة العرب، وبناسخ القرآن ومنسوخه، وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فالأخلاق أداة من أدوات العلم كسائر الأدوات؛ ولولا ما كان عليه هذا الإمام من عظيم الخلق ونبيل الأدب، لما وقف وحده بين سائر المفسرين عند هذه الآية، يستخرج منها هذا المعنى النبيل العظيم، الذي أدب الله به المطلّقين، وحثهم عليه، وعرَّفهم به فضل ما بين اقتضاء الحقوق الواجبة، والعفو عن هذه الحقوق، لمن وضعها الله تحت يده، فملَّكه طلاقها وفراقها، ولم يملّكها من ذلك مثل الذي ملّكه).

وفي أخريات عمره نال جائزة الدولة التقديرية في الأدب 1981م، ثم جائزة الملك فيصل في الأدب العربي 1984م، وفي أثناء ذلك اختير عضوًا في مجمع اللغة العربية بدمشق، ثم بالقاهرة.

وبعد رحلة حياة عريضة رحل أبو فهر شيخ العربية وإمام المحققين في 3 ربيع الآخر 1418هـ 6 أغسطس 1997م)، ولبى نداء ربه.. فسلام عليك أبا فهر.

لعمرك ما الرزية فقد مالٍ
ولا شاةٌ تموت ولا بعيرُ
ولكنَّ الرَّزية فَقدُ قَرْمٍ
يموت بموته بشرٌ كثيرُ

رحل كأنه طيف جاء ثم ذهب، لم يشعر به إلا القليل ممن يعرفون للرجال مقاماتهم وحقوقهم، مضى غريبًا كما تعيش محبوبته (اللغة العربية) غريبة كذلك بين أهلها.

لقد كان الأستاذ محمود كما أراده أستاذه الرافعي حين قال له: "إن من الناس من يختارهم الله، فيكونون قمح هذه الإنسانية، ينبتون ويحصدون ويعجنون ويخبزون، ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائلها.

وقد كان الأستاذ محمود قمح هذه الإنسانية، حيث أمضى حياته في رحلات علمية طويلة، وعطاءات فياضة، لخدمة الإسلام والدفاع عن أصوله ومبادئه، والوقوف أمام تيارات الحداثة والتغريب، والرد على أذناب التنوير المزعوم. رحل مودعًا سجن الدنيا، إلى جوار ربه، تاركًا نموذجًا طيبًا، وقدوة حسنة، وفكرًا إسلاميًّا رائعًا، فرحمه الله رحمة واسعة، وجمعه بالحبيب محمد صلى الله عليه وسلم في الفردوس الأعلى من الجنة.

مصطلح الجنس الأدبي في المنظور العربي (الإشكالية والوظيفة)

د. سامي شهاب الجبوري

العراق

يصطدم الباحثون وهم يخوضون في غمار البحث عن الأقرب إلى الصواب بشأن تحديد تعريف عام لمصطلح أو قضية ما بعراقيل كثيرة، والسبب يعود إلى الرؤى المتضاربة التي تنفث ما تراه صالحًا ويجب الاحتذاء به، وهذا بالتأكيد يتطلب من الباحث الدقة في توخي الحذر وعدم الاستسلام لهذا الرأي أو ذاك حتى يستطيع أن يستشف الرأي الأجدر منها وتوظيفه في كتاباته المتعلقة بهذا الأمر. وعليه واستنادًا إلى ما تقدم فإن تحديد تعريف خاص لمصطلح الجنس أو الجنس الأدبي لا يمكن أن يكون بالسهولة التي قد يظنها كثير من الباحثين، بل بالاستفاضة العميقة لاختيار ما يتناسب مع الموضوع، وبما إننا بصدد التطرق إلى الرأي العربي من خلال ما قاله النقاد بهذا الخصوص وعلى كم قسم ينقسم الجنس الأدبي فإن تعريفنا للجنس سيكون مقتضبًا ومحددًا لأن مجاله واسع والخوض في دهاليزه متاهة كبرى.

لا يمكن تعريف الأجناس الأدبية بهيئتها الاصطلاحية (الأجناس الأدبية) لأنها جاءت عند كثير من النقاد والباحثين بهيئة (الأنواع، أو الأشكال الأدبية وغير ذلك)، لذا سنلجأ إلى تعريف الجنس الأدبي الذي بدوره سينسحب على بقية الأجناس الأخرى لأنها متناظرة ومتوافقة من حيث المبدأ العام ومتخالفة في الجوهر والآلية والكيفية في التطبيق. وعليه فالجنس الأدبي هي مجموعة الأنظمة والقوانين الموضوعة في نسق عام والتي تمارس سلطتها العليا على التنظيم الإبداعي للمنتج وتصبغه بآليات وكيفيات تميزه عن غيره، وهي تعمل جاهدة على المحافظة عليه وعدم السماح لمبدعه التغيير في معالمه والتقنع بمظاهر التجديد؛ إلاّ أن هذا الأمر غير ممكن لأن رؤى المبدع تتغير تبعًا للظروف الاجتماعية المحيطة به التي ترغمه على الافلات من أسره ومحاولة تحديث ما يمكن أن يكون ملائمًا لروح العصر، وهذا يعني إن الجنس أو النوع الأدبي كالنوع البيولوجي ينشأ ويتطور وينقرض.

لذلك نجد أن عددًا من الأجناس تصدر من وعي اجتماعي في بادئ الأمر ولكنها سرعان ما تتلاشى مع تقادم السنين فتتحول إلى وعي فردي بحت، وللتمثيل على ذلك نجد أن الملحمة وهي أسطورية في فحواها عند اليونانيين وغيرهم قد انبثقت من إحساس اجتماعي وذلك لغرض التنفيس عما يريدون التنفيس عنه؛ ولكن الإحساس الاجتماعي بدأ يفقد بريقه بعد التخلي عن الواقع الملحمي (الأسطوري) واصبحت الحاجة ملحة للانطلاق من الرؤى الفردية فانبثقت على غرار الجنس الملحمي الرواية والقصة اللتان تعدان الوريث الشرعي للملحمة على الرغم من اختلاف مضامينها وآليات خطوطها التنظيمية عنها، وبرؤية أعمق نقول إن لكل جنس أدبي استقلاليته وذاتيته الخاصة عن بقية الأجناس تبعًا للعناصر المكونة له التي تتحرك في إطاره الخاص، وهي عناصر تعيش في نسيج واحد تكمّل إحداها الأخرى بغية تحقيق عملية إبداعية تميز هذا الجنس عن غيره، وباكتمال دائرة العمل على وفق هذه العناصر تكتمل للجنس الأدبي هويته لينطلق عندها إلى فضاء الأدب من زاوية العمل الابداعي، وهو بهذا يفرض نفسه على كل كاتب يعالج فيه موضوعه.

وبحسب تعريفنا للجنس الأدبي الذي قد لا يرتضيه القارئ يمكن أن نعود إلى مسألة الإشكالية في المصطلح. إذ أن هناك اختلاف بين النقاد والباحثين والدارسين على تسمية المصطلح وتحديد شكله وكل منهم ينطلق من رؤاه الأيديولوجية والانتماءات الاجتماعية وقيمه المفروضة عليه التي تجعله مقيدًا أو متحررًا في عرض أفكاره، فوجهات النظر في المصطلح تتباين على وفق المعيار الذي يحتكم إليه الناقد مما يولد ميلاً واضحًا نحو جنس أدبي ما. هذا الاختلاف في الرؤى هو الذي أحدث هذا الإرباك والفوضى في تحديد ما يمكن تحديده من مصطلح، وعليه وفي استقراء بسيط يمكن أن نبيّن في ضوء ما يسمح لنا به مجال بحثنا مجموعة من الاختلافات الواردة بين النقاد العرب من خلال الوقوف على كتبهم وبحوثهم المنشورة حتى يستوضح

عناصر هذا الجنس أو ذاك، ومن ثمة وبحسب هذا التغيير والتنوع والاستمرارية في التبديل تتولد في المقابل لدى النقاد والباحثين ردة فعل مشابهة تجعلهم يتوحدون في مجالات منوعة الغرض منها الاهتداء إلى التسمية المصطلحية المناسبة لهذا الجنس الذي تطور بعض الشيء.

ومهما يكن الاختلاف في هذه القضية من حيث تنوع المصطلحات لموضوع معين فإننا – وقد يكون هذا رأي غيرنا كذلك – نرى أن المصطلحات جميعها وإن اختلفت من حيث الهيئة الشكلية المكتوبة فإنها مترادفة الفحوى ولا تقبل القسمة على اثنين على الرغم من اختلاف بعضها من جانب الزيادة والنقصان، وهذا أمر لا ضير فيه تبعًا للتغييرات التي تحصل – كما ذكرنا آنفًا – على مرّ العصور، شرط أن يحتفظ الجنس بجوهره العام المميز الذي يعد الفيصل بينه وبين الآخر. هذا الأمر يدفعنا إلى جانب آخر من الموضوع وهو عرض السؤال الآتي: ماهي أهمية الجنس ووظيفته؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن الجنس أرض خصبة لما يمكن أن ينثره المبدع من أفكار فوقها بحسبما يشاء، وهذه الأفكار والتطلعات التي يبغي إيصالها إلى المتلقي عبر النصوص التي يكتبها هي نابعة من رحم المجتمع والأيديولوجيات المتمخضة عنه ولا يمكن أن يسوق غير ذلك. لذا جاءت النصوص باختلاف أقباعها في الأجناس الأدبية شواهد حيّة على تمثيل الواقع أو قل هي مرآة عاكسة للرؤى المتبلورة في أفكار الجماعة أو الجماعات المنتمية لهذه الأفكار، ومما زاد من قيمة البحث في هذا المجال هو اهتمام لنا الأمر في هذا المجال، فالنقاد أمثال محمد غنيم هلال في كتابه (الأدب المقارن)، وعبد السلام المسدّي في كتابه (النقد والحداثة)، وأحمد كمال زكي في كتابه (دراسات في النقد الأدبي)، وفؤاد مرعي في كتابه (مقدمة في علم الأدب)، ورشيد العبيدي في كتابه (دراسات في النقد الأدبي)، وخلدون الشمعة في بحثه (الأجناس الأدبية من منظور مختلف)، وعبد الإله الصائغ في بحثه (التجنيس بين الخطابين الشعري والسردي) وغيرهم أكدوا على مصطلح الجنس الأدبي ولم يستعملوا مصطلح النوع الأدبي أو الشكل الأدبي. ولكننا نجد في الجهة المقابلة عددًا من النقاد قد ركزوا على مصطلح النوع، وهم كل من عبدالمنعم تليمة في كتابه (مقدمة في نظرية الأدب)، وعلي جواد الطاهر في (كتابه مقدمة في النقد الأدبي)، وعبدالله إبراهيم في بحثه (مقدمة في نظرية الأنواع الأدبية) وغيرهم كثير. كما أن عددًا من الكتب التي ترجمت للعربية استخدم فيها المترجمون مصطلح نوع كذلك، وهذا واضح في كتابه (نظرية الأدب) لرينيه ويليك، وكتاب نظرية الأدب لعدد من الباحثين السوفيت المختصين. ومن هذا الاستقراء يمكن الاستدلال على كون المصطلح ما زال قيد الدراسة والتمحيص بدلالة عدم تحديد وجهة عامة له وأي المصطلحات التي تناسبه.

هذا الاختلال المصطلحي راجع إلى إمكانية تطور الأجناس عبر العصور المتعاقبة بحسب ما يأتي به المبدع من ملامح جديدة تفضي بإضفاء لمسات حيوية على الباحثين والنقاد على اختلاف ثقافاتهم بدراسة ظواهر أدبية مختلفة تتضمن محور القضية الإنسانية للوصول إلى أعماق الأصول الفكرية والحضارية فيها.

وفي الإطار نفسه يمكن عدّ نظرية الأجناس عملية ديناميكية متواصلة لها جذور في الماضي وارتباط بالمستقبل من خلال آلية ربطها اللاحق بالسابق؛ وهذا بفضل اعتمادها على العنصر الزمني الذي يمثل مفتاحًا لجعل الأبواب مشرعة أمام التلاقح بين السابق واللاحق. كما أن طبيعة الأدب تكمن بإيصال أفكار المجتمع وإعطاء انطباعات جوهرية عنها عن طريق صراع نصي مقبول يفضي بعرض المضامين بقوالب محببة ومؤثرة تدخل إلى نفس المتلقي عنوة وتجعله مشاركًا فعليًا في عيش التجربة التي عرضها المبدع للنص، وهذا يقع عن طريق السيطرة على الأخيلة والعواطف والأفكار والأدوات اللغوية وتصنيع التراكيب المنتمية للسياقات لكي تنجز فكرة التوصيل ويحقق النص ما عليه ويترك أعقاب ما يحصل بعد ذلك للمتلقي ليتصرف به كيفما يشاء. كما إن وظيفة الجنس من خلال النص تجانس طبيعة الأدب من حيث اتكائها على القيم الجمالية وكل جنس يبغي تحقيق جماليات عالية المستوى من أجل الارتقاء بنفسه والتعالي عمن سواه من الأجناس الأخرى وذلك بحسب الثوابت والمتغيرات التي ترافقه وكذلك بحسب الآليات والامكانات المتاحة له من استعمال مسموح وآخر مرغوب فيه.

وعليه فإن الانطلاق من جوهر القضية مجددًا وإماطة اللثام عن تجليات الرؤى المختلفة والمتضاربة يرجعنا إلى دائرة المربع الأول التي تحتم علينا القول إن الاختلاف في مسألة انتقالية المصطلح نابعة من عدم وجود أسس ومعايير ثابتة تحكم ذلك، وإن التقنع بأسماء ومسميات جديدة وإن كانت في شكلها مختلفة فهي متفقة من حيث المضمون متقاربة مترادفة في إعطاء الانطباع أو الصورة نفسها عن الشيء المراد إيصاله، وهذا يحيلنا إلى قبول فكرة أن الأدب متنوع وهو يتطور باستمرار، ولكن الأهمية تكمن في طبيعة الموضوعات ولا سيما الفكرية والمعرفية. أي التي تكون معبرة ومؤثرة والتي تكتب بصيغ منسجمة وغير مألوفة في الوقت نفسه لتحقيق انطباعات صورية مماثلة بعض الشيء عن الواقع المحيط به الذي ينتمي بدوره للتنظيم الاجتماعي الفارض لسلطته على المبدع الذي يدلي في نصه ما يراه ملائمًا في هذا التنظيم. وعليه فإنّ دراسة الأدب لا تكون بالنظر إليه من زاوية تعداد أجناسه وإلى أي زمن تنتمي، وإنما الانسحاب على التقانات الفنية القابعة في النص كذلك.

> وبحسب تعريفنا للجنس الأدبي الذي قد لا يرتضيه القارئ يمكن أن نعود إلى مسألة الإشكالية في المصطلح. إذ أن هناك اختلاف بين النقاد والباحثين والدارسين على تسمية المصطلح وتحديد شكله وكل منهم ينطلق من رؤاه الأيديولوجية والانتماءات الاجتماعية وقيمه المفروضة عليه التي تجعله مقيدًا أو متحررًا في عرض أفكاره، فوجهات النظر في المصطلح تتباين على وفق المعيار الذي يحتكم إليه الناقد مما يولد ميلاً واضحًا نحو جنس أدبي ما

قراءة تحليلية نقدية في ديوان نازك الملائكة

د. جبران بن سلمان سحّاري

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مؤسس مدرسة الميزان للنقد الأدبي في الرياض

تُعد الشاعرة العراقية نازك الملائكة من رائدات الشعر الحديث في الوطن العربي، ويعجب بها الكثير من شعراء الحداثة لكونها أول من كتب الشعر التفعيلي الحر المتمرد على الوزن والقافية، وقد كتبت في قضايا الشعر المعاصر وغير ذلك وربما يتضح خلاف ما يشتهر عند كثيرين بمزيدٍ من البحث والاطلاع والمناقشة.

هي الشاعرة العراقية عاشقة الليل نازك بنت صادق جعفر الملائكة ولدت في بغداد عام 1354هـ الموافق 1923م ونشأت في بيت علم وأدب، وأمها هي الشاعرة سلمى عبدالرزاق وكنيتها (أم نزار) ووالدها هو الشاعر العراقي (صادق جعفر الملائكة) الذي جمع قول الشعر والاهتمام بالنحو واللغة كعادة الشعراء آنذاك.

أحبت نازك الشعر منذ الصغر وولعت به وهي ما زالت طفلة، ووجدت في مكتبة أبيها الزاخرة بدواوين الشعر وأمهات كتب الأدب ما يروي ظمأها إلى الاطلاع والمعرفة.

أكملت دراستها في بغداد، ثم التحقت بالجامعة، وحصلت على منحة دراسية إلى (الولايات المتحدة) حيث حازت على درجة الماجستير في الآداب، وكانت أول تلميذة تحظى بالدراسة هناك.

عادت إلى بغداد وأتيحت لها فرصة أخرى للسفر خارج العراق؛ للحصول على درجة الدكتوراه في الأدب المقارن، عملت سنين طويلة في التدريس في جامعة بغداد، وجامعة البصرة ثم جامعة الكويت، ثم اتجهت للعزلة الخاصة والإقامة في القاهرة إلى أن توفيت بها عام 1428هـ ـ 2007م بسبب هبوط حاد في الدورة الدموية وشيع جثمانها هناك رحمها الله رحمة واسعة.

لها ست مجموعات شعرية هي: (مأساة الحياة) و(عاشقة الليل) و(شظايا ورماد) و(قرارة الموجة) و(شجرة القمر) و(للصلاة والثورة) وكلها قد جمعت في (الأعمال الشعرية الكاملة) الصادرة عن دار العودة ببيروت عام 1429هـ ـ 2008م. وذلك بعد وفاتها بعام، وتعد طبعة ثانية فقد كانت صدرت الطبعة الأولى في التسعينيات الهجرية ثم نفدت فأعيدت طباعتها في ذكرى رحيلها.

اشتهرت بأنها أول كاتبة لقصيدة التفعيلة من الشعر الحر وهي (الكوليرا) حيث تتحدث عن مرض منتشر في العراق آنذاك يتعلق بجرثومة معوية رأى بعضهم انتقالها

من شخص آخر، ومطلع هذه القصيدة:

سكنَ الليلُ أصغِ إلى وقع صدى الأنات

في عمّق الظلمة تحت الصمت على الأموات ..

وتكون بذلك قد سبقت الشاعر العراقي المعاصر لها بدر شاكر السياب الذي كانت له محاولات في السبعينيات الهجرية وإن كان توفي مبكرًا قبلها بنحو ثلاث وأربعين سنة حيث توفي عام 1384هـ.

وهذه القصيدة مضمنة ديوانها (شظايا ورماد) انظر: الأعمال الكاملة: 2/ 99.

وقد أكدت ذلك بنفسها في قضايا الشعر المعاصر ص 14 حيث قالت: "عام 1962م صدر كتابي هذا، وفيه حكمت أن الشعر الحر قد طلع من العراق ومنه زحف إلى أقطار الوطن العربي، ولم أكن يوم أقررت هذا الحكم أدري أن هناك شعرًا حرًّا قد نظم في العالم العربي قبل سنة 1947م سنة نظمي لقصيدة "الكوليرا"؛ ثم فوجئت بعد ذلك بأن هناك قصائد حرة معدودة قد ظهرت في المجلات الأدبية والكتب...".

ومهما يكن من أمر فقد يكون تزامنًا من هؤلاء الشعراء ولا يخفى ما قد يعتري الأمر من تأثرٍ بالآداب الغربية والمدارس المختلفة آنذاك.

وقد أعلنت نازك الملائكة رجوعها عن هذا اللون وقصرت ما كان تفعيليًّا منه على ما انتظم تفعيلة واحدة متسقة واشترطت كتابة القصائد العروضية المعروفة، وعُرف هذا الأمر باسم (توبة نازك الملائكة) تلك التوبة المشهورة هكذا أفادني الشاعر والأديب الدكتور/ عدنان بن علي رضا النحوي رحمه الله (ت: 1436هـ) وقال: رجعت عما قررته من شعر التجديد والحداثة.

وكتب الأستاذ محمد مصباح مظلوم المعروف بشاعر العالم مقالاً بعنوان (نازك الملائكة شاعرة التوبة عن خطيئة التجديد).

وقد صرحت بذلك في مقدمة ديوانها (شجرة القمر) فقال حول الشعر الحر: "ولا أذكر أنني اقتصرتُ على الشعر الحر في أية فترة من حياتي، وسبب هذا أنني أولاً أحب الشعر العربي ولا أطيق أن يبتعد عصرنا عن أوزانه العذبة الجميلة ثم إن الشعر الحر ـ كما بينتُ في كتابي ـ قضايا الشعر المعاصر ـ يملك عيوبًا واضحة أبرزها الرتابة والتدفق والمدى المحدود، وقد ظهرت هذه العيوب في أغلب شعر شعراء هذا اللون، وهذا حاصلٌ أيضًا في الشطرين فإن له مزايا وله عيوبًا، وإني لعلى يقين أن تيار الشعر الحر سيتوقف في يوم غير بعيد وسيرجع الشعراء إلى الأوزان الشطرية بعد أن خاضوا في الخروج عليها والاستهانة بها..." إلى آخر كلامها.

ومن قصائدها التفعيلية الأخرى: (نهاية السلّم) في الأعمال الكاملة: 2/79 وأولها: "مرت أيام منطفئات".

وقصيدة (أنا) 2/ 82 ومطلعها:

الليل يسأل من أنا؟

أنا سره القلقُ العميق الأسودُ ...

وقصيدة (الهجرة إلى الله) 2/441 ومطلعها:

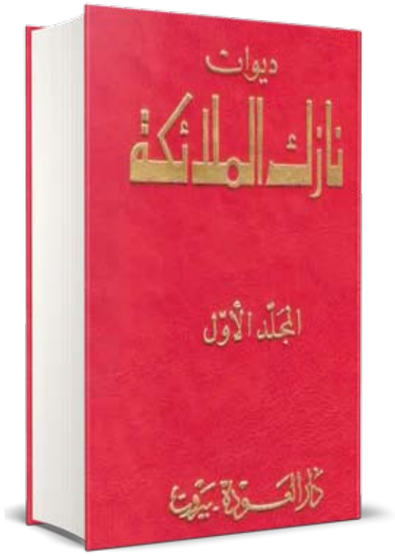

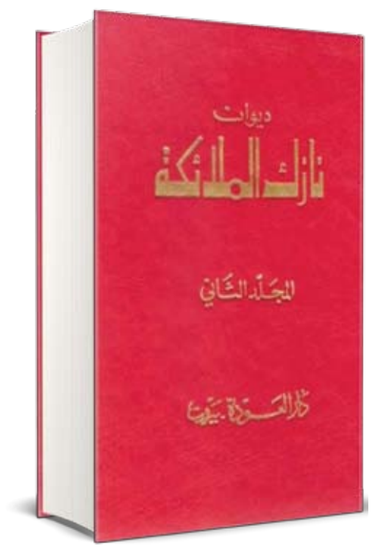

عرفتك في ذهول تهجدي وقرنفلي أكداس

عرفتك في اخضرار الآس...

وغيرها من القصائد السائرة على هذا النمط.

والآن سأجري دراسة تحليلية نقدية لبعض قصائدها المشهورة والله الموفق.

أولاً: قصيدة مأساة الحياة (الأعمال الكاملة:1/ 21 ـ 39):

تقول في مطلعها:

عبثًا تحلمين شاعرتي ما من صباح لليل هذا الوجود

عبثًا تسألين لن يُكشف السرُّ ولن تنعمي بفكّ القيود

فمطلع هذه المأساة ينضح بشيءٍ من التشاؤم والحماس في ثورة تمردية انتشرت واشتهرت عند الثائرين على الانضباط الذين يبتكرون المعاني العبثية (عبثًا تحلمين).. (عبثًا تسألين) وليس في هذه الألفاظ ما يدعو للاستحسان في الغالب.

ثم تقول أيضًا:

كيف تذوي القلوب وهي ضياءٌ

ويعيش الظلامُ وهو ظلامُ؟

وفي هذا البيت الطباق بين ضياء وظلام، ولا يخفى ما في وصف القلوب بالضياء من الحسن!

كيف تحيا الأشواك والزهَرُ الفا

تنُ يذوي في قبضة الإعصار؟!

وهنا مطابقة بين الأشواك والزهر.

وفي وصف الزهر بالفاتن كناية عن شدة جماله.

ثم تشير إلى مأساة الحياة بقولها:

حدّثي القلبَ أنت أيتها المأ

ساةُ يا من قد سُمّيتِ بالحياة

فهي تخاطب المأساة كأنها فتاة تسمعها وتقول: إنك سُميتِ بالحياة وهذا عن طريق الإضافة (مأساة الحياة) وهذا هو عنوان المجموعة الشعرية.

وتقول:

أبدًا أسأل الليالي عن المو

تِ وماذا تُرى يكون المصيرُ.

فتستمر في سؤال الليالي وتجعل منها مستمعًا يعقل ويعي الخطاب والسؤال.

كما تخاطب الحياة بقولها:

امنحيني عُمْرَ الزهور فلن أبـ

ـكيَ ومدّي الأيامَ لي إن رغبتِ

وترسل المثل في قولها:

ما الذي ينفع البكاءُ وما يُصـ

ـغي إلى الصارخين قلبُ الفضاءِ

كذلك تصف نفسها بأنها حيرة وذهول من وقع السيطرة فتقول:

ها أنا الآن حيرةٌ وذهولٌ

بين ماضٍ ذوى وعمر يمرُّ

كما تخاطب ضفاف الأفراح وكأنها تريد الاقتراب من الفرح فتقول:

يا ضِفاف الأفراح يا ليتني أعـ

ـرفُ شيئًا عن أُفقك المجهولِ

وتعبر في مقطوعة (على تل الرمال) عن بناء حياتها بالأحلام مع النسيان فتقول:

كلَّ يومٍ أبني حياتيَ أحلا ماً وأنسى إذا أتاني المساءُ

ثم تجعل الأحلام مدينة تتلاشى في نشوة الأوهام فتقول:

إيه تلَّ الرمالِ ماذا ترى أبـ
ـقيت لي من مدينة الأحلام؟
أُنظر الآن هل ترى في حياتي
ـلمحةً غيرَ نشوة الأوهام؟

وتواصل مرحلة التشاؤم والبعد عن الزمن الجميل فتقول:

لم أعد في الشتاء أرنو الى الأمـ
ـطار من مهديَ الجميلِ الصفيرِ
لم أعد أعشق الحمامة إن غنّـ
ـت وألهو على ضفاف الغديرِ

وتخاطب التل أن يعيد فردوسها المفقود والزمن الجميل الذي عاشته فتقول:

آه يا تلُّ ها أنا مثلما كنـ
ـتُ فأرجعْ فردوسي المفقودا

وتستمر في وصف تلك الصور الجميلة فتقول:

كان شدو الطيور رجْعَ أناشيـ
ـدي وكان النعيم يتبع ظلّي
هل أنا الآن غيرُ شاعرة حيـ
ـرى وهل غير هيكلي المضمحلّ؟

وهذه من صور التشاؤم أيضًا في مأساة الحياة.

وتستمر في تخيل الوهم وتعكيره صفوها فتقول:

كلما شِمْتُ زهرةً صوّر الوهـ
ـمُ لعينيَّ قاطفَ الأزهـارِ

وتقول:

أين منّي مفاتن القمر السا
حر والصيف والظلام المثير؟

وفي وصف الظلام بالمثير تأكيدٌ لنظرتها التشاؤمية.

وتقول:

تتقاضى الأحياءُ قيمة عيش
ضمَّنهم من شقاهُ أعمقُ تيهِ

وفي مقطوعة (آدم وحواء) تقول:

حسبها أننا دفعنا إليها ثمنَ العيش حيرة ودموعا
أيُّ ذنب جناه آدمُ حتى نتلقى العقاب نحن جميعا؟

والضمير في (حسبها) يعود على حواء، وتؤكد أننا جميعًا دفعنا الثمن وتلقينا العقاب وأن الخطيئة يستمر عقابها!

وفي مقطوعة (قابيل وهابيل) تقول:

ليس إلا قابيلُ يمشي رهيب الـ
ـخطو نهبَ الأفكار والأوجاعِ

وفي التعبير بـ (نهب الأفكار) كناية عن الشتات والحيرة والقلق أيضًا.

وتختم المقطوعة بقولها:

كلما ذاق قطرةً من نعيم
أعقبَتْها من الأسى ألفُ قطرهْ

وبين النعيم والأسى طباق.

كما تُعرّج على الحرب العالمية الثانية فتقول:

لم يكد يستفيق من حرْبه الأُو
لى ويهنا حتى رمته الرزايا
رحمةً يا حياةُ حسبُك ما سا
ل على الأرض من دماء الضحايا

والضمير في (يستفيق) يعود على الإنسان، والرزايا هي المصائب، وتخاطب الحياة بطلب الرحمة نظرًا لكثرة سيلان الدماء، وكان خطاب الله ومناجاته أولى بل هو المتعين وتأثيره أعظم.

ثانيًا: قصيدة كبرياء (الأعمال الكاملة:2/ 23 ـ26):

تفتتح القصيدة بمنع السؤال عن الدموع الحرّى وهذا الوصف كناية عن حرقة تقول:

لا تسلني عن سر أدمعي الحرّ
ى فبعض الأسرار يأبى الوضوحا
بعضها يؤثر الحياة وراء الـ
ـحسّ لُغزا وإن يكن مجروحا
بعضها إن كشفته يستحل حبـ
ـاً مُهانًا يموت موتًا حزينا

فوصفت الحب بأنه مهانٌ ومصيره الموت الحزين.

ولا تبرح التشاؤم كذكر أشباح اليأس والحيرة والانكسار في قولها:

وعيونٌ وراء أهدابها أشـ باحُ يأس في حيرة وانكسار

وتتحدث عن القلوب الكبيرة التي تؤثر الموت كبرياءً فتقول:

تؤثر الموتَ كبرياءً ولا تنـ ـطقُ بالسر بالرجاء الخجولِ

كما تتحدث عن الأكف المزيفة تقول:

وأكفٌّ تودُّ لو مزّقتْ لـو قتّلتْ لو تمردتْ في جنونِ
لو رأتها الحياةُ قالت: هدوءٌ وادعٌ في براءة وسكونِ

فتظهر للحياة في (هدوء وادع) والواقع بخلاف ذلك.

كما تواصل وصف الكبرياء في ألفاظ تنم عن الحزن (لا تجرح السر) (كبرياء سكوتي) (قبر حلم) (جرح مميت) (ترتعش الأشعار حزناً) (سكوتي العميق) (قلبي يتحطم) فتقول:

لا تسلني لا تجرح السر في نفـ
ـسي ولا تمحُ كبرياء سكوتي
لو تكلمتُ كان في كلّ لفظ
قبرُ حُلْمٍ وفجرُ جُرح مميتِ
لو تكلمتُ كيف ترتعشُ الأشْـ
ـعار حزناً وترتمي في عَيَاءِ

✺✺✺

وسكوتي العميق يكتم أنفاسي وقلبي يكاد أن يتحطم

وتقول في وصف حالتها:

تتلاقى عليهما كل أسـرا
ري فأبقى شعرًا وحبًّا ونارا

وتختم بوصف حياة الكبرياء فتقول:

وتظل الحياة تخلق من وجـ
ـهي قناعا صلدًا يفيض رياءا
جامدًا باردًا أصمَّ ويُخفي
بعضَ شيء سميتُه كبريـاءَ

ثالثًا: أغنية للحياة ضمن شجرة القمر (الأعمال الكاملة:2/ 306 ـ 309):

تقول في مطلعها:

إذا سألوا في غدٍ عن هوانا ونحن ترابٌ مع الذكريات
راح يجيبهم العابرون بأنا مررنا بهذي الحياةْ
وذقنا الهوى والمُنى والعذابَ كأسلافنا ثم عُدنا رفاتْ
وعفّت على أثرَيْنا الرياحُ وعدنا ضبابًا تلاشى وماتْ

فتطوي قصة الحياة والذكريات ثم تقول:

وقال لهم قائلٌ: إننا شربنا الأسى في ثنايا الكؤوسْ
وإن ابتساماتنا كنّ لوناً يغلّف شيئًا طوته النفوسْ
وإنا دفعنا أناشيدنا وأحلامنا للرجاء العبوسْ
وكنا كمن قبلنا غرباءَ على الأرض ثم طوتنا الرّموسْ

وقافية السين هنا تشعر بالحزن والخوف الذي يشير إليه الصفير المستوحى من حرف السين.

ثم تواصل قائلة:

فمن سوف يخبرهم أننا شربنا العذوبة حتى سكرنا
وأنا ملكنا ضياء النجوم ودجلة والفجر فيما ملكنا
وكانت لنا من خدود النسيم وسائدُ تسندنا إن كللنا
وأنا تركنا حكاياتنا وأخبارنا للرياح ونمنا

✺✺✺

وأنا عرفنا الحياة ارتعاشًا ونبضًا وأغنيةً خالدهْ
عرفنا الغرام الرقيق الجبين وذقنا لياليَهُ الساهدهْ
وكم مرة قد ضممنا السّعادَ ة في هذه الأذرع الهامدهْ
وذقنا حنين الجمال اللذيذ وملحَ مدامعنا الباردهْ

✺✺✺

وكانت لنا قطرات الندى ومنزلقُ الضوء كل صباحْ
وكان النسيم شفاهًا تمرّ تقبّل ما جرحته الرياحْ
وكنا نحب الشذى والنخيلَ وآفاقنا والسهولَ الفساحْ
وإن جرحَتْنا أكفّ الحياة سكبنا الرضى في شفاه الجِراحْ

✺✺✺

ثم تنطلق في محول الوجود على قافية الراء الساكنة ذات المدلول الكبير على الأثر فتقول:

وكان الوجودُ سخيَّ اليدين فأعطى هوانا ضياء القمرْ
ولف خيالاتنا بالعبير ومدَّ علينا ظلال الشجرْ
وروَّى صَدانا بخمر الكروم وطهَّر أفكارنا بالمطرْ
وتوَّجنا بغصون البنفسَـ ـج والزنبقِ المخمليّ العَطِرْ

✺✺✺

ثم تختم القصيدة بالهمزة الساكنة فتقول:

وكنا له بأناشيدنا وأشواقنا المُرحات الوضاءْ
ومن أجله قد هوينا الحياة ومن أجله قد عشقنا الفناءْ
وها نحن بين ذراعيْ ثَرَاهُ نشيدين لا يعرفان انتهاءْ
يعشّشُ في تربتَيْنا الجمالُ فيا جهلَ مَنْ ظنّنا أشقياءْ

وهكذا نكون قد خرجنا من هذه القراءة بتحليل لبعض جماليات شعرها، كما عرجنا على بعض المواضع النقدية في شعرها من ضعف التعبير تارة أو إخفاء وجه الفأل مع الإغراق في التشاؤم، مع أنها عاشقة الليل كما سمتْ نفسها بذلك، وأطلقت هذا الاسم على أول مجموعاتها الشعرية (عاشقة الليل) ونكتفي بهذا القدر، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

الحفيدة

سها شريّف
سوريا

حان موعد ظهور نتائج الثانوية العامّة على شاشات الإنترنيت. جمعت والدتي العائلة وحذّرتها من إطلاق زغاريد الفرح في حال نجاحي حرصًا على وضع جدّتنا المريضة.

دخلتُ إلى غرفة جدّتي وأخفيت عنها نبأ صدور النتائج. ناولتها الدواء. فاضت عيناها محبة واحتضنتني أمواج قلبها. وإذا بالدموع يقذفها بركان ألمها الدفين فتسيل حممًا كاوية على تجاعيد وجهها الحزين. وبإشارات متكررة فهمت أنها قلقة على نتيجتي. يبدو أن حديثنا عن موعد صدور النتائج قد تسرّب إلى سمعها خلسة. يخفف ثوران النفس القلقة. بّدد الهواء زفرات خرجت من أعماق نفسي المصدوعة قلقًا. تسرّبت قطرات من العرق على جبيني وجفّ فمي. بردت أطرافي وتشتّت نظري وانقبض صدري ودبَّ الرعب بقلبي ..

قلت لنفسي: "ماذا لو لم أنجح !! ماذا أقول لروحها المعذبة والقلقلة داخل جسدها الواهن والعاجز بعد إعلانه العصيان على الحياة؟"

وهمّت دموعي أن تعلن كارثة من الفيضان فخرجتُ من الغرفة مسرعة كي لا تراني جدتي. دخلت إلى الغرفة المجاورة. كان الجميع يتحلّق حول شاشة الحاسوب. لم أعد أتمالك القدرة على الوقوف. جلستُ قرب كرسيّ ووضعتُ يدي على أذنيَّ.

عدُتُ إلى الواقع على صوت جدتي وهي تتأوه وتزفر بحرقة وتقول بداخلها: "كان أملي بالفرح يتبعثر كلما ركنت الكتاب جانبًا. أنا لم أعد أفيدك شيئًا. وأصبحتُ جثّة هامدة تنتظر موتها. أما أنت فالمستقبل أمامك وهو سعادتي".

اقتربتُ منها ومسحتُ على رأسها وحاولت أن أطمئن نفسها القلقة فقلت لها: "لا تخافي بفضل دعائك لن ينساني الله من رحمته".

دفعني الأمل المتنهد بين ضلوعي إلى النهوض نحو النافذة. نظرت إلى السماء كمن تبحث عن نور أمل يخفف ثوران النفس القلقة. بّدد الهواء زفرات خرجت من أعماق نفسي المصدوعة قلقًا. تسرّبت قطرات من العرق على جبيني وجفّ فمي. بردت أطرافي وتشتّت نظري وانقبض صدري ودبَّ الرعب بقلبي ..

فجأة علا صوت والدتي وهي تصفّق من دون أن تتمالك نفسها:

- "لقد نجحتِ يا أمل بمجموع كبير"

أصابني الجمود كأنني أحاول التأكّد باستمرار سريان الحياة في قلبي. ثم قفز قلبي فرحًا واحتضنتُ والدتي وإذا بزغرودة تجاهد للانطلاق من سجن آلامها إلى ميدان الفرح في غرفتنا. وقف الجميع مذهولين! من هذا المتسرّب الذي خالف تعليمات والدتي؟ أسرعنا جميعًا إلى مصدر الزغرودة وكم كانت دهشتنا كبيرة عندما كانت جدّتي تحاول جاهدة أن تضع يدها على فمها وتطلق الزغاريد بدموع تنهمر من عصارة قلبها المعلّق بي بعد أن فجّر الفرح صمتها الراقد في صحراء ألمها.

القصة القصيرة وبروتوكولات السرد ما بعد الحداثوي

معاينة في مجموعة سايكو بغداد لرغد السهيل

أ.د. نادية هناوي سعدون

ناقدة من العراق - كلية التربية - قسم اللغة العربية - الجامعة المستنصرية بغداد

تعزز الكاتبة رغد السهيل في مجموعتها القصصية القصيرة (سايكو بغداد[1]) المستوى الشكلي بالمستوى المضموني من خلال تركيزها المتواصل على التقانات بطريقة ابتداعية تتوزع بين الاشتغال الفانتازي لبنية السرد عبر توظيف الحلم، وبين الاهتمام باستعمال تقانة الكولاج الذي يقوم على جمع شمل المشتت بوساطة القطع واللصق، مع الانبهار الكبير بطريقة التكرار وفاعليتها في تصعيد السرد وتعقيده.

وهذه التقانات بمجموعها تنضوي ضمن ثيمة مركزية تهيمن على قصص المجموعة كلها وهي ثيمة الصمت وبهذا تصبح الذات السردية بوصفها الشخصية التي تؤدي دور البطولة في القصة عادة هي الضحية التي تلفها الغرائبية بالوجع ، ويلجمها الواقع بالخرس، حارمًا إياها من حريتها وزاجًا بها في دوامة تراجيدية لا نهاية لها وفي ثوب من الكوميديا السوداء الموجعة ..

وينبع إيثار الذات للصمت على البوح من سلبية إدراكها أنها غير قادرة على المجابهة وتلك هي لب معاناتها الإنسانية التي تطفو فوق ذلك التيه في لحظات من الأشياء التي لا علاقة لها بالموضوع كأنها هي صوت الجماعة المغمورة[2] ..

ولقد أجادت الكاتبة في الذي أرادت توصيله من أن الذات لن تخرج عن المعتاد إلا والصمت خيارها طارحة أسئلة صادمة وإجابات متهرئة بالتناقض والتضاد واللافهم حيرة وتشظيًا.

وبسبب الصمت غدت الذات السردية كينونة مضغوطة فكريًا ومقموعة جسديًا في هيأة كيان صوري، ومن الجدير بالإشارة إليه هنا أن المفكر ديكارت بفلسفته العقلية كان قد دحض خيار الصمت واجدًا أن العقل المضمر هو سذاجة لعقل صامت وملازمة لوعي صامت يعتمد كلية على مآثر اللغة. بينما وجد الفيلسوف هوسرل أن امتلاك عالم الصمت ليس هو ذلك العالم الصامت إنه العالم المنطوق المرفوع إلى مستوى الكينونة ولذلك لن يكون الصمت هو الضد للغة[3].

وعلى مستوى الاشتغال الفنتازي نجد أن القاصة وبسبب انبهارها بالنظريات العلمية تسعى إلى التجريب السردي وبما يضاهي تلك النظريات وربما يفندها ناسفة مبدأ العلة والمعلول متجهة صوب الفنتزة التي بها تمزج الخيال العلمي بالمخيال السردي، فتهيم الذات في الواقع متوسلة بالفنتزة لعلها تدين الواقع أو على الأقل تحتج على وحشيته وبشاعته.

وقد تعمد أحيانًا إلى خرق المألوف سلبًا بالخيانة والانتحار والجنون والوهم .. وغيرها من الصفات الموسومة باللااكتراث وعدم المبالاة..

علمًا إن الذات عندها في الأغلب هي أنثى ساردة كانت أو مسرودة، كما هو الحال في قصة (قواقع نوح) إذ تلعب الفنتازيا دورًا محوريًا في توليد خيالات الساردة وأوهامها التي يكون القصد منها رفض الواقع المرير عبر جعل البحر معادلاً موضوعيًا للتاريخ أما قواقعه فإنها أمكنته الأثيرة التي كادت أن تخطف وتزول في دوامة شبيهة بمتاهة جيمس جويس.

وإذ تحاول الساردة عبثًا إنقاذ القواقع من السطو والاختطاف، فإن الحلم سيكون هو وسيلتها الوحيدة التي بها تقطع بؤرة السرد وتؤنسن البحر وهكذا تسود الفنتزة خط السرد فتظهر شخصيات وتختفي أخرى وتتوالى تساؤلات وتتناوب ضمائر السرد الثلاثة..

وتؤدي الفنتزة الموضوعية في قصة (جناحا أنثى) إلى تمكين الذات المأزومة من التحليق لعلها تستعيد مركزها وتستقر في مكانها قالبة مقولة أن العالم يستقر على قرن ثور إلى مقولة استقراره على جناحي أنثى.. لكن البطلة آمنة المستكينة التي نما لها جناحان صارت ترقص رقصة الطائر المذبوح ليتغلب القط الأسود عليها معلنًا إن الظلام والاستلاب وكبت الحريات سيظل يهدد الذات المؤنثة في كل زمان ومكان..

وتقف الذات في قصة (أنف التفاحة) مكتوفة اليدين أمام هلعها وهي ترى الوطن يتقسم ويغدو كأنه التفاحة التي ما عدنا قادرين على رسمها .. وبالسؤال "أين الأنف المثلث في الخارطة؟"[4] تتحول التفاحة إلى ترميز للانتماء والاحتواء وقديمًا كانت التفاحة ترمز إلى الوليمة التي تخاصمت الإلهات عليها والتفاحة الذهبية هي العالم الذي تشكل من الأضداد لكن التفاحة في القصة تغدو هي الخارطة التي يبغي الابن رسمها فتختلط الرؤية على الوالد "نعم يا ولدي ارسمها كما هي بالكتاب هكذا ويحرك القلم على ورقة بيضاء تأبى أن تطاوع فيها الخطوط يسقط القلم .."[5]

وتتشظى الذاتان اللتان تكونان على طرفي اتصال هاتفي بين داخل العراق وخارجه في قصة (شجن المانوليا) بالمفارقات الساخرة فتؤنسن زهرة المانوليا بتحولات تشتت بنية السرد بين موضوعة الانفجار وموضوعة السيجارة.

وتتفرد قصة (أرانب بغداد) بكونها عبارة عن قصص قصيرة جدًّا اجتمعت في متوالية سردية، والذات فيها تبدو عاجزة عن الاحتجاج على الموت الجماعي فتؤثر الصمت ويسهم استعمال الفعلية المضارعة في توكيد ديمومة عجز حيوات القصة وتعاستها.

وتتحول حيوات قصة (أحذية مجنحة) إلى ديكة ودجاج وطيور، وبفنتازية تسارع النساء إلى ارتداء أجنحة يطرن بها إلى القمر أما الساردة بضمير الأنا فتظل في منأى عن الفنتزة لكونها تجد ذاتها منفصلة عن الأخريات منكفئة على نفسها بفردانية تعزلها عما حولها وهي تبحث عن حمارها" أحببت حمارًا نعم أحببت حمارًا" أما هي فلا يهمها سوى التواجد قرب نقاط التفتيش لعلها تعثر على هذا الحمار.

وبهيام فنتازي يتحول الجنون إلى رسالة توجهها بطلة قصة (كرنفال عقلي) إلى المجتمع الذي ألجم طموحاتها متنقلة في المدينة بانسيابية كحسناء تسير هائمة عارية حتى إذا التف حولها الجمهور أضرمت النار فيهم "هي لم تكد كيدا كانت فاكهة لذيذة اللذة تستحق المغامرة آدم يعترف: لماذا كل هذا اللغط أنا الذي اخترت؟ فاكهة لها ذيل يمتد على مدى العصور أحيانًا خيوط رفيعة تفصل بين التابع والمتبوع أحواء هي التي تتبع الإيقاع؟ أم الإيقاع كله ترسمه حواء؟ أي حواء وأي آدم وأي إيقاع القضية فيها كرنفال". ص103

ولا غرو أن تطرح الشخصية تساؤلات تبغي من ورائها أن لا تعبأ بالآخرين لأجل أن تنصرف إلى حلمها في التحرر والحرية وهذا تدليل رمزي لقوة الجنون حين يكون كرنفالاً لانطلاق العقل وهو ما يتعالق مع حادثة حرق الشاب التونسي بو عزيز لنفسه احتجاجًا على قمع الحريات أذبان ثورات الربيع العربي أما هنا فإن الجسد الأنثوي يرمز للحرية التي يكون في أوارها استنهاض للإمكانيات النسوية وقدرتها على التغيير.

وتهيمن الفنتزة الدرامية في قصة (وهم إيقاع) باستباق وميتا سرد كي تسف التراث الذكوري ممثلاً بابن حزم وحمامته لتحل محله الأنثى وقد غدت هي حمامة ما بعد الحداثة.

وتكون الفنتازيا صادمة في قصة (حارس الورق) لكون الذات معوقة بالخوف على الكتب من جرذ مزعج" آه يا بورخس كان عليك أن تدلني على الطريق الحقيقي لمكتبة بابل"[6] مع تساؤلات وتناصات لأسماء روايات ويعم العوق ليصل إلى الوطن فلا يغدو إلا مستحقًا الخيانة وتموت دجلة وأبو نواس والحلاج وتنتهي القصة بمشهد لحلم غير منته حيث السارد يرى كتبه تمشي على الأرض هاربة وقد نبتت لها أجنحة وطارت.. وجرذ كبير قابع فوق الفردوس يقضم الورق بهدوء..

وعلى الشاكلة نفسها من الترميز يوظف الحمار في قصة (أحذية مجنحة) تأثرًا بالطريقة التي وظف فيها الحمار رمزًا في الأدب كما في كتاب الحمار الذهبي أو كتاب التحولات لابوليوس الذي انقلب بفعل السحر العنيف إلى حمار..

ولأن الإنسان المعاصر لا يستطيع أن يتجاوز الزيف والبلاهة والتخاذل لذلك صار كيانًا مزيفًا وقد جسدته الكاتبة في شكل نزوع كافكوي يقوم على التحول اللاواعي المفنتز حيث يتضاد التصور بما يعاكسه "سأراه اليوم أنني واثقة لأن تيشخوف وإن لم يكن حمارًا إلا إنه مفكر من طراز متميز"[7] .

وما من تلهف فكري إلى الانتظام والترتيب، ولا تناغم كوني نحو التنظيم إلا وتسعى القاصة إلى تفخيخه ولغمه من خلال التحول الفنتازي في هذه القصة وكأن القاصة تحاول استعادة بدائية الصور الرمزية، على شاكلة ما كان يفعل لويس كارول في أليس في أرض العجائب أو بورخس في أحلامه الفنتازية "فالديوك منتوفة الريش إلا بعض ريشات منتصبة فوق الأعراف أما الدجاجات فبلا أجنحة ربما تعرضن إلى طفرة وراثية جعلتهن جميعًا على هذه الهيئة. شعرت باختناق وضيق في التنفس بحلقت بالوجوه كلها باحثة عن شبه ما لحماري شعرت كأنني كائن غريب بينهم لست من فصيلتهم"[8].

والبغية من وصف البشر بهذه الصور اللامعقولة هو تعبير رمزي عن التشويه والتحول الذي طال الذات الإنسانية فضلاً عن السخرية من حالة الارتباك والقبح التي عمت الحياة المعاصرة وهكذا يتحول مجرى قصة أحذية مجنحة من التكلم إلى الخطاب "أطلب منكم مساعدتي في البحث عن حماري وهو سيتكفل بقضية الطيران من كافة الزوايا والأجنحة والأحذية والألبسة لكن أرجوكم ألا تخلطوا بينه

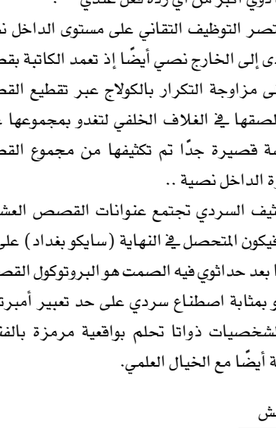

وبين حمار الحكيم فحماري عراقي أصيل"[9].

وتنحى قصة (الموت بالآجل) نحو الميتاسرد الذي يشتغل على تيار الوعي باستعمال التكرار على طريقة أرنست همنغواي، مستعملة عبارة (كان فتيرًا معدمًا يتحرك في المكان) التي تضعها أينما وردت في القصة بين قوسين كبيرين.

وعلى الرغم من قصدية الفنتزة والتدويم إلا إن الصمت يغدو هو الأكثر بلاغة من الكلام "حرت بأي شيء أرد عليه للصمت دوي أكبر من أي ردة فعل عندي"[10].

ولا يقتصر التوظيف التقاني على مستوى الداخل نصي، بل يتمادى إلى الخارج نصي أيضًا إذ تعمد الكاتبة بقصدية واعية إلى مزاوجة التكرار بالكولاج عبر تقطيع القصص وإعادة لصقها في الغلاف الخلفي لتغدو بمجموعها عبارة عن قصة قصيرة جدًا تم تكثيفها من مجموع القصص القصيرة الداخل نصية ..

وبالتكثيف السردي تجتمع عنوانات القصص العشر مع بعضها فيكون المتحصل في النهاية (سايكو بغداد) على نهج عولمي ما بعد حداثوي فيه الصمت هو البروتوكول القصصي الذي هو بمثابة اصطناع سردي على حد تعبير أمبرتوايكو يجعل الشخصيات ذواتا تحلم بواقعية مرمزة بالفنتازيا ومتناصة أيضًا مع الخيال العلمي.

الهوامش

1 - سايكو بغداد قصص، رغد السهيل، دار الأدهم للنشر والتوزيع، مصر، طبعة أولى، 2013

2 - ينظر: الصوت المنفرد مقالات في القصة القصيرة، فرانك اوكونور، ترجمة د. محمود الربيعي، ومراجعة محمد فتحي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 42/1969

3 - ينظر: المرئي واللامرئي، موريس ميرلوبونتي، ترجمة سعاد محمد خضر دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، 1987/ 164.163

4 - م .ن/ 31

5 - م .ن/ 30

6 - سايكو بغداد/ 132

7 - م .ن/ 83

8 - م .ن/ 90

9 - م .ن/ 97

10 - ينظر: م .ن/ 87.69

قراءة في رواية "الأخوة كارامازوف"

أثير التويجري

شاعرة وكاتبة - السعودية

في المجال الواسع بالكتابة تبعثر الكلام واجتمعت الأقلام وتجمعت الأصوات وبدأت بخطبة جمالية التي تدور حول هذه الرواية فوجدت في هذه الرواية المليئة بالأدب لمسة من جمال الأدب الروسي الذي أضاف لها شيء من الفن كما اعترف به على أنه أعظم ما كتب دوستويفسكي، فرأيت إن الكاتب نفسه في هذه الرواية دار حول الأمر المعرف به وهو مقاومة المادية الفلسفية.. وفقدان العقيدة، والأفكار الأوروبية عن العلم التي طغت على عقول الشبان الروس في عصره.

والكاتب دوستويفسكي بدأ روايته بالصراع بين الأب العجوز وابنه ديمتري على امتلاك غروشنكا والاستئثار بها، فحمل في نفوس القراء بعض من الشعور مثل الألم وباقي المشاعر التي باءت إلى الوصول للشيء المطلوب وهو أن يعيش القارئ أجواءها حرفًا بحرف وهذا ما أراد أن يوصله لنا الكاتب الكبير دوستويفسكي فالرواية أقبلت على فن الأدب الكبير التي رست لنا صورة كيفية تشكيل الأدب الروسي من منطلقه، وسأكمل أيضًا بأن هذا الصراع عن مقتل الأب الذي قام به أحد أبنائه، فمن منهم القاتل؟ وقارئ الرواية ينتقل في ثلاثة مستويات.

مقتبس "مستوى حياة أسرة كارامازوف، ومستوى لن أسرده ستكتشفونه في الكتاب، ومستوى التفكير الفلسفي الذي تضمنته الرواية.

الابن البكر ديمتري يمثل الاسترسال مع الرغبات الجامحة والشهوات المنطلقة بغير عنان وعدم القدرة على السيطرة على النفس، وأخوه إيفان يمثل كبرياء المعتزين بالعلم والذين فقدوا يقينهم الديني وعذبت نفوسهم الشكوك، أما أليوشا أصغر الأخوة فيمثل النزعه ... أيضًا ستكتشفونه في الكتاب، ويصل دوستويفسكي إلى قمة الإجادة الفنية في تصويره للقارئ لرأس الأسرة فيودور كارامازوف، فهو رجل تتمثل فيه القوى الشيطانية، وباقي الوصف لن أحرقه عليكم، ويحلو له أن يعلنها على الملأ ويفاخر بهما، وقد وصلت فيه النفس الإنسانية إلى أعمق المنحدرات السقوط في الأوحال.

وقد أجاد دوستويفسكي أيضًا في تصوير شخصية سمردياكوف، من الفتاة البلهاء ليزاقيتا.

شاهدتم معي كيف هي روايته مليئة بالأحداث اللا متناهية كما أن الكاتب استخدم من وجهة نظره الألم وعنده هو الذي يجلو جوهر النفس ويبرز حقيقتها كما قال.

وربما أخذ على دوستويفسكي بعض مريديه وقرائه ولعه بتصوير الشخصيات الطبائع المنتكسة وكثرة المرضى التي تعج بها رواياته، وقصصه القصيرة وأقصوصاته أيضًا، وهو يواجه الشر ولا يغمض دونه الطرف أو يغالظ نفسه في حقيقته، ويرى قبسات النور خلال الظلام الحالك، وكيف تفوح أزاهير الخير بين أشواك الشرور الملتفة.

والحق أن كثيرًا من الشخصيات التي يعرضها على أبصار القراء ويحلل دوافعها، ولكن الكتّاب الكبار حينما يتعرضون لكشف المغامرات الإنسانية، ويصفون تجاربها المريرة، لا يختارون شخصيات من الطراز العادي المألوف، وإنما يعرضون شخصيات من طراز هاملت ودون كيشوت والملك لير. ويحاول دوستويفسكي أن يواجه الشر ليستخرج من ثناياه الخير، فرواياته برغم ما فيها من المآسي المحزنة الدامية تحمل إلى الإنسانية أيضًا رسالة الأمل المشرق.

والرواية تتناول مشكلة العلاقة بين الخير والشر، وبين الضرورة والحرية، ليس مقتبس "وبين الألم والمشاعر الهائلة، فالرواية الجيدة تحمل في نفوسها مشاعر هائلة من ألم وفرح وحزن وبكاء هكذا.

✺ تفوق الرواية نفسها

فعندما نرى أن الروائي يمثل لنا الرواية على طريقته الإبداعية من حيث تصوره لنا الشخصيات في لغة متعمقة وسلسلة يستطيع أن يفهمها القارئ هنا نقول أن الكاتب عظيم.

مقتبس "وعندما نستوقف قليلاً ونتكلم حول المؤلف الكاتب الروائي الروسي العظيم فيودور ميخائيلوفتش دوستويفسكي يصل لرؤيتنا صور متعمقة، فأمامنا كاتب قد نلمح بعض الهنات في فنه وأسلوبه، وقد نخالفه في بعض نزعاته المذهبية، واتجاهاته الفكرية، ولكننا نشعر مع ذلك شعورًا قويًّا بأن هذا الرجل لا يستطيع الإمساك عن الكتابة والتوقف عن تسجيل الخواطر التي تعاورته وتكاثرت عليه، والعواطف والأحاسيس التي جاشت بنفسه واستبدّت به، وغلبته على أمره، والتجارب التي مر بها وخاض غمارها، بل إنه ليُخيل للإنسان بعد قراءته أن قوى مجهولة قد سيطرت على شخصيته ولم تترك له الخيار، فهو مرغم على الإبداع الفني.

والظاهر أنه كان مقدّرًا له من أول نشأته وطالعة أمره أن يفتح عينيه أول ما يفتحهما على مناظر البؤس والشقاء والألم. فقد ولد في يوم 11 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1821 في مستشفى للفقراء في موسكو كان يعمل فيه أبوه طبيبًا جراحًا، وكانت الأسرة تقيم في جانب من هذا المستشفى، وكان الكتاب المقدس وتاريخ روسيا الذي ألفه المؤرخ الروسي نيكولاي كارامزين هما أول ما قرأ من الكتب.

ليس مقتبس "الكاتب دوستويفسكي كان يحب القراءة كثيرًا مما أدت إلى صقل موهبته في تأليف روايات. أيضًا وجد نفسه في ظاهر ألم تجارب مثل المشهد الذي أعطى الشبان الثائرين درس قاس فلقد وضع دوستويفسكي بتجارب قاسيه.

مقتبس "في الدقائق القلائل التي كان ينتظر فيها الموت لا يعرفها حق معرفتها إلاّ من كابد أمثالها".

ليس مقتبس "وأدت تلك التجربة المؤلمة إلى إيجاد رواية لينفس بها ويضع جميع مشاعره من ألم وفرح وحزن وبكاء".

معلومات عن الكتاب:

الكتاب: " الأخوة كارامازوف" 4 أجزاء

المؤلف: دوستويفسكي

المترجم: سامي الدروبي

الناشر: المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - بيروت

عدد الصفحات: 1640 صفحة

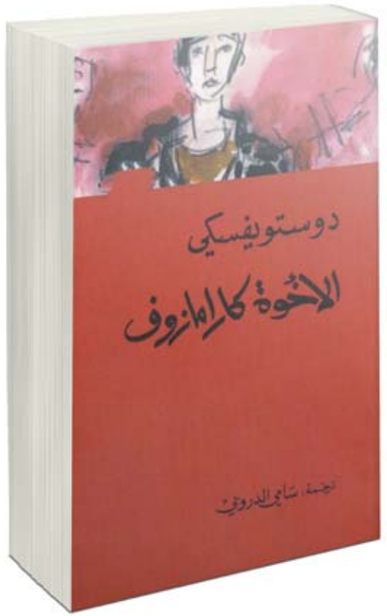

مقتبس «فكتب فيودور لأخيه يقول «لقد عرفت المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في توبولسك» وفي أومسك وطنت نفسي على أن أعيش معهم أربع سنوات، وهم قوم غلاظ غضاب ناقمون، وهم يكرهون العلية كراهية لا حدّ لها، وينظرون إلينا بعين السخط والنفور، لأننا ننتسب إلى تلك الطبقة، ولو أنهم استطاعوا وتيسّرت لهم الأسباب لما أبقوا علينا، فقدّر لنفسك مدى خطر الذي كان يتهددنا ونحن نعاشر هؤلاء الناس خلال سنوات ونؤاكلهم وننام معهم ولا سبيل لنا للشكوى من الإهانات التي كانوا لا ينفكون يوجهونها إلينا ويقذفوننا بها -مئة وخمسون من الأعداء لا يتعبون من اضطهادنا- إنهم يجدون في ذلك سرورهم ومسلاتهم ومتعة لقضاء أوقات فراغهم، وكان منجّنا الوحيد هو عدم اكتراثنا وتفوقنا الأخلاقي الذي كانوا يجدون أنفسهم مضطرين إلى الإقرار به واحترامه».

وهكذا، بعد أن كاد يذهب بعقله النجاح الذي صادفه في مطلع حياته الأدبية واستطارت شهرته في آفاق روسيا.

والجدير بالملاحظة أنه يشير كثيرًا دوستويفسكي في مؤلفاته إلى مرض الصرع وأعراضه بوجه خاص، ولا شك أن أمثال الحالات الوعي الإنساني تثير مشكلات كثيرة، فمن الواضح أن الإنسان المطبوع على التفكير وإخضاع كل شيء لسلطان العقل وحكم المنطق لا يستطيع أن يجنّب نفسه توجيه هذا السؤال، وهو: هل هذه الومضات المضيئة عن ذلك التناسق الأعلى لها قيمة موضوعية أو هي مجرد أوهام وأخيلة ذاتية؟ ومعنى ذلك أن الإنسان المفكر يحاول أن يجد سندًا عقليًّا للحقائق التي تطالعه في هذه الحالات، ولكن لمّا كان الحصول على هذا السند العقلي من المسائل المتعذّرة لذلك يظل التعارض قائمًا والتوتر شديدًا بين هذين اللونين من ألوان الحق، وهذا الصراع يبدو واضحًا في نفوس الكثيرين من أبطال رواياته.

(الأخوة كارامازوف)

تعد رواية (الأخوة كارامازوف) في رأيي النقاد العالميين دليل على توقد قريحة دوستويفسكي، ونفاذ بصيرته، وهي معرض مزدحم بضروب الدراسات النفسية والخواطر الفلسفية، يقول عنها العالم النفسي سيغمنت فرويد في الفصل القيم الذي كتبه عن دوستويفسكي: «الأخوة كارامازوف هي أعظم رواية كتبت، وقصة كبير المحققين في محكمة التفتيش الواردة فيها إحدى القمم الشمّاء في الأدب العالمي، وقل أن نستطيع المبالغة في مدحها، ولا يمكن أن يكون من قبيل المصادفة أن تدور حوادث ثلاث روايات من الطرف الأدبية الباقية على الدهر، وقد أجرى دوستويفسكي الكثير من آرائه واتجاهاته على لسان الأب زوسيما، ولكن المؤلف مع ذلك لا يفقد الأمل ويقول على لسان زوسيما نفسه هل يمكن أن يكون حلمًا أن الإنسان في النهاية وخاتمة المطاف سيجد سروره وارتياحه في الأعمال المضيئة والصنائع الإنسانية، إني أعتقد أننا سوف نحقق هذا الشيء العظيم، وكم من الأفكار الكثيرة التي غشيت الأرض في تاريخ الإنسانية كانت لا تخطر بالبال قبل ظهورها بعشر سنوات، وحينما حان حينها وحلّ موعد ظهورها قدمت وانتشرت في أصقاع الأرض جميعها».

ليس مقتبس "هكذا يبدأ الكاتب العظيم رواياته أن يستجد بها بشيء من الواقع الذي عاشه، وفي الرواية نرى لمسات جمالية عن ظهر غائب لا يلاحظها القارئ إلا المتعمق وفي الأخير نختم الكلام بأن دوستويفسكي قدم لي رسالة تحت عنوان .."

«أن هذه الحياة مليئة بالتجارب والمغامرات فعشها بحلوها ومرها فهي زائلة وليست باقية».

أثر القرية: الكاتبة سوزان بينكر تقدم أدلة على فوائد التواصل المباشر

أعد المراجعة : كاثرين ويلسون Catherine Wilson

18 أبريل 2015

مراجعة : عمر عثمان جبق

محاضر في كلية المجتمع بالرياض

منذ عدة أجيال والدراسات في مجال علم الأعصاب وعلم الاجتماع وعلم الأحياء السلوكي وعلم النفس تدعم الاقتراح القائل إن الترابط الاجتماعي والألفة البشرية مفيدان للصحة والسعادة. وتظهر كل هذه الدراسات أن العلاقات القوية هي مؤشرات على طول العمر، وهي أفضل بكثير من التمارين الرياضية المنتظمة والامتناع عن الكحول أو الدخان أو تنفس الهواء النقي أو التمتّع بالصحة.

تبحر سوزان بينكر، أخصائية علم النفس الكندية، في كتابها أثر القرية: لماذا التواصل وجهًا لوجه مهم؟ بالقارئ في عدد كبير جدًّا من الأدلة التي تدعم فرضيتها أن التواصل وجهًا لوجه مهم جدًّا في عصرنا الرقمي. وتظهر العديد من الدراسات " أننا وحيدون، وغير سعداء أكثر مما كنا في العقود التي سبقت عصر الإنترنت"، و تؤكد بينكر على أن العلاقات الاجتماعية خارج النت تبقى مهمة للصحة كأهمية الطعام والنوم. ويمتاز الترابط من خلال الإنترنت بمحاسن ومساوئ، إلا أن الاستثمار العميق في العلاقات خارج النت يجعل التخلص من أشكال عديدة من الأمراض أكثر احتمالاً (بما في ذلك السرطان) مما لو كنا منعزلين أو غير متواصلين. وإذا كنا من روّاد دور العبادة بانتظام فإنّ المعاناة من أمراض انتكاسية كالخبل أو الجنون تكونُ أقل احتمالاً لدينا.

وتشير الأدلة التي جمعتها بينكر من علم الاجتماع وعلم الجزيئات إلى أنّ لهذا الترابط القوي علاقة بالشعور بالانتماء أكثر من المعتقدات الروحية؛ إذ أنّ الترابط الحميم يحفّز أجسادنا على انتاج البيتيدات العصبية neuropeptides ، مثل هرمون الأوكسيتوسين oxytocin وهرمون الفاسوبريسين vasopressin، التي بدورها تقوي نظام المناعة، وتزيد من مقاومة الإجهاد والضغوطات. ومن ناحية أخرى فإن "العزلة الاجتماعية تقتلنا" جزئيًا لأنّ تجربتنا الذاتية للوحدة يمكنها أن تؤثر على عملية انتاج الجينات الوراثية، وتوقف عمل المضادات الحيوية.

وعندما تستخدم الكاتبة ضمير المتكلم "نحن" فإنها في الغالب تقصد سكان أمريكا الشمالية. وربما تكون كتابات العلوم العامة للصحفيين مالكولم جلادويل Malcolm Gladwell أو ديفيد بروكس David Brooks قد هيأت قرّاء كتابها المنشودين، إلا أنها تبدو أكثر حذرًا ودقة من العديد من مروجي العلوم (يصادف أن يكون أخوها Steven Pinker عالم الأحياء الثوري من أكثر الكتّاب مبيعًا). ومن الجدير ذكره – للأسف - هو أن أدوات سردها الطويل تضع الكتاب في 418 صفحة من غير ضرورة لذلك.

تستهل الكاتبة بينكر كتابها بقصة جون ماك كولجان McColgan John المحتاج إلى عملية زرع كلية، وقد وفّرت له دائرة أصدقاءه الكبيرة ثلاث كلىً متطابقة على الأقل. وكان هذا العرض غير عادي بالنظر إلى أن احتمال وجود كلية متطابقة أمر غير ممكن من الناحية الإحصائية. ما هو المغزى من هذه القصة؟ المغزى هو أن الروابط الاجتماعية القوية يمكنها إنقاذ أرواح البشر.

ومن خلال الكتاب تقوم الكاتبة بينكر بإدراج مثل هذه القصص المقتبسة من دائرة معارفها الاجتماعية أحيانًا، ومن الروايات وتقارير وسائل الإعلام أحيانًا أخرى. وعندما تقول إحدى شخصيات رواية جوناثون سافران فور Jonathan Safran Foer بعنوان كل شيء موضّح Everything Is Illuminated: "يا هكذا تكون القرابة الأسرية"، فإن الكاتبة بينكر تشرح ذلك قائلة: إن الشخصية على حقّ فعلاً، "أم لا!" فتكتب بينكر قائلة: " كتب جان بول سارتر Jean-Paul Sartre قبل ستين سنة يقول:" الجحيم هو الناس الآخرون." وتقصد هنا أن سارتر كان مخطئًا. ولا تعود الكاتبة إلى كلام سارتر الموجز والمأخوذ خارج سياقه مرة أخرى في بقية كتابها.

وعندما لا تتناسب هذه القصص المدرجة تدريجيًّا مع انسياب السرد تناسبًا جيدًا فإن الكاتبة بينكر تلجأ إلى تغييرات سلسة مثل قولها "قد يكون هذا بمثابة منعطف لطيف في قصتي إذا لم يوضح العديد من النتائج العلمية القوية." والمشكلة هي أن القارئ لا يحتاج إلى مثل هذه المنعطفات والإيضاحات؛ إذ أن الأدلة قوية وواضحة جليًّا. ولكي توضّح بينكر بعض سمات التزامن الجماعي تكتب قائلة إن ابنها إيريك Eric كان يراقب الطيور، وقد لاحظ أن سربًا منها ينطلق في آن واحد. وبعد ذلك تقدم بينكر تفاصيل غير ضرورية للقارئ عن تقرير جسر لندن الألفي London Millennium Bridge حيث "يلحق" الناس بإيقاع مشي المشاة الآخرين.

ولكن القارئ الذي يُخاطب بضمير المخاطب يفهم ذلك جيدًا، على الرغم من أن صوت الكاتبة بينكر السلطوي قد يبدو كمن يتعامل مع طفل صغير. ولدى شرح الكاتبة للقوى الاجتماعية التي تؤثر في سلوكنا تلاحظ قائلة:" يطلق علماء الاجتماع على هذه الآثار الدقيقة "عوامل الشبكة الخارجية" التي هي في الواقع عبارة عن طريقة رائعة للقول إن المتعة والفائدة من قيامنا بأشياء سويةً تفوق قيام المرء بهذه الأشياء وحيدًا." وكنّا قد فهمنا ذلك مسبقًا. فهمناه قبل فصلين مضيا من الكتاب!

وفي النهاية لا بد من الاعتراف أن بينكر تقدم لنا قصصًا جميلة في طيات الكتاب. وتمنح تجاربها المفيدة مع إحدى القرى البعيدة في مدينة سردينيا الإيطالية البعد الإنساني والوجداني لأدلتها العلمية الهائلة التي تظهر أن المجتمع، بالمقياس البشري، مهم جدًّا للصحة الجيدة وطول العمر والسعادة.

معلومات عن الكتاب:

الكتاب: أثر القرية: لماذا التواصل وجهاً لوجه مهم؟

المؤلف: سوزان بينكر Susan Pinker

تاريخ النشر: 20 مارس 2015

الناشر: Atlantic Books (March 20. 2015)

عدد الصفحات: 418 صفحة

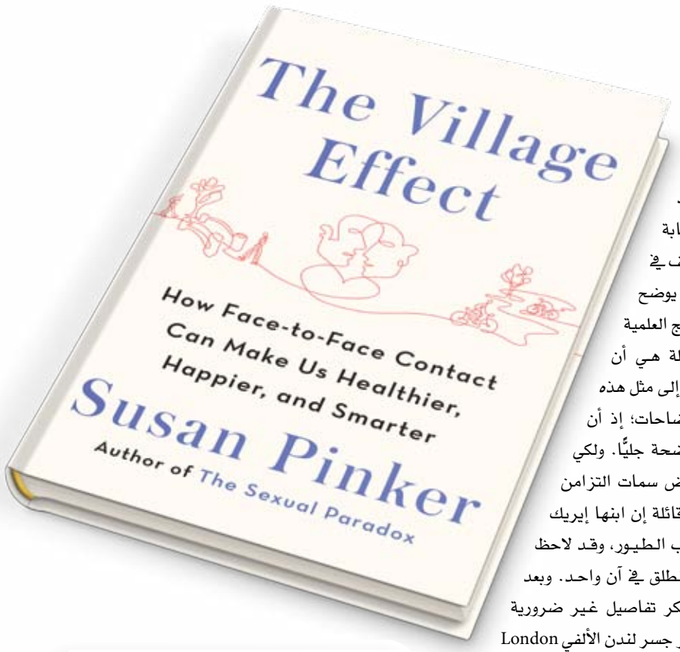

> ومن خلال الكتاب تقوم الكاتبة بينكر بإدراج مثل هذه القصص المقتبسة من دائرة معارفها الاجتماعية أحياناً، ومن الروايات وتقارير وسائل الإعلام أحياناً أخرى.

قراءة في كتاب:
"مدخل إلى فن القيادة"

د. أشرف صالح محمد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة ابن رشد - هولندا

مقدمة:

يمر العالم ومنذ فجر الألفية الثالثة بمرحلة تحول من عصر المعلومات إلى عصر المعرفة، والذي أحدث أثرًا عميقًا على البيئة التكنولوجية والمعلوماتية للمنظمات. وقد أوجدت العولمة تحديات كبرى لمنظمات الأعمال ممثلة في إنشاء "منظمة التجارة العالمية" (WTO) كإحدى أهم المنظمات العالمية في تاريخ العالم الحديث، والتي تسعى إلى تحرير كل أوجه التبادل السلعي والخدمي في العالم من كافة القيود الجمركية وغيرها، وسطوة الشركات العملاقة متعددة الجنسيات – والتي تتجاوز ميزانيات بعضها الدخل القومي للكثير من الدول – في عالم مفتوح الفضاءات مفتوح الحدود تتدفق فيه المعلومات والثقافات والسلع والخدَمَات والاستثمارات والأموال والخبرات والتكنولوجيا بدون حواجز بين الدول بفعل اتفاقيات تحرير التجارة.

هذا الواقع شديد التعقيد، كثير المشكلات، سريع التغير، يتطلب من منظمات الأعمال أن تسعى إلى المواكبة لتستطيع البقاء في ساحة المنافسة العالمية الشرسة، وأهم أدواتها في تحقيق ذلك: القيادة الإدارية الواعية التي تتجه نحو تصميم بيئة تنظيمية إبداعية تتضمن أساليب وطرقًا مختلفة تستهدف تنمية قدرات الأفراد الإبداعية وزرع عناصر الإبداع الإداري في المنظمات. وللقيادة نظريات مختلفة تعددت باختلاف المدخل الذي يُنظر به إلى القائد، فبينما تناول بعضُ علماء الإدارة القيادةَ من خلال مدخل السمات الشخصية للقائد، نظر آخرون إلى سلوكيات القائد، وركز فريق ثالث على المواقف التي يعايشها القادة، وأيضًا اختلفت الأنماط القيادية باختلاف السلوك الذي يمارسه القائد مع المرؤوسين في سبيل تحقيق أهداف المنظمة. وقد أدى هذا الاختلاف الكبير في نظريات وأنماط القيادة إلى أن يقول أحد علماء الإدارة: «إن القيادة مثل الجَمَال شيء يصعب تعريفه ولكنك تتعرف عليه عندما تراه».

وعلى الرغم من كل هذا الاختلاف إلا أن الأدبيات الحديثة للإدارة اتفقت على أن منظمات القرن الحادي والعشرين تحتاج إلى القائد المبدع ذي السلوك التحويلي والذي يستطيع أن يواجه تحديات العولمة بأساليب مبدعة ويُحدث تغييرًا في الأفراد والمنظمات ككل، فالإبداع يدعم قوة أي منظمة في تميزها عن المنظمات الأخرى، كما أن الإدارة التقليدية أصبحت غير ممكنة في الوقت الحالي لما لها من عواقب وخيمة، فهي تُحوِّل الأفراد العاملين إلى بيروقراطيين وتسلبهم قدرتهم على الإبداع والتفكير.

الغرض من الكتاب:

رغم أنه كثيرًا ما كتب عن موضوع "القيادة"، إلا أنه موضوع محير، وقد أدهش المؤلف عدد الكتب التي تداولت موضوع تحليل القيادة، سواء من الناحية النظرية، التي تسعى إلى التعرف على موضوع مجرد يحدد القيادة، أو من وجهة نظر شخصية الرئيس التنفيذي لشركة؛ حيث شخصيته – التي عادةً ما يقال أنها "كاريزمية"- حيث تعد نجاحات هذا الرئيس نموذجًا للقيادة الفعالة. وفي حين أن هذه التوجهات المختلفة صحيحه جدًّا، فإنها تمثل إلى تجنب أقصى حد من الحقائق - أن تكون قائدًا- يومًا بعد يوم في ظروف صعبه ومتقلبة فلن تجد وقتًا للنظريات، كما أن التجربة لا تعطيك إحساس كونها نظرية، فإنها تبدو جميعها حقيقية جدًّا، فإن معظم القادة ليسوا من كبار المديرين التنفيذيين للشركات الكبيرة متعددة الجنسيات، فعليهم بطبيعة الحال أن ينجحوا، أو أن يكونوا من المشاهير.

في بيئة أعمال تجارية متقلبة على نحو متزايد، لم يكن هناك حاجة أكبر لقادة قادرين على تنظيم الأداء المتميز، حيث لا تمثل القيادة غاية في حد ذاتها، ولكنها تركز على الاستثمار الأمثل للتميز في مؤسسة كبرى ألا وهو رأس المال البشري، كما أن المتطلبات على القيادة هي أيضًا معقدة، وهي لا تتبع نمطًا محددًا؛ حيث إن التحديات ذاتها التي تمثل التقلبات العالمية والتي تتطلب استجابات القيادة الفعالة تتسم بالمرونة، وتعددية الرؤى التي تُعدّ ضرورية، وتكون ذات منظور دولي.

ربما يكون واحدًا من أكبر التحديات التي يواجهها قائد أي فريق هو ضرورة مواجهة مفارقة – خططت على أساس عدم اليقين؛ لتوفير قيادة مستمرة في مجال من عدم اليقين المخطط الذي لا يتطلب فقط مثابرة في الغرض ولكن أيضًا على الاهتمام بالتفاصيل- وفهم أن القيادة الفعالة لا تكمن في التصورات الكبرى ولكن في المشاركة الفعالة مع الناس في كل جانب من جوانب وجود المؤسسة اليومية المعتادة، لذلك فالقيادة الفعالة تكون الاهتمام بالاستراتيجية والتفاصيل، وهذا ما يحاول شرحه هذا الكتاب.

إن هذا الكتاب لا يُعنى فقط ببيان قواعد الإدارة، ولكنه يطرح أيضًا سبل تحسين أداء المرؤوسين من خلال احترام قيمتهم الفردية التي تكمن في داخلهم، وهو معني بمعرفة أن القائد الفعال يجب عليه أن يبث مثل هذا النهج عبر مجموعة متنوعة من الأنشطة.

محتويات الكتاب:

يتضمن كتاب "مدخل إلى فن القيادة" عشرة أجزاء (فصول)، تمثل المجالات الرئيسة التي سوف يواجها قائد فريق من أي حجم كقاعدة يومية، كما أن كل جزء فرعي مقسم إلى موضوعات عمل فرعية محددة، وقد كتبت جميع موضوعات العمل الفردي بشكل مستقل تمامًا، بهدف أن ينغمس القارئ في تلك التي يشعر أنها ذات أهمية بالنسبة إليه في أي لحظة في حياته العملية.

1 - شخصيتك القيادية:

مع أن قدرًا كبيرًا من القيادة يدور حول تناغم تميز الآخرين، فإنك بوصفك فردًا تمثل نقطة البداية، وعليك أن تدرك أن كلماتك وأفعالك تحدد وتيرة عملك. كما أن لسلوكك – منذ يومك الأول في مؤسستك أو مع فريقك – دورًا فاعلاً في تحديد أسلوب العمل على كل المستويات بالنسبة إلى التحديات والفرص التي يواجها فريقك؛ وكذا طبيعة العلاقات التي يتم تحديدها مع الموردين والشركاء؛ لتفهم ردود الفعل بالنسبة إلى السوق، وإلى موقف الإدارة من الناس. ولكن سلوكك على الوجه الآخر يتم فحصه بدوره – حيث يقوم المرؤوسون بمراقبتك لمعرفة الحدود التي قمت بوضعها، وما توقعاتك، وما السلوكيات التي تطلبها في المقابل، وعلى وجه الخصوص، فإن تلك العملية من التدقيق الشرعي تبحث هي الأخرى عن إثبات- والتمسك برسالتك وتطابق كلماتك مع أفعالك.

إن عددًا كبيرًا من أعضاء الفريق لهم وجهات نظر، فهم يرغبون في أن يكونوا من القادة وفي الوقت نفسه أن تتم قيادتهم –وهم يتلهفون للتأثير الفعال لكونهم أعضاء فريق يسعى وراء تحقيق أهداف ذات مصداقية تحت راية قائد ملهم، ولكن من المحتمل أن يكونوا مرتابين – ومن المحتمل أيضًا أن يكونوا متشككين- ومن المرجح أن يكونوا قد مروا عبر عملية تغير قبل ذلك، ومن الممكن أنهم كانوا يومًا من القادة، والأهداف تأتي وتذهب، لذلك يجب أن تدرك أنك توجه جمهورًا متشككًا، ومهمة كبيرة ألا وهي الاقتناع، وأنك سوف تلتقي مع أتباع مرنين وكذا مع مَنْ هم أشد في التشكك، وقبل كل شيء فإن كل أقوالك وأفعالك يجب أن تدعم رؤيتك.

ولكي تكون قائدًا فعالاً، عليك أن تبدأ بنفسك، عليك التأكد من الاستراتيجية "المناسبة" لسلوكك، وأن تكون مثالاً يُحتذى به، وأن يتم تحديد تلك الأمثلة، ومن الضروري أن تدرك أنك لا تقوم فقط بنقل رسالة، ولكن أنك أنت تلك الرسالة.

2 - الرؤية والاستراتيجية: (أيقونة القيادة)

سواء كنت ترأس فريقًا، أو عملاً صغيرًا، أو مؤسسة عمل بأكملها؛ فأنت في حاجة إلى التأكد من أن فريقك يملك إجابة شافية وواضحة عن أسباب وجودهم في هذا المكان، وخاصةً فيما يتعلق بالتالي: سبب وجود مؤسستك (رؤيتك)، خططك لتحقيق رؤيتك (استراتيجيتك)، أنشطتك الأكثر أهمية (أولوياتك). هذه الأمور لها أهميتها لأن الأداء النهائي في كل المؤسسات ما هو إلا مجموع كل الأعمال النوعية التي يؤديها كل أفراد فريق العمل، كما أن الأداء يتحسن دائمًا عندما يعمل كل فرد في الاتجاه نفسه وسعيًا وراء الأهداف نفسها. وقد يبدو ذلك واضحًا، ولكن عليك أن تدرك أن الرؤية، والاستراتيجية ليستا ببساطة مجرد سلسلة من كلمات تشملها خطط العمل، أو تلك التي قد تشتمل عليها اللافتات التي يتم تعليقها في المكاتب، بل التعبير عنها يتمثل في ترجمتها إلى أنشطة جميع الفرق في المؤسسة في مختلف الوظائف، ولتحقيق ذلك يجب أن تكونا واضحتين تمامًا؛ فالرؤية والاستراتيجية اللتان لا يمكن توصيفيهما بسهولة لا يمكنهما أن تستميلا القلوب والعقول.

ويعد دورك "مساعدًا"، إنك فرد تخضع في كل مبادراتك وكلامك لرقابة دقيقة من فريقك، فلكي تغرس الرؤيا والاستراتيجية في أذهانهم يجب عليك أن تراعي ذلك، ويجب عليك أن تُنمي لديك تدريجيًّا "أيقونة القيادة"، أي سلسلة من البيانات التي تحدد موضع مؤسستك، والتي تكررها دائمًا بوجه خاص، والتي تقوم بتضمينها بصورة واضحة في أعمال القيادة، كما يجب أن تكون مقتنعًا تمامًا أن رؤيتك، واستراتيجيتك قد تم فهمها على الوجه الصحيح، وأنه يتم تقبلها بصفتهما شريان الحياة للمؤسسة.

يجب أن تكو دقيقًا جدًّا عند التعامل مع مختلف الدوافع الاقتصادية، والقانونية، والثقافية التي تحرك عولمة البيئية التجارية؛ ولذلك يجب أن تفكر في التداعيات الرائدة على الصعيد الدولي، وكيف أن رؤيتك واستراتيجيتك تعكس التنوع والتعقيد الذي تتسم به عولمة البيئة التجارية، ولكن أينما تقود مؤسستك فتوجهك إلى التواصل يُعد شيئًا أساسيًّا، يجب أن تعمل على تكرار عناصر رؤيتك واستراتيجيتك أكثر بكثير مما تعتقد أنه ضروري، حتى لو شعرت أنك تقول الأشياء أكثر من اللازم، فهذا غير صحيح، فأنت لا تستطيع أن تكف عن تكرار أهدافك كثيرًا جدًّا.

اعمل على أن تثبت رسالتك عن الرؤية والاستراتيجية في شكل مجموعة من الأولويات المفهومة على نطاق واسع، كما أنك تؤكد على أن أفعالك وأفعال فريقك تركز على النجاح.

3 - فريقك القيادي:

يتمثل الفريق الذي تقوده في المجموعة التي تتبعك مباشرةً، والتي سوف تقضي معها ساعات عمل سواء بشكل فردي،

معلومات عن الكتاب:

الكتاب: "مدخل إلى فن القيادة"

المؤلف: مارك أندرسن Mark Anderson

المترجم: عايدة الباجوري

تاريخ النشر: 2016

الناشر: المركز القومي للترجمة – القاهرة

ردمك: 978-977-718-875-3

عدد الصفحات: 340 صفحة

أو جماعي خلال أيام العمل، وذلك أكثر من أي مجموعة أخرى في حياتك، بما في ذلك عائلتك، وبوصفها مجموعة فهي سوف تؤثر عليك، ويكون لها مغزى في حياتك بأكملها، تجربتك في العمل، وفاعليتك، ونجاح مؤسستك، أو فريقك، بالطبع يجعلك تشعر بالراحة.

معظم القادة يرثون فريقًا عند توليهم المسؤولية، وهذا لا يعني فقط أعضاء الفريق، ولكن سلوكياتهم الجماعية، والفردية؛ لذلك يجب عليك تطبيق أسلوبك في العمل الذي سوف تتبعه مع فريق أصبح تابعًا لك. في هذه الحالة، تحتاج إلى أن تضع الأسس التالية: (مجموعة واضحة لتوقعات الأداء – معايير للسلوك الفردي والجماعي – العلاقات الشخصية مع كل عضو من أعضاء الفريق – الهيكل التنظيمي للمؤسسة، والفريق كما تريده – ما إذا كان الأفراد التابعون لك يتناسبون مع الدور الذي تتوقعه منهم أم لا – ما إذا كنت بحاجة إلى تعيين فريق جديد أم لا).

إن علاقتك مع أعضاء فريقك يغلب عليها التناقض؛ بما أنك تتعامل مع أفراد تكرس لهم الكثير من الوقت، ولكن لا تستطيع توثيق علاقتك الشخصية بهم؛ لديك بدلاً "من ذلك عمل يتطلب منك وضعه في الحسبان؛ بجانب علاقة عمل مدفوعة تتطلب منك إقامة حواجز واضحة المعالم ومتميزة، لدية صداقة، ولكنها صداقة عمل، ولديها كثير من الأحاسيس وكثير من التحديات، التي تعلو وتنخفض، إلا أنه في نهاية الأمر، عليك أن تترك العمل وراءك وترجع إلى منزلك، والمنزل ليس دائمًا ببعيد أبدًا" فهو الملاذ الذي تلجأ إليه، لأنك بوصفك قائدًا يجب أن تحتفظ دائمًا بهذه الحواجز، وتعد تلك الحواجز ضرورية للمحافظة على التركيز؛ فإذا ما تعديتها وأدخلت هذا العامل الشخصي، فسوف يقوض قدرتك على التحكم في أداء فريقك، وبالتالي؛ فعليك أن تعي جيدًا أن هذه العوامل الشخصية في دورك بوصفك قائدًا قد تؤدي بك إلى العزلة، والشعور بالوحدة.

4 – قيادة مؤسستك:

بوصفك قائدًا من الجائز أن يتجاوز فريق عملك الزملاء الذين تحت قيادتك مباشرةً، فقد يصل مجال مسؤولياتك إلى فرق عملهم الفرعية، بل قد يمتد إلى كل فرد من الأفراد الذين ليسوا تحت قيادتك أيضًا، حتى إننا قد نصل في النهاية إلى فريق عمل يصل عدد أفراده إلى العشرات وربما المئات، لذا يجب أن تعي دائمًا أثناء تحديدك لأهداف عملك واستراتيجياته، بل وحتى في اختيارك لكلماتك وتوجيهاتك، أنك تخاطب وتوجه فريق عمل ضخم، عدده أكبر بكثير من عدد الزملاء الذين هم يتبعونك مباشرةً، كما يجب عليك العمل على تحديد حلول عملية وطرائق للتواصل بين هذا الفريق الضخم المتباعد الذي لا ترى معظم أفراده، هذه الحلول والطرائق يجب أن يكون القصد منها: (تدعيم الأهداف والغايات واستراتيجيات العمل – غرس منهجك في إدارة العمل والطريقة التي ترى أن العمل لا يستقيم دونها داخل المؤسسة – تغيير ثقافة المؤسسة إلى الطريقة الأنسب في رأيك – تحدي المعوقات العتيقة التي قد تعوق أداء المؤسسة وخططها المستقبلية – الارتقاء بأداء العمل – التماس معلومات مرتدة صحيحة وواضحة عن أداء العمل وثقافته).

مما سبق يتضح معنى أن القيادة تبدو مرادفًا لكلمة "الأداء"، فهذا صحيح، إن الأمر لا يتعلق بالتمثيل أو الزيف، ولكن الأمر يأتي بوضع نفسك في مكان يراك فيه الآخرون ويسمعونك، وهذا يتطلب كثيرًا من الجهد، والالتزام، والإصرار، والصبر والجلد، فالفوز بالقلوب والعقول أو حتى تغييرها لا يتأتى بسهولة، ويجب أن تقتنص نجاحك.

توجد دائمًا حاجة ملحة داخل بيئة العمل المتزايدة والمتقلبة باستمرار إلى قائد قادر على الأداء بمهارة، فالقيادة ليست غاية في حد ذاتها، ولكنها هي التركيز المستمر على التنشيط وتعظيم الاستفادة من تمايز المؤسسة في رأس مالها البشري، وفي السياق نفسه، نجد أن القائد لا يجلس على قمة التسلسل الهرمي كما كان قديمًا، ولكنه الآن وعلى العكس يجلس أسفل مصفوفة الموهوبين والمتميزين في مؤسسته، ويتمثل التحدي الأكبر بالنسبة إليك في ظهور تأثيرك الإيجابي على فريق العمل في سبيل إطلاق طاقاتهم، فقيادتك تظهر أحيانًا وبشكل متناقض في مرحلة السير على خطى أفكار كآرائك الخاصة.

5 – قيادة الأداء المتميز

إذا كان جوهر قيادة أي مؤسسة يدور حول ضمان توافق العمل فيها توافقًا تامًا مع الرؤية والاستراتيجية التي تسير المؤسسة وفقهما، فإن جوهر قيادة الأداء المتميز يدور حول الطريقة التي يتم من خلالها تنفيذ كل من الرؤية والاستراتيجية، فهذا النوع من القيادة ما هو سوى تعبير عن كيفية تحويل المفاهيم النظرية إلى أمور محققة، وملموسة على أرض الواقع؛ وتحويل الرؤية إلى حقائق، وتحويل الأهداف إلى إنجازات. وبشكل عام يمكن القول: إن جوهر القيادة يكمن فيما يطيب للناس أن يطلقوا عليه في بعض الأحيان "التناغم بين الكلمات والأفعال"، أي تحويل ما ترى المؤسسة القيام به إلى أفعال ملموسة على أرض الواقع.

هيا بنا ننطلق إلى رؤية المسألة بنظرة صريحة وواقعية، فمن البديهي أنه ما من أحد يحب الفشل في العمل، وإنما يرغب الجميع في أن تكون لديهم أهداف يمكن تحقيقها (أي بعبارة أخرى أن يكون لديهم فهم واضح لما هو متوقع منهم) وأن يعملوا في ظل مناخ يهيئ لهم فرصة عادلة لتحقيق النجاح، ونيل ما يستحقون من إشادة وثناء عندما يحققون ذلك. وفي حقيقة الأمر، فأننا جميعًا نتقبل النقد بصدر رحب عندما نعلم من صميم قلوبنا أن هذا النقد عادل، ويوجه إلينا بطريقة بناءة تسمح لنا بالتعلم، والارتقاء بمستوانا في العمل. وبلا شك ما من أحد يروق له العمل في ظل أهداف غير قابلة للتحقيق، أو في ظل عدم منحه ما يستحق من الثناء، والتقدير عندما يحقق نجاحًا ملموسًا.

وبوصفك قائدًا، ينبغي عليك أن تبدأ عملك باستثمار أحد أهم الأصول في مؤسستك؛ وهي فرق العمل التي ترغب في تحقيق النجاح حتى وإن كانت هذه الفرق لا تدرك أن بمقدورها تحقيق ذلك، حتى وإن لم يسبق استخدام هذه الفرق في دور المبشرين بالنجاح والحاملين لمشعله. وبوصفك قائدًا، فإن مهمتك هي العمل بحماس مع فريقك (أو فرقك)، وتوفير كل ما يحتاجون لتحقيق النجاح؛ وتقويتهم في الأمور التي يعانون فيها من ضعف؛ والقضاء على المشكلات التي تتسبب فيها سوء علاقات الأشخاص ببعضهم والتي لا طائل من ورائها، بل وربما تأتي بنتائج عكسية تؤثر سلبًا على العمل؛ ومهمتك أيضًا هي تحديد أهداف واضحة وعادلة يكون من الممكن تحقيقها؛ والسماح عند الضرورة للأفكار والفرص المبتكرة، والتي تمثل تحديًا كبيرًا بأن تسود وترسخ.

وفي الواقع؛ فإن ما تفعله هو ثقتك في تحقيق النجاح وغرسها في عقول أشخاص آخرين، وما من شك أن هذه ليست بالمهمة اليسيرة، وإنما على العكس تمامًا فهي مهمة شاقة، وعسيرة وخصوصًا إذا كان بعض هؤلاء الأشخاص قادرين بالفعل على تحقيق النجاح، ولكن ليس في عالمك أو وفق أسلوبك في العمل. ستجد نفسك أمام قرارات صعبة لا مفر من اتخاذها، كما ستجد نفسك مضطرًا إلى توجيه رسائل إلى زملائك في العمل الذين لم يحققوا النجاح... رسائل تكون في معظم الأحيان غير مرحب بها.

وأعلم، أيها القائد، أن النجاح سيكون حليفك دائمًا شريطة تحقيق التكامل بين ما تقوله وما تفعله، وهو أمر سيظهر جليًا من خلال التطبيق المستمر والعادل للمبادئ.

خاتمة

تدور أغلب صفحات هذا الكتاب حول ما يحتاج إليه القادة لاتخاذ الإجراءات التي يتعين عليهم اتخاذها حتى يضعوا أنفسهم في المكانة التي تليق بهم بوصفهم قادة، وكذلك لتمهيد الطريق أمام أبرز الموظفين في مؤسساتهم ليصبحوا هم أنفسهم قادة، وحتى يتمكنوا كذلك من جعل رؤساء الإدارات والأقسام في المؤسسة قادة على مستواهم الرفيع نفسه من القيادة، والنجاح في الوصول إلى القيادة يعتمد إلى حد كبير على أن ينظر كل قائد داخل نفسه ويستفيد من، أو يحسن، الصفات القيادية الطبيعية التي يمتلكها. أما القادة العظماء فهم ينظرون خارج أنفسهم، ولا يقتصرون في ذلك على النظر إلى زملائهم الحاليين الذي بإمكانهم تطويرهم، وأيضًا ينظرون إلى أي منهم أكثر مهارة من القائد على أساس أن ليس له أية قيمة!

وفي حقيقة الأمر فإن ما يفعله أفضل القادة هو الاستفادة من أية موارد متاحة بهدف تحسين فعاليتهم، وأن يفعلوا ذلك دون حياء وبصراحة. إن ذلك جانب من التواضع الذي ينبغي أن يتصف به أي قائد يعرف بأن هناك أمورًا لا يعرفها ويستعد لأن يتخذ ما يلزم حتى يعرف أكثر.

قراءة في كتاب: "وجه الحرب اللانسائي"

معلومات عن الكتاب:

الكتاب: "وجه الحرب اللانسائي" The Unwomanly Face of War

المؤلف: سفيتلانا ألكسييفتش

تاريخ النشر: 25 يوليو 2017

الناشر: راندوم هاوس – نيويورك

الرقم المعياري الدولي للكتاب: 13: 978-0399588723

عدد الصفحات: 331 صفحة

الحرب من صنع الرجال لأن الأنوثة لا يمكن أن تبتكر خرابًا، فحتى حين يفرض على بعضهن القتال لواجب وطني لا تموت الأنثى التي بداخلهن، بل تحتجب قليلًا لينتشع الرصاص، وحتى السلاح الذي يبدو أنيقًا بأيديهن لا يقوى على قتل المرأة فيهن.

يبدو كتاب سفيتلانا ألكسييفتش عن الحرب منظورًا إليها بعيون مئات النساء عملًا استثنائيًا بحق. جرى منذ نشره للمرة الأولى في عام 1985 توسيعه وتحديثه بانتظام.

بلغت مبيعات The Unwomanly Face of War "وجه الحرب اللانسائي" أكثر من مليوني نسخة في أنحاء العالم. وصدر الآن للمرة الأولى بالإنكليزية، ليعيد إلى الحياة عالم الجنود والممرضات وعمّال مصانع الذخيرة والنساء اللواتي بقين وحيدات.

بشهادة التفاصيل

تقول ألكسييفتش في تقديمها لكتابها "وجه الحرب اللانسائي" إن هذه قصص يجب أن تُسمع، مشيرة إلى أن "لحرب النساء ألوانها الخاصة ورواتحها الخاصة وإنارتها الخاصة ونطاقها الخاص من المشاعر، ومفرداتها الخاصة". وتضيف إنه "ليس هناك أبطال أو مآثر، بل هناك بشر بسطاء منشغلون في عمل أشياء إنسانية إلى حد لا إنساني".

تُسمّى الحرب العالمية الثانية "الحرب الوطنية الكبرى في روسيا". وكما يوحي العنوان فإن لها تاريخها الرسمي، وإن وضعه موضع تساؤل يكون كفرًا.

تروي ألكسييفتش كيف أن النساء اللواتي قابلتهن كنّ مترددات في البداية، ولكن حين بدأن، لم يتوقفن عن الكلام. نتيجة لذلك هنّ يتكلمن رغم أنفسهن تقريبًا وكأنهن يتحدثن عن شيء حدث لأحد آخر.

النساء أنفسهن وكذلك الرجال الذين قاتلن معهم كانوا قلقين من ألا يصوّروا حجم "الانتصار العظيم" بما يستحقه من الدقة في أحاديثهم. تقول ألكسييفتش إن "التفاصيل" الصغيرة هي ما تهمّها في هذه الشهادات، مثل صحون البطاطا المهروسة والحساء، التي لا يأكلها أحد، لأن من بين 100 شخص لم يعد إلا سبعة من المعركة، أو كيف إنهم بعد الحرب لم يتمكنوا من زيارة السوق والنظر إلى صفوف اللحم الأحمر.

القتل غليًا

رغم أن الكثير من الشهادات هي قصص عن الحرب والحياة على الجبهة، فإن المؤلفة تُطعّم هذه الشهادات بتعليقات، منها الصعوبة التي واجهت النساء في الحديث، وكيف أن أحاديثهن الجانبية كانت تكشف عن ذكريات أخرى في أحيان كثيرة.

فحين تقابل المؤلفة فالنتينا تشوداييفا، التي كانت قائدة بطارية مضادة للجو، كانت صديقتها ألكساندرا تقاطعها بذكرياتها هي عن حصار لينينغراد. تتذكر كيف أن امرأة عجوزًا كانت تتمرن على تسديد مغرفتها المليئة بالماء المغلي من نافذة بيتها، ليكون عندها سلاح تستخدمه ضد الفاشيين إذا غزوا مدينتها. قالت هذه المرأة "أنا عجوز، وليس هناك شيء آخر أفعله، لذا سأسلقهم بالماء المغلي".

جمعت ألكسييفيتش هذه الشهادات حسب الموضوعات، مثل "الحياة اليومية والحياة الضرورية"، و"الموت والدهشة في مواجهة الموت"، و"وحدة طلقة وكائن بشري". يدور فصلان من أشد فصول الكتاب تميزًا وتأثيرًا حول الجمال والحب، مثل "كيف يستطيع المرء أن ينام سنوات في خنادق ضحلة أو على أرض عارية قرب النار، ويمشي بجزمة ثقيلة ومعطف ثخين. ولا يضحك ويرقص؟، ولا يرتدي ملابس صيفية؟، وينسى الحذاء والزهور... كان هؤلاء في الثامنة عشرة أو العشرين من العمر!".

الموت بأناقة!

تروي مقاتلة برتبة رقيب كيف كانت تنام بأقراطها، لأن ذلك كان الوقت الوحيد الذي تستطيع أن ترديها فيه. تتحدث أخرى برتبة ملازم عن غريزة أن تبدو المرأة "حلوة" حتى في معطف عسكري ثقيل. تتذكر جندية على الجهاز البرقي أن ضابطًا برتبة كولونيل أصرّ على استقدام حلاقة شعر للنساء المقاتلات على الجبهة. قال لهن: "إن هذا ليس موجودًا في الأنظمة، ولكني أريدكن أن تكنّ حلوات. فهذه ستكون حربًا طويلة... ولن تنتهي قريبًا".

تضيف المسعفة صوفيا دوبنياكوفا: "يكون المرء في أقصى حدود قوته، على أبعد من الحدود، وفي النهاية يبتى خوف واحد.... أن يكون قبيحًا بعد الموت. إنه خوف المرأة... ألا تتمزق أشلاء بقذيفة. رأيتُ ذلك يحدث وجمعتُ الأشلاء".

الشيء الذي وجدت النساء أكبر صعوبة في الحديث عنه، حتى أكثر من الموت، هو الحب، وكيف أعدن بناء حياتهن العاطفية بعد الحرب. وخلال هذه اللحظات كن يطلبن من المؤلفة أن تحذف اسمهن الأخير.

أهمية اللا مهم

هناك قصص عن أزواج وزوجات ذهبوا إلى الجبهة معًا، ولكنهم لم يعودوا معًا بالضرورة، وقصص عن أزواج وزوجات يقاتلون في مواقع مختلفة، وكل منهم يتساءل كيف ستكون الحياة إذا عاد أحدهما معوقًا. بلا ذراع أو بلا ساق. يقول الجندي ليوبوف فيدوسنكو: "سنعيش بطريقة ما".

قوة الكاتبة أليكسييفتش أنها تبحث دائمًا عمّا يبدو عديم الأهمية، عن اللحظات التي تبدو عابرة: بدلة زفاف خيطت من ضمادات، قطعة الشوكولاته التي تُركت تحت وسادة ضابط صغير، شعور المقاتلة وهي ترقص للمرة الأولى من جديد بعد قضاء أشهر، وهي ترتدي جزمة عسكرية أكبر من مقاسها. تقول فيف غروسكوب في مراجعتها للكتاب إن إنجاز المؤلفة رائع مثلما أن خبرات هؤلاء النساء تترك أثرًا بالغًا في النفس.

10 كتب تصف الشخصية الديكتاتورية في الأدب

تطرق العديد من الكتاب والأدباء إلى الشخصية الديكتاتورية، وصدرت أعمال تحوّلت إلى علامات فاصلة في تاريخ الأدب. فمن منّا لا يعرف مثلًا رواية "1984" لجورج أورويل الصادرة في عام 1948، ومن لا يتذكر قراءة رواية "خريف البطريرك" الصادرة في عام 1975 لغابرييل غارسيا ماركيز، التي تعد واحدة من أهم ما كتب عن شخصية الديكتاتور، وهي قصة معقدة للغاية، يصوّر فيها ماركيز شخصية رجل جاهل لا يعرف من هو أبوه، ويحكم بلدًا لمدة قرن كامل.

نجح ماركيز في جعل القارئ يشتم رائحة الديكتاتور، بل ويلمسه بيده، من خلال اللغة التي استخدمها في وصفه، تصف الرواية ما ارتكبه الديكتاتور طوال مدة حكمه من جرائم إبادة وقتل جموع من البشر بطرق مبتدعة، لا تخطر على بال أحد، وقد تمكن بفضل جرائمه من الاستمرار في الحكم طوال كل تلك المدة.

1 الكتاب: "حديقة الحيوان" The Zoo
المؤلف: كرستوفر ولسون

رواية "حديقة الحيوان " The Zoo للكاتب والصحافي كرستوفر ولسون. تدور أحداثها في جمهوريات الاتحاد السوفيتي في عام 1953، وكانت تلك الحقبة ملائمة لتغيير الواقع والأحداث وإعادة كتابة التاريخ كل يوم.

يظهر الكاتب أن الحقيقة لا يمكن أن تكون مجرد حقيقة ثابتة، بل هي في حالة حركة أبدية. أما الناس والشعب فليست لهم أي قيمة تزيد على قيمة الذباب، فيما تنتشر وتتكرر حوادث الاختفاء القسري.

بعض المفقودين اختفوا تمامًا حتى من السجلات الرسمية، ومحيت أسماؤهم وصورهم. وليس في البلد غير صحيفتين فقط هما "الحقيقة" و"الأخبار"، مع ذلك، وكما يقول البعض، فـ "الحقيقة ليست خبرًا ولا حقيقة في الأخبار". أما القائد العظيم أو الرجل الحديدي الفذ فهو حامي سعادة البشر ومهندس الفرح وبوصلة الكون المعنوية، حسب وصف الكاتب.

2 الكتاب: "أنا كلاوديوس" I. Claudius
المؤلف: روبرت جريفز

رواية أخرى تطرقت إلى شخصية الطاغية هي "أنا كلاوديوس I. Claudius " لروبرت جريفز الصادرة في عام 1934. وكلاوديوس هو امبراطور روماني، كان يعاني من مظاهر إعاقة عديدة، منها أنه يعرج ويتأتئ ولا يسمع إلا بأذن واحدة، وتعده أسرته أحمقًا، وهو ما ساعده على البقاء خارج حلبة الصراع على السلطة بين أقاربه الذين يقتل أحدهم الآخر.

استخدم الكاتب في الرواية لغة "الأنا" باسم كلاوديوس، وعرض فيها تاريخ الإمبراطورية في تلك الحقبة، فوصف مثلًا مقتل يوليوس قيصر، ثم اغتيال كاليغولا، ثم تسلم كلاوديوس نفسه السلطة. ويصف الكاتب كيف أعلن الطاغية المجنون كاليغولا نفسه إلهًا، وجعل من حصانه سيناتورًا، ومارس الفاحشة مع شقيقاته الثلاث، ورمى أعداءه طعامًا للأسود. ويتفق نقاد على أن هذه الرواية واحدة من بين أفضل 100 كتاب صدر في القرن العشرين.

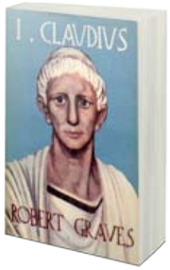

3 الكتاب: "نحن" WE
المؤلف: يفغيني زامياتين

"نحن" WE ليفغيني زامياتين، كتبت هذه الرواية في عشرينيات القرن الماضي، ولكنها لم تنشر على الإطلاق داخل الاتحاد السوفيتي.

نكتشف في الرواية خيبة أمل الكاتب بعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا، حيث تظهر علامات مستقبل البلد المتجه إلى الخضوع لحكم شمولي.

تتحدث الرواية عن قائد يحمل اسم "المحسن الكبير" يحكم دولة تراقب مواطنيها بشكل كامل، حتى إن جدران منازلهم من زجاج وهم يقيمون داخل قبة زجاجية ضخمة تعزلهم عن كل الخارج. أما الأطعمة التي يتناولونها فهي مركبة كيميائيًا. في الرواية، الحرية تعني "دولة بدائية غير منظمة" لا تلائم السعادة والبهجة. أما المواطنون فمجرد أرقام، لكل منهم مسار محدد ومنهج خاص وتفاصيل حياة محددة مسبقًا.

4 الكتاب: "لا يمكن أن يحدث هنا"
It Can't Happen Here
المؤلف: سنكلير لويس

نشرت في عام 1935، وتتحدث عن شخص يأتي من خارج الطبقة السياسية، وهو شعبوي وديماغوجي، يتم انتخابه رئيسًا للولايات المتحدة، بعد أن يعد بتصحيح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتمسك بالقيم التقليدية، وتشجيع الحس الوطني، ومنح العمال حقوقهم كاملة، ثم يعد أيضًا بحل مشكلة مع المكسيك.

لكنه ما أن يتسلم السلطة، حتى يبدأ بمحاربة الصحافة الليبرالية، ويفرض ما أشبه بالحكم الشمولي، وينشئ ميليشيا تعمل لمواجهة المعارضين، الذين سرعان ما يلقيهم في السجون، ثم يجتاح مكسيكو عسكريًا. ومن المعتقد أن الكاتب اعتمد في هذه الرواية على شخصية حاكم لويزيانا في ذلك الوقت هوي لونغ، الذي رشح نفسه للرئاسة، ولكنه اغتيل في عام 1935. كما تأثر الكاتب بالأفكار الفاشية والنازية، التي كانت في طريقها إلى البروز على الساحة الأوروبية.

5 الكتاب: دليل الديكتاتور
The Dictator's Handbook
المؤلف: بروس بوينو دي مسكيتا وألستر سميث

يعتقد بروس بوينو دي مسكيتا وألستر سميث أن هدف السلطة هو دوام الحفاظ على السلطة، ولكنهما يؤكدان كما جاء في مؤلفهما "دليل الديكتاتور The Dictator's Handbook" الصادر في عام 2011 أن الديكتاتور لا يحكم وحده، بل يحتاج حشدًا من المؤيدين والمناصرين، الذين يطالبون بمكافآت ومدفوعات في المقابل.

وهما يريان أنه كلما كان عدد هؤلاء أكبر، زادت قوة النظام، وقويت بناه التحتية. الكاتبان أمضيا ثمانية عشر عامًا في دراسة عقلية الديكتاتورية ونفسية صناعها، وتوصلا إلى أن الاستقرار أكبر عندما يكون النظام تحت سلطة ديكتاتور، وذلك لسبب بسيط، وهو أن حشودًا مستفيدة تحيط بالنظام، وتحتاجه، ولكن نجاح هذا النظام يعتمد بالنتيجة على تقليل عدد الأشخاص المهمين داخله، مع زيادة عدد غير المهمين، بغية استبدالهم وتغييرهم بكل سهولة، حسب الضرورة.

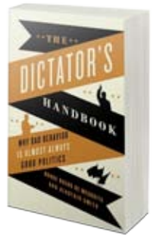

6 الكتاب: "اللون أرجواني"
The Color Purple
المؤلف: أليس وولكر

لا يوجد طاغية واحد على رأس نظام ديكتاتوري، بل هناك طغاة منتشرون في كل مكان، وعلى مستوى وطني، وداخل كل طبقة وكل شريحة من أعلى هرم المجتمع إلى أسفله، هذا ما أرادت الكاتبة الأمريكية أليس وولكر قوله في كتابها "اللون أرجواني" The Color Purple الصادر في عام 1982.

هؤلاء الطغاة هم أرباب العمل ومدراء الشركات والمعلمون والقسيسون والآباء والأشقاء والأزواج. ويروي الكتاب قصة حياة فتاة سيئة الحظ تدعى سيلي، وهي أمريكية أفريقية تعيش في ولاية جورجيا الزراعية في جنوب الولايات المتحدة في حقبة الثلاثينيات من القرن الماضي.

تمجّ الرواية بمشاهد عنف قاسية يمارسها أشخاص يحيطون بالفتاة سيلي، حتى إن الكتاب ظل محط جدل واسع، ولسنوات عديدة، بسبب هذه المشاهد، علمًا أن الكاتبة حازت جائزة بوليتزر في عام 1983، ثم ما لبثت الرواية أن تحوّلت إلى فيلم سينمائي في عام 1985.

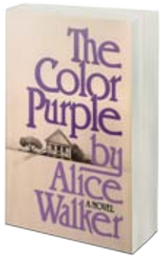

7 الكتاب: لا شيء للحسد: حياة عادية في كوريا الشمالية
Nothing to Envy, Ordinary Lives in North Korea
المؤلف: بربارة ديمنك

لا شيء للحسد: حياة عادية في كوريا الشمالية Nothing to Envy: Ordinary Lives in North Korea للصحافية بربارة ديمنك، تابعت تفاصيل حياة بلد كامل خرج عن سرب العالم ليغلق على نفسه داخل صومعة من خلال أحداث حياة ستة أشخاص تمكنوا من الهرب من بلدهم إلى كوريا الجنوبية.

تروي الكاتبة تجارب هؤلاء مع وحشية النظام وقسوته ومآسي أطفال بلا مأوى ومعسكرات العمل القسري وحالات المجاعة والتلقين الإجباري، الذي يبدأ من المهد، ولا ينتهي إلا في اللحد. ومع ذلك لا يجد هؤلاء الفارّون لا سلامًا ولا راحة بعد هربهم، وذلك لأن فعلتهم هذه حكمت على أسرهم وأقاربهم بأن تنصب عليهم غضبات نظام لا أشرس منه. صدرت الرواية في عام 2009 وتعمل الصحافية كاتبة الرواية في لوس أنجلس تايمز، وقد حازت عنها على جوائز عدة.

8 الكتاب: ستالين: بلاط القيصر الأحمر
Stalin, The Court of the Red Tsar
المؤلف: سايمون سيباغ مونتيفيوري

من الكتب المهمة الأخرى "ستالين: بلاط القيصر الأحمر" Stalin: The Court of the Red Tsar للكاتب سايمون سيباغ مونتيفيوري الصادر في عام 2003، ويعد واحدًا من أهم كتب سير حياة طغاة القرن العشرين، حيث اعتمد الكاتب فيه على معلومات دقيقة أخذها من مصادر معتمدة، ورسم فيها صورة ستالين رجلًا انتهازيًا، وصاحب شخصية جذابة وغدارًا يوجه طعناته من الخلف وعاشقًا لموزارت وقاتلًا لجاميع بشرية مجهولة الأسماء وقارئًا نهمًا وشاعرًا مرهف الحس ومحبًا للثقافة والسينما والطبيعة.

هذا الرجل جوّع الشعب في أوكرانيا وفي كازاخستان، وخلق رعبًا عظيمًا في النفوس، وأنشأ شبكة واسعة من معسكرات العمل القسري، ولكنه قال في أحد الأيام بكل فخر: "البهجة من أهم ملامح الاتحاد السوفيتي". وهو القائل أيضًا: "تعتبر حالة وفاة واحدة حادثة تراجيدية. أما مليون حالة وفاة فهي إحصائية".

9 الكتاب: "الشخصية المستبدة"
The Authoritarian Personality
المؤلف: ثيودور دبليو آدورنو وإيلسه فرينكل برونسويك ودانييل ليفنسون ونيفيت سانفورد

هذه دراسة صدرت في عام 1950 شارك فيها كل من ثيودور دبليو آدورنو وإيلسه فرينكل برونسويك ودانييل ليفنسون ونيفيت سانفورد، وتحمل عنوان "الشخصية المستبدة" The Authoritarian Personality .

ويعد المؤلفون أن الشخصية المتسلطة تأتي نتيجة "أنا" ضعيفة غير قادرة على مواكبة العالم، ما يؤدي إلى نشوء صراع يدفعها إلى إيجاد وسائل لفرض رأيها بالقوة ومن خلال السلطة.

لكن الباحثين ينظرون أيضًا في تفاصيل شخصيات الشرائح المطيعة، والتي تحتمي بشكل أو بآخر بالطغيان. الطاغية يحتاج شريحة مطيعة أدنى منه، وتخضع للشريحة التي تقف فوقها وتطيعها من دون أدنى مساءلة أو إصغاء إلى حوارات الضمير الداخلية، ولكنها تحتقر أيضًا الشريحة الأدنى منها. صدر هذا الكتاب بعد الحرب العالمية الثانية، وحاول أن يشرح ظاهرة النازية والفاشية، وركز على نفسية التابع للطاغية.

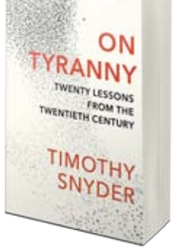

10 الكتاب: "عن الطغيان: عشرون درسًا من القرن العشرين"
On Tyranny, Twenty Lessons from the Twentieth Century
المؤلف: تيموثي سنايدر

يرد كتاب "عن الطغيان: عشرون درسًا من القرن العشرين " لتيموثي سنايدر ضمن أهم الكتب التي تناولت موضوعة الطغيان والاستبداد من خلال التجارب التي مر بها القرن العشرون.

صدر الكتاب في عام 2017، ونظر فيه الباحث والمؤرخ المعروف في الكيفية التي تحوّلت بها ديمقراطية أوروبا إلى فاشية ونظام تسلطي.

ويعتقد سنايدر أن الأمريكيين ليسوا أعقل من الأوروبيين، الذين شهدوا ديمقراطيتهم، وهي تتحول إلى فاشية ونازية وشيوعية. ويضيف "ميزتنا الوحيدة الإضافية هي أن بإمكاننا التعلم من تجربتهم". هذا الكتاب يدعو إلى مقاومة أي توجه محتمل نحو تجاوز الديمقراطية ومبادئها وإلى إنقاذ مستقبل أجيال مقبلة من مخاطر تسلط محتمل.

براغ مدينة الجسور والأبراج

نحو عالم متغير .. وحياة متجددة .. وأسلوب مبتكر ..

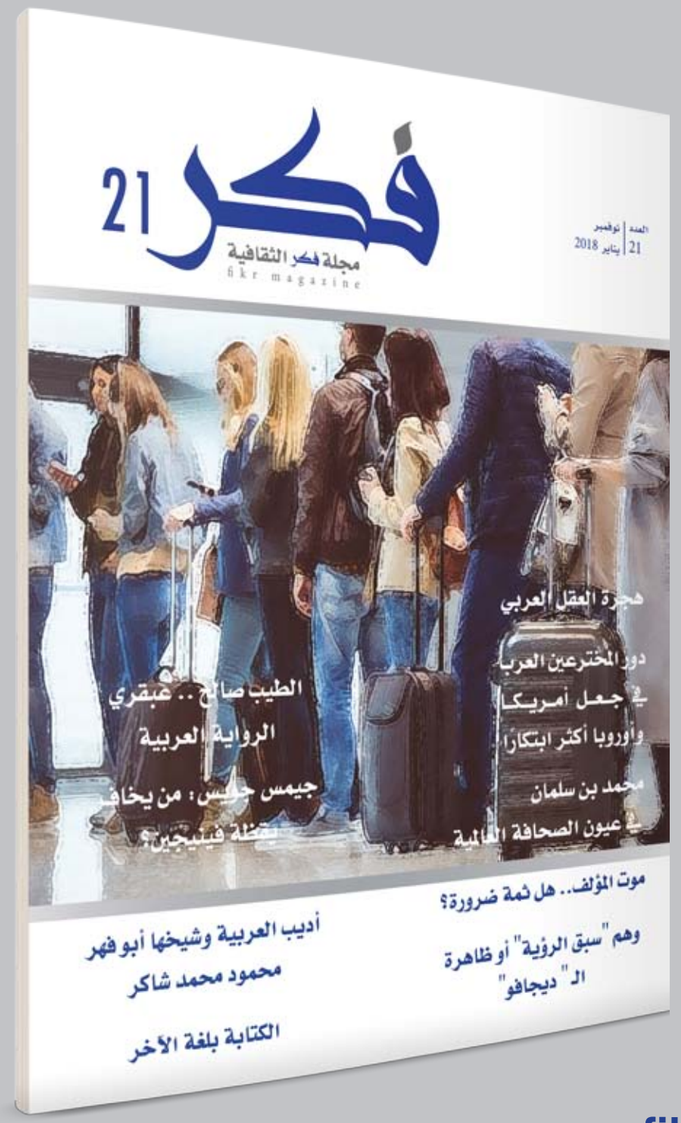

www.fikrmag.com

مجلة فكر الثقافية

للتواصل : fikrmag2@gmail.com

هل يمكنك أن تحقق ثروة مثل "أغنى أغنياء العالم"؟

ربما يكون النجاح الذي يحققه أصحاب الأداء المتميز متعلقًا أكثر بوجودهم في المكان المناسب، وفي الوقت المناسب، وليس بالموهبة الفريدة فقط، كما يقول الكاتب تشينغوي ليو.

يُعد بيل غيتس، مؤسس شركة مايكروسوفت، أكثر حظًا مما تعتقد. فربما يكون رجلاً موهوبًا جدًّا، شق طريقه منذ تخليه عن إكمال دراسته الجامعية، إلى أن وصل إلى مركز الصدارة في قائمة أغني أغنياء العالم.

لكن نجاحه الفريد قد يخبرنا الكثير عن أهمية الظروف المحيطة بالمرء، أكثر مما قد يخبرنا عن دور المهارة والمثابرة في صعود سلم المجد.

ونحن في الغالب نقع ضحية للاعتقاد أن أصحاب الأداء الاستثنائي هم الأشخاص الأكثر مهارة أو الأكثر موهبة. لكن الأداء الاستثنائي يميل إلى أن يحدث في ظروف استثنائية أيضًا. وبالتالي، فإن أصحاب الأداء المتميز الذين يصلون للمجد هم في الغالب الأشخاص الأكثر حظًا، الذين يستفيدون من وجودهم في المكان المناسب، والوقت المناسب.

العديد منا يتعامل مع بيل غيتس، وأمثاله من أصحاب النجاح والثروة، على أنهم أناس ينبغي علينا أن نتعلم منهم جيدًا كيف نحقق النجاح. لكن افتراض أن هؤلاء وصلوا إلى ما هم فيه من خلال أدائهم وجهدهم فقط، ربما لا يكون صحيحًا، وقد يقودنا إلى الإحباط.

فحتى لو تمكنت من اتباع نفس الخطوات التي اتبعها غيتس، لن تستطيع أن تحصل على الحظ الجيد الذي حالفه في بداية مشواره.

فعلى سبيل المثال، فإن خلفية غيتس الاجتماعية وانتمائه للطبقة العليا، والتعليم الخاص الذي حصل عليه، كلها عوامل مكنته من اكتساب خبرة أكبر في مجال البرمجة، في وقت كان فيه أقل من 0.01 في المئة من أبناء جيله يمتلكون أجهزة كمبيوتر من الأساس.

كما أن الصلة الاجتماعية التي كانت تربط بين والدته ورئيس شركة "آي بي إم IBM" العملاقة مكنته من الحصول على عقد عمل لدى هذه الشركة الرائدة في مجال الكمبيوتر، وهو ما كان له دور أساسي في إنشاء إمبراطوريته الخاصة في مجال البرامج الإلكترونية.

كان هذا الأمر مهمًّا جدًّا بالنسبة له أيضًا، لأن العملاء الذين كانوا يستخدمون أجهزة كمبيوتر من إنتاج "آي بي إم IBM" كانوا مضطرين لتعلم كيفية استخدام برامج مايكروسوفت التي تأتي مدمجة في هذه الأجهزة. وقد كان لذلك أثر كبير لصالح شركة ميكروسوفت بالفعل.

قضاء 10 آلاف ساعة في ممارسة مهمة واحدة، سواء كانت البرمجة أو لعب تنس الطاولة، ليس سببًا وحيدا أو كافيًا لضمان النجاح

إذ كانت البرامج الأخرى التي يختارها هؤلاء العملاء في الغالب هي البرامج التي تنتجها شركة ميكروسوفت، وليس ذلك لأنها بالضرورة هي البرامج الأفضل، لكن لأن غالبية الناس لا تمتلك الوقت الكافي للتعرف على برامج أخرى متوافقة مع أجهزتهم، أو لتعلم طريقة استخدامها.

قد يختلف نجاح ميكروسوفت عن بقية الشركات، لكن هذا الاختلاف كان مدعومًا بالحظ الذي حالف غيتس في بداية حياته، وبالفكرة التي تقول إن النجاح يولد مزيدًا من النجاح.

بالطبع، لعبت موهبة غيتس، وجهوده الكبيرة، دورًا مهمًّا في النجاح الباهر الذي حققته ميكروسوفت، لكن ذلك لم يكن هو الأمر الوحيد المطلوب لوجود هذا المستوى من النجاح.

فربما يكون النجاح أو الموهبة أقل أهمية من الظروف المحيطة، وهذا يعني أن غيتس ربما لم يكن ليحقق هذا القدر من النجاح دون توافر هذه الظروف التي ساعدته كثيرًا.

وقد يقول أحد أن الكثير من أصحاب الأداء الاستثنائي لا يزالون يتمتعون بمواهب استثنائية أيضًا من خلال العمل الجاد، والحافز (المادي) الفريد، وبالتالي فهم لا يستحقون أن نقلل من تقديرنا ومدحنا لهم.

ويطرح البعض فكرة أن هناك "رقمًا سحريًّا" للوصول إلى مثل هذا الإنجاز الكبير، في إشارة إلى ما يعرف بقاعدة "عشرة آلاف ساعة" من الممارسة والجهد، والتي تبناها غيتس نفسه.

وقد اكتسب كثير من الخبراء والمهنيين مهاراتهم الاستثنائية من خلال المثابرة والممارسة المتأنية بشكل عام.

ويُشار إلى أن عدد الساعات التي قضاها بيل غيتس في تعلم برمجة الكمبيوتر وهو في سن المراهقة، بلغت "عشرة آلاف ساعة"، وكان ذلك من الأسباب الرئيسية لنجاحه.

لكن تحليلاً تفصيليًّا لعدد من الدراسات يشير في الغالب إلى أن هناك عوامل محددة تقف وراء نجاح أصحاب الأداء المتميز، وتلعب دورًا مهمًّا في ذلك. فعلى سبيل المثال، خرج ثلاثة أبطال قوميين في لعبة تنس الطاولة من الشارع نفسه، والبلدة نفسها التي تقع في ضاحية صغيرة في انجلترا.

> نحن في الغالب نقع ضحية للاعتقاد أن أصحاب الأداء الاستثنائي هم الأشخاص الأكثر مهارة أو الأكثر موهبة. لكن الأداء الاستثنائي يميل إلى أن يحدث في ظروف استثنائية أيضًا. وبالتالي، فإن أصحاب الأداء المتميز الذين يصلون للمجد هم في الغالب الأشخاص الأكثر حظًا، الذين يستفيدون من وجودهم في المكان المناسب، والوقت المناسب

ولم يكن ذلك مصادفة، لكن اتضح أن هناك مدرب تنس طاولة شهير، وهو بيتر تشارترز، تقاعد واستقر في هذه البلدة. وكثير من الأطفال الذين عاشوا في هذا الشارع الذي يقيم فيه تشارترز، انجذبوا إلى هذه الرياضة بسببه.

لذا، تمكن ثلاثة منهم، بعد أن اتبعوا قاعدة الـ "عشرة آلاف ساعة" في الممارسة والتدريب، من تحقيق أداء استثنائي، بما في ذلك الفوز ببطولة قومية في تنس الطاولة في بريطانيا.

وبالطبع كانت موهبتهم، والمجهودات التي بذلوها، ضرورية لتحقيق هذا الأداء المتميز. لكن لولا ذلك الحظ الجيد الذي حالفهم في البداية، والمتمثل في ظهور هذا المدرب الكفء والجدير بالثقة في حياتهم، ودعم عائلاتهم لهم، فإن التدريب لمدة عشرة آلاف ساعة دون وجود متابعة وتقييم من هذا المدرب، ربما لم يكن ليصنع منهم أبطالاً قوميين.

ويمكننا أيضًا أن نتخيل طفلاً موهوبًا بشكل فذ في لعبة تنس الطاولة، لكنه يعاني من سوء الحظ من البداية، مثل عدم وجود مدرب كفء يدعمه، أو عدم وجوده في بلد يقدر الرياضيين ويعتبرهم أصحاب مجال مهني واعد. ففي هذه الحالة، ربما لن يجد هذا الطفل فرصة على الإطلاق لإظهار قدراته بصورة تحقق ذلك المستوى من النجاح والشهرة.

وعندما يتعلق الأمر بأصحاب الأداء المتوسط، يبدو أنه من المرجح أن إحساسنا بأننا سننجح سيكون صحيحًا. فالحكمة التقليدية التي تقول "كلما عملت أكثر ستكون محظوظًا أكثر"، أو تلك التي تقول "إن الفرصة تأتي لمن لديه عقل مستعد لها"، تدعم جيدًا وجهة النظر القائلة إن من يبذل جهدًا واضحًا ينتقل من الأداء الضعيف إلى الأداء الجيد.

لكن فكرة الانتقال من الأداء الجيد إلى الأداء الاستثنائي أو الأداء منقطع النظير، تعد أمرًا مختلفًا تمامًا.

فوجودك في المكان المناسب (أي الظروف التي تساعدك على تحقيق نجاح كبير من البداية) وفي الوقت المناسب (أي الوقت الذي يحالفك فيه الحظ مبكرًا)، يمكن أن يكون له أهمية تفوق ما لديك من مواهب أو مزايا أخرى.

وعندما نضع هذا في أذهاننا، فإننا سنعلم أنه عندما نحاكي أصحاب النجاح من الصفوة، فإننا لا ينبغي أن نتوقع أن نحصل على نفس مستوى النجاح الذي حققوه.

وهناك درس آخر، وهو أن الناجحين ينبغي أن يفكروا جيدًا في تقليد أشخاص مثل بيل غيتس (الذي أصبح صاحب دور كبير في العمل الخيري)، ووارين بافيت (الذي يقول إن الأثرياء في أمريكا يجب أن يدفعوا ضرائب أكثر)، لسبب واحد، وهو أنهما اختارا أن يوظفا نجاحهما وما جمعاه من ثروة في أعمال خيرية نافعة.

وبالطبع، فإن أصحاب النجاح والحظ الجيد الذين لا يحتفظون بالثروة لأنفسهم فقط، يستحقون منا احترامًا كبيرًا.

المصدر: BBC

عصر الصورة

خاص: مجلة فكر الثقافية

إن التفكير مستحيل من دون صور.

"أرسطو"

إننا نعيش بالفعل في عصر الصورة.

"آبل جانس"

مع التطور التكنولوجي وظهور وسائل التواصل الاجتماعي، انتقلت الصورة الفوتوغرافية من مجال العمل الاحترافي لتصبح أداة سهلة في يد كل فرد يقدم بها نفسه بالطريقة التي يرغب، فمن سمات عصرنا الراهن أنه «عصر الصورة»، ما يعني هيمنة الصورة وسيادتها لتكون إحدى أهم أدوات عالمنا المعرفية والثقافية والاقتصادية والإعلامية.

وقد ساهمت الثورة الكبيرة التي شهدتها مجالات التكنولوجيا الرقمية في التغيير الراديكالي للعالم الذي نحيا فيه، كما أنها لعبت دورًا حاسمًا في الطريقة التي نتفاعل بها مع هذا العالم من حولنا، ومع بعضنا البعض كذلك. منحت تلك التكنولوجيا قدرًا أكبر من الاستقلالية والسيطرة للفرد وغيّرت من تصورنا لمفاهيم أساسية مثل الزمان والمكان والمجتمع، وبذلك تغيرت أنماط تمثيل ذلك الواقع عما كانت عليه في مراحل سابقة.

ما نشاهده الآن مع الثورة الرقمية أعطى الصورة معطيات، فأصبحت دلالاتها لا ترتهن إلى مقاساتها التقنية وأبعادها الضوئية بل تتبع من المشاهد التي تعبر عن حدث ما أو مؤثرات من تدبير المصور.

وقد ساعدت الصورة الرقمية على سرعة تغيير الأزياء والموضة وأنماط الحياة في بيئات محلية كانت مغلقة ومعزولة، وأحدثت تحولاً كبيرًا في تجربتي الزمان والمكان بالنسبة للوعي الفردي والجمعي. فسرعة الاتصال المرئي والمسموع بين الأفراد وسرعة تداول المعلومات والصور أدت إلى إيجاد علاقات جديدة مع بعدي الزمان والمكان. وإذا كانت حقبة التلفزيون والقنوات الفضائية والاتصالات عبر الأقمار الاصطناعية قد عملت على انضغاط الزمان والمكان، كما يصف الباحث ديفيد هارفي في كتابه "حالة ما بعد الحداثة"، فإن الصورة الرقمية والشبكة الالكترونية قد همشتا الزمان والمكان بوصفهما سياقًا قسريًا يؤطر عمليات التواصل والتفاعل البشري ويحددها.

وقد تحول المتلقي العادي من مستهلك للصور والرموز إلى مستهلك ومنتج في الوقت ذاته من خلال ما يعرف بالمدونات ورفع تسجيلات الفيديو القصيرة على مواقع متخصصة مثل (اليوتيوب You Tub) ومواقع التواصل الواسعة الانتشار مثل (الفيس بوك Facebook). وفي محاولة منها لاحتواء هذه التغييرات المتسارعة لجأت تلك الشركات والشبكات الإخبارية العالمية إلى تخصيص جوائز صحفية خاصة بفئة صحافة المواطن، تمنح للأشخاص الغير متخصصين الذين يعملون على إنشاء مدونات صحفية أو رفع تسجيلات فيديو أو تسجيلات صوتية تعمل على تغطية أحداث بارزة في مناطق النزاعات المسلحة الخطرة. وقد ساهمت بعض تلك المدونات والتسجيلات بالفعل في نقل حقيقة ما يجري على الأرض للعالم، في الوقت الذي غابت فيه التغطية الصحفية والاعلامية المحترفة.

يعرف إدوار هريو بأن «الثقافة هي ما يبقى للإنسان عندما ينسى كل شيء». الصورة تنعم بقدرة التسلل والإقامة الطويلة في الذاكرة، فقد ينسى أحدنا كتابًا قرأه قبل عشرين عام ولكنه بالتأكيد لن ينسى مشهدًا بصريًا أو صورًا لا سيما تلك التي تحفل بجرعة عالية من الجاذبية والدهشة.

ولا بد من الإشارة إلى أن للصورة مميزات وخواص تجعلها على قدر من الأهمية لا يمكن إغفاله. فالصورة قادرة على التوصيل الناجح بتأثير أكبر من تأثير الكلمة، وهو ما يستخدم في الدعاية عمومًا، وفي الحروب النفسية وفي الإعلام والاتصال الجماهيري.

كما أن الصورة في ذاتها تدعم الحقيقة، والحكمة القديمة التي تقول «من رأى ليس كمن سمع» إشارة إلى أهمية الصورة ودورها التأثيري الكبير للحد الذي جعلها بديلاً عن الخبرات الشخصية التي يمر بها الفرد، كما أننا أصبحنا نكون الكثير من الأفكار عن غيرنا من خلال الصورة، فهناك الكثير من البلاد لم نزرها لكن لدينا الكثير من المعلومات عنها وعن حياة أهلها من خلال الصورة، كما أننا لم نقابل كل من نعرفهم لكن الصورة ظلت شاخصة وحاضرة في تكوين أفكارنا نحوهم، ولاشك أن التطور التكنولوجي الذي نعيشه في أفتية نقل الصورة وتداولها، ومنها وسائل التواصل الشخصي والإعلام الجديد والتي ساهمت في أن يكون الشخص ذاته منتجًا للصورة وليس متلقيا فقط لها، زاد من انتشارها، الأمر الذي جعلها بحق ثقافة تبنى عليها الخبرات والمواقف.

وقد نقلت الصورة الثقافة بمعناها الاصطلاحي من برجها العاجي ونزلت بها بين الناس، فإذا كانت الكلمة هي وسيلة الثقافة لدى النخب فإن الصورة هي حيلة باقي أفراد المجتمع بمختلف مستوياتهم التعليمية وهم القطاع الأكبر المستهدف، فالنخب غالبًا هم صناع الرسالة وغيرهم جمهورها، كما أن الكلمة في شكلها المجرد تخاطب العقل في حين الصورة تتجه إلى العقل والعاطفة، حيث سبقت الصورة أحيانًا الكلمة. ومن يتفحص النصوص المقروءة على مدار التاريخ تجد أنها لكي تخترق عقل ووجدان القارئ اتجهت إلى رسم صور في ذهن المتلقي، كما أن الأفكار المجردة سعت إلى البحث عن صور تتقرب بها إلى المتلقي.

إن من يملك أدوات صناعة الصورة يملك أن يلون العالم كما يشاء، ويقدم نفسه كما يشاء وكما يود أن يراه الآخرون، ليس في عالم السياسة فحسب ولكن في الفن والأزياء وتشكيل الوجدان والسلوك، لأن قوة الصورة بلونها وحركتها ومضمونها الذي يعبر عما يصل للمتابع مختصرة الزمان والمكان وعناء التحليل والاستيعاب، وهو ما يجعلنا بحاجة إلى التفكير بجد في إعادة صياغة ما لدينا من فكر وثقافة وإبداع وتاريخ عبر الصورة باعتبارها الذاكرة المرئية للشعوب، فضلاً على أن ثقافة الصورة باتت ثقافة العصر.

المصادر:

- د. خالد الخاجة، ثقافة الصورة.. ثقافة العصر، صحيفة البيان، التاريخ: 26 مايو 2015.
- علاء سرحال، صحيفة الحياة، تأثير الصورة الرقمية في البرمجة الذهنية، التاريخ: 5 سبتمبر 2016 .
- د. معن الطائي، جديد عالمنا: قوة الصورة الرقمية والمجتمعات التفاعلية، صحيفة قاب قوسين الثقافية، 23 يونيو 2014.
- هبة فتوح، ورقة بحث: ثقافة الصورة الإعلامية:
http://www.tourathtripoli.org/phocadownload/dirasset__fi__ali3lam/sakafet%20alssoura.pdf

براغ مدينة الجسور والأبراج

سما يوسف

جدة

تُعد جمهورية التشيك دولة سياحية من الدرجة الأولى وعاصمتها براغ من أقدم مدن أوروبا وأكثرها حفاظًا على تراثها المعماري والحضاري.

"براغ مدينة لا يمكن الانعتاق من سحرها" هكذا كان يراها أديبها فرانز كافكا لأنها بالفعل استثنائية، فهي مدينة الجسور والمئة ناقوس والمئة برج. تكثر التسميات التي تطلق على هذه المدينة ولعلّ جمالها الطبيعي وما يحتضنه من تراث التاريخ جعلها مدينة تسمو عن كل التسميات وكل وصف، فهي تُعد مركز الجذب السياحي الرئيسي في التشيك.

وأنت في براغ ترى المباني والطرقات والشوارع الضيّقة وهي مليئة بعبق تاريخ قديم بمحلاتها وأرصفتها وشرفاتها تزيد المدينة سحرًا، وهو ما يميزها عن باقي مدن أوروبا. فهي من إحدى أقدم مدنها قاطبة، ولحسن حظها لم تتعرض تقريبًا إلى أيّ عدوان عسكري مدمّر أثناء الحروب المختلفة، لذلك فإنّ قصورها وقلاعها ومواقعها العتيقة حُفظت جيدًا، لتتحول إلى وجهة سياحية بارزة على مستوى العالم كله.

عندما تفكر بزيارة التشيك لن تندم وعندما تصل إلى مدينة براغ لا تعرف من أين تبدأ! مدينة يجتمع فيها السحر والجمال والتاريخ والموسيقى والآثار.

المدينة الثرية ثقافيًا والغنية بالمعالم الأثرية الرائعة التي تسحر الزوّار ليس فقط بهندستها المعمارية الرائعة والمتنوعة واطلالاتها الخلابة، وإنما أيضًا بالحميمية والجو الرومانسي الذي يحث على مشي مسافات طويلة.

براغ هي مدينة كرست نفسها (ليس فقط الكلاسيكية) للفنّ والموسيقى والذي تصادفه عند كل منعطف، مدينة الحدائق والمنتزهات، أمّ المدن بأبراجها المئة كانت دائمًا ملهمة – موزارت كتب هنا وقدّم دون جواني، ومجّدها الشاعر الفرنسي أبولينير، وفي مقاهيها كان يكتب فرانز كافكا وفاتسلاف هافل. حتى اليوم نجد أن براغ هي مكان للأعمال الفنية بأشكال متنوعة – من الموسيقى عبر الفن التشكيلي حتى المسرح الحديث والرقص.

ولا عجب أن يتهافت الناس لزيارة هذه المدينة التي نالت لقب "أجمل مدينة في العالم" في أكثر من مرة. والمسافر إلى براغ ينتقل إلى عالم خرافي أشد بعدًا عن المألوف، فمدينة الأبراج والحصون الأثرية تأخذ الزائر في أحضان التاريخ.

وتعد المدينة القديمة من أهم أجزاء براغ السياحية، حيث الأزقة المرصوفة الضيقة التي تحيطها المباني الأنيقة وعشرات المقاهي والمطاعم ذات الإطلالة الخلابة.

وأثناء التجوال يجد السائح نفسه على جسر الملك تشارلز أو ما يعرف بـ"كارلوف موست"، الذي يُعد من أهم المزارات السياحية التي تكتظ بالمسافرين الذين يلتقطون الصور الحصرية من جوانب الجسر المطلّ على المدينة الساحرة، ويزين الجسر التماثيل والمنحوتات المتقنة، وينتشر حوله فنانو الشوارع، العازفون والرسامون وهواة التمثيل والرقص ليحولوا المكان إلى مسرح حقيقي على أرض الواقع. وبالقرب من الجسر تقع كاتدرائية القديس فيتوس ضمن بناء قلعة براغ الشهيرة، ويمكن رؤيتها من عدة جهات وسط المدينة، فهي أكبر كنيسة في التشيك، وتضم أضرحة للعائلة المالكة مع دخول

مجاني إلى البهو الأرضي الذي تحيطه النوافذ الكبيرة المزيّنة.

ينتمي نهر فلتافا إلى براغ بطبيعته مثلما ينتمي نهر السين إلى باريس ونهر التايمز في لندن. على ضفة النهر اليسارية توجد القلعة وعلى الضفة اليمنى توجد المدينة العتيقة وبينهم جسر تشارلز. حاولوا النزول إلى الأسفل إلى النهر لركوب الدراجة على ضفاف النهر المزدحم والتوقف في أحدى المقاهي العديدة. أو أن تستعيروا في الصيف الحار مركب أو بيدالوس للوصول إلى إحدى الجزر. ويمكنكم أن تطعموا البجع من الشط أو أن تراقبوا القصور والمنازل من متن مركب سياحي أثناء القيام برحلة سياحية.

براغ تعيش الفصول:

في الشتاء: معركة عفوية مع الثلوج في شوارع براغ ومقاهٍ دافئة؛ حيث يمكنك تناول الحساء الساخن. والكتل الجليدية المدلاة الناصعة من أسقف المباني أو نزهة مسائية في المنتزه أثناء سقوط الثلج.

في الربيع: أشجار مزهرة ومطر ذهبي، وطاقة مدينة بعيدة المنال استيقظت للتو من نوم الشتاء.

في الصيف: كل الحياة تنتقل إلى الخارج. نهر الفلتافا مليء بالمراكب، مهرجانات الشوارع وبرودة رائعة في أروقة المنازل العريقة.

في الخريف: مفعمة بالألوان والرائحة الزكية، وبالصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود بضوء يشق طريقه في الضباب والدخان، براغ في الضباب الخفيف، ربما تكون أفضل براغ.

أهمّ معالم براغ:

– قلعة براغ: تضم مجموعة مباني وقصور تاريخيّة تعود إلى حقب مختلف.

– كاتدرائيّة القدّيس فيتوس: أقدم كاتدرائيّة في أوروبا الوسطى، تتميّز ببنائها الفريد وأبراجها المصنوعة من الأحجار الكريمة.

– الشارع الذهبي: حيّ ذو بيوت صغيرة، بعضها تحولت إلى متاجر سياحيّة.

– الساعة الفلكيّة: تحظى ساعة "أورلوي" الفلكيّة البالغة من العمر 700 عام، بإقبال سياحي لا مثيل له.

– جسر تشارلز: يتيح التنقّل بين الساحة القديمة للمدينة وساحة قلعة براغ.

العلاج والاستشفاء:

وتعد التشيك من أهم الوجهات للسياحة العلاجية والاستشفاء نظرًا لكثرة ينابيع المياه المعدنية الحارّة فيها. وتتنوع مصحات العلاج الطبيعي في التشيك بتنوع ينابيعها الطبيعية والتي يعود تاريخ اكتشافها إلى ما قبل ألفي سنة، إلا أن الاستخدام الاستشفائي لتلك الينابيع بدأ في القرن الثامن عشر وازدهر في أواخر القرن التاسع، حتى أنه أطلق عليها لقب "صالون أوروبا".

وتعتمد هذه المصحات بشكل أساسي على الينابيع الحارة التي توصف بأنها طبيعية معدنية وتحتوي على الأملاح والكلور واليود أو عنصر الراديوم وغيرها من العناصر الأخرى.

وتشتهر معظم المصحات التي تتركز بمدينتي تبليتسه وأوسترافا بأنها توجد في مناطق ذات طبيعة خلابة مما يساعد المريض نفسيًّا على تقبل العلاج.

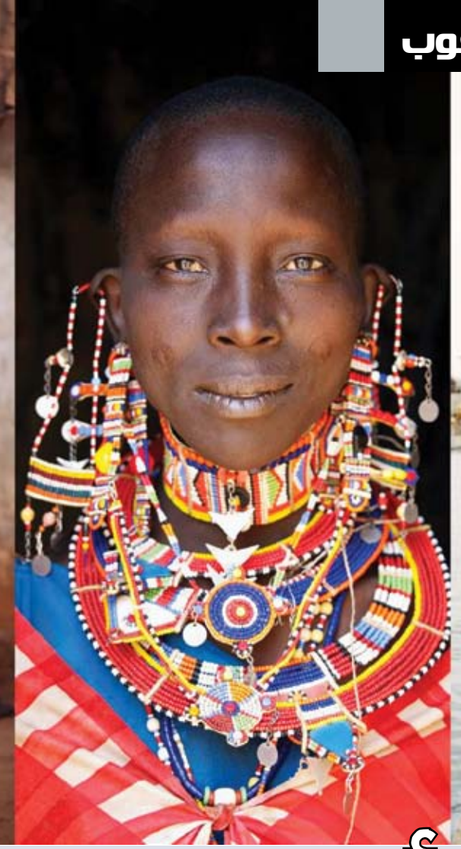

الأزياء التقليدية الأكثر غرابة للشعوب حول العالم

تعرض الأزياء التقليدية للشعوب إلى قرون من التاريخ وتعد من ثقافات ومعتقدات وممارسات يومية.

وتعدت الملابس التقليدية جزءًا مهمًا من تاريخ وهوية للمنطقة فبعض المناطق تعد الزي الوطني زيًا غير رسمي يرتدونه فقط في المناسبات الاحتفالية، أما في المجتمعات الأخرى، فالملابس التقليدية هي إلزامية للرجال والنساء.

جمع موقع «مجلة ناشونال جيوغرافيك» مجموعة من الصور لأزياء قبائل وشعوب حول العالم معظمها يتسم بالغرابة والخصوصية.

■ **أزياء شعوب يوروبا:** ومعظمهم يعيشون في نيجيريا، وقد تجاوز عدد شعوب يوروبا إلى 20 مليون شخص حاليًا، ويعتبرون أول الممارسين للشعوذة في العالم، ولديهم أزياء تقليدية تتركز على الخرز وتعود إلى القرن السادس، وتبرز أعمالهم الخرزية في الحفل التتكري السنوي "إغونغون"، حيث يرتدون أزياء مطرزة بالخرز، وتغطي كل الجسد والوجه.

■ **أزياء شعوب الفودو:** الفودو هو مذهب ديني توفيقي متأصل في غرب أفريقيا ويمارس في أجزاء من منطقة الكاريبي خاصة في هايتي وأجزاء من جنوب الولايات المتحدة أزياؤهم ملونة ومزخرفة، حيث تخفي معالم ووجه الشخص

■ **أزياء شعوب نيهانغ:** تشتهر شعوب نيهانغ بالطريقة التي يلف بها الرجال قوسهم بالمال، وقد سجل أحدهم رقمًا قياسيًا بلغ طوله 400 متر، وتطلب أكثر من مائة بيوس لتثبيته، و 50 قطعة معدنية تحمل رموزًا دينية وبدا هذا باستخدام قماش الزي لدى طائفة السيخ خلال معاركهم مع الغول، لحماية الرأس من الضربات خلال القتال، ثم أصبح يحمل معاني روحية ودينية.

■ **لباس التابا، أستراليا:** المصنوع في جزر الحيط الهادي خاصة في تونغا وسارا وفيجي وفي مناطق بعيدة مثل نيوي وجزر الكوك وفوتونا، جزر سليمان، جافا، نيوزيلندا، فانواتو، وبابوا غينيا الجديدة وهاواي (حيث يطلق عليه كابا) وقد اختفى تقريبًا في بولينيزيا الفرنسية باستثناء بعض القرى في الماركيز تم استخدام قماش التابا سابقًا للملابس، ولكن الآن حلّ محلّ القطن والمنسوجات الأخرى، وذلك لأن أنسجة التابا تفقد قوتها عندما تكون رطبة.

■ **أزياء البوبو في أفريقيا:** هو رداء بأكمام واسعة يرتديه معظم الرجال في غرب أفريقيا، وارتدته شعوب توكولور الإسلامية، في القرن الثامن، وخلال عهد إمبراطوريات مالي وسونغاي في القرن الـ13.

وهو زي رسمي يتكون من 3 قطع من الملابس زوج من السراويل الضيّقة عند الكاحل، قميص بأكمام طويلة وثوب واسع بلا أكمام يلبس فوقها. عادة ما تكون من نفس اللون، تاريخيًا كانت مصنوعة من الحرير، ولكن أصبح معظمها الآن مصنوعًا من القطن وأقمشة اصطناعية تشبه الحرير.

■ **أزياء قبائل ماسي:** الماسي من القبائل شبه الرحل، يعيشون على تربية المواشي وينتشرون في كينيا وشمال تنزانيا، يعد الخرز أبرز مميزات ملابسهم ورغم أن حياتهم مرتبطة بالترحال لكن هذا لا يمنعهم من التزين يوميًا بعقود خزرية كبيرة، وأقراط طويلة كالشلالات وأساور ترتفع حتى الذراعين، ويدل تصميم كل منها على عمر الشخص، وهويته ومكانته الاجتماعية. الخرز الأبيض يدل على الحليب، الأحمر على الدم، الأسود لون البشرة، البرتقالي يدل على الوفرة، الأزرق يرمز للرب وهو لون السماء، الأخضر يدل على الغطاء النباتي بعد هطول المطر، وهو رمز للسلام.

المصدر:

nationalgeographic

أزياء قبائل ماسي الذي يعد الخرز أبز مميزات ملابسهم

"إغونغون" من أزياء شعوب يوروبا

جزء من اللباس التقليدي مطرز التيجان يرتديه قبائل يوروبا

أزياء شعوب نيهانغ استخدم هذا الزي طائفة السيخ

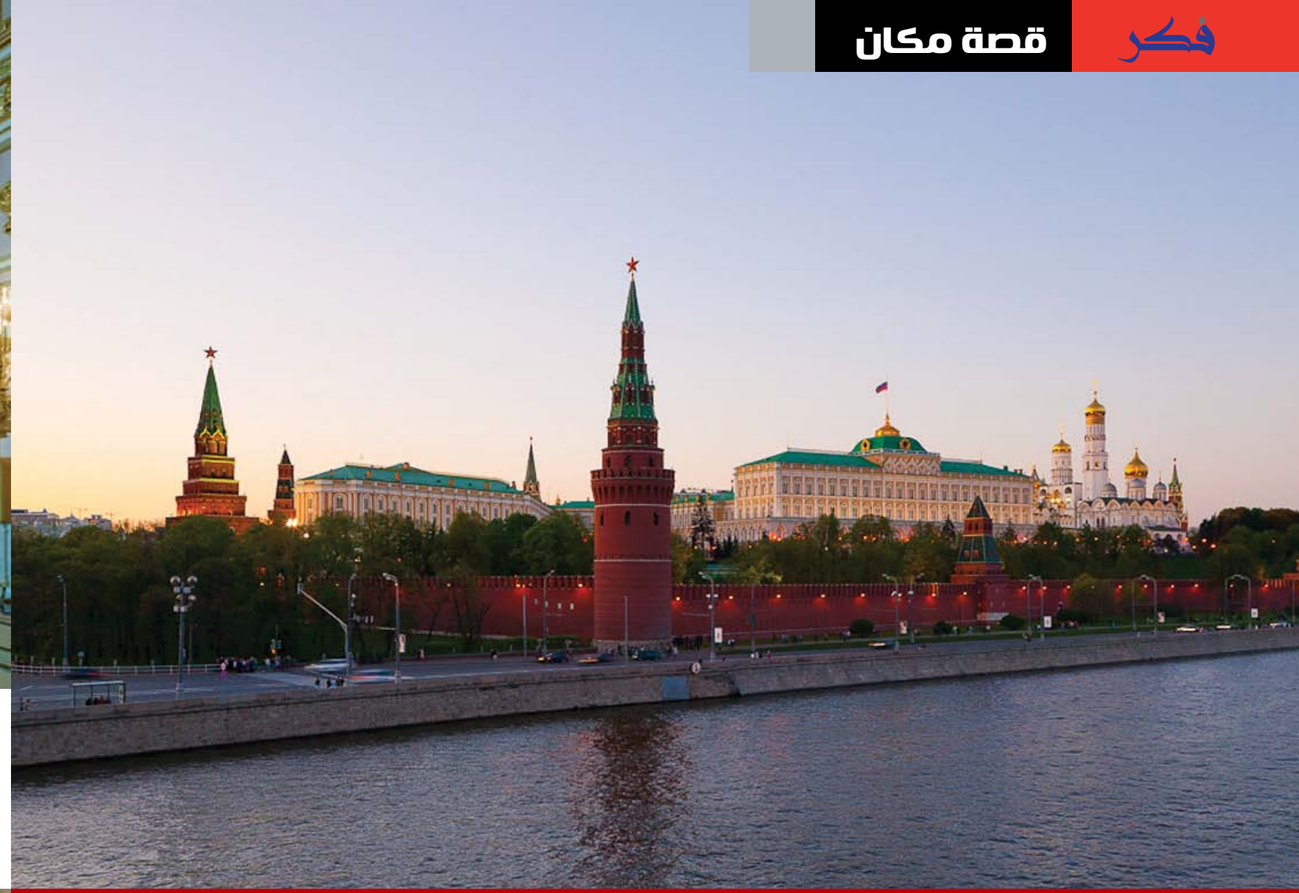

كرملين موسكو يحكي عبق التاريخ وروعة الحاضر

يقع كرملين موسكو على تل "بوروفيتسكي"، وذلك على الضفة اليسرى لنهر موسكوفا، حيث يصب فيه نهر نِغلينّايا. ويبلغ ارتفاع التل نحو 25 مترًا. وكانت الأرض التي يقع عليها الكرملين حاليًا في الماضي البعيد عبارة عن غابات صنوبر كثيفة. وتشتق تسمية "بوروفيتسكي" عن كلمة "بور" الروسية التي تعني "غابة الصنوبر".

يقول علماء الآثار ان أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد شهدت أول قدم لإنسان تطأ تل "بوروفيتسكي". وقد أنشئت هنا أول مستوطنة سلافية وضعت أساسًا لمدينة موسكو في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي.

ويعود أول ذكر لاسم مدينة موسكو في المدونات التاريخية إلى عام 1147. وقد ضم الكرملين خلال قرون عديدة قصور القياصرة الروس. وكان القيصر الروسي إفان الثالث قد أمر في القرن الخامس عشر باستدعاء مهندسين معماريين من روسيا وإيطاليا لتجديد الكرملين. وتم على أساس الجمع بين تقاليد فن العمارة الروسي والهندسة المعمارية الإيطالية في عصر النهضة بناء ميدان الكاتدرائيات. وبدأت تظهر بعد ذلك في الكرملين مبان وكنائس وقصور جديدة.

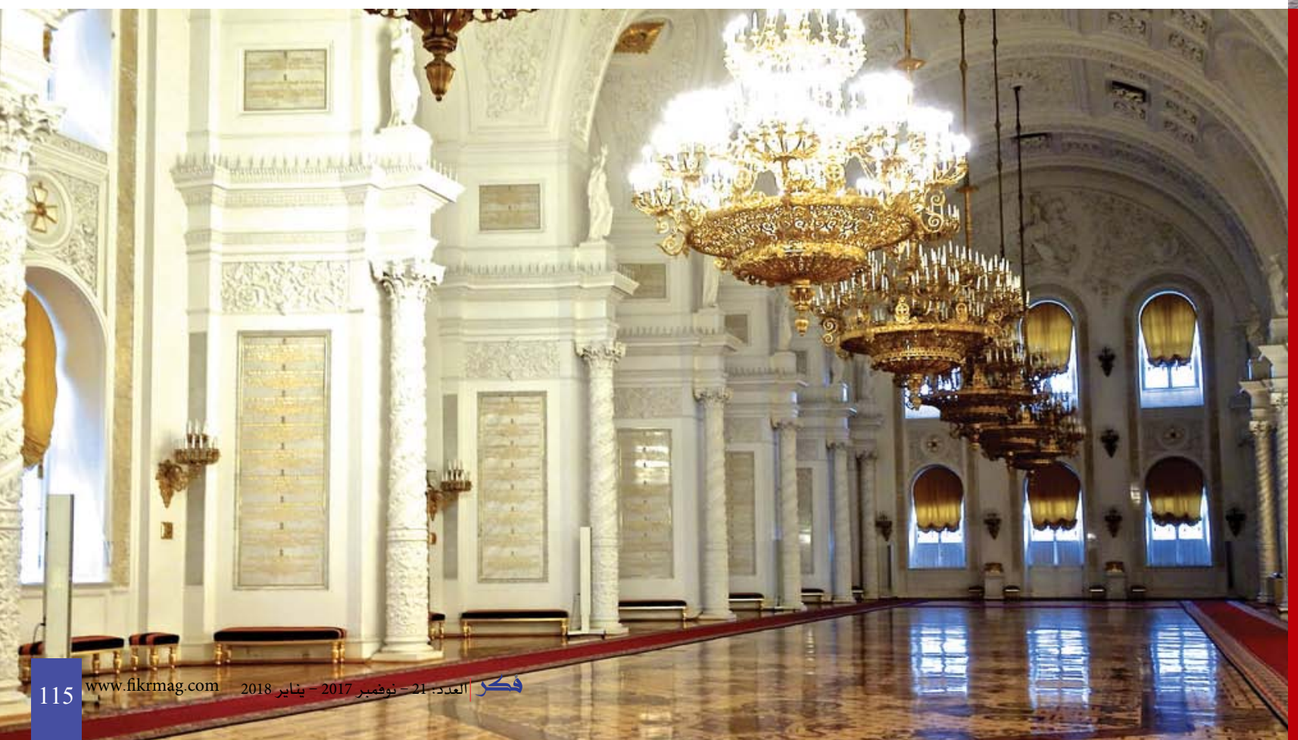

ويتميز القصر بالفخامة والثراء، حيث يضم أكثر من 700 غرفة، وبتصميم داخلي فخم يجمع أنماطًا معمارية عدة من عصور النهضة إلى البيزنطية. بجانب قاعة الاستقبال الرئيسية الضخمة، وخمس قاعات احتفالية كبرى، التي تضم لوحات الرخام الشرفية المنقوش عليها أسماء نحو 10 آلاف من الضباط الروس، الذين تم منحهم أعلى وسام في الجيش الروسي.

وحولت السلطات بعد ثورة أكتوبر 1917 الكرملين إلى مقر لأجهزة الحكم العليا. أما في عام 1990 فقد أدرج الكرملين في قائمة اليونسكو كإرث ثقافي عالمي. ويعبق الكرملين حاليًّا بأريج التاريخ في كل مكان فيه، فهناك المدافع والأجراس القديمة، ومخادع القياصرة، والكنائس والكاتدرائيات القديمة. كما يضم الكرملين قاعة الأسلحة التي تعرض فيها أوسمة وشعارات الدولة، وعروش القياصرة، وملابسهم ومجوهراتهم، والأواني الذهبية والفضية، والأسلحة القديمة، وغنائم الحروب.

ولا بد لكل زائر للكرملين أن يشاهد (ملك المدافع) الذي يعد أكبر سلاح في العالم، والذي صمم في روسيا في القرن الثامن عشر ويتجاوز وزنه 200 طن. وقد تم صب هذا المدفع العملاق (عيار 890 ملم) الذي يبلغ وزنه أكثر من 39 طنًا في موسكو في القرن السادس عشر. وقد وضعت أسفل المدفع 4 قذائف تزن كل واحدة منها ألف كغم. وما إن تذكر عاصمة روسيا الاتحادية (موسكو) حتى يتبادر إلى الأذهان الكرملين والساحة الحمراء، ومن الطبيعي أيضًا أن تكون المحطة الأولى للسائح أو الزائر زيارة الكرملين والساحة الحمراء في وسط العاصمة موسكو. حيث تعد من المواقع التاريخية الأبرز في العالم كما تشكل قلب تاريخ موسكو ومركزه. وبذلك يزور الكرملين الذي يُعد رمز روسيا وأحد متاحفها التاريخية الثقافية الغنية حوالي مليوني سائح سنويًا. وقد اكتسب هذا المكان (الساحة الحمراء) شهرته لما شهده من مجازر الثورة البلشفية عام 1917م لتصبح فيما بعد الموقع الرئيسي للعروض العسكرية أيام الشيوعية. تراها دائمًا مزدحمة بالمشاة الروس والأجانب وتعد زيارتها من أجمل الأوقات التي يعيشها السائح لدى زيارته لروسيا، كما تجدها دائمة الحركة مكتظة بالزوار حتى في أوقات الليل وساعاته المتأخرة وفي أصعب الظروف المناخية عندما يشتد البرد وتتساقط الثلوج خاصة أنه محاط بأجمل المنشآت التي يطغى عليها اللون الأحمر، كما يستطيع رؤية قصر الكرملين الرئاسي وزيارة مقابر كبار الشخصيات الروسية، أمثال الرئيس الشيوعي لينين ورائد الفضاء الأول غاغارين والعالم كورتشاتوف والكاتب ماكسيم غوركي. وتعني كلمة الكرملين (القلعة) وهي بالإضافة إلى الساحة الحمراء فن معماري فريد النمط يعود تاريخه إلى ما يزيد على ثمانمائة وخمسة وخمسين عامًا. حيث كانت البداية قلعة خشبية أقامها الأمير يوري دولجوروكي في عام 1147 على إحدى التلال السبع للمنطقة في جزئها المطل على ضفاف نهر موسكو الذي استمدت المدينة منه اسمها اختارها على أطراف إمارة سوزدال لموقعها المتميز عند ملتقى الطرق التجارية في قلب الأراضي السلافية. وتقول كتب التاريخ إنه وما بين ذلك التاريخ وحتى مطلع القرن السادس عشر جرت في نهر موسكو مياه شهدت خلالها المدينة العديد من حالات الازدهار والانحطاط فيما قضت الحرائق على رمزها المسمى بـ "الكرملين". وبالمناسبة فقد حرصت العديد من المدن على إقامة مثل هذه القلاع التي راحوا يسمونها بالكرملين في العديد من عواصم الإمارات والمقاطعات مثلما حدث في نوفغورود وفلاديمير وقازان. وقام ايفان الثالث ببناء الكرملين مستعيضًا بالأحجار جدرانه الخشبية التي كانت عرضة للنار الذي ترابط فيما بين زواياه بثمانية عشر برجًا منها نيكولسكايا وسباسكايا الذي يعد المدخل الرئيسي الذي يفضي إلى الميدان الأحمر. ويمكن للزائر أن يشاهد نصبًا تذكاريًّا في أطراف (الساحة الحمراء) أمام كاتدرائية بوكروفسكي فاسيلي بلاجيني التي أقيمت عام 1561 في ذكرى انتصار إيفان الرهيب على التتار واستيلائه على قازان.

إذ يقال إن القيصر إيفان الثالث (الرهيب) استدعى هؤلاء المعماريين ليسألهم عما إذا كانوا يستطيعون إقامة مثل هذه التحفة المعمارية الفريدة النمط بقبابها التترية الجميلة مرة ثانية، وحين أجاب المعماريون بالإيجاب قام بفقء أعينهم حتى لا تظهر إلى النور تحفة معمارية مماثلة! وعلى مقربة من ذلك المكان يرى الزائر منصة كانت تستخدم ساحة لتنفيذ أحكام الإعدام فيما استخدمت لاحقًا كمنصة للخطباء من الحكام ولإعلان المراسيم وقرارات القيصر على أن الكرملين الذي تحولت عنه الأنظار منذ انتقال السلطة إلى سان بطرسبورغ بعد بنائها في مطلع القرن الثامن عشر على أيدي القيصر بطرس الأول وعادت إليه بعد انتقال لينين في مطلع 1918 فيتخذه فلاديمير بوتين اليوم مقرًا لرئيس الدولة وعدد من مساعديه. كما أنه لا يقتصر وحسب على مقار السلطة الرسمية بل ويتسع أيضًا للكثير من الكنائس والكاتدرائيات ذات القباب الذهبية المعروفة ومنها كاتدرائية أوسبينسكي التي كان فيها يتم تنصيب القياصرة وكاتدرائية ارخانجلسك التي تضم قبو ورفات عدد من قياصرة روسيا منذ القرن السادس عشر إلى جانب كاتدرائية بلاجوفيشينسكي التي كانت أشبه بكنيسة خاصة لعائلة القيصر. وكانت هذه الكاتدرائيات التي تحيط بساحة الكاتدرائيات في قلب الكرملين قد سبق وتحولت إلى متاحف إبان سنوات الحكم الشيوعي فيما عادت إلى دورها الطبيعي مع مطلع سنوات البيريسترويكا في أواخر ثمانينيات القرن الماضي. وعلى مقربة من هذه الكاتدرائيات يشاهد زائر الكرملين ما يسمى بـ (قيصر المدافع) أكبر مدافع العالم الذي يبلغ طول ماسورته خمسة أمتار ويزن ما يزيد على خمسة أطنان والذي يستقر إلى جوار (جرس الأجراس) الذي يزن بدوره ما يزيد على مائتي طن ويبلغ ارتفاعه ما يزيد أيضًا على ستة أمتار فيما يستقر إلى جواره جزء من جداره يبلغ وزنه 11.5 طن انفصل عنه نتيجة حريق الكرملين عام 1737 ولم يكن قد استقر في موقعه فوق برج أجراس إيفان العظيم. ومن معالم الكرملين أيضًا عدد من المتاحف الشهيرة مثل متحف السلاح الذي يضم عددًا من أشهر مقتنيات العائلة القيصرية من مجوهرات وكنوز وغنائم وتحف أجنبية وعربات حرب. وهناك كذلك ساعة سباسكي الشهيرة والتي تحمل اسم برج سباسكايا فضلاً عن (قصر الكرملين الكبير) الذي أقيم في مطلع الستينيات خصيصًا كمقر لعقد مؤتمرات الحزب فيما اتخذ ساحة للحفلات الموسيقية والعروض الفنية ذات الأهمية الخاصة فيما شهد مولد الثورة الديمقراطية التي تمثلت في اجتماعات مؤتمر نواب الشعب في عام 1989. أما إدارة الرئيس أو الديوان فتستقر اليوم في مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي على مقربة من الساحة الحمراء. أما الساحة الحمراء فتمتد من كاتدرائية فاسيلي بلاجيني (بوكروفسكي) أمام بوابة الكرملين في طرفه الشرقي عند برج سباسكي وحتى نهاية جداره من الطرف الشمالي عند مبنى المتحف التاريخي كانت تسمى بالسوق. وقد كان المكان بالفعل ساحة كبرى تجمع الباعة والمشترين وحتى بعد تحول الاسم مع القرن السابع عشر إلى الميدان الأحمر أو الساحة الحمراء. والأحمر هي الكلمة السلافية القديمة التي تعني (الجميل) وأُطلقت عليه بسبب منظره الجميل وتصميمه المعماري المتميز بأحجار أرضيته البازيلتية التاريخية وما يحيط به من مبان تاريخية وجدران الكرملين ذات اللون الأحمر. وكان يوجد على ضفاف نهر موسكو مرفأ تجاري ترسو فيه السفن الآتية من الجنوب محملة بالجلود والمعادن والأحجار الكريمة وغيرها من احتياجات المواطن ما جعل السوق في ازدهار متواصل، فيما احتفظ بأهميته التجارية ردحًا طويلاً من الزمن حتى تحول مع مطلع القرن العشرين واندلاع ثورة أكتوبر 1917 إلى القيام بدور إيديولوجي بعد انتقال سلطة البلاشفة إلى الكرملين في 1918. وفي هذا المكان كانت تقام الاستعراضات العسكرية والتظاهرات الجماهيرية المنظمة في الأعياد القومية السوفياتية إبان سنوات الحرب العالمية الثانية. وفي ذلك الوقت كانت الجيوش تبدأ طريقها إلى الجبهة من هذا المكان الذي شهد في التاسع من مايو/أيار العرض العسكري التاريخي الذي ألقيت خلاله رايات الفرق والألوية العسكرية الفاشية عند إقدام القادة السوفيت الذين اتخذوا ضريح لينين منصة لهم. وقد ظل الأمر هكذا حتى آخر سنوات الاتحاد السوفيتي السابق ومطلع التسعينيات يوم أصدر الرئيس السابق بوريس يلتسين أمره بحظر إقامة المظاهرات الشعبية ذات الطابع الإيديولوجي في هذا المكان ثم عاد الرئيس فلاديمير بوتين إلى استخدام هذا المكان ساحة لإقامة الاستعراضات العسكرية في المناسبات القومية والتاريخية في ظل رقابة رسمية تامة.

ومن أهم معالم الساحة الحمراء (ضريح لينين) والتي تعود قصة إقامته إلى تاريخ وفاته في يناير/كانون الثاني عام 1924 عندما صدر قرار إقامة ضريح تاريخي يليق بدفن زعيم الثورة البلشفية، وخلال ثلاثة أيام فقط صمم المعماري شوسيف هذا الضريح الذي أعيد بناؤه لاحقًا من أحجار الجرانيت وأفخر أنواع الرخام فيما صار منصة تقام أمامها الاستعراضات العسكرية يعتليها في المناسبات التاريخية والقومية زعماء الحزب والدولة. وكان الحزب الشيوعي السوفيتي قد أقر أن يكون الضريح مكانًا يليق أيضًا بالزعيم السوفيتي الأسبق ستالين في عام 1953 غير أن الحزب عاد وبعد إعلان إدانته لظاهرة عبادة الفرد وإعادة النظر في سياسات ستالين ليصدر قراره بنقل جثمان ستالين ودفنه على مقربة من الضريح أي في المكان نفسه الذي تستقر فيه اليوم جثامين الكثيرين من قادة الحزب والدولة ومنهم بريجنيف واندروبوف وتشيرنينكو ممن تعتلي مقابرهم تماثيل نصفية بوصفهم عظماء الدرجة الأولى. أما الآخرون من مشاهير العلماء ورواد الفضاء فقد استقر رفات جثامينهم في زجاجات وضعت في تجويفات أعدت خصيصًا للاحتفاظ بها في جدار الكرملين المطل على الميدان الأحمر خلف ضريح لينين. غير أن هناك مقابر أخرى تسمى بمقابر عظماء الدرجة الثانية تقع في أطراف موسكو على مقربة مباشرة من (دير العذارى) والذي دفن فيها خروشوف وغيره من العظماء ممن لم تكن القيادة الحزبية راضية عنهم بالدرجة التي يليق معها أن يحظوا بشرف الدفن في الساحة الحمراء وهي التي صارت بدورها مزارات سياحية لما فيها من نصب تذكارية تشكل تحفًا فنية فريدة النمط. وبقي ضريح لينين مزارًا سياحيًّا يقصده الحزبيون المتشددون من أنصار الفكر اللينيني والسياح الوافدون على موسكو في الوقت الذي يتواصل فيه الجدل السياسي والاجتماعي حول عقلانية الإبقاء على جسد لينين (محنطًا) في هذا المكان مما يتناقض مع التقاليد الأرثوذكسية.

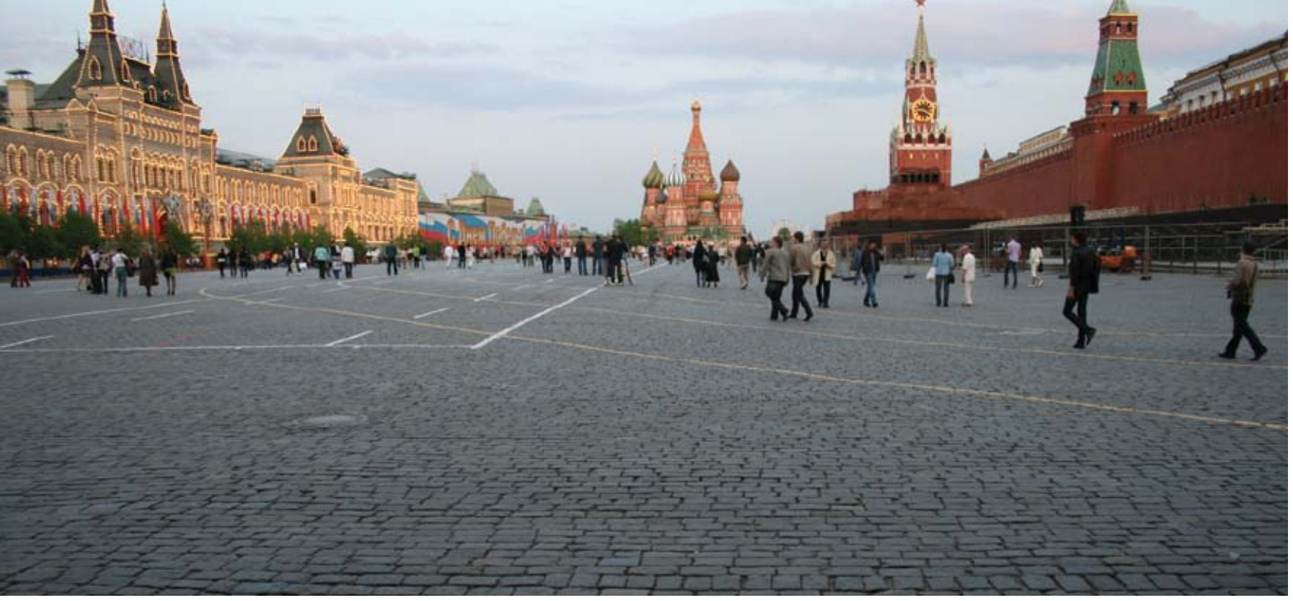

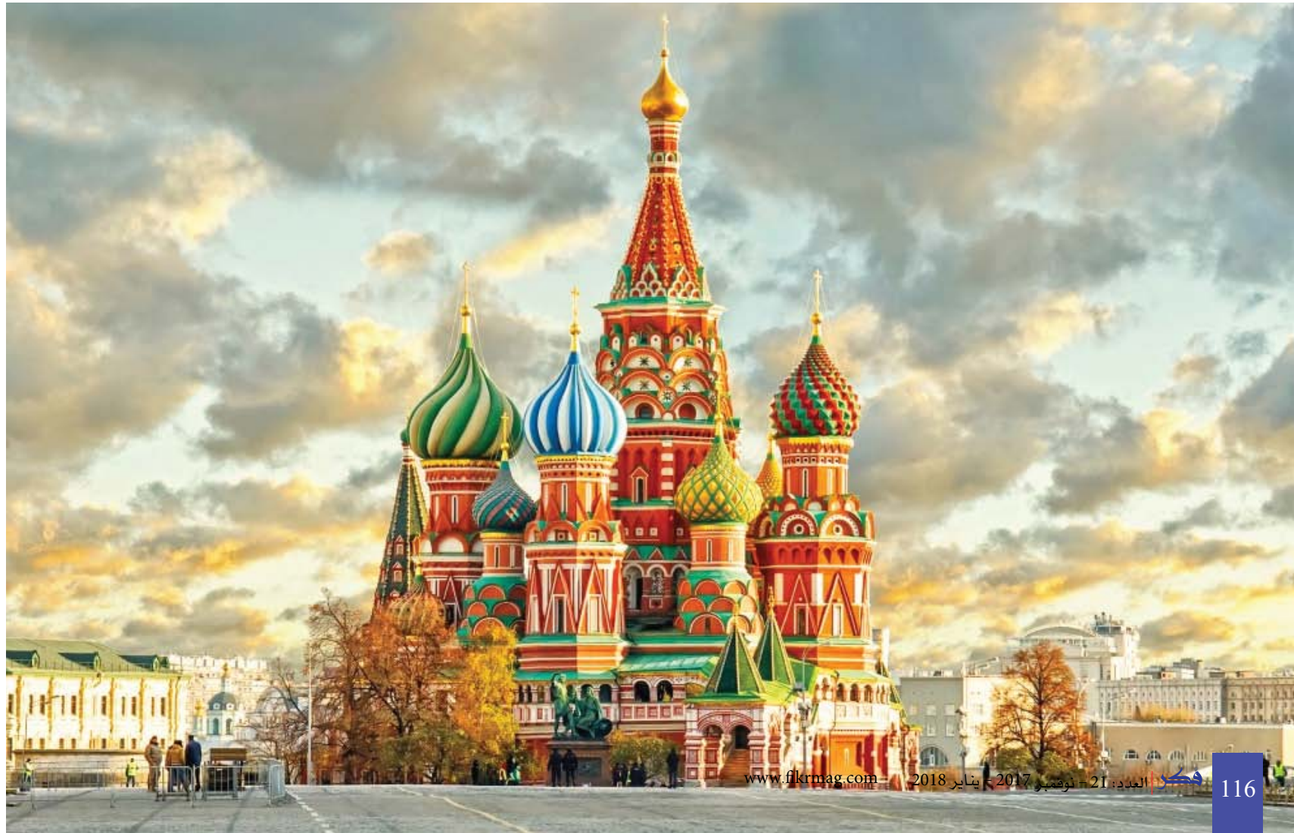

المصدر:

- صحيفة الشرق الأوسط، 04 يناير 2017 م.
- صحيفة الرياض، 21 نوفمبر 2006م - العدد 14029.
- موقع RT. ttps://arabic.rt.com
- موقع DW. http://www.dw.com

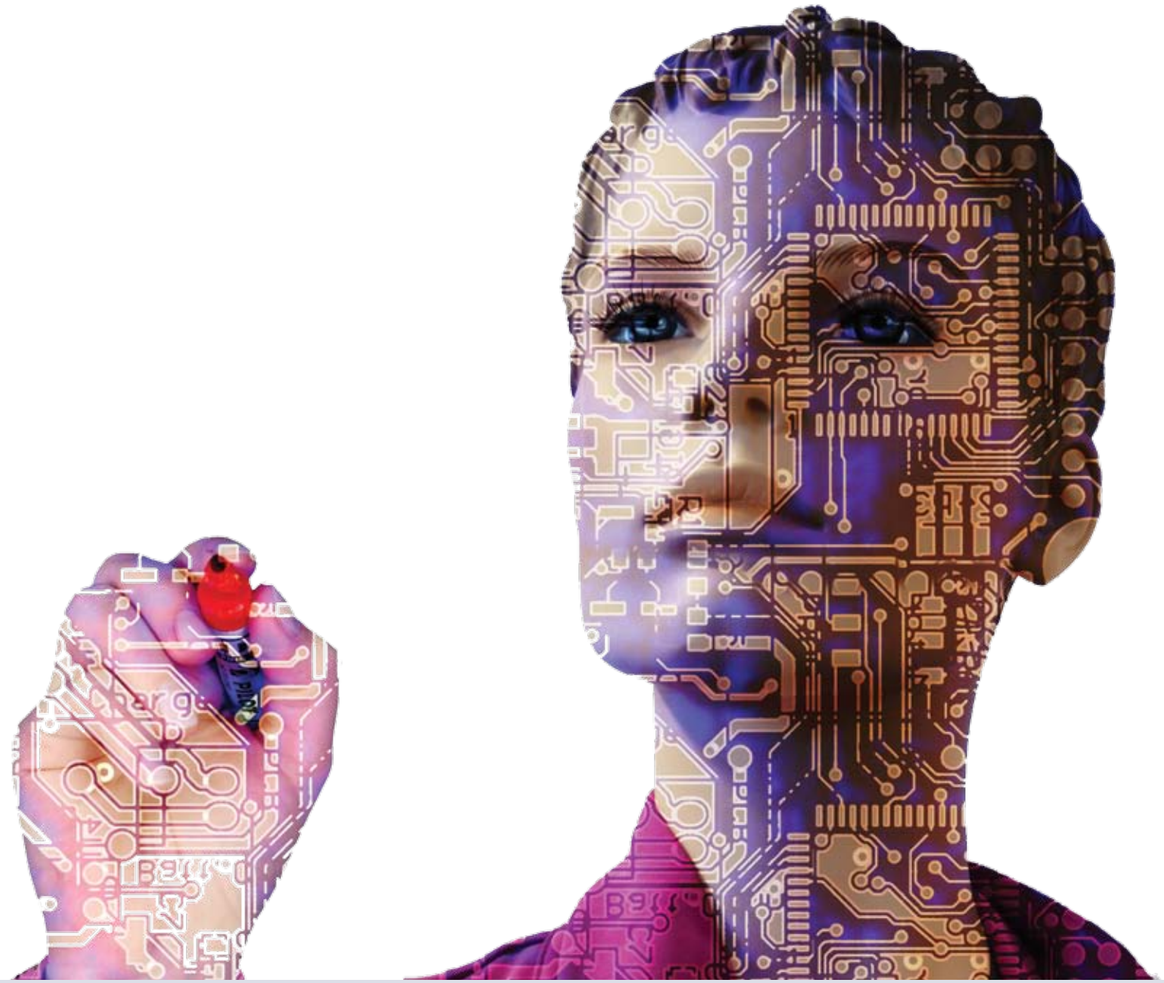

رسم مُستقبل الذكاء الاصطناعي

لوتشيانو فلوريدي

أستاذ الفلسفة وأخلاقيات المعلومات في جامعة أكسفورد، زميل هيئة التدريس في معهد آلان تورينج.

نَظَرَ جاليليو إلى الطبيعة على شكل كتاب مكتوب بلغة الرياضيات يمكن حل شفرته من خلال الفيزياء. ربما كانت استعارته امتدادًا لمحيطه، وليس محيطنا. عالمنا يتكون من أرقام يجب قراءتها من خلال علوم الكمبيوتر.

وهو العالم الذي تقوم فيه تطبيقات الذكاء الاصطناعي (AI) بالعديد من المهام أفضل مما نقوم به. مثل السمك في الماء، فالتقنيات الرقمية هي أساس فضاء المعلومات، حيث يتم خلق كائنات مماثلة تحاول التكيف مع بيئة جديدة، والتي تشمل مزيجًا من المكونات التناظرية والرقمية.

تتبادل المعلومات والاتصالات الالكترونية مع وكلاء اصطناعيين أذكياء، مستقلين، واجتماعيين أيضًا. بعض هؤلاء الوكلاء هم بالفعل أمامنا في الواقع، والبعض الآخر يظهر واضحًا في الأفق، بينما الأجيال اللاحقة غير متوقعة. والمعنى الضمني الأعمق لهذا التغيير التاريخي هو أننا ربما في بداية مسار جديد.

إن وكلاء الذكاء الاصطناعي الذين جاءوا في أشكال لينة، مثل التطبيقات، والبرامج الالكترونية، والخوارزميات، والبرامج بكافة أنواعها، والأشكال الصلبة، مثل الروبوتات والسيارات بدون سائق، والساعات الذكية، وغيرها من الأدوات. فهي تحل محل حتى الموظفين، وتقوم بالوظائف التي كانت تُعتبر قبل بضع سنوات خارج حدود الاضطراب التكنولوجي: فهرسة الصور، وترجمة الوثائق، وتفسير الأشعة السينية، أصوات الطائرات، واستخراج معلومات جديدة من مجموعات البيانات الضخمة، وهكذا دواليك.

لقد حلت التقنيات الرقمية والأتمتة محل العمال في الزراعة والتصنيع على مدى عقود، الآن ستشمل قطاع الخدمات. وسوف تستمر المزيد من المهن القديمة في الاختفاء، وبينما يمكننا فقط أن نخمن حجم الاضطراب المقبل، ينبغي لنا أن ندرك مدى خطورته. أي وظيفة يعمل فيها الناس بشكل سطحي هي الآن في خطر - بين نظام تحديد المواقع والسيارات، ووثائق بلغات مختلفة، المكونات والطبق النهائي، أو أعراض وأمراض متماثلة.

لكن في الوقت نفسه، سوف تظهر فرص عمل جديدة، لأننا سوف نحتاج وسطاء جدد بين الخدمات الآلية والمواقع الإلكترونية، وتطبيقات الذكاء الاصطناعي، الخ. وسيكون على شخص مراجعة ترجمة وفرها الذكاء الاصطناعي لجعلها دقيقة وموثوق بها.

والأكثر من ذلك، فإن العديد من المهام لن تكون فعالة من حيث التكلفة بالنسبة لتطبيقات الذكاء الاصطناعي. على سبيل المثال، يدعو البرنامج الميكانيكي لشركة أمازون بالسماح "لزبائنه بالوصول إلى أكثر من 500.000 عامل

عبر 190 دولة"، ويتم تسويقه باعتباره شكلاً من أشكال "الذكاء الاصطناعي". لكن كما يشير التكرار، يقوم "العمال عن بعد" بمهام تافهة، ويتقاضون القليل من المال.

هؤلاء العمال ليسوا في موقف لرفض الوظيفة. الخطر هو أن الذكاء الاصطناعي سوف يستمر فقط في تجزئ مجتمعاتنا - بين المالكين ومن لن يملكوا أبدًا - إذا لم نتغلب على الآثار الناجمة عنه. ليس من الصعب أن نتخيل التسلسل الهرمي الاجتماعي في المستقبل الذي يحتل فيه بعض النبلاء مكانة فوق الآلات و فوق طبقة دنيا جديدة هائلة من العوام. وفي هذه الأثناء، حيث تتلاشى الوظائف، فإن عائدات الضرائب ستواجه نفس المصير، ومن المرجح أن الشركات التي ستستفيد من الذكاء الاصطناعي ستكون مستعدة لدعم البرامج الاجتماعية لموظفيها السابقين.

بدلاً من ذلك، علينا أن نفعل شيئًا لجعل الشركات تدفع أكثر، ربما من خلال "روبو الضرائب" على تطبيقات الذكاء الاصطناعي. ينبغي علينا أيضًا إيجاد التشريعات والأنظمة اللازمة للحفاظ على "إنسانية" وظائف معينة. وبالفعل، فإن هذه التدابير هي السبب في ندرة القطارات بدون سائق، على الرغم من كونها أكثر سلاسة من سيارات الأجرة والحافلات بدون سائق.

ومع ذلك، ليست كل آثار الذكاء الاصطناعي في المستقبل واضحة. بعض الوظائف القديمة ستنجو، حتى عندما تقوم الآلة بمعظم العمل: البستاني المكلف بقطع العشب بآلة جز العشب "الذكية" سيكون لديه المزيد من الوقت للتركيز على أمور أخرى، مثل تصميم المناظر الطبيعية. وفي الوقت نفسه، سيتم تفويض مهام أخرى لنا للقيام بها (مجانًا) كمستخدمين، كما هو حال الدفع الذاتي في ممر الخروج من الأسواق المركزية.

> "في عالم حيث يمكن لأنظمة الذكاء الاصطناعي المستقلة التنبؤ والتعامل مع خياراتنا، سنُجبَر على إعادة التفكير في معنى الحرية. وسيتعين علينا أن نعيد التفكير في حب الحياة الاجتماعية، وكذلك الرفقاء الاصطناعيين، الهولوغرامات (أو الأصوات المجردة)، والروبوتات."

هناك مصدر آخر من عدم اليقين يتعلق بالمرحلة حيث لم تعد تتم السيطرة على الذكاء الاصطناعي من قبل مجموعة من التقنيين والمديرين. ماذا سيحدث عندما سيصبح الذكاء الاصطناعي "ديمقراطيًا"، ويكون متوفرًا للملايين من الناس على هواتفهم الذكية أو بعض الأجهزة الأخرى؟

بداية، سيتحدى السلوك الذكي لتطبيقات الذكاء الاصطناعي سلوكنا الذكي، لأنه سيكون أكثر قدرة على التكيف مع فضاء المعلومات في المستقبل. في عالم حيث يمكن لأنظمة الذكاء الاصطناعي المستقلة التنبؤ والتعامل مع خياراتنا، سنُجبَر على إعادة التفكير في معنى الحرية. وسيتعين علينا أن نعيد التفكير في حب الحياة الاجتماعية، وكذلك الرفقاء الاصطناعيين، الهولوغرامات (أو الأصوات المجردة)، والروبوتات، أو الدمى الشبه حية التي توفر بدائل جذابة لا يمكن تمييزها عن التفاعل الإنساني.

ومن غير الواضح كيف سيتطور كل هذا، لكن يمكننا أن نطمئن أن الوكلاء الاصطناعيين الجدد لن يدعموا تحذيرات مروجي التخوفات، ولن يدخلوا في سيناريو الخيال العلمي البائس. هذا العالم الجديد الشجاع لن يكون ناجحًا، ولن يختبأ "المُدمِر" وراء الأفق. علينا التذكر أن الذكاء الاصطناعي يكاد يكون تناقضًا لفظيًا: ستصبح التقنيات الذكية في المستقبل غبية مثل سيارتك القديمة. في الواقع، إن تفويض المهام الحساسة لهؤلاء الوكلاء "الأغبياء" هي واحدة من المخاطر المستقبلية.

كل هذه التحولات العميقة تفرض علينا التفكير بجدية في ما نحن عليه، وما يمكن أن نكون، وما نود أن نصبح. وسيتحدى الذكاء الاصطناعي الوضع السامي الذي منحناه لجنسنا البشري. لكنني لا أعتقد أننا مخطئون في اعتبار أنفسنا استثنائيين، وأظن أن الذكاء الاصطناعي سوف يساعدنا على التعرف على العناصر البشرية الغير منتجة لوجودنا، ويجعلنا ندرك أننا استثنائيون فقط بقدر ما نحن ناقصون بنجاح.

في البرمجيات العظيمة الخاصة بهذا الكون، سوف نظل عبارة عن حشرة جميلة، وسيصبح الذكاء الاصطناعي سمة طبيعية على نحو متزايد.

المصدر: BBC

الإنسان والبيئة

أ.د: عبدالله بن محمد الشعلان

قسم الهندسة الكهربائية - كلية الهندسة
أستاذ كرسي الزامل لترشيد الكهرباء
جامعة الملك سعود - الرياض

مقدمة

لم تكن البيئة في أي وقت مضى تمثل لدينا (بالمملكة العربية السعودية) هاجسًا أو أمرًا له قدره وحسابه حتى انبرى لها إنسان مملوء قلبه بحب وطنه ومفعم وجدانه بالغيرة على طبيعته ومرافقه وسماته ومعالمه وآثاره وتراثه وهو المغفور له صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز الذي كان رائدًا من رواد هذا العمل الإنساني الجليل والبعيد الأثر وفي وقت نحن فيه أبناء هذه المملكة الواسعة الأرجاء المترامية الأطراف في أمس الحاجة إلى التفكير في بيئتنا وسلامتها والحفاظ عليها من جراء ما يعتورها من تحولات ومتغيرات نتيجة لطبيعة الحياة الحاضرة التي نعيشها وما فيها من مستجدات اقتصادية واجتماعية وصناعية وتقنية. ولذا انبثق مشروع "التوعية البيئية السعودي" للاهتمام بالبيئة وحمايتها من أخطار التلوث والذي تتبناه وزارة الدفاع والطيران من خلال برنامج التوازن الاقتصادي بالتعاون مع مصلحة الأرصاد وحماية البيئة وعدد من الوزارات والإدارات والهيئات الحكومية والأهلية الأخرى.

يحلم الإنسان دائمًا بالعيش في وسط بيئة سليمة وصحية ونظيفة خالية من المنغصات والمكدرات المادية والذهنية والنفسية، وإذا توفرت تلك المقومات وانتفت تلك الملوثات يتواصل العمل وتزدهر القدرات ويظهر الإبداع ويتحقق الإنتاج، ومن ثم تسير الحياة على هذا المنوال بأسلوب سوي ونهج قويم. لذلك نتطلع إلى تربة صحية نعيش عليها وماء صاف نشربه وهواء نقي نتنفسه.

ولا شك أن الاهتمام بالبيئة وسلامتها والحفاظ على سماتها الجمالية ومقوماتها التراثية يصب في أولويات مهام وتطلعات الوزارتين الفتيتين وزارة البيئة والمياه والزراعة ووزارة الطاقة والصناعة والثروة المعدنية، كما هو بلا شك من صميم اهتمامات وتوجهات الهيئة العامة للأرصاد وحماية البيئة وذلك نحو تشجيع وتمويل الأبحاث المتعلقة بالبيئة كما تشاركها مراكز البحوث أمثال مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية ومركز الملك عبدالله للدراسات والبحوث البترولية، كما تنضم إلى القافلة الجامعات السعودية بما لديها من مراكز أبحاث رائدة ذات إمكانات علمية متطورة، لعل هذه الجهود كلها تسهم في الاهتمام بقضايا الطاقة والبيئة ووفقًا للخطوات التطويرية الحثيثة التي تسير بها الجامعات نحو إيجاد مراكز للتميز البحثي وكراسي البحوث وما يستقطبه ذلك من دعم كبير وتمويل سخي من قبل شخصيات وجهات ممولة لتمويل أبحاث تنويع الطاقة وترشيدها وحماية البيئة وسلامتها.

البيئة وكيف ارتبطت بهاجس الإنسان في حياته ومعاشه في عصره الحاضر

تتجسد البيئة في كل ما يكتنف الإنسان وحياته في هذا الكون من مفاهيم ومظاهر متعددة أهمها الأرض والتربة والهواء والماء، وتمثل البيئة من حيث إنمائها وتطويرها وحمايتها والحفاظ على مصادرها ومقوماتها الطبيعية والاقتصادية هاجسًا عالميًا تشترك فيه جل إن لم يكن كل دول العالم في عصرنا الحاضر. ولقد برزت مشاكل البيئة والتفكير في إيجاد الحلول لها على مستوى عالمي منذ زمن بعيد، وإن تعددت تلك المشاكل لكنها في نهاية المطاف تلتئم في صورة واحدة وتلتقي في إطار واحد، وهي ما يرتبط بالأرض التي نتواجد عليها والجو الذي نعيش فيه والهواء الذي نتنفسه والماء الذي نشربه والمصادر الاقتصادية التي نعتمد عليها بعد الله في حياتنا ومعاشنا.

ماهية المخاطر الطبيعية التي قد تصيب البيئة بالدمار واندثار المعالم وتلاشي المقومات

المخاطر الطبيعية التي قد تترى على البيئة هي تلك الظروف أو العوامل التي تعمل على تدمير الاقتصاد أو تسبب الوفاة (الموت) للإنسان والعناصر الحياتية الأخرى التي تعيش فيها. ومن تلك الظروف تلك التي تكون خارجة عن إرادة أو تحكم الإنسان ذاته مثل الظواهر الجوية المتقلبة والفيضانات والزلازل والبراكين والجفاف والأعاصير والحرائق. أما تلك التي يكون الإنسان عادة مسؤولاً عنها وفي نطاق تحكمه فتنحصر مثلاً في تلوث المياه وتلوث الجو، كذلك التخلص غير السليم والصحي من النفايات والمخلفات السامة، كذلك المخاطر المرتبطة بفشل في الأجزاء المصنعة من أجل الحياة في البيئة مثل انهيار المباني وتداعي الجسور، كذلك التخلص غير السليم والمنظم لمواد خطرة مثل المواد المشعة من محطات التوليد النووية أو انبعاث الغازات الكيماوية من الحاويات المنقولة سواء من السيارات أو القطارات أو البواخر أو الطائرات نتيجة التصادم أو الانقلاب أو الانفجار أو الحريق.

> "كما أن المساحات الخضراء ستبدأ في التناقص بازدياد مساحات التحضر كما أنه سيزداد الطلب على الماء بصفته مادة حيوية للحياة والإستقرار كما أن الكثافة السكانية لها تأثير على الحياة النفسية والصحية والإجتماعية للسكان"

إن التمييز بين الكوارث الطبيعية والإنسانية التي تحدث في البيئة لذو فائدة في التمكين من توجيه وحصر الاهتمام في كيفية التصدي لتلك الكوارث والتحكم فيها وتجنب مخاطرها أو على الأقل التخفيف من آثارها البشرية والمادية والمعنوية. ولكن كيف تقاس تلك الكوارث بمعايير قياسية؟ هناك طريقتان فالأولى عن طريق التأثير الأرضي وتقيس أبعاد الكارثة بحجم الطاقة، والمعيار الثاني يرنو إلى التأثيرات ويحاول قياسها، والفرق بين هذين المعيارين يتمخض في مقياسين تم التوصل إليهما لقياس شدة وتأثير الكوارث الطبيعية، فالأول يعنى بقياس المظهر الطبيعي للأرض ويحاول معرفتها بالحجم أو الطاقة، أما الآخر فيحاول التعرف على الأثر الذي تحدثه وتخلفه تلك الكوارث ومن ثم يعمد إلى قياسها، إن الفرق بين هاتين الطريقتين يمكن التعرف عليه على ضوء المقياسين التي تم التوصل إليهما لقياس الزلازل، فمقياس ريختر (Richter) يقيس الزلازل بدلالة الطاقة المنبعثة، وهذه الطاقة تقاس بجهاز (السيزموجراف) وهو جهاز في غاية الحساسية جرى معايرته بحيث تدل كمية الإزاحة بواسطة الإبرة بداخل الجهاز على كمية الطاقة المنبعثة والمحمولة بواسطة الموجات السيزموجرافية، وحيث أن القيم التي تعرف بها شدة الزلزال كبيرة جدًا بدءًا من اضطراب صغير يمكن التقاطه واكتشافه عن طريق الجهاز وقد لا يدركه الحس الآدمي إلى

اضطرابات عنيفة تهز المباني وتتصدع لها الأرض، لذا فإن مقياس ريختر مقياس لوغاريتمي (أي ليس خطيًّا) ولهذا قد يسبب أحيانًا بعض الخلط وعدم الفهم في تفسير أرقامه ومعرفة دلالاتها، فمثلاً قد يظن البعض أن زلزالاً شدته 6 قد يساوي زلزالين شدة كل منهما 3 وهذا غير صحيح البتة. أما المقياس الثاني فهو مقياس ميركالي، وهذا المقياس لا يقيس الزلزال ذاته بل يقيس تأثيره على الإنسان وعلى مدى تأثيره التدميري لحياته ومنشآته. وقد يتميز مقياس ريختر على مقياس ميركالي بأن الأول له تطبيق أوسع نطاقًا وأكثر استخدامًا من الثاني وذلك لثباته في أي زمان أو مكان من العالم، ولعل سوءته الوحيدة أنه لا يعكس معلومات عن مدى التدمير الذي وقع لأنه قد يقع بمقياس كبير (7 مثلاً) في منطقة غير آهلة بالسكان فيكون تدميره أقل من مقياس صغير (4 مثلاً) ولكن وقع في منطقة ذات كثافة سكانية وعمرانية كبيرة.

الآثار الرد فعلية لعمليات التحضر المتواترة على البيئة لتشويه سماتها

للبدء في الإجابة على هذا السؤال نرى أن من الأهمية بمكان أن نتعرف على مدى تأثير عمليات التحضر وكذلك التصنيع على البيئة، فبالنسبة لازدياد عدد السكان وكثافتهم فإن ذلك يساعد على انبعاث نسبة كبيرة من ثاني أكسيد الكربون وتقلص نسبة الأوكسجين في الجو كما أن المساحات الخضراء ستبدأ في التناقص بازدياد مساحات التحضر كما أنه سيزداد الطلب على الماء بصفته مادة حيوية للحياة والاستقرار كما أن الكثافة السكانية لها تأثير على الحياة النفسية والصحية والاجتماعية للسكان، وبازدياد السكان فإن درجات الحرارة ستأخذ في الارتفاع كما أن الإقبال على استنزاف مصادر المياه بسبب التحضر سيزيد من تلوث البيئة، وبالنسبة لوسائل المواصلات فإنها ستسهم في تلوث البيئة عن طريق انبعاث الغازات من الوقود المحترق وانبعاث الأدخنة الكيماوية وبخاصة ما تحتويه من عنصر الرصاص من بعض الماكينات، هناك أيضًا ارتفاع نسبة الضوضاء والمخاطر الصحية نتيجة لذلك وما سيزيد أيضًا من نسبة تلوث الجو.

والمخاطر التي يخلفها التحضر على البيئة وبخاصة المياه كبيرة وبعيدة الأثر بسبب كمية المياه العذبة والصالحة للاستعمال الكبيرة والكثيرة التي يجب توفيرها وتأمينها للسكان وما سيخلفه ذلك من كميات كبيرة أيضًا من مياه الصرف الصحي التي يجب إزاحتها والتخلص منها. وتعد مياه الصرف الصحي وكمياتها الكبيرة مسؤولة إلى حد كبير عن التلوث التي يلحق بمياه الشرب النظيفة والتي تتطلب نفقات كبيرة في تحليتها وجلبها وتوزيعها. كما أن المخلفات والنفايات التي تطرح وتتراكم في الأراضي الخلوية تشكل عاملاً أساسيًّا في تلوث المياه.

إن تأثير الصناعة على البيئة يمثل ضررًا أخف بالمقارنة بالتحضر نظرًا لأن التأثير ينحصر في مجموعة صغيرة من الاهتمامات، فبالنسبة للبتروكيماويات فإن الجو سيتأثر بأعمال المصافي وانبعاث الغازات السامة من المصانع، كما

أن المياه ستتأثر من جراء الانبعاثات المنطلقة من المداخن والتي ربما تستقر أخيرًا في مصادر المياه وتختلط بها، كما أن التخلص من النفايات الصناعية أو التسرب الذي يحدث عرضًا أو أثناء النقل أو التخزين، كما أن الحياة الطبيعية والكائنات البحرية ستتأثر قطعًا من جراء العمليات الصناعية، وفي هذا ربما القضاء على الحياة والكائنات الطبيعية، كذلك ستتأثر الصحة العامة بسبب انبعاث الغازات والملوثات السامة.

ويعد التحضر والتصنيع ظاهرتين معروفتين على نطاق عالمي واسع، فهناك الكثير والكثير من البشر يزحفون إلى المدن ويتجمعون للحياة فيها ويقطنون بها مما يزيدها كبرًا واتساعًا، وهذه التجمعات البشرية ذات الكثافة العالية تتطلب مياهًا صاحة للشرب والاستعمال كما تتطلب أيضًا هواءً نقيًّا صالحًا للتنفس والحياة المريحة، تتطلب كذلك التخلص الصحي من النفايات التي تنجم من سير الحياة، كذلك إلى أنظمة حديثة من شبكات المواصلات إلى جانب مرافق الترويح والترفيه.

إن صناعة الزيت ذاتها قد تسبب آثارًا سيئة على البيئة منذ البدء في البحث والتنقيب والتكرير ثم الشحن والاستخدام. فعند البحث عن مكامن الزيت سواء على الأرض أو في أعماق البحار يجب التحكم في الآبار التي يجري التنقيب عنها ومعرفتها جيدًا خشية افتقادها فتكون مصدرًا لتسرب الزيت الذي سيضر قطعًا بالحياة البرية أو البحرية. إن تسرب كميات من الزيت ربما تسبب نفاق وإبادة الطيور وتلوث السواحل وينجم عنه ضرر بيولوجي مدمر على الحياة البحرية والمركبات العضوية قرب الشواطئ مثل القواقع والأسماك. إن تأثر تسرب الزيت في عمق البحر له أيضًا ضرره الفادح على الحياة البحرية والثروة السمكية. كما أن هناك مخاطر وأضرارًا تنجم من تسرب الزيت أثناء إنتاج الزيت وتجميعه قبل البدء بعملية شحنه إلى المصافي ومعامل التكرير، فعند تلك المصافي والمعامل هناك احتمال لانبعاث غازات الهيدروكربون وأكسيدات الكبريت (SOx) والذي ينجم عنه أكسدة المياه ويسبب تبعًا لذلك مشاكل في التنفس للإنسان، كذلك غاز كبريت الهيدروجين (H_2S) السام جدًّا وذو الرائحة الكريهة، كذلك غاز ثاني أكسيد الكربون(CO_2). ومن المعروف أن الزيت يشحن بواسطة البواخر ذات الصهاريج الضخمة أو بواسطة الأنابيب بكيمات كبيرة؛ وهاتان الوسيلتان ليستا معصومتين من تلويث البيئة، ولقد سمعنا عن الكثير من حوادث غرق البواخر واصطدامها وعطبها والذي نجم عنه تلوث واسع وصل أثره إلى الشواطئ والسواحل. وقد يعد ضخ الزيت في الأنابيب أخف ضررًا على البيئة وذلك لتوفر وسائل التحكم والهيمنة عليه بشكل أكبر.

إن تأثر البيئة بالغاز الطبيعي يعد إلى حد كبير أقل ضررًا من آثار الزيت، فمثلاً انطلاق الغاز الطبيعي (الميثان) في البيئة قد يكون له تأثير بسيط على البيئة بشرط أن لا يكون هناك حريق أو انفجار مصاحب له، فغاز الميثان معروف بأنه سرعان ما يتبخر ويتلاشى بسرعة في طبقات الجو مخلفًا ضررًا لا يذكر على البيئة.

تأثير تكون وتراكم بعض الغازات السامة مثل ثاني أكسيد الكربون

أحد التغيرات الهامة جدًّا في الوقت الحاضر هو تزايد غاز ثاني أكسيد الكربون في طبقات الجو. وبلا شك فإن تواجد هذا الغاز في الجو مصدره احتراق الوقود الأحفوري، وكذلك القضاء على المساحات الخضراء وإساءة استخدام عناصر التربة. وهناك أيضًا غازات أخرى لها نفس الخصائص تضاف تباعًا إلى الجو المحيط، ويسفر هذا التكون بلا شك إلى تغير في أحوال الطقس والمناخ وبشكل أكثر نحو درجة حرارة أعلى، وهذا بلا شك يؤثر في حياة الإنسان المعيشية والإقتصادية. ويتم قياس نسب غاز ثاني أكسيد الكربون إلى حجم الغازات الأخرى في الجو وتعد هذه النسب مختلفة قرب الأرض وذلك بسبب فعل النباتات الخضراء واستهلاك الوقود. وتدل البيانات والمتابعات التي تمت في هذا المجال أن نسبة هذا الغاز تتزايد بنسبة 4% في كل عقد من الزمان. وحيث أن كمية الغاز ثابتة في الكون فإن تلك الزيادات جاءت من مصادر أخرى مثل حرق الوقود المتمثل في الفحم والزيت والغاز والمخلفات الحيوانية وكذلك القضاء على الغابات والأشجار والمسطحات الخضراء.

ظاهرة الاحتباس الحراري وعلاقتها بالبيئة

إن ظاهرة ما يعرف بالاحتباس الحراري أو البيوت المحمية (greenhouse effect) تؤثر بلا شك على درجة حرارة الجو وعلى سطح الأرض، إذ يقوم غاز ثاني أكسيد الكربون ببعث وامتصاص الأشعة عند موجات ذات أطوال محددة كما هو الحال بالنسبة للأرض والجو، فإذا زاد تركيزه فإن الجو يبذل مقاومة متزايدة أمام الإشعاع المنطلق نحو الفضاء. وحيث أن الإشعاع الشمسي القادم من الشمس لا يتأثر بالتغير في تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون فإن درجات حرارة السطح سترتفع نتيجة للمقاومة المتزايدة للتدفق العائد من الفضاء، كذلك فإن تزايد نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون ستساعد في ارتفاع درجة الحرارة، ولقد قدر العلماء أن نسبة تزايد هذه النسبة في عام 2100 إلى 100%. لذا فإن عدم اتخاذ اجراءات للحد من تزايد هذا الغاز فإن درجة الحرارة ستزداد درجة واحدة في عام 2025 مقارنة بعام 1990 و ثلاث درجات عند نهاية القرن الحادي والعشرين.

طبقة الأوزون وتأثيراتها المباشرة على البيئة والتخوف من تآكلها وتقلصها

وجود غاز الأوزون في طبقات الجو العليا ضروري لحياتنا ورفاهيتنا على سطح الأرض فهو يقوم بامتصاص كمية كبيرة من الأشعة فوق البنفسجية القاتلة القادمة من الشمس يجعل الحياة ممكنة على سطح الأرض، وتكون كمية الأوزون أكبر ما يمكن عندما تكون البقع الشمسية أعظم ما يمكن. إن سبب استنزاف طبقة الأوزون يرجع إلى الأشعة الكونية والتفاعلات الضوء كيميائية لمركبات الكلوروفلور والملوثات الكيميائية ومركبات الفريون وأكاسيد النيتروجين.

والأشعة الشمسية التي تصل إلى الأرض تنتهي عند ملامستها لسطح الكرة الأرضية بموجات متناهية في الصغر (10×290^{-9} متر)، وتقوم كميات صغيرة من الأوزن (O_3) الموجودة في طبقات تعلو سطح الأرض بمقدار 15 – 40 كم فوق سطح الأرض تمتص بعض تلك الإشعاعات ليتولد من ذلك حرارة في طبقات الجو العليا. إننا في أشد الحاجة لطبقة الأوزن لتحمينا من الأشعة فوق البنفسجية الضارة بإفرازات الخلايا في جلد الإنسان كما تسبب تغيرات في الجسم أو أمراضًا سرطانية. وهذه الطبقة تتكون بفعل قدرة الطاقة الكامنة في تلك الإشعاعات الشمسية بفلق ذرتي الأكسجين حيث يتحدان مرة أخرى بذرتي الأكسجين المتصاعد من الأرض والناتج من عملية التمثيل الضوئي في النبات ولكن طبقة الأوزون تظل دائمًا عرضة لهجوم متصل ومستمر من غازات كثيرة ومتعددة والمتصاعدة من الأرض.

إن استمرار تآكل طبقة الأوزون يمثل مشكلة عالمية لا يستهان بها؛ ويمكن أن تتظافر الجهود على مستوى دولي للتصدي لها بالتعاون على تقليص التلوث، ويعد الغلاف الجوي أفضل منفذ للتخلص من التلوث المتصاعد من الأرض ولكن هذا لايضمن تحلل واضمحلال بعض مكونات التلوث التي ستنتشر في الغلاف الجوي ومن ثم يتولد عنها عدم اتزان كيميائي لايكون بمقدورنا أن نتنبأ به ولكن علينا الآن أن نتصدى له.

إمكانيات تلوث الهواء وعدم صلاحيته

إن معايير تلوث الهواء لم تكن معروفة إلا منذ فترات زمنية بسيطة، وفي عصرنا الحديث أصبحت هذه المعايير تحظى باهتمام ورعاية معظم دول العالم وأضحت تلقى الكثير من العناية والإهتمام من قبل الكثير من المنظمات الدولية والمؤتمرات والندوات التي تعقد لهذا الغرض. وإذا كانت مسببات التلوث للهواء الجوي غير محددة لكننا نعتبر أن السيارات وحدها تسهم بنصيب لايستهان به في تلوث البيئة والهواء بما تنفثه عوادمها كل يوم من أبخرة دخانية وملوثات كيميائية وغازات كربونية، ولعل المثال التالي يبين لنا مصداقية ما ذكر في تأثير السيارات على الهواء الجوي.

مثال: لنفترض أنه يوجد بمدينة ما حوالي 1.200.000 سيارة مسجلة. ومن المعروف أن معدل انبعاث أكاسيد النيتروجين من السيارات هو 2.82 جرام لكل سيارة لكل كم، ومعدل انبعاث الهيدروكربون هو 1.6 جرام لكل سيارة لكل كم. فإذا افترضنا أن السيارة تقطع حوالي 55 كم في اليوم الواحد فإنه يمكن حساب كمية (حجم) الهيدروكربون التي سيمنى بها جو تلك المدينة في اليوم الواحد كما يلي:

كمية أكسيد النيتروجين المنبعث في اليوم = 2.82 × 55 × 1.200.000 = 186120000 جرام في اليوم = 186.12 طن في اليوم.

كمية الهيدروكربون المنبعث في اليوم = 1.6 × 55 × 1.200.000 = 105600000 جرام في اليوم = 105.6 طن في اليوم.

مجموع غازات النيتروجون والهيدروكربون = 291.72 طن في اليوم.

فإذا كانت كمية الغازات تلك لا يتم علاجها والتخلص منها بأي وسيلة متاحة فإن الهواء سيصبح غير صحي وبالتالي غير صالح للتنفس!.

الآثار السلبية التي تخلفها على البيئة بعض الأجهزة والمعدات الكهربائية بعد نهاية عمرها التشغيلي والاستغناء عنها، وكيفية التخلص منها بعد ذلك؟

تمثل بعض الأجهزة والمعدات الكهربائية والألكترونية بعد الإستخدام وانقضاء عمرها التشغيلي والرغبة في التخلص منها أهم مصادر الأخطار المؤثرة على البيئة وبخاصة ما يتصل بصحة وحياة الإنسان نظرًا لاحتواء الكثير منها على مواد خطرة ومشعة وذات علاقة بأمراض خبيثة وخطيرة. إن جمع تلك الأجهزة إما لإعادة تصنيعها مرة أخرى أو التخلص منها لأسلوب متبع ومنظم لدى الكثير من دول العالم منها على سبيل المثال لا الحصر السويد والدنمرك وألمانيا وهولندا وأستراليا واليابان. ويشكل التخلص من تلك الأجهزة والمعدات الكهربائية وبخاصة ما يحتوي منها على مواد خطرة مثل الثلاجات في عوازلها والمكيفات في غازاتها والتلفزيونات في موادها المشعة أهم هاجس للدول المصنعة لتلك الأجهزة أو المستهلكة لها؛ كما أن الحكومات والهيئات التشريعية في تلك الدول سعت إلى تشجيع عملية تدوير تصنيعها وليس للتخلص منها فحسب.

التعرف على مدى تأثير محطات الكهرباء على البيئة وبالتالي كيفية تخطيط واختيار المواقع المناسبة لها؟

إن الغازات والأدخنة والأبخرة المنبعثة من عوادم محطات الكهرباء تسبب بلا شك أضرارًا للبيئة قد تؤدي إلى تدهورها وتلفها والقضاء على عناصرها ومعالمها وجمالياتها، فعند التخطيط لإنشاء محطات كهربائية هناك جملة اعتبارات يجب أن تؤخذ في الحسبان؛ فالطاقة الكهربائية مهمة في حياة الإنسان في هذا العصر لتيسير حياته من إنارة وتسخين وتبريد وتشغيل أجهزة وآلات ..إلخ. ونظرًا لتعدد أنواع المولدات وأحجامها وكفاءاتها وطرق تشغيلها واختلاف وقودها فإن اختيار النوع المناسب الذي يفي بكل الاحتياجات والأغراض قد لا يبدو سهلاً مضمون النتائج لأن هناك عدة عوامل تتصل بحياة الإنسان وبيئته التي يعيش في وسطها إذ يجب أن تكون خالية من الضجيج والتلوث والمخاطر الصحية، وفي الدول الصناعية –حيث أن للبيئة اعتبارًا كبيرًا– هناك ضوابط ومعايير عند بناء المحطات الكهربائية والتحكم في المولدات من حيث تأثيرها على البيئة والصحة وتلوث الهواء ومظاهر الطبيعة الجمالية. فالمحطات التي تعمل بالطاقة النووية مثلاً لها تأثير مباشر وغير مباشر على البيئة وحياة الإنسان فيها، فالمحطات النووية تحتاج إلى مساحات شاسعة لإنشائها وكميات هائلة من المياه لتبريدها ناهيك عن الذعر والهلع الذي سيدب في نفوس المجاورين خوفًا من كارثة محتملة إذا حدث أي تسرب نووي نتيجة خطأ إنساني أو عطل آلي، ولعل البعض لا يزال يذكر العطب الذي لحق بمحطة الطاقة النووية في جزيرة الأميال الثلاثة بولاية بنسلفانيا في أمريكا في 28 مارس 1976م عندما أصاب المبرد خلل أدى إلى ارتفاع درجة حرارة المفاعل وما صاحب ذلك من تسرب بعض الإشعاعات النووية مما حدى بالآلاف من السكان إلى النزوح بعيدًا عن المناطق المجاورة للمفاعل خوفًا من التعرض لتلك الإشعاعات، كذلك حادثة المفاعل النووي في تشيرنوبل بروسيا في 26 أبريل عام 1986 عندما تسربت إشعاعات نووية من حاوية التفاعل النووي للمفاعل.

إن تقويم مدى آثار هذه المحطات على البيئة وانعكاساتها على صحة الإنسان والكائنات الحياتية الأخرى لأمر حيوي للوصول إلى قرار سليم نحو اختيار أنسب المولدات ووقودها ومواقع بنائها فإذا كانت المحطة تعمل بالفحم أو الغاز الطبيعي كوقود فإن أول ما يخطر في البال هو تلك الغازات المنبعثة كأكسيد الكبريت والكربون والنيتروجين والذرات الدقيقة التي تتطاير في الجو فيتشبع بها، كذلك الحرارة المشعة ومخلفات الوقود وهذه بجملتها تشكل مخاطر جمة على البيئة وبالتالي على صحة المجتمع وسلامته.

المصادر

1 – ج. جلين و ج. هينك: "علم البيئة والهندسة" من منشورات مؤسسة برنتس هول، 1996.

2 – "تدوير والتخلص من الأجهزة الكهربائية المنزلية في اليابان"، ندوة عقدت بإشراف الهيئة العربية السعودية للمواصفات والمقاييس بالتعاون مع الوكالة اليابانية للتعاون الدولي في الفترة من 26 – 27 رجب 1431هـ.

3 – "إصدارات ومطبوعات عن "برنامج التوعية البيئية السعودي"، وزارة الدفاع والطيران (لجنة التوازن الإقتصادي) بالتعاون مع مصلحة الإرصاد وحماية البيئة.

4 – الاستراتيجية العربية للحد من كوارث البيئة 203م، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، القرار رقم 500/د ع 2016/28.

الجديد عن النوم

منة الله عبدالمنعم

كاتبة ومترجمة علمية وفيزيائية

بمعهد الكبد القومي

جامعة المنوفية - مصر

رغم أن الإنسان يقضى مايقارب من ثلث حياته نائمًا إلا أننا لا زلنا نجهل الكثير عنه وبالكاد في الوقت القريب عرفنا أنه ليس مجرد حالة من الاسترخاء البدني والذهني ولكن يحدث بداخله الكثير من العمليات الحيوية والعقلية ولكن لا شك في أهميته لصحة الإنسان منذ قديم الأزل لذا لا تتوقف الدراسات العلمية أبدًا عن دراسة النوم وخفاياه وفي مايلي نستعرض بعض من أحدث هذه الدراسات.

وضعية النوم هل تؤثربشكل مباشر على أحلامنا

وضعية النوم قد تؤثر على نوعية الأحلام

كثيرًا ما نسمع أن الأكل الدسم قبل النوم يسبب الأحلام المزعجة وكذلك ينسب البعض ذلك للأنشطة الذهنية كالقراءة أو مشاهدة التلفاز لكن مؤخرًا يعتقد بعض العلماء أن وضعية النوم لها تأثير مباشر على جودته ونوعية الأحلام رغم أن الدراسات محدودة للغاية في هذا المجال فهناك دراسة عام 2004 شملت 63 متطوعًا، ووجد أن الأشخاص الذين اعتادوا أن يناموا على الجانب الأيسر معرضين للأحلام المزعجة والكوابيس بنسبة أكبر كثيرًا 40.9% مقابل 14.6 % فقط من الذين ينامون على الجانب الأيمن وبالطبع هذه الدراسة تعاني من قصور إحصائي شديد لقلة عدد المتطوعين، لذا هناك دراسة أخرى بجامعة هونج شيو يان بهونج كونج في عام 2012 قد تكون أكثر دقة لأنها شملت 670 متطوعًا، ووجدت أن الأشخاص الذين ينامون بأوضاع منحنية يرون أحلام أكثر سعادة من الذين ينامون بأوضاع مستقيمة ويعلق أحد الباحثين القائمين على الدراسة أنه بالتأكيد لا يمكن إنكار تأثير المزاج والعوامل المحيطة على الأحلام لكن وضعية النوم كذلك مهمة للغاية برغم أن الدراسات لازالت محدودة بهذا الصدد لكن من المنطقي أن النوم بأوضاع محنية أفضل من الأوضاع المستقيمة لأن الأخيرة تجعل المخ متيقظ أكثر[1] .

لماذا نوم الإنسان يكون أكثر عمقًا وأقصر زمنًا من الكائنات الشبيهة به

من الأسئلة التي شغلت العلماء طويلاً هي طبيعة اختلاف نوم الإنسان عن الكائنات الأخرى حتى الأقرب شبهًا به مثل الثدييات ويعد الاختلاف الرئيسي بين نوم الإنسان والكائنات الأخرى هو قصر المدة الكلية وطول أطوار النوم الأعلى جودة وخاصة مرحلة حركة العين الخاطفة Rapid (Eye Movement) REM وهي نمط النوم الأفضل من مرحلة الغفوة وتبلغ معدلها عند الإنسان حوالي 25 % من مدة النوم الكلية أما عند حيوانات كالقرود والليمور تبلغ فقط 5 % من مدة النوم الكلية. ولكشف هذا الغموض قام علماء من جامعة دوك الأمريكية بجمع بيانات عن مئات الحيوانات الثديية من نحو 21 فصيلة مختلفة وبتحليل البيانات الدقيق تم التوصل لنموذج النوم الأمثل لكل فصيلة ووجد أن الإنسان قد طور النموذج الأمثل للنوم ما بين المدة الأقصر والأعلى جودة في حين أن قرد الشمبانزي الأكثر شبهًا بنا ينام في المتوسط 11 ساعة ليلاً وقد اقترح أحد الباحثين المتعاونين في الدراسة مسبقًا ويسمى ديفيد سامسون نتيجة لدراسته المطولة عن أنماط نوم أحد أنواع القرود المسماة إنسان الغاب (أورانجوتان) أن البشر طوروا نمط نومهم الحالي بسبب الانتقال من النوم من أعلى الأشجار إلى الأسرة المنخفضة حتى توصلنا إلى ما نعرفه النوم وكذلك اقترحوا أن الانسان قديمًا كان ما ينام لفترات أطول واضطر لتقصيرها تدريجيًا لمزيد من التعلم واكتساب المهارات وقد دعم هذه الفرضية دراسة لمجموعات من القبائل البدائية بتنزانيا وناميبيا الإفريقيتين وبوليفيا بأمريكا اللاتينية ووجد أن هذه القبائل تنام لفترات أطول من البشر العاديين[2] .

> قلة الحركة إلا أن دراسة حديثة من جامعة سيدني الأسترالية أكدت أن كثرة النوم بالإضافة لقلة الحركة نهارًا هو مزيج قاتل ويضاعف خطر الوفاة المبكرة بأربع أضعاف إحتماليات تعرض الأشخاص العاديين لها

كثرة النوم ليلاً قد تعني الوفاة المبكرة

برغم أن الكثير من التحذيرات تطلق حول مخاطر الكسل سواء متمثلاً في كثرة النوم أم قلة الحركة إلا أن دراسة حديثة من جامعة سيدني الأسترالية أكدت أن كثرة النوم بالإضافة لقلة الحركة نهارًا هو مزيج قاتل ويضاعف خطر الوفاة المبكرة بأربع أضعاف احتماليات تعرض الأشخاص العاديين لها. وتعد الدراسة هي الأولى من حيث دمج الخطرين ودراسة أثريهما بشكل دقيق على صحة الإنسان، وتعد الدراسة هي الدراسة الصحية الأوسع بجامعة سيدني حيث شملت 230 ألف شخص فوق سن 45 سنة وتحليل سلوكياتهم الضارة للصحة مثل التدخين وتناول الكحوليات والحميات الغذائية غير الصحية ونقص النشاط البدني وكثرة النوم أو قلته ودراسة الصلة بين هذه العادات والأمراض الخطيرة والوفاة. وتوصلت الدراسة

لماذا يختلف نوم الإنسان عن الثدييات الرئيسية وحتى القردة الأقرب شبهًا به ؟

وجد أن النوم الزائد عن تسع ساعات ليلاً حين يضاف إلى طول مدة الجلوس ما يزيد عن سبع ساعات يوميًّا وكذلك نقص الأنشطة البدنية يزيد خطر التعرض للأمراض الخطيرة كأمراض القلب والسكر والسرطان وقد يؤدي للوفاة المبكرة بأربع أضعاف الأنماط الغير صحية الأخرى ويقابله في الخطورة بنفس الاحتمالية التدخين مع تعاطي الكحوليات ونقص النوم عن سبع ساعات يوميًّا وهي نتيجة مرعبة بالطبع حيث قد يظن الكثيرين أن التدخين وتناول الكحوليات هما العادة الأخطر على الصحة. ويعلق البروفيسور أدريان بومان أحد المشاركين بالبحث أن بحثهم يوجه رسالة هامة لكل من الأطباء والقائمين على برامج الصحة العامة بضرورة زيادة التوعية حول مواجهة المخاطر الصحية مجتمعة بدلاً من كل على حده وكذلك أن الأمراض المزمنة الناتجة عن أنماط الحياة غير الصحية تقتل الملايين أكثر بكثير من الأمراض المعدية لذا بفهم العوامل المسببة لها يمكن أن نتصدى لها بشكل أفضل [3].

المصادر:

1-http://www.sciencealert.com/your-sleeping-position-can-affect-what-you-dream-about-more-than-you-think

2-https://www.sciencedaily.com/releases/2015151214130926/12/.html

3-http://www.asianscientist.com/201512//health/sydney-long-nights-lazy-days-send-early-grave/

كيف كانت الحياة قبل اكتشاف "الصفر"؟

تحكي لنا عالمة الرياضيات هنّا فراي القصة المحيرة وراء اكتشاف الصفر، ولماذا لن نستطيع التنبؤ بما سيحدث مستقبلًا من دون الصفر.

لا شيء يمثل صميم العلوم والهندسة والرياضيات، مثل الصفر بالطبع.

وقد أثار هذا الرقم القوي، رغم انعدام قيمته، جدلًا واسعًا وأدخل على النفس سرورًا أكثر من أي عدد آخر، وذلك لسبب واحد، أنه يمكننا من استشراف المستقبل.

لكن لكي ندرك مدى قوته ونفهم مبعث تلك القوة، علينا أن نفهم أولاً كيفية نشأته والمعارك التي خاضها. فالصفر لم يحظ بهذه المكانة إلا بشق الأنفس.

كان الصفر معروفًا منذ قديم الزمان، لكن كمفهوم وليس كعدد. فقد ظهر في كتابات الحضارة البابلية وحضارة المايا، إذ كان يستخدم لحساب انتهاء فصول السنة. كما استخدمه العلماء قديمًا ليرمز إلى عدم وجود عدد في إحدى الخانات، كما هو الحال عندما نضع صفرًا في العدد 101 أو 102، للدلالة على عدم وجود مضاعفات العدد 10 في الخانة الوسطى. وقد كان البابليون يرمزون للصفر بسهمين صغيرين مائلين.

ولكن على الرغم من روعة الرقم صفر، إلا أنه لم يُعترف به كعدد صحيح إلا بعد ألفين سنة، وكانت الهند أولى الدول التي اعترفت به.

يرى أليكس بيلوس، مؤلف كتب الرياضيات، أن الهند وفرت البيئة المثالية لظهور الصفر، ويقول معقبًا: «فكرة اللاشيء، الذي يمثل بذاته شيئًا، هي فكرة راسخة في الثقافة الهندية. لو تأملت مثلًا كلمة "نيرفانا" التي تعني حالة من اللاوجود أو العدم، حيث تتخلص من جميع مخاوفك ورغباتك. فلماذا لا يوجد رمز للدلالة على اللاشيء؟».

وأطلق الهنود على هذا الرمز اسم "شونيا"، وهي كلمة مازالت تستخدم اليوم لتعني اللاشيء كمفهوم، والصفر كعدد.

وعلى الرغم من أن جميع الأرقام الأخرى التي نستخدمها اليوم قد تغير شكلها تمامًا على مرّ التاريخ، فإن الصفر ظل محتفظًا بشكله الدائري. وقد كنت دومًا أتخيل أن الدائرة ما هي إلا ثقب، لا يمثل شيئًا.

ووفقًا للمذاهب الدينية الهندية، فإن الصفر مستدير لأنه يدل على دائرة الحياة، أو كما كان يعرف باسم "ثعبان الخلود (أوروبوروس)".

وعودة إلى الهند، حيث مهّد براهماغوبتا، عالم الفلك، الطريق لصعود الصفر إلى المجد في القرن السابع. وقد يستخدم شونيا (أو الصفر بالهندية)، في الرياضيات، للدلالة على انعدام العدد في إحدى الخانات، لئلا تترك هذه الخانة خالية فتختلط حينئذ الآحاد بالعشرات والمئات، فضلًا عن أنه قد يُستخدم في الحسابات، مثله مثل أي رقم آخر.

وعلى الرغم من أن الصفر قد يُضاف ويُطرح ويُضرب في غيره من الأرقام، إلا أنك قد تجد صعوبة في القسمة على الصفر. غير أن هذا التحدي بعينة كان بمثابة نواة لمجال

جديد رائع من الرياضيات، كما سنرى لاحقًا.

وبعد أن شاع استخدام الصفر في جنوب آسيا، وأصبح له مركزًا وطيدًا بين الأرقام، شقّ طريقه نحو الشرق الأوسط، حيث تلقفه العلماء في العالم الإسلامي وحظي بأهمية كبيرة، وشكل جزءًا من نظام العدّ العربي الذي نستخدمه اليوم، (يقول بعض المؤرخين إن الأدلة التي تثبت نشأة الصفر في الهند قد طمست من التاريخ، ومن الأحرى أن نطلق عليه، نظام العد الهندي- العربي).

ولكن بعد هذه البدايات الروحانية والفكرية الرائعة، واجه الصفر صراعًا حقيقيًّا. فقد تزامن انتقاله إلى أوروبا مع الحروب الصليبية على البلدان الإسلامية. وفي هذا الوقت، كانت كل الأفكار الواردة من العرب، حتى لو كانت في مجال الرياضيات، تُقابل بالتشكيك والارتياب من مختلف الطوائف.

وفي عام 1299، حُظر استخدام الصفر في فلورنسا، بإيطاليا، وحظرت معه كل الأرقام العربية، لأن هذه الأرقام، حسبما زعموا، ستؤدي إلى إشاعة الغش والتدليس بين الناس. فإن الصفر، بحسب قولهم، يسهل تعديله ليبدو كأنه الرقم تسعة، ثم ما الذي يمنع الناس من إضافة بضعة أصفار إلى الرقم الوارد في نهاية الإيصال لتضخيم السعر؟

والأدهى من ذلك، أنهم كانوا يرون أن الصفر سيؤسس لسلوك خطير، لأنه يمثل مدخلًا إلى الأرقام السلبية. وقد أضفت هذه الأرقام السلبية الصبغة الشرعية على مفهوم الديون والاقتراض.

لا شيء يبعث على الفخر

والعجيب أنه لم يُجز استخدام الصفر وسائر الأرقام العربية في أوروبا سوى في القرن الخامس عشر. علمًا بأن جامعة أكسفورد قد أقيمت في إنجلترا قبل قرون من إجازة الصفر والأرقام العربية، وكانت المطبعة التابعة لها تعمل بنشاط.

ومما لا شك فيه، أن جامعة أكسفورد والمطبعة التابعة لها قد ساهمتا في ازدهار فكرة استخدام الصفر في الرياضيات، ليمثل الركيزة الأساسية لبعض أفضل الأساليب العلمية والتكنولوجية التي نستعين بها اليوم.

يقول بعض المؤرخين إن الأدلة التي تثبت نشأة الصفر في الهند قد طمست من التاريخ، ومن الأحرى أن نطلق عليه، نظام العد الهندي- العربي

ومع حلول القرن السابع عشر، حقق الصفر إنجازًا جديدًا، حين أصبح أساسًا لنظام الإحداثيات الديكارتي (أي السين والصاد كما درستها في الرسم البياني في المدرسة)، الذي اخترعه الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت.

ومازال نظام الإحداثيات الديكارتي مستخدمًا في كل شيء من الهندسة إلى تصميمات الغرافيك.

وفي وصف رائع لقدوم الأرقام العربية، قال بيلوس: "أشعل قدوم نظام العدّ العربي، الذي يتضمن الصفر، إلى أوروبا، شرارة عصر النهضة، ليثري علم الحساب الباهت بالألوان المتعددة ويزيده بهاءً."

وقد زادت قوة الصفر إبان عصر النهضة، ليلهب حماسة

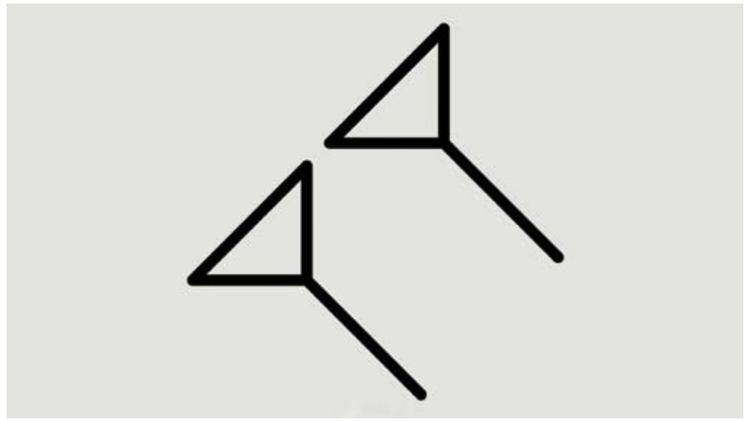

captionالرمز الذي كان يستخدمه البابليون للدلالة على عدم وجود عدد في إحدى الخانات

نظام العدّ العربي، الذي يتضمن الصفر، إلى أوروبا، شرارة عصر النهضة

محبي الرياضيات مرة أخرى. فقد ذكرت في البداية إشكالية القسمة على الصفر، وقد أضحت مسألة قسمة الصفر على الصفر، الأكثر إشكالًا، أساسًا لحساب التفاضل والتكامل، وهو أحد أفرع الحساب المحببة إلى نفسي.

يُعنى التفاضل والتكامل بحساب معدل التغير ويوفر لنا بعض الأساليب الفعالة للتنبؤ بما قد يحدث في المستقبل، بدءًا من انتشار الإيبولا إلى حركة أسواق الأسهم، فهو يعد أداة ناجعة بالفعل.

وإيجازًا، كيف يعمل التفاضل والتكامل؟ تخيل أنك ترسم رسمًا بيانيًّا لشيء يتغير مع مرور الوقت. لنقل مثلًا معدل تركيزك أثناء قراءة هذا المقال. فبما أن انتباهك قد يتشتت مع الوقت، ولا سيما في الجزء الخاص بالإحداثيات الديكارتية، فستجد الخط يتعرج يمينًا ويسارًا.

ولكن بتكبير الرسم البياني، ستجد أن كل جزء من المنحنى يبدو وكأنه خط مستقيم. وبتكبير الرسم أكثر فأكثر، إلى حد يسمح لك بتحليل الأجزاء متناهية الصغر من المنحنى، التي تقترب من حجم الصفر، ستجد أن كل العلاقات المتشابكة أصبحت خطوطًا مستقيمة ومهندمة، ويسهل التعامل معها رياضيًا.

ومن خلال التفاضل والتكامل، يمكنك أن تصف معدل تغير أي شيء يطرأ على بالك، من حركة أسواق الأسهم مع مرور الوقت إلى سرعة انتشار الدواء في مختلف أجزاء جسمنا. وبالطبع لولا الصفر، لما كنا تمكنا من قياس أي من هذا.

ولهذا فإن هذا العدد الأقوى والأكثر استدارة في التاريخ يستحق أن نحتفي به كما ينبغي.

المصدر: BBC

تصفح النسخة الكفية

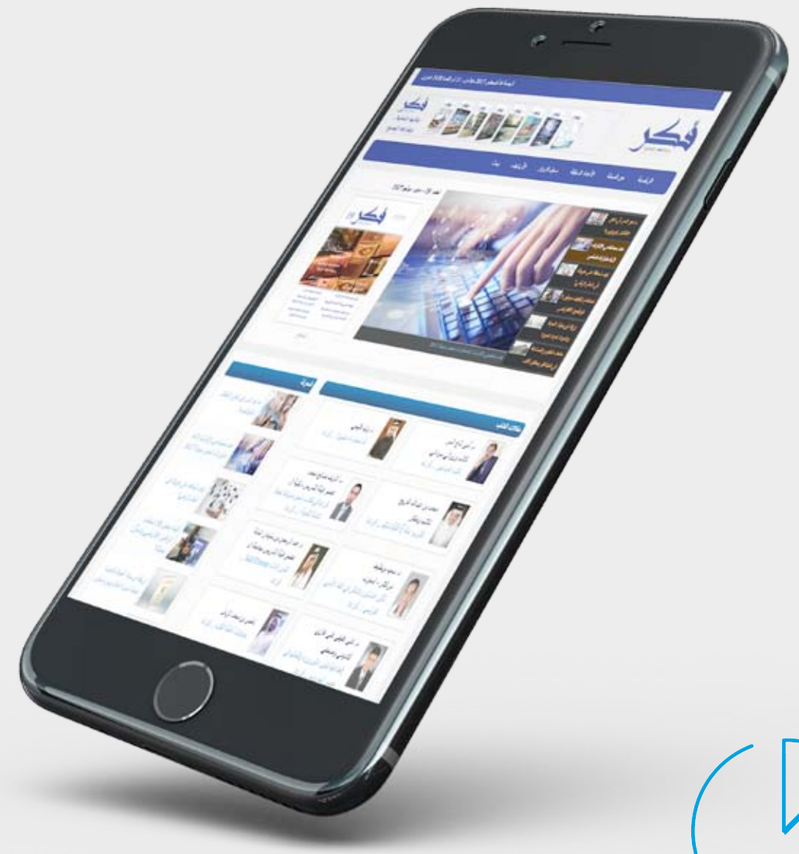

على مدار الساعة

الأخبار الثقافية والعلمية

من خلال المعرفة على موقع مجلة فكر الثقافية

www.fikrmag.com

فكر

مجلة العرب على امتداد خارطة العالم

www.fikrmag.com

للتواصل: fikrmag2@gmail.com